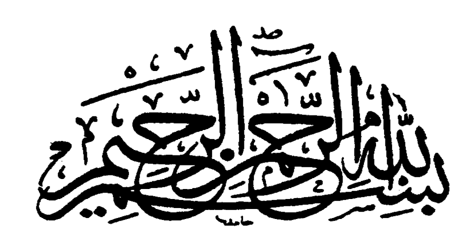
دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس

الأستاذ الدكتور
رضوان البارودي
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية التربية – كفر الشيخ
جامعة كفر الشيخ

2007

مركز الإسكندرية للكتاب
٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة – الأزاريطة
الإسكندرية – تليفون وفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨





مقدمـــة :

هذه مجموعة من الدراسات والأبحاث تتعلــق بتــاريخ وحــضارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي . وسوف يلاحظ القــارئ مــدى الترابط بين الموضوعات التي تتاولنه هذه الدراسات ولعل القاسم المشترك بينها هو التركيز على الجوانب الحضارية باعتبار أن التاريخ السياسي – برغم أهميته – لا يغني عن التعرض للجوانب التي تعكس مــدى التقــدم والتطور فى حياة الشعوب . وعلى الرغم من كثرة المؤلفات والدراســات التي كتبت عن تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، إلا أن هناك العديــد من الجوانب التي تحتاج إلى تسليط الضوء عليها وتحليل أحــداثها وفقــا لمنهج علمي سليم .

وتشمل هذه الدراسة على ستة أبحاث بعضها نــشر فــي مجــلات علمية محكمة والبعض الآخر نشر في كتيبات كنشرة خاصة . وتتنــاول الدراسة الأولى موضوع " سفارات متبادلة بين بني زيان ملوك تلمــسان ومملكة أراجوان " . ومن المعروف أن دولة بني زيان ظهرت إلى حيــز الوجود نتيجة لانهيار دولة الموحدين عقب كارثة العقــاب (١٥ صــفر ٦٠٩هــ / ١٦ يوليو ١٢١٢م) . وقامت هذه الدولة في منطقة المغــرب الأوسط وأتخذت من مدينة تلمسان عاصمة لها ، أما عن علاقاتهــا مــع مملكة أراجون (وهي إحدى الممالك النصرانية في شمال أسبانيا وتمثــل القوة الرئيسية الثانية في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد مملكة قشتالة) فهــذه العلاقة بدأت في مرحلة مبكرة من تاريخ دولة بني زيان ، وسوف نلاحظ أن المطلب الرئيسي للزيانيين هو طلب المساعدة العسكرية الأراجونيــة ، وخاصة الفرسان والجنود المرتزقة ، لمواجهة أعداء الدولة المحيطين بها سواء من الشرق (الحفصيين) أو من الغرب (المرينيين) .

كما كان موضوع العلاقات التجارية بين أراجون وبني زيان من الموضوعات التي تناولتها هذه السفارات ، خاصة وأن بني زيان اتجهوا بتجارتهم إلى داخل البلاد نظرا لقلة موانئ دولتهم المطلة على البحر المتوسط وضعف أسطولهم . وقد تمكنت من رصد ثمان سفارات متبادلة بين الدولتين وأول هذه السفارات كانت عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وآخرها كان عام ٧٣٠هـ/١٣٣٠م .

الدراسة الثانية تتناول " جزيرة جربة التونسية " وهي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري لهذه الجزيرة في العصر الإسلامي . وجزيرة جربة تقع في الجزء الجنوبي من مياه خليج قابس بالقرب من السواحل الليبية وهي تتبع ولاية أفريقية . ومن المعلوم أن المسلمين فتحوا هذه الجزيرة عام ٤٧هـ / ٦٦٧م على يد الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري . وقد دخل المذهب الأباضي الخارجي إلى جربة منذ وقت مبكر من تاريخها في العصر الإسلامي . وكانت جربة مسرحا لأحداث الخلاف بين فرقتي الوهبية والخلفية – وهما من فرق الخوارج الأباضية . وعقب استيلاء الفاطميين على أفريقية والمغرب الأوسط ، دخلت جربة في طاعتهم . بيد أن جربة خضعت للثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد وذلك عام ٩٤٢/٣٣١ ، لكنها عادت مرة أخرى إلى حوزة الفاطميين عقب القضاء على ثورة أبي يزيد .

وعقب رحيل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى مصر عام ٩٧١/٣٦١ بسط الزيريون سيطرتهم على جزيرة جربة فترة من الوقت ، واستخدموا الشدة لإخضاع أهل جربة الذين ثاروا ضد الحكم الزيري . ثم تعرضت جربة لغزو النورمان عام ١١٣٤/٥٢٩ وسقطت في أيديهم واستمرت تحت سيطرتهم حتى عام ١١٥٦/٥٥١ حينما تمكن الموحدون من طرد النورمان منها . واستمرت جربة خاضعة لحكم الموحدين ، ثم

استولى عليها الحفصيون ، بيد الجزيرة لم تلبث أن تعرضت لغزو خارجي من قبل الأرجوانيين حيث أوعز حاكم صقلية خايمي الصقلي (الذي سيتولى عرش أراجون بإسم خايمي الثاني) لقائد أسطوله روجير دي لوريا بغزو جربه . وقد حكمت أسرة دي لوريا جربه باسم التاج الأراجوني لمدة نصف قرن تقريبا ، حتى استعادها الحفصيون . وقد ظلت جربه تابعة لهم حتى تعرضت لحملة قوية من قبل ملك أراجون عام ١٤٣١/٨٣٥ . بيد أن هذه الحملة باءت بالفشل ، ولم يتمكن ألفونسو الخامس ملك أراجون من البقاء بها سوى سبعة وعشرين يوما ، عادت بعدها إلى السيطرة الحفصية .

وقد تناولت الدراسة أيضا بعض الجوانب الحضارية في جربه ، مثل الحديث عن سكانها سواء من العرب أو من البربر أو اليهود . أيضا تحدثت عن لغة أهل جربه الذين احتفظوا بلغتهم البربرية بجانب اللغة العربية . كما تناولت النشاط الاقتصادي لأهل جربه من صناعي وزراعي وتجاري . وأخيرا أشرت إلى الحياة الفكرية ، وأوضحت كيف كانت جربه من المراكز العلمية الهامة فيما يتعلق بعلوم المذهب الأباضي .

الدراسة الثالثة بعنوان " أضواء على المسيحية في المغرب في العصر الإسلامي " وتناولت في بدايتها الحديث عن دخول المسيحية إلى بلاد المغرب ورد فعل الإمبراطورية الرومانية إزاء اعتناق بعض أهل المغرب لهذه الديانة . ويلاحظ أن غالبية مسيحي المغرب اعتنقوا المذهب الأريوسي ، خاصة عندما تمكن الوندال من الاستيلاء على شمال أفريقيا . يلي ذلك الحديث عن أوضاع المسيحيين عقب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، حيث استعان المسلمون بالعديد من هذه العناصر المسيحية لخدمة أغراض الدولة ، مثل استعانة حسان بن النعمان بألف أسرة قبطية من أهل مصر للمساهمة في إنشاء دار الصناعة بتونس وصنع السفن

لمهارة هؤلاء الأقباط في هذا المجال . أيضا تناولت أماكن استقرار المسيحيين بالمغرب في أعقاب الفتح الإسلامي ووضعيتهم داخل الدولة باعتبارهم أهل ذمة . ويلاحظ أن أعداد المسيحيين في بلاد المغرب أخذت في التناقص ، بل ويذهب البعض إلى القول بأنهم قد تلاشوا تماما مع نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

ظهرت العناصر المسيحية مرة أخرى في بلاد المغرب أيام المرابطين والموحدين ، ولكن في صورة جند مرتزقة عملوا في خدمة جيوش هاتين الدولتين ، لكن يلاحظ أن هؤلاء لم يكونوا أهل ذمة ، بل كانوا أحرارا . وقد برزت عدة شخصيات مسيحية لعبت دورا بارزا في أحداث بلاد المغرب مثل شخصية القائد القطلاني الربرتير والفارس البرتغالي جيرالدو سمبافور .

وفي عصر الدولة الحفصية استمرت العناصر المسيحية في التواجد بأفريقية ، ونلاحظ كثرة عدد التجار النصارى ورجال الدين في العصر الحفصي ، كما نلمح في المصادر العربية والأجنبية تدخل حكام الممالك المسيحية لصالح رعاياهم خاصة التجار . حيث سمح لهم بإنشاء فنادق خاصة بهم وبناء كنائس صغيرة داخل تلك الفنادق ، كما اعترف الحفصيون بحق المسيحيين في الاحتفال بأعيادهم الدينية بكل حرية . بيد أن هناك ظاهرة استرعت الانتباه في العصر الحفصي وهي محاولة التبشير بالديانة المسيحية في شمال أفريقيا حيث ورد عدد من الفرق الدينية المسيحية في محاولة لنشر هذه الديانة بين المسلمين . وقد واجه الحفصيون هذه المحاولات بكل شدة وحزم .

الدراسة الرابعة بعنوان " التاريخ السياسي لمدينة سبتة منذ القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري " . في هذه الدراسة تحدثت عن موقع سبتة على مضيق جبل طارق وأهمية الموضع ، ثم

تناولت – وباختصار – تاريخ سبتة منذ خضوعها للمسلمين في نهاية القرن الأول للهجرة (الثامن الميلادي) حتى بداية القرن الرابع الهجري حينما أصبحت منطقة صراع بين أمويي الأندلس والفاطميين . وإن كان الأمويون تمكنوا من السيطرة عليها لإحكام قبضتهم على منطقة المضيق ودفع الخطر الفاطمي عن بلادهم .

وفي أثناء فترة ملوك الطوائف بالأندلس تمكن احد القادرة في سبتة من الاستيلاء عليها وهو سقوت البراغواطي ، الذي خاض معارك عنيفة مع بني عباد حكام أشبيلية بالأندلس وكذلك مع المرابطين بالمغرب الأقصى ، واستمر هذا الصراع حتى سقطت سبتة في أيدي المرابطين . وقد اكتسبت سبتة أهمية خاصة في عهد المرابطين باعتبارها الميناء الرئيسي لعبور القوات المرابطية إلى الأندلس للجهاد هناك . ولم يختلف الوضع السياسي والاستراتيجي لسبتة في عصر الموحدين عنه في عصر المرابطين ، حيث أحكم الموحدون قبضتهم عليها حتى نهاية دولتهم ، وإن كانت سبتة قد خرجت عن طاعتهم فترة من الوقت حينما استطاع أحد رجالها وهو الحاج أبو العباس أحمد بن محمد اليانشتي من تولي حكمها واستطاع أن يصد الهجوم العنيف الذي شنه الجنوية وذلك عام ٦٣٣هـ/١٢٣٤م . بيد أن سبتة لم تلبث في حوزته إلا قليلا حيث عادت لسيطرة الموحدين ثم انتقلت بعد ذلك لسيطر المرينيين .

الدراسة الخامسة بعنوان " بنو يفرن الزناتيون في بلاد المغرب والأندلس " . وفي هذه الدراسة أشرنا في البداية إلى انتساب اليفرنيين إلى زناته ثم أماكن استقرارهم في بلاد المغرب ومشاركتهم في أحداث بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي حتى تأسيسهم لإمارة مستقلة لهم مع بداية العصر العباسي الأول ، وتناولنا علاقة اليفرنيين بدولة بني رستم في المغرب الأوسط ثم مع الفاطميين الذين دخلوا في صراعات مع القوى

المغربية الموجودة في ذلك الوقت . وقد اضطر بنو يفرن إلى الدخول في طاعة الفاطميين لدرء خطرهم ، ولعبوا دورا بارزا في أحداث الصراع الأموي الفاطمي في القرن الرابع الهجري . كما تمكن اليفرنيون من إقامة إمارة لهم بمنطقة سلا بالمغرب الأقصى حيث خاض أميرهم أبو الكمال تميم حروبا عديدة ضد قبيلة برغواطه المارقة لدرجة أنه كان يغزوهم مرتين في العام ، ويعتبر ذلك جهاداً في سبيل نصرة الدين الحق . بيد أن إمارة سلا لم تلبث أن سقطت في إيدي المرابطين وذلك عام ٤٦٢هـ/١٠٧٠م .

أما عن دورهم في بلاد الأندلس ، فقد ناصر اليفرنيون الأمويين بالأندلس وعملوا منذ أيام الخليفة الأموي المستنصر في خدمة الأمويين الذين استعانوا بهم في حروبهم سواء ضد الفاطميين في المغرب أو في حروبهم ضد نصاري الشمال في أسبانيا . كما شارك اليفرنيون في أحداث الفتنة البربرية ، وانضموا إلى جانب الخليفة الأموي المستعين الذي كافأهم بأن أعطاهم كورة جيان مناصفة مع بني برزال . ثم استطاع اليفرنيون – عقب سقوط الدولة الأموية بالأندلس – من الاستقلال بمنطقة تاكرنا في جنوب الأندلس ، واتخذوا من مدينة رندة عاصمة لهم ، واستمروا يحكمونها حتى تمكن المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية من القضاء على هذه الإمارة عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م .

الدراسة السادسة بعنوان " الكوارث الطبيعية في الأندلس " . في هذه الدراسة أشرنا إلى طبيعة الكوارث الطبيعية بالأندلس وما تحدثه من آثار على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولعل انقطاع المطر والزلازل والبراكين والعواصف وانتشار الأوبئة والمجاعات من الكوارث التي ألمت بالأندلس وتركت آثارا عديدة في تاريخها ، وقد بلغ من شدة بعض هذه الكوارث أن أهل الأندلس صاروا يذكرونها في كتاباتهم لفترة

طويلة مثل انقطاع المطر والجفاف الذي حل بالأندلس عـــام ٢٦٠هــــ / ٨٧٤م حيث صار أهل الأندلس يضربون المثل بما حدث لهم هذا العــام ويقولون " سنة ستين " . وقد قمت برصد لكافة أنواع الكوارث الطبيعيـــة التي تعرضت لها الأندلس وحاولت إبراز كافة الآثار التي ترتبت عليها .

وفي الختام أرجو أن يكون هذا الكتاب عونا للدارسين والباحثين في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس وأن يسد فراغا بـسيطا فـــي المكتبـــة العربية .

والله ولي التوفيق ،،،

الإسكندرية ٢٠٠٧

أ.د. رضوان البارودي



المبحث الأول

سفارات متبادلـــة
بيــن بني زيان ملوك تلمسان ومملكة أرجوان
٦٤٨ — ٧٣٠هـ / ١٢٥٠ — ١٣٣٠ م



تمهيد ...

لقى الموحدون هزيمة قاسية فى معركة العقاب
Las Naves de Tolosa

(١٥ صفر عام ٦٠٩هـ/١٦ يوليو ١٢١٢م) على يد القوى النصرانية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ونتج عن هذه الهزيمة تفكك أوصال دولة الموحدين ، وضعفت سيطرتهم على بلادهم ، وانتهى الأمر بانهيار دولة الموحدين عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م . وقد ورث ملك الموحدين أربع دول : بنو الأحمر فى غرناطة بالأندلس — بنو مرين فى فاس والمغرب الأقصى — بنو حفص فى تونس وافريقيه — بنو عبد الواد فى تلمسان والمغرب الأوسط . ويهمنا من هذه الدول بصفة خاصة دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان . هذه الدولة تنتسب الى أبى زيان بن ثابت بن محمد من بنى طاع الله من قبيلة زناتة البترية [1] . وقد حاول بعض المؤرخين أرجاع نسب بنى عبد الواد الى أشراف العرب عن طريق الحسن بن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء المؤرخين محمد بن عبد الجليل التنسى صاحب كتاب « نظم الدرر والعقيان فى بيان شرف ملوك بنى زيان » [2] . ولكن المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون — والذى كان معاصرا لدولة بنى زيان — نفى مسألة انتساب بنى زيان الى العرب نفيا قاطعا ، ودلل على ذلك بعبارة قالها مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان حيث قال « ان كان هذا

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر - طبعة بولاق ١٢٨٤هـ . جـ٧ ص ٧٢ .

(٢) **J. J. Bargés : Histoire des Beni zeyan rois de Tlemcen, par L'Imam cidi Abou Abd Allah Mohammed Ibn Abd El-Djelyl El-Tenessy. Paris, 1852-pp 5-6.**

صحيحا (يقصد النسب النبوى الشريف) فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فنلناها بسيوفنا » [٣] .

مؤسس هذه الدولة — كما قلنا — هو الأمير أبو يحيى يغمراسن (ومعناها بالزناتية رئيس القوم) بن زيان ، حيث أعلن فى عام ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) استقلاله عن الموحدين ولكنه برغم ذلك ظل يدعو لهم تارة وللحفصيين خلفاء تونس تارة أخرى [٤] . وقد اتخذ يغمراسن من مدينة تلمسان عاصمة لدولته الناشئة . والواقع أن هذه الدولة قد واجهت منذ قيامها ضغوطا هائلة من قبل جيرانها : الحفصيين فى الشرق والمرينيين فى الغرب . ولذلك فمن الصعوبة بمكان أن نحدد بدقة حدود هذه الدولة ، لأنها كانت حدودا غير ثابتة ، وتضيق وتتسع تبعا لقوة أو ضعف جيرانها . ولكن يمكن القول أن حدودها كانت تمتد طولا من البحر المتوسط شمالا الى صحراء الجزائر جنوبا ، وعرضا من جبال سعيدة ووادى مينه شرقا الى وادى ملوية ومدينة وجده غربا [٥] .

ونتيجة لضغط القوى المغربية على دولة بنى زيان ، فقد عمد سلاطينها الى البحث عن حلفاء أقوياء من خارج شمال افريقيا ، ووجدوا

---

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٧٢ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٨٠ — ٨١ . كذلك انظر :
R. Brunshvic; Le Berbérie Orientale sous les Hafsides de origines a la fin due XVe siecle, paris. 1947 Tom. A, pp. 30-31. Terrasse : Histoire du Maroc. New York. 1975, Tom Lp. 355.

(٥) د. مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ١٩٦٨ . ص ١٩٧ .

بعيتهم فى دول شبه الجزيرة الأيبيرية وخاصة أراجون وغرناطة . وأصبح التحالف مع هاتين المملكتين سياسة ثابتة سار عليها سلاطين بنى زيان .

أما مملكة أراجون . فتمثل القوة المسيحية الثانية فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد قشتاله. وقد ظهرت هذه المملكة الى الوجود عقب وفاة الملك الأسبانى سانشو الكبـير عام ١٠٣٥م . وانقسام مملكته بـين أولاده الأربعة ، حيث كانت أراجون من نصيب ابنه راميرو Ramiro . وفى بداية الأمر كانت أراجون عبارة عن رقعة ضيقة من الأرض يحدها من الشمال مملكة قطلونية ونافار ، ومن الغرب مملكة قشتاله الناشئة ، ومن الجنوب أملاك المسلمين . بيد أن أراجون أخذت تتوسع شيئا فشيئا على حساب جيرانها سواء من المسلمين أو المسيحيين ، وما كاد القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) يوشك على الانصرام ، حتى كانت أراجون قد استولت على مملكة قطلونية وعلى الشطر الأكبر من أملاك المسلمين فى شرق الأندلس مثل : بلنسية — شـاطبه — جـزر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) .

وقد ساعد هذا الموقع الساحلى لمملكة أراجون على انتهاج سياسة بحرية نشطه فى البحر المتوسط عن طريق أسطول قوى .

واذا انتقلنا للحديث عن العلاقات الزيانية الأراجونية ، فيمكن القول أنها لم تكن قوية فى بداية الأمر ، نظرا لعدم وجود مصالح مشتركة بينها . فتلمسان يهمها بالدرجة الأولى المحافظة على أراضيها ضـد الأخطار الخارجية خاصة من ناحية جيرانها فى شمال افريقيا . كما أن تلمسان اتجهت بتجارتها الى الداخل ، أى الى وسط وغرب افريقيـا

ومنطقة الصحراء . ولذلك لم يكن لها حضور قوى فى تجارة البحر المتوسط [٦] .

أما أراجون فقد اهتمت بالتجارة والتوسع خارج شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكان لملوكها أطماع واضحة فى صقلية وجزيرتى سردانية وكورسيكا . ولذلك توثقت علاقات أراجون مع الحفصيين أصحاب تونس نظرا لقرب بلادهم من جنوب ايطاليا [٧] .

سفارتان متبادلتان خلال القرن السابع الهجرى (١٣م)

ويرجع تاريخ أول اتصال دبلوماسى بين بنى زيان وأراجون الى عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حينما بعث يغمراسن بن زيان — مؤسس دولة بنى زيان — سفارة الى برشلونة فى ٣٠ يونيو (٢٩ ربيع الأول) برئاسة شخص يسمى « أبو عمران موسى » يرافقه تاجر من برشلونة يسمى رامون دى بانيرس Ramon de Banyeres وقد تقابل سفراء بنى زيان مع ملك أراجون خايمى الأول الملقب بالفاتح Jaime I el conqcistador وعرضوا مطالب تلمسان ، وتتلخص فى طلب المساعدة بفرقه من الفرسان القطلانيين للعمل فى الجيوش الزيانية ، بالاضافة الى مناقشة بعض الأمور التجارية [٨] .

---

(٦) Charles E. Dufourcq : L' Espangne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siecles. paris, 1966.p.136.

(٧) A. M. De. Ros : La corona de Aragon Y los estados del norte de Africa, Barcelona, 1951, p. 201.

(٨) لم تشر المصادر العربية الى هذه السفارة ولا الى السفارات التالية . لذلك كان كل اعتمادنا على المصادر والوثائق الأراجونية، فضلا عن المراجع الأجنبية التى تحدثت عن هذه السفارات . وبالنسبة للسفارة التى بعثها يغمراسن الى خايمى الفاتح ، يمكن الرجوع لتفصيلاتها فى : =

ثم تحدثنا المصادر الأراجونية عن مبعوث أرسله خايمى الثـانى ملك أراجون الى تلمسان فى مايو ١٢٩٣م (جمـادى الثـانى ٦٩٢هـ) ويسمى بولوفينى الفاكين Boldovini Alfaquin فى محاولة لاقنـاع سلطان تلمسان أبى سعيد عثمان (حكم من ٦٨١ — ٧٠٣هـ=١٢٨٣ — ١٣٠٤م) لعقد معاهدة صداقة وتحالف مع أراجون [٩] . وقد عرض العاهل الزيانى عدة مقترحات لعقد هذه المعاهدة . ويفهم من نص خطاب بعثه الملك الأراجونى خايمى الثانى الى أبو سـعيد عثمان [١٠] ، أن خايمى الثانى له عدة ملاحظات على المقترحات الزيانية . فعلى سبيل المثال يتحدث الخطاب عن جزية سنوية طلبها خايمى الثـانى وقدرها بثلاثين ألف مثقال من الفضة [١١] . كذلك يشير الخطاب الى اعتـذار خايمى الثانى عن ارسال السفن الأراجونيه التى طلبها السلطان الزيانى أبو سعيد عثمان وذلك لسببين : الأول : حاجة أراجون لأسطولها فى ذلك الوقت . والثانى عدم تأكد الملك الأراجونى من صدق نوايا بنى زيان تجاه التحالف مع أراجون . كما يشير الخطاب أيضا الى مسألة استعداد الملك الأراجونى لارسال بضائع ومؤن للفرق المسيحية العاملة فى خدمة

= Miret y sans (J.). Un missatage de Y armssen de Tremcen a Jaume I . Boletin de la Real Academia de Buenas lettras de Barcelona, Tom IX, 1915.pp.95. Du fourcq. L'Espagne catalane, p.147.

(٩) Ch. Dufourcq : Les Espagnoles et le royaume de Tlemcen aux XIII• et XIV• sieles. Boltin de la Real Academia de Buenas lettras, Barcelona. 1948. Tom. XXI.p.59.

(١٠) الخطاب محفوظ بارشيف تاج اراجون تحت رقم ٢٥٢ ورقة ١٧ وثيقـة ٥٢ .

(١١) جاء فى لسان العرب ان وزن المثقال درهم وثلاثة أرباع الدرهم . والدرهم يعادل حاليا ٣ر١٢ جرام فيكون وزن المثقال حوالى ٥ر٤ جرام تقريبـا .

بنى زيان، وكذلك فقد طلب خايمى الثانى تعيين القائد رودريجو سانشيز دى بيرجايس Rodrigo Sanchez de Vergayc قائدا للقوات النصرانية العاملة فى تلمسان .

والواقع أن الفقرة الأخيرة من هذا الخطاب والمتعلقة بمسألة الفرقة المسيحية العاملة فى جيش الزيانيين تثير لدينا ملاحظة هامة — فهى تعنى أن هذه الفرقة كانت تعمل فى خدمة الزيانيين وقت تحرير الخطاب (الخطاب مؤرخ بعام ١٢٩٥م/٦٩٤هـ) . ولكن من ناحية أخرى تذكر مصادرنا العربية أن بنى عبد الواد قد امتنعوا عن استخدام النصارى فى جيوشهم عندما اكتشف السلطان يغمراسن بن زيان المؤامرة التى دبرها هؤلاء النصارى لاغتياله عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) . وقد أطاح يغمراسن بهم وقتلهم جميعا . وتضيف هذه المصادر أنه منذ ذلك الوقت لم يستخدم بنو عبد الواد هذه العناصر فى جيوشهم . ولكن هذا الخطاب وغيره من الخطابات التالية — كما سنرى — يوضح لنا عدم صحة ما ورد فى المصادر العربية . فقد ظلت الفرق المسيحية تعمل فى خدمة الزيانيين فتر طويلة . وأنها — وفقا لنص هذا الخطاب — كانت عنصرا قويا فى تلمسان ، وان كانت لا تحظى بالقبول من أهل تلمسان كما ذكر ديفورك [١٢] . هذا ومن الجدير بالذكر أن بنى زيان لم ينفردوا باستخدام النصارى فى جيوشهم ، فقد عمل هؤلاء النصارى عند المرينيين والحفصيين كأحد الفرق العاملة فى جيوشهم ، ومن قبل عملوا عند الموحدين والمرابطين [١٣] .

---

(١٢) Dufourcq : Les Espagnoles : p.87.

(١٣) انظر : يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، نشره وترجمه الى الفرنسية الفرد بل الجزائر ١٩٠٣ . جـ١ ص١١٤ — ١١٥ — ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب . نشره د. احمد مختار العبادى . القاهرة ١٩٦٧ . ص ٢٣٠ — ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٨٤ ، ص ٣٥٠ .

سفارة زيانية الى اراجون عام ٧١٣هـ (١٣١٣م)

لم تحدث أية اتصالات بين بنى زيان وأراجون منذ انتهاء سفارة ٦٩٣هـ وحتى عام ٧١٣هـ ، نتيجة لظروف الصراع العنيف فى منطقة جبل طارق بين بنى مرين ودول أسبانيا فى ذلك الوقت : أراجون — قشتاله — غرناطة . فقد حدث أن استولى بنو الأحمر سلاطين غرناطة على ثغر سبته التابع لبنى مرين فى شوال عام ٧٠٥هـ (مايو ١٣٠٦م) . وفشلت محاولات المرينيين لاستعادة هذا الثغر الهام . واضطر السلطان المرينى أبو الربيع سليمان (٧٠٨ — ٧١٠هـ = ١٣٠٨ — ١٣١٠م) الى التحالف مع كل من قشتاله وأراجون ضد غرناطة لاجبارها على التخلى عن ثغر سبته . وبالطبع لم تقف غرناطة مكتوفة الأيدى أمام هذا التحالف ، فطلبت من الزيانيين مساعدتهم فى ضرب هذا التحالف ، وذلك عن طريق قيام الزيانيين بشن هجمات عسكرية على الحدود الشرقية لدولة بنى مرين بغية تخفيف الضغط المرينى على غرناطة [١٤] .

ولكن بنى زيان لم يتمكنوا من تقديم المساعدة اللازمة لبنى الأحمر نظرا لانشغالهم بأمورهم الداخلية ولاحجامهم عن الدخول فى مواجهة عسكرية مع بنى مرين عقب الضربات المتتالية التى وجهها هؤلاء لهم

---

(١٤) عند أحداث سبته فى هذه الفترة راجع : ابن خلدون : العبر ج٧ ص٢٢٩ — ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية . نشر محيى الدين الخطيب : القاهرة ١٣٤٧م ص ٥٨ — د. مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس : الاسكندريه ١٩٦٨م ، ص ٤٠٨ انظر أيضا :

Angel Canellas : Aragon y la empresa del estrecho en el siglo XIV, Zaragoza, 1940.p.17.

خاصة أثناء الحصار الكبير لتلمسان والذى استمر نحو سبع سنوات[15] (من ٦٩٨ ـ ٧٠٦هـ = ١٢٩٩ ـ ١٣٠٧م) .

أما عن الظروف والملابسات التى أحاطت بهذه السفارة ، فقد حدث أن استولى بنو زيان على جزائر بنى مزغنه (مدينة الجزائر الحالية) عام ٧١٢هـ (١٣١٢م) والتى كانت تابعة لأمير بجاية الحفصى . واضطر صاحب بجاية أن يستأجر بعض السفن الأراجونية ليستخدمها فى الصراع ضد الزيانيين . وبالفعل وصلت هذه السفن الى بجاية[16] . وبالطبع اعتبر بنو زيان تدخل أراجون الى جانب الحفصيين عملا عدائيا ضدهم. ولكن ذلك لم يحل دون ارسال السلطان الزيانى أبى حمو موسى الأول (حكم من ٧٠٧ ـ ٧١٨هـ = ١٣٠٨ ـ ١٣١٨م) سفارة الى ملك أراجون طالبا تأجير بعض السفن الأراجونية ، لأن أبا حمو كان يعلم تماما أن خايمى الثانى ملك أراجون لايهتم الا بتأجير سفنه لمن يدفع أكثر .

وتبدأ أحداث هذه السفارة فى مايو عام ١٣١٣م (محرم ٧١٣هـ)

---

(١٥) عن أحداث الحصار الكبير لتلمسان راجع : ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٢٢١ ـ يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ١ ص١٢٥ ـ ابن القنفذ القسنطينى : أنس الفقير وعز الحقير ، نشر محمد الفاسى وادولف فور . الرباط ١٩٦٥ ص ٧٠ .
H. Terrasse : Histoire du Maroc, Tom.2 p.p. 43-44.

(١٦) كان السلطان الحفصى ابو البقاء خالد بن أبى زكريا قد عقد معاهدة سلام وتحالف مع خايمى الثانى عام ٧٠٩هـ (١٣٠٩م) وبموجب هذه المعاهدة كان على أراجون تقديم العون العسكرى للحفصيين فى حالة تعرضهم للعدوان ـ راجع نص المعاهدة فى :
Capmany : Memorias sobre le marina comercio y artes de la antiguciudad de Barcelona, Madrid- 1779. 1792. Vol IV. p.p.39-41.

حينما بعث السلطان أبو حمو موسى الزيانى أحد القطلانيين العاملين فى تلمسان ويسمى رامون بونز Ramon Boter الى برشلونة ليعرض على الملك الأراجونى عقد معاهدة تحالف وسلام بين الدولتين ، ويفهم من المصادر الأراجونية أن خايمى الثانى قد وافق على ارسال ست سفن مجهزة تجهيزا مناسبا ، ويعمل عليها بحارة أراجونيين لتعمل فى خدمة الزيانيين لمدة عام . ويمكن أن تمتد فترة عمل هذه السفن أكثر من العام طالما كانت تلمسان تؤدى قيمة ايجار هذه السفن . ولكن خايمى الثانى اشترط على السلطان الزيانى ألا تشترك هذه السفن فى الهجوم على الثغور الغرناطية نظرا لارتباط أراجون مع بنى الأحمر بمعاهدة صداقة وتحالف . ومن جانبه تعهد خايمى الثانى بعدم تقديم المساعدات الحربية للحفصيين . كما وافق على ارسال شحنة من الأخشاب كان السلطان الزيانى قد طلبها لعمل ثمانين مجداف .

أما عن المبلغ الذى اتفق عليه كايجار لهذه السفن فهو ثلاثون ألف دينار ، يدفع منهم عشرة آلاف دينار عند وصول مبعوث من تلمسان الى برشلونة أو بلنسيه ليشرف على عملية تجهيز السفن ، وباقى المبلغ يسلم للمبعوث الأراجونى الذى سيرافق هذه السفن حتى تصل الى أحد الموانى الزيانية (١٧) .

بيد أن الملك الأراجونى لم يف بتعهده الخاص بعدم مساعدة الحفصيين عسكريا ضد بنى زيان ، فقد تمكن السلطان الحفصى أبو يحيى زكريا (٧١١ — ٧١٧هـ = ١٣١١ — ١٣١٧م) بفضل المساعدات

(١٧) De Ros : La corona de Aragon : p.204.

الأراجونية من الحاق الهزيمـــة بأســـطول الزيانيين وذلك عام ٧١٥هـ (١٣١٥م) [١٨] .

وإذا حاولنا أن نفسر هذا التناقض فى سلوك خايمى الثانى ، فيمكن القول بأن الملك الأراجونى ربما قد تعاطف مـــع ملك قشتاله فرناندو الرابع Fernande IV الذى استاء كثيرا من موقف تلمسان المؤيد لغرناطة ، فضلا عن أن قشتاله كانت مرتبطة بمعاهدة صداقة وتحالف مع الحفصيين فى ذلك الوقت . أو ربما يكون الملك الأراجونى أراد أن يطبق نصوص معاهدة قلعة عبد السلام [١٩] Alcala de Henares والتى سبق أن عقـــدها مع الملك القشـــتالى عام ١٣٠٩م ، ومن أهم أهداف المعاهدة القضاء على مسلمى الأندلس وحلفاؤهم من خارج شبه الجزيره الأيبيرية . ولذلك عمد خايمى الثانى الى مساعدة بجاية فى صراعهـا ضد تلمسان كى يحول دون قيام حكام تلمسان بتقديم أية مساعدات لبنى الأحمر ملوك غرناطة [٢٠] . أما دى روس فتبرر تصرف خايمى الثانى السالف بالقول أن الظروف هى التى أملت عليه هذا الموقف ، لأنه أراد الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الحفصيين القريبين من صقلية ومن جزيرتى سردانية وكورسيكا ، وكما سبق القول كانت لخايمى الثانى أطماع فى هذه المناطق [٢١] .

---

(١٨) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ٣٢٧ .

(١٩) قلعة عبد السلام احدى اعمال الثغر الادنى قرب وادى الحجارة Guadaljara وتقع هذه القلعة شمال مدريد حاليا .

(٢٠) عن المساعدات التى كان بنو زيان يقدمونها لبنى الأحمر راجع: احمد دهينه : مساعدة الزيانيين لمسلمى الأندلس . مجلة تاريخ وحضارة المغرب . يناير ١٩٧٦ . الجزائر عدد رقم ١٣ .

(٢١) De Ros : Op.Cit.p 205.

فى أعقاب المؤامرة التى دبرها الأمير الزيانى أبو تاشفين عبد الرحمن ضد أبيه السلطان أبى حمو موسى الأول ، تمكن أبو تاشفين من اعتلاء عرش الزيانيين فى جمادى الأول عام ٧١٨هـ (يوليو ١٣١٨م) (٢٢) .
وكانت العلاقات بين أراجون وتلمسان قد تحسنت كثيرا فى أواخر أيام السلطان أبى حمو ، حيث تذكر المصادر الأراجونية أن خايمى الثانى استقبل كل من قائد الفرقة المسيحية العاملة فى تلمسان ويسمى فليب دى موبا Felipe de Mova والكاتب العام لهذه الفرقة خايمى ثيربتخى Jaime Cervitge ، حيث أبلغاه رسالة شفوية من سلطان بنى زيان تتعلق بطلب عقد معاهدة صداقة وسلام بين الدولتين . وتضيف هذه المصادر أن الملك الأراجونى قد بعث بمقترحاته الى أبى حمو ، وتتلخص هذه المقترحات فى الآتى :

حرية التجارة لرعايا الدولتين — ضرورة أن تؤدى تلمسان جزية سنوية تقدر بعشرين ألف دينار — موافقة أراجون على تأجير بعض سفنها لتلمسان — حق سفن الأسطول الأراجونى أن تأخذ مؤنتها من الموانىء الزيانية فى حالة اذا ما اشتركت فى حرب ضد مملكة غرناطة(٢٣) .
وكان من الممكن أن تسفر المفاوضات بين الطرفين عن توقيع معاهدة بينها ، الا أن المؤامرة التى أطاحت بأبى حمو قد أرجأت ذلك .

---

(٢٢) عن أحداث هذه المؤامرة التى انتهت باعتلاء ابى تاشفين العرش الزيانى . راجع : يحيى بن خلدون : بغية الرواد . جـ١ ص ١٣١ — ابن خلدون : العبر جـ٧ ص١٠٤ وما بعدها ، ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة . نشر محمد عبد الله عنان جـ٤ ص٣١٨ .

(٢٣) Gimenez Soler : Caballeros Espanoles en Africa. Revue Hispanique, T.12 et 16. Paris 1905-1907 p.297.

وفى عهد السلطان أبى تاشفين (٧١٨ — ٧٣٧هـ = ١٣١٨ — ١٣٣٧م) ازداد التقارب الأرجوانى الزيانى ، ويدل على ذلك تلك السفارات المتكررة بين المملكتين فى فترة وجيزة نسبيا . فقد تبودلت أربع سفارات فى الفترة من ٧١٩هـ حتى عام ٧٣٠ هـ. وسنحاول فى الصفحات التالية القاء مزيد من الضوء على هذه السفارات .

السفارة الأولى تمت عام ٧١٩هـ وهى امتداد للمفاوضات التى بدأت فى أواخر أيام السلطان أبى حمو . فقد وصل الى تلمسان اثنان من القادة الأرجوانيين وهما : برناردو ديسبيوج Bernardo Despuig وبرناردو زابيلا Bernarde Zapila يحملان معهما رسالة من خايمى الثانى الى أبى تاشفين مؤرخة فى ٢٤ أبريل ١٣١٩م (٣ ربيع الثانى ٧١٩هـ)[٢٤] . وقد اشتملت هذه الرسالة على النقاط التى سيتناولها السفراء بالبحث مع الزيانيين وهذه النقاط هى :

(١) النقطة الأولى تتعلق بالمطلب التقليدى لبنى زيان وهو تأجير بعض السفن الحربية الأراجونية وذلك بغية الانتقام من خصومهم الألداء ، بنى حفص .

---

(٢٤) هذه الرسالة توجد منها نسخة محفوظة فى ارشيف تاج اراجون . مجموعة خايمى الثانى المتعلق بالفترة من ١٣١٠ حتى ١٣١٨م . ورقة رقم ٣٦٠ . وقد نشر نص هذه الرسالة كل من Capmany فى كتابه Memorias historicas الجزء الرابع . المجموعة الدبلوماسية من ص ٦٧ حتى ص ٦٩ وكذلك

De Mas Latrie : Traites de paix et de commerce divers concernant Les relations de chretiens avec les Arabe de L'Afrique Septentrionale au moyen age, paris 1860- Tom . 1.p.312.

(٢) النقطة الثـانية تتعـلق بالنواحى الاقتصادية ، حيث طلبت أراجون اعطاء الضمانات الكافية لتجارها لمزاولة عملياتهم التجارية فى الأراضى التلمسانية بكل حرية وأمان .

وفى المقابل تعهد الملك الأراجونى بأن يؤدى هؤلاء التجار الضرائب المقررة على البضائع[٢٥] . كما يتعهد خايمى الثانى أيضـا بتقـديم ضمانات مماثلة لتجار تلمسان الذين يرغبون فى الحضور الى الأراضى الأراجونية . كذلك طلب خايمى الثانى أن تعيد السلطات الزيانية أوضاع الجمارك الى ما كانت عليه من قبل . ويفهم من ذلك أن بنى زيان قد أحدثوا تغيرات فى هذه الأوضاع لم تكن فى صالح الأراجونيين .

(٣) النقطة الثالثة : تتعلق بموضـوع الجزية التى يطلبهـا ملك أراجون من بنى زيان . وقد قدرها هذه المرة بمبلغ عشرة آلاف دينار سنويا . وهذه المسألة بالذات سبق أن عرضها خايمى الثانى عدة مرات على سلاطين بنى زيان . وكان يبرر طلبه للجزية بأن السلطان الزيانى يغمراسن بن زيان كان قد تعهد بدفع هذه الجزية لخايمى الأول . وقد تعرض نفر من الباحثين لهذه المسألة بالتعليق . فقد ذكر الأستاذ ديفورك أن المبررات التى ساقها خايمى الثانى لاثبات أحقيته فى مبلغ الجزية لا تتفق مع المنطق أو الواقع . لأن السلطان الزيانى يغمراسن لم يكن من تلك النوعية من الحكام التى تقبل دفع الجزية أو حتى مجرد الوعد بدفعها نظرا لشدته وقوته . كما أنه لا يعقل أن يقـوم خايمى الأول

---

(٢٥) جرت العادة ان تفرض ضريبة مقدارها عشر قيمة البضائع (١٠٪). انظـر :

Figueras : **presencia de Espana en berberia central y oriental, Madrid, 1943.p.50.**

بعقد معاهدة تتضمن بنودها دفع جزية مع حاكم لا يلتزم بتعهداته ، هذا اذا افترضنا أصلا أن بندا مثل هذا قد وضع فى معاهدة مع يغمراسن ، وأن هذا الأخير قد قبل به [٢٦] • وتؤيد دى روس ما ذهب اليه ديفورك وتضيف أن قبول دفع جزية يعنى الخضوع أو التبعية ، ولم يحدث أن أعلن يغمراسن خضوعه أو تبعيته لأراجون ، ولم تذكر المصادر سواء العربية أو الأراجونية شيئا من هذا القبيل [٢٧] • أما لماذا أصر خايمى الثانى على طلب الجزية ، فيبدو أنه اعتبر أن تأجير سفنه لبنى زيان ، وتقديم مساعدة عسكرية لهم ، عملا يستوجب الخضوع له ودفع جزية سنوية مقابل ذلك •

وكيفما كان الأمر ، فان طلب الجزية لم يكن من المطالب الهامة التى تمسك بها سفراء أراجون • فقد اقترن هذا الطلب بطلب آخر يعد أكثر أهمية من وجهة نظر أراجون وهو الأسرى الأراجونيين لدى تلمسان [٢٨] • فقد علق خايمى الثانى موافقته على المعاهدة المقترحة

---

(٢٦) Dufourcq : Les Espangnoles, p. 47, et p. 75.

(٢٧) De Ros : Op.Cit. p.205.

(٢٨) لم تشر المصادر التى بين ايدينا عن مصدر هؤلاء الأسرى ، حيث لم نسمع عن وقوع معارك مباشرة بين اراجون وبنى زيان • ويبدو ان هؤلاء الأسرى الذين تطالب اراجون باطلاق سراحهم قد وقعوا فى ايدى الزيانيين خلال عمليات القراصنة البحرية التى كانت سائدة فى حوض البحر المتوسط فى ذلك الوقت او انهم من الجنود الأراجونيين العاملين فى خدمة بنى حفص وبنى مرين وسقطوا فى قبضة الزيانيين اثناء المعارك التى نشبت بين هذه الدول المغربية • ومما هو معلوم ان جيوش دول المغرب الثلاث كانت تضم بين صفوفها عناصر مسيحية مرتزقة ، وغالبية هذه العناصر من رعايا اراجون •

باطلاق سراح هؤلاء الأسرى • وذكر السفراء أنه اذا أطلقت تلمسان سراح جميع الأسرى الأراجونيين أو حتى ثلاثمائة منهم ، فان أراجون على استعداد لتوقيع معاهدة صداقة وتحالف مدتها عشر سنوات • ولاثبات حسن النوايا ، لابد أن تطلق تلمسان سراح خمسين أسيرا على الأقل خلال عامين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، أما باقى الأسرى فيطلق سراحهم خلال فترة سريان المعاهدة ، مع التعهد بدفع الفدية اللازمة لهؤلاء الأسرى • أما التجار الذين قبض عليهم أثناء فترة حكم السلطان أبى حمو فيجب — وفقا لطلب أراجون — أن يعودوا فورا الى أراجون ومعهم بضائعهم التى سبق أن صادرتها السلطات التلمسانية • وفى حالة عدم تمكن تلمسان من دفع الجزية التى طلبها خايمى الثانى ، فان هذا الأخير يقتنع بألفى دينار مع تسليمه كافة الأسرى (٢٩) •

نقطة أخيرة تعرضت لها رسالة خايمى الثانى ، وتتعلق بالفرقة العسكرية المسيحية العاملة فى خدمة بنى زيان ، حيث عرض العاهل الأراجونى موافقته على بقاء هذه الفرقة بتلمسان كنوع من التعاون العسكرى بين الدولتين •

على أية حال ، لم تشر الوثائق التى تحت أيدينا ، ولا المصادر المختلفة الى معاهدة وقعت بين الطرفين ، وقد دعى ذلك بعض الباحثين الى القول بأن هذه السفارة لم يكن لها أية نتائج ايجابية (٣٠) • ولكن يمكن أن نستشف من نص خطاب أرسله السلطان الزيانى أبو تاشفين عبد الرحمن الى خايمى الثانى ملك أراجون ، أن السلطان الزيانى اتخذ

(٢٩) Capmany : Memorias, Tom IV,p. 67-Mas Latrie : Traites de paix, T 1.p.180-De Ros : Op.Cit.p.207.

(٣٠) Dufourq : Les Espagnoles, p.90.

سلسلة من الاجراءات لاطلاق سراح عدد من الأسرى المسيحيين بتلمسان (٣١) . يقول السلطان أبو تاشفين :

« وما أشرتم اليه من تسريح جميع من عندنا من الأسارى فذلك ما لا يمكن أن يكون ، وكما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح من عندكم من أسارى المسلمين » . وفى موضع آخر من الخطاب نطالع الفقرة التالية « ... ولو طلبتم ما يستغنى عنه الحال فى تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم وقضينا أربكم ... فان أردتم الصداقة بيننا وبينكم فى ماعدا الأسارى ، وتكون حالنا وحالكم واحد فى ما نحتاج أو تحتاجون اليه من قضاء الحوائج التى تمكن من سرحة أو غيرها ، فنحن نعمل ان شاء الله على ذلك ونسلك فى مودتكم وصداقتكم أنهج المسالك » .

وفى خطاب آخر موجه من الحاجب هلال بن عبد الله (٣٢) الى

---

(٣١) نشر الاركون ولناريس نص هذا الخطاب فى كتابهما :
Los doeumentas Arabls diplomaticos del archivo de la corona de Aragon, Madrid-Granada 1940. carta 91,p.194.

(٣٢) هذا الحاجب كان من أصل قطلانى . ولد فى غرناطة وتربى عند بنى الأحمر ، وقد أهداه السلطان الغرناطى محمد الثانى المعروف بالفقيه (٦٧١ — ٧٠١هـ = ١٢٧٢ — ١٣٠٢م) الى عثمان الأول ابن يغمراسن ، ثم صار الى أبى حمو الأول فأعطاه الى أبى تاشفين . وقد شارك هلال سلطانه أبا تاشفين فى المؤامرة التى اطاحت بالسلطان ابى حمو . ولقد عينه أبو تاشفين وزيرا وحاجبا له . وقد انتهت حياة هذا الحاجب فى السجن عام ٧٢٩هـ — ١٣٢٩م بعد أن غضب عليه السلطان أبو تاشفين . راجع ابن خلدون : العبر ج٧ ص١١٤ . يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج١ ص ١٣١ . وكذلك انظر الترجمة الفرنسية ص١٨٩ هامش ١٠٤ انظر أيضا :
Defouncq : Les Espgnoles : p.76 et sig.

خايمى الثانى مؤرخ فى بداية صفر عام ٧٢٣هـ (٩ فبراير ١٣٢٣م) .
اشارة الى استعداد تلمسان لاطلاق سراح عدد من الأسرى الأراجونيين.
يقول الحاجب هلال : « ... وموجه اليكم اعلامكم بوصـــول كتابكم
وعلمنا ما ذكرتم فيه . وأنتم تطلبون مننا أربعة وعشرين نصرانى متاع
جوان منول Juan Manuel ونحن نعرفكم أنكم اذا أردتم صلح
مولانا أيده الله ، فنحن نعطوكم الأربعة وعشرين نصرانى الذين طلبتم
متاع جوان منول . ونعطوكم أيضا زيادة عليهم ثلاثين نصرانى من بلادكم
من الدى نعطوكم نحن باختيارنا دون أن تعينوا لنا أنتم أحدا » (٣٣) .

أما عن سبب رفض السلطان الزيانى اطلاق سراح جميع الأسرى
المسيحيين أو حتى قسما منهم ، فان خطاب أبى تاشفين السالف يعطى
لنـــا تفســـيرا لذلك ، حيث يقـــول « لأن تعلمون أن ما عمـــر بلادنا
الا الأسارى ، وأكثرهم صناع م فننون فى جميع الصناع .. أما تسريح
الجميع فصعب الآن ، ذلك يخلى المواضع ويعطل ما يحتاج اليه من أنواع
الصنايع » .

ويفهم من النص السابق أن هؤلاء الأسرى الأراجونيين يعملون
كصناع مهرة فى دولة بنى زيان ، وأن الزيانيين يعتمدون عليهم كثيرا
فى بعض الصناعات ، ولذلك فان ارجاعهم لأراجون يشكل ضررا كبيرا
على حركة البناء والتعمير التى امتاز بها عصر السلطان أبى تاشـــفين .
ومما يؤكد ذلك ما ذكره مؤرخ دولة بنى زيان يحيى بن خلدون عنـــد
حديثه عن هذا السلطان حيث يقول :

« وكان (أبو تاشفين) رحمه الله جانحا الى اللذات ممتعا بالنعيم

---

(٣٣) Alarcon y Linares : Op.Cit.carta 88.p.179.

العاجل مغتبطا بلهو الدنيا ونعيمها . .لع ببناء الدور وتجيير القصور وتشييد المصانع واغتراس المتنزهات مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعنة أسرى الروم من نجارين وزلاجين وزواقين وغير ذلك » [٣٤] ٠

وبالاضافة الى مسألة ارجاع عدد من الأسرى الى أراجون ، فقد اتخذت خطوات أخرى فيما يتعلق بازالة العوائق التى تحول دون عودة حركة التجـــارة بين البلدين الى ما كانت عليه ٠ ففى وثيقـــة محفوظة بأرشيف تاج أراجون [٣٥] ومؤرخة فى ١٨ يناير عام ١٣٢٠م (ذو الحجة ٧١٩هـ) ، نقرأ تعليمات صادرة من الملك الأراجونى خايمى الثانى الى أحد قضاته ويسمى لورنزوسيما Lorenzo Cima يأمره بسرعة التوجه الى تلمسان لحل المشاكل التجـــارية المعلقة بين البـــلدين ٠ وبرغم أن الوثيقة السابقة لم توضح لنا طبيعة هذه المشاكل ، الا أن أرسال أحد القضاء يوحى بأن هذه المشـــاكل تتعـــلق بمخالفات ارتكبهـــا تجـــار الدولتين [٣٦] ٠ ومما يؤيد ذلك أن هناك وثيقة أخرى [٣٧] مؤرخة فى ١١ مارس من نفس العام (صفر ٧٢٠هـ) تشير الى توصل الدولتين الى اتفاق حول هذه المخالفات ، وبمقتضى هذا الاتفاق تنازلت ســـلطات بلنسية عن ادعاءتها حيال التجار التلمسانيين ٠ وبالمثل تنازلت تلمسان عن ادعاءتها حيال التجار الأراجونيين ، ولكن بعـــد أن حصـــلت على غرامة مقدارها ١٧ ألف ريال بلنسى ٠ وقد اتفق على أن يسدد هذا المبلغ منذ تاريخ الاتفاق (١١ مارس) وحتى نهاية شهر يوليو من نفس

---

(٣٤) يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ١ ص١٣٤ ٠

(٣٥) تحت رقم تسجيل ٢٤٥ ورقة ٢٤٦ ، وثيقة رقم ١٥٦ ٠

(٣٦) De Ros : Op.Cit.p.208.

(٣٧) تحت رقم تسجيل ٢١٧ ورقة ٢٨٦ وثيقة ١٥٧ ٠

الحام . كما تضمنت الوثيقة فقرة تشير الى أن هذا العفو من قبل تلمسان لا يشمل المخالفات المتعلقة بالأشياء المحرمة أو بمعنى آخر المخالفة للشريعة الاسلامية (٣٨) .

سفارة اراجونية الى تلمسان عام ٧٢٥هـ (١٣٢٥م)

ازدادت القوة العسكرية للحفصيين نتيجة للمساعدات القيمة التى قدمها كل من حكام قشتاله وفاس لهم . وبدأ السلطان الحفصى أبو يحيى أبو بكر (٧١٨ — ٧٤٧هـ = ١٣١٨ — ١٣٤٧م) يفكر فى توحيد افريقيه (أى اتحاد مملكتى تونس وبجاية) . وبالطبع اصطدم ببنى عبد الواد جيرانه الغربيين . وقد دارت عدة معارك بين الجانبين كان أغلبها فى صالح الحفصيين (٣٩) . لذلك أدرك الزيانيون أنهم فى حاجة ماسة الى المساعدات الخارجية خاصة فى مجال البحر لوقف الزحف الحفصى على ممتلكاتهم . ولم يجد أبو تاشفين بدا من التماس هذه المساعدات من جانب أراجون . وقد خدمته الظروف فى ذلك ، اذ أن علاقة خايمى الثانى بالحفصيين كانت فى منتهى السوء ، نظرا لرفض الخليفة الحفصى تسديد باقى ايجار السفن الأراجونية التى سبق أن اشتركت فى الحرب

(٣٨) علقت دى روس على هذه الفترة من الخطاب بالقول بأن هذه هى المرة الأولى التى تصادفنا عبارة بضائع مخالفة للشريعة الاسلاميه فى العلاقات التجارية مع بلد اسلامى باستثناء مصر . ويبدو أن هذه البضائع التى جلبها التجار القطلانيون الى تلمسان اشتملت على الخمور ولحوم الخنزير ، لذلك صادرت السلطات الزيانية هذه البضائع والقت القبض على التجار الاراجونيين . راجع :
De Ros : Op. Cit.p.208.

(٣٩) عن أحداث الصراع بين الحفصيين والزيانيين فى هذه الفترة راجع : يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ١ ص١٣٥ وما بعدها — ابن خلدون : العبر جـ٧ ص١٠٧ — ١٠٩ .

ضد تلمسان . ومن ناحية أخرى كان خايمى يجهز لحملة كبرى لغزو جزيرتى سردانية وكوريسكا ، وخشى من مضايقة الحفصيين له ، فعمل على الوقوف الى جوار بنى زيان حتى يشغل الحفصيين عن التعرض لمشاريعه .

وتبدأ أحداث هذه السفارة بوصول خايمى الأراجونى Jaime de Aragon (ابن غير شرعى للملك الأراجونى خايمى الثانى) الى تلمسان حاملا معه رسالة مؤرخة فى ١٥ مارس ١٣٢٥م (٢٨ ربيع الأول ٧٢٥هـ) اشتملت على عدة بنود لمعاهدة سلام وصداقة بين المملكتين [٤٠] . وهذه البنود — كما عرضها السفير الأراجونى — كانت كالآتى :

١ — يشترط الملك الأراجونى للتوقيع على المعاهدة أن تلتزم تلمسان باطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين من رعايا أراجون .

٢ — يتعهد الملك الأراجونى بتقديم ١٥ سفينة حربية الى بنى زيان لاستخدامها فى حصار بجاية ، وتعمل هذه السفن لمدة أربعة أشهر .

٣ — ايجار هذه السفن ثلاثون ألف دينار ، بواقع ألفى دينار لكل سفينة .

---

(٤٠) توجد نسخة من هذه الرسالة محفوظة بأرشيف تاج اراجون تحت = رقم ٣٣٩ ورقة ١٧٨ وثيقة ١٦١ — كما نشر خيمنيث سولير نص هذه الرسالة فى مقالة :
Episodios de la historia de las relaciones entro la corona de Aragon y Tunez, Anuarie de la Institut d' Estadis, Catalans Barcelona,1907.

٤ — طلب خايمى الثانى مبلغ ستة آلاف دينار كجزية سنوية وذلك لتغطية نفقات حملته على جزيرتى كورسيكا وسردانية .

٥ — طلب الملك الأراجونى أن يكون من حقه تعيين قائد الفرقة العسكرية المسيحية العاملة فى تلمسان ، لأن هذا القائد سيحمل شعار الملك الأراجونى ، واقترح خايمى الثانى تعيين ابنه خايمى الأراجونى قائدا لهذه الفرقة .

٦ — عرض خايمى الثانى الطلب الذى تقدم به قنصل أراجون فى تلمسان والخاص بضرورة تحديد الفندق الذى سيأوى اليه البحارة القطلانيين الذين يترددون بصفة مستمرة على موانىء تلمسان .

٧ — طلب خايمى الثانى تعيين قاض أراجونى مهمته الفصل فى المنازعات التى تنشأ بين الأراجونيين ، ولا يخضع هذا القاضى الى أية سلطة قضائية الا ما يحدده السلطان الزيانى .

٨ — اقترح خايمى الثانى أنه فى حالة رفض تلمسان دفع الجزية ، فانه يمكن أن يقبل تخفيض المبلغ الى ثلاثة آلاف دينار فقط ، كذلك يخفض المبلغ الذى سيحصل عليه من الزيانيين فى حالة وقوع بجاية فى قبضتهم من مائتى ألف دينار الى مائة ألف دينار فقط .

٩ — اشترط خايمى الثانى أن تكون مدة المعاهدة خمس سنوات .

وقد تفاوض خايمى الأراجونى مع المسئولين الزيانيين ، ثم عاد الى أراجون حاملا معه وجهة نظر تلمسان ازاء المقترحات الأراجونية . وتتلخص وجهة النظر تلك فى الآتى :

١ — بالنسبة للأسرى فان تلمسان على استعداد لاطلاق سراح ثلاثين

او أربعين أسيرا فقط عند التوقيع على المعاهدة . أما باقى الأسرى فيطلق سراحهم عند الاستيلاء على بجاية .

٢ — قبل السلطان الزيانى دفع مبلغ ألفى دينـــار كايجـــار للسفينة الواحدة من الحجم الكبير . أما السفن الصغرى فلن يدفع أكثر من ألف وخمسمائة دينار . كما وافق على المدة المقترحة لايجـــار هذه السفن وهى أربعة أشهر . وقد طلب أبو تاشفين أن ترسل أراجون عددا من السفن يتراوح ما بين خمس عشرة سفينة وعشرين سفينة مجهزة تجهيزا طيبا .

٣ — رفض السلطان أبو تاشفين فكرة دفع جزية ســـنوية لأراجون ، واقترح تقديم مبلغ ١٪ من اجمالى حصيلة الضرائب التى تفرض على التجار الأجنبية كمساعدة لأراجون .

٤ — عرض السلطان أبو تاشفين تقديم مبلغ مائة ألف دينار فقـــط فى حالة الاستيلاء على بجاية . وقد ذكر أبو تاشفين أن دفع هذا المبلغ سيعرضه لسخط المسلمين .

٥ — وافق أبو تاشفين على المطلب الخاص بحق الملك الأراجونى تعيين قائد الفرقة المسيحية العاملة فى تلمسان ، كما وافق على الأسماء التى اقترحها خايمى الثانى . ولكنه اشترط أن يتم كل ذلك عقب الاستيلاء على بجاية .

٦ — طلب أبو تاشفين أن يوقع الملك الأراجونى على المعاهدة بخاتمه ، وأن ترسل اليه المعاهدة خلال شهر جمادى الثـــانى عام ٧٢٥هـ (يونيو ١٣٢٥م) ليوقعها هو الآخر .

وبرغم أن نقاط الخلاف بين الدولتين — كما هو واضح — تبدو طفيفة ، الا أنه لم توقع معاهدة بينهما . ويعزو سولير السبب فى ذلك الى قصر المدة التى حددها أبو تاشفين للتوقيع على المعاهدة (نهـــاية يونيو ١٣٢٥) (٤١) . أما شارل ديفورك فقد قدم تبريرا يبدو لنا مقبولا، فقد افترض أن البابوية لها دخل فى عدم التوقيع على هذه المعاهدة ، وبنى افتراضه على خطاب موجه من السفير الأراجونى لدى الكرسى الرســـولى Santa Seda ويدعى برناردو بوكسادوس Bernarde de Boxados الى الملك خايمى الثانى ، فى هذا الخطاب اشارة الى أن البابا جون الثانى والعشرين Juan XXII أبدى قلقه الشديد من سياسة أراجون البحرية وخاصة ما يتعلق منها بعلاقة خايمى الثـــانى مع المسلمين . ويشير السفير الأراجونى الى أنه اضطر الى الادعاء كذب بأن السفن التى أعدها خايمى الثانى كانت متوجهة الى سردانية ، وأن مليكه سيحصل من صاحب تلمسان على مائة ألف دينار فى حالة وقوع بجاية فى قبضته ، فضلا عن جزية سنوية مقدارها خمسة عشر ألف دينـــار .

وقد استنتج ديفورك من هذا الخطاب أنه من المحتمل جدا أن يكون البابا اقد رسم معالم الاتفاقات الأراجونية مع الممالك الاســـلامية فى شمال افريقيا (٤٢) .

أما دى روس فترى من جهتهـــا أن المبعوث الأراجونى لتلمسان خايمى الأراجونى له دخل كبير فى عدم التوقيع على المعاهدة . لأن

(٤١) G.Soler. Caballeros Espanoles, p.330.

(٤٢) Dufourcq : Les Espagnoles : p.86.

خايمى الأراجونى كانت له أطماع فى عرش أراجون • وقد خشى الملك خايمى الثانى على أبنه الشرعى الأمير الفونسو (سيتولى العرش فيما بعد باسم الفونسو الرابع) من أطماع أخيه ، لذلك عول على ابعاد ابنه خايمى عن أراجون عن طريق تعيينه قائدا للفرقة المسيحية العاملة بتلمسان • وقد فهم خايمى الأراجونى نوايا والده ، فعول على المماطلة فى حمل الزيانيين للتوقيع على المعاهدة حتى يمكنه العودة الى أراجون ويترك بلاد المغرب (٤٣) •

وكيفما كان الأمر ، فسواء كان السبب فى عدم توقيع المعاهدة يرجع الى أحد هذه الأسباب أو اليها جميعها ، فان ذلك لم يؤد الى قطع الاتصالات والسفارات بين الدولتين ، بل عادت من جديد بعد عامين من هذه السفارة •

سفارة زيانية الى اراجون عام ٧٢٧هـ (١٣٢٧م)

لم يحل فشل السفارة السابقة فى التوصل الى اتفاق بين الدولتين دون استمرار تبادل السفارات فيما بينهما • والواقع أن حاجة كل منهما للآخر كانت شديدة • فتلمسان كانت فى حاجة ماسة للسفن الأراجونية لمواجهة الحفصيين ، حيث اشتد الصراع بينهم وبين بنى زيان • ويذكر يحيى بن خلدون (٤٤) أن عرب افريقيه استنجدوا بالسلطان أبى تاشفين لمعاونتهم ضد السلطان الحفصى أبى يحيى أبى بكر • وقد صادفت هذه الدعوة هوى فى نفس أبى تاشفين ، فسير قسما من جيشه الى تونس لحصارها • وأضطر السلطان الحفصى الى مغادرة

(٤٣) De Ros : Op. Cit.p.214.

(٤٤) يحيى بن خلودن : بغية الرواد : جـ١ ص١٣٧ •

عاصمته الى مدينة قسنطينة للاحتماء بها • وقد حاصرته الجيوش الزيانيه فترة من الوقت ولكنها لم تظفر منه بطائل ، فعادت أدراجها الى تلمسان وذلك عام ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) •

وفى العام التالى (٧٢٦هـ) عاودت القوات الزيانية هجومها على قسنطينة ثم تركتها وحاصرت مدينة بجاية حصارا شديدا • ويبدو أن الزيانيين قد عقدوا العزم على الاستيلاء على بجاية ، فقد أنشأوا بوادى بجاية مدينة تسمى تامز يزدكت لكى تكون معسكرا دائما للجيوش الزيانية المحاصرة لبجاية [٤٥] • والواقع أن مدينة بجاية كانت محصنة تحصينا قويا ، ولم يكن من السهل الاستيلاء عليها • فقد ذكر صاحب الاستبصار أنها تقع بين جبال شامخة تحيط بها ، والبحر يحيط بها من ثلاث جهات : الشرق — الغرب — الجنوب • أما الشمال فيحيط به جبل مسيف [٤٦] • ويلزم لمن يريد الاستيلاء عليها محاصرتها بحرا بالاضافة الى الحصار البرى • ولذلك لم يجد السلطان أبو تاشفين بدا من الاستعانة بالأساطيل الأراجونية للقيام بهذه المهمة •

أما خايمى الثانى ، فان حملاته المتكررة على سردانية وكورسيكا كانت تكلفه الشىء الكثير • وفى هذا الوقت كان يعد العدة لحملة كبرى لغزو هاتين الجزيرتين ، وأسند قيادتها لابنه الأمير الفونسو [٤٧] •

---

(٤٥) نفس المصدر جا ص١٣٨ •

(٤٦) الاستبصار فى عجائب الامصار لمؤلف مجهول . نشر د. سعد زغلول عبد الحميد . الاسكندرية ١٩٥٨ ص١٢٩ — ١٣٠ كذلك انظر : الحميرى : الروض المعطار فى خبر الاقطار . نشر د. احسان عباس • بيروت ١٩٧٥ . مادة بجاية ص ٨٠ — ٨٢ .

(٤٧) Duforcq : Op. Cit.p.86.

ولكن ذلك لم يمنعه من التفاوض مع الزيانيين ليؤجر لهم بعض سفنه . لأن أراجون كانت تمتلك أسطولا كبيرا ، ولن يضيرها أن تؤجر بعضه منه للسلطان الزيانى طالما سيؤدى هذا الأخير قيمة الايجار . ويمكن لخايمى الثانى فى هذه الحالة أن يستفيد من قيمة هذا الايجار فى تغطية نفقات حملته المقبلة . وفى سبيل ذلك غض خايمى الثانى الطرف عن تعليمات البابوية الخاصة بالتعامل مع المسلمين .

تبدأ أحداث هذه السفارة بخطاب مؤرخ فى ١٧ رجب عام ٧٢٧هـ — ٨ يونيو ١٣٢٧م) بعث به السلطان أبو تاشفين الى خايمى الثانى يخبره بتوجه السفارة الزيانية الى أراجون . وقد تكونت هذه السفارة — وفقا لنص الخطاب — من الشيخ أبى يعقوب يوسف بن الحوراء وخايمى الأراجونى [٤٨] . كما أرسل الحاجب هلال أيضا رسالة الى خايمى الثانى تحمل نفس المعنى [٤٩] . وقد وصل السفيران الى مدينة لقنت Alicante على الساحل الشرقى للأندلس فى بداية يوليو عام ١٣٢٧م (رمضان ٧٢٥هـ) . وقد بعث خايمى الأراجونى رسالة الى والده يخبره بوصوله ، كما أطلعه على المقترحات الزيانية . وفى الرابع عشر من يوليو من نفس العام ، بعث الملك الأراجونى خايمى الثانى الى ابنه غير الشرعى رسالة يخطره فيها استلامه لخطابه ، وأنه يعد الرد المناسب على المقترحات التى بعث له بها . كما أخبره أيضا أن الأمير الفونسو هو الذى سيتولى التفاوض مع السفير الزيانى ، ويساعده مستشاره القضائى لورنزوثيما . أما القرار النهائى بشأن التوقيع على المعاهدة فسيكون للملك الأراجونى نفسه . كذلك فقد ذكر خايمى الثانى لابنه

(٤٨) راجع نص الخطاب فى :
Alarcon y Linares : Op. Cit. carta 89, p.p.180.

(٤٩) Alarcon y Linares : Op. Cit. carta 90,p.182.

أن هناك بعض العقبات التى تحول دون وصول الأمـــير الفونسو فى الوقت الحالى للاجتماع بالسفير الزيانى ، وأن على هذا الأخير الانتظار بعض الوقت [٥٠] .

أما المقترحات الزيانية هذه المرة فكانت كالآتى :

١ — البنود الثلاثة الأولى تتعلق بمسألة تأجير السـفن الأراجونية لتشترك فى حصار بجاية . وقد طلب أبو تاشفين عشرين سفينه مجهزة تجهيزا حسنا ، تعمل لمدة أربعة أشهر فى خدمة بنى زيان. وقد عرض أبو تاشفين ألفى دينار كايجار لكل سفينة واقترح دفع نصف المبلغ عند التوقيع على المعاهدة ، والنصف الباقى عنـد انتهاء مدة عمل هذه السفن .

٢ — البندان الرابع والخامس يشيران الى أنه اذا هزم الأسـطول الأرجونى أمام أسطول الحفصيين ، فان سلطان تلمسان يحتفظ لنفسه بحق التصرف مع القادة الأراجونيين ، بل ومعاقبتهم بما يراه مناسبا .

٣ — البند السادس يشير الى أنه فى حالة عدم حاجة تلمسان للسفن الأراجونية ، فلا داعى لتوقيع المعاهدة بين الدولتين .

٤ — البند السابع وفيه يعرض السلطان أبو تاشفين دفع مبلغ يعادل ١٪ من حصـيلة الضرائب المفروضـة على التجـارة الأجنبية بتلمسان كمساعدة لأراجون .

---

(٥٠) راجـع نص الخطاب المحفوظ بأرشـيف تاج اراجون تحت رقـم تسجيل ٢٥٠ ورقة ٢/٤٣ . كذلك فقد أورد خيمنث سولير نص هذا الخطاب فى مقاله : Caballeros Espanoles ص ٣٣٩ .

٥ ــ البند الثامن : وقد طلب أبو تاشفين أن تبقى السفن الأراجونية في خدمة تلمسان حتى يتم الاستيلاء على بجاية ، ولو استغرق ذلك فترة أطول من المدة المتفق عليها (أربعة أشهر) • ويبدى العاهل الزيانى استعداده لدفع ايجار هذه السفن عن الفـــترة الاضافية بواقع ألفى دينار لكل سفينة •

٦ ــ البند التاسع وفيه يعرض أبو تاشفين تعيين قنصل لأراجون في تلمسان يكون له اختصاصات قضائية بالنسبة للتجار القطلانيين• واقترح أن يكون القنصل هو نفس الشخص الذى يتولى قيادة الفرقة المسيحية العاملة في تلمسان • وطرح أبو تاشفين اســـم خايمى الأراجونى ليشغل منصبى القائد والقنصل •

٧ ــ البند العاشر ويتعلق بمسألة توزيع الغنائم اذا ما وقعت بعض سفن الحفصيين في قبضة الزيانيين ، وقد عرض أبو تاشفين أن تحصل أراجون على نصـــف متـــاع هذه السفن • أما الســـفن ذاتها والنصف الباقى من المتـــاع فيؤول لتلمسان • وبالنسبة للأسرى من أطقـــم هذه الســـفن فيوزعون بين الدولتين تبعـــ لديانتهم •

٨ ــ البند الحادى عشر ويتعلق بفرقة الفرسان المسيحية العاملة في تلمسان ، حيث اقترح أبو تاشفين أن ترسل هذه الفـــرقة الى تلمسان على متن سفينين : الأولى بقيادة خايمى الأراجونى ، والثانية بقيادة القائد الميورقى استورس Esturc •

٩ ــ البند الثانى عشر : وفيه يعرض السلطان الزيانى اطلاق سراح

ثلاثين أسيرا أراجونيا بشرط أن يكونوا من غير العاملين فى خدمه الحفصيين .

١٠ — البند الثالث عشر : يعرض أبو تاشفين مبلغ مائة ألف دينار على أراجون اذا وفت بتعداتها ، واشتركت البحرية الأراجونية فى عملية الاستيلاء على بجاية .

١١ — البند الرابع عشر : اقترح أبو تاشفين أن تكون مدة المعاهدة عشر سنوات (٥١) .

وقد أبلغت هذه المقترحات الى الأمير الفونسو ، وبعد مفاوضات مع السفير الزيانى ، رد عليه بالآتى :

١ — بالنسبة للبنود الثلاثة الأولى وافق الأمير الفونسو على عدد السفن الذى اقترحه أبو تاشفين ، بل وعرض أنه فى حالة رغبة العاهل الزيانى الحصول على عدد أكثر من ذلك فعليه أن يعطيه تفويضا ليستأجر له ما يريد من بلاد أخرى . كما وافق على المدة المقترحة .

أما بالنسبة لطريقة دفع ايجار هذه السفن ، فقد رفض الأمير الفونسو ما عرضه أبو تاشفين ، وذكر أنه اذا قبل الاقتراح الزيانى فانه لن يتمكن من تسليح السفن بالعتاد المناسب واشترط أن تبدأ المدة

(٥١) أوردت دى روس فحوى هذه المقترحات : وقد قمنا بترجمتها عن الأسبانية حيث لم نعثر على النسخة العربية لهذا الخطاب ، كما لم يرد فى مجموعة الوثائق العربية المحفوظة فى ارشيف تاج أراجون والتى نشرها كل من الاركون وليناريس . انظر :
De Ros : Op.Cit.pp216-218.

المحددة للايجار منذ الشروع فى تجهيز السفن لكى تعمل فى خدمة تلمسان .

٢ — فيما يتعلق بالبندين الرابع والخامس فقد ذكر الأمير الفونسو أن قيادة الأسطول الأراجونى لن تدخل معركة خاسرة ، واذا حدث ما يتخوف منه السلطان الزيانى فان اللوم فى هذه الحالة يقع على الملك الأراجونى نفسه .

٣ — وبالنسبة للبند السادس فقد وافق الأمير الفونسو على ما اقترحه الجانب الزيانى .

٤ — وفيما يختص بالبند السابع فقد ذكر الأمير الفونسو أنه يقبل العرض الزيانى، ولكنه ألمح أنه كان قد طلب قرضا يفوق نسبة الـ ١ التى عرضها أبو تاشفين . واقترح الفونسو أن تشمل النسبة السالفة ليس فقط ما يتحصل من ضرائب فى الموانىء التلمسانية ، ولكن كل ما يسقط فى أيدى الزيانيين من مدن موانىء وخاصة بجاية وتونس خلال فترة سريان المعاهدة [٥٢] .

٥ — أما البند الثامن فقد وافق الفونسو على ما جاء به من حيث بقاء

---

(٥٢) ذكرت دى روس ان كلمة « تونس » اضيفت الى رد الامير الفونسو بواسطة الملك الاراجونى خايمى الثانى . واشارت الى انه من المحتمل ان يكون ما فعله خايمى الثانى مجاملة منه لتلمسان وارضاء لغرورها . او ربما يقف الحظ الى جانب بنى زيان فى صراعهم ضد الحفصيين وتسقط بجاية وتونس فى ايديهم . وفى هذه الحالة سيكون من حق الملك الأراجونى الحصول على نسبته ن الضرائب التى ستفرض على تجارة تونس . راجع :
De Ros : Op. Cit.p.216.

السفن الأراجونية فى خدمة بنى زيان حتى يتم الاستيلاء على مدينة بجاية .

٦ — كما وافق كذلك على ما جاء فى البندين التاسع والعاشر .

٧ — وفيما يختص بالبند الحادى عشر فقد وافق الأمير الفونسو على الشق الأول من الاقتراح الزيانى ، أما الشق الثانى والخاص بأن يتولى كل من خايمى الأراجونى والقائد استورس قيادة السفن التى ستنقل فرقة الفرسان الأراجونية من برشلونة الى وهران أو هنين ، فقد رفضه تماما . وأوضح أنه لا ينبغى أن يوضع خايمى الأراجونى فى مستوى مساو لمستوى القائد استورس ، ولذلك فهو يطلب أن تكون القيادة كلها فى يد أخيه ، فى حين يعمل القائد استورس تحت امرته .

٨ — أما البند الثانى عشر والخاص بالأسرى المسيحيين ، فقد قبل الفونسو العدد الذى اقترحه أبو تاشفين ، ولكنه أشار الى أن أراجون كانت تطمع فى تخليص كافة رعاياها الذين فى الأسر لدى تلمسان ، ولذلك فهو يأمل أن تطلق تلمسان سراح هؤلاء الأسرى عقب الاستيلاء على بجاية .

٩ — أما ما يتعلق بالبند الثالث عشر فقد أوضح الأمير الفونسو أن المبلغ الذى عرضه السلطان الزيانى ضئيل ، ولذلك فهو يقترح مضاعفة هذا المبلغ على الأقل .

١٠ — أما البند الرابع عشر والأخير والخاص بمدة المعاهدة فقد لقى قبولا من الأمير الفونسو .

هذه الردود السالفة أرسلت الى ابى تاشفين فى رسالة مؤرخة فى ٢٣

أغسطس ١٣٢٧م (شوال ٧٢٧هـ) . وقد أوضح الملك الأراجونى لنظيره الزيانى فى هذه الرسالة ، أنه فوض ابنه خايمى الأراجونى ومستشاره لورنزوثيما مهمة استكمال المفاوضات حول البنود التى لم يتم التوصل الى اتفاق بشأنها ، كما أخطره أن سفير تلمسان أبا يعقوب يوسف بن الحوراء سيعود معهما الى تلمسان (٥٣) . وقد طلب خايمى الثانى من السفير الزيانى ابلاغ سلطانه أنه فى حالة التوصل الى اتفاق ، فان عليه ارسال المبلغ المتفق عليه كايجار للسفن على وجه السرعة حتى يمكن البدء فى تجهيز هذه السفن . كذلك فقد سلمه قائمة بأسماء الأسرى من رعايا أراجون المطلوب اطلاق سراحهم (٥٤) .

وبالنظر الى الردود السالفة ، نلاحظ أن خايمى الثانى قد خفف كثيرا من شروطه لعقد معاهدة سلام وتحالف مع تلمسان ، وذلك بالقياس الى ما كان يطلبه فى الماضى . فعلى سبيل المثال وافق على مبلغ ألفى دينار كايجار للسفينة الواحدة وهو نفس المبلغ الذى اقترحه أبو تاشفين . كذلك لم يتشدد كثيرا فى مسألة الأسرى ، حيث قنع بالعدد الذى اقترحته تلمسان . أيضا قبل خايمى الثانى المبلغ الذى عرضه أبو تاشفين فى حالة الاستيلاء على بجاية وهو مائة ألف دينار (٥٥) . كذلك لم يشر من قريب أو بعيد الى مسألة ضرورة أن تؤدى تلمسان جزية سنوية لأراجون .

---

(٥٣) نص هذا الخطاب محفوظ فى ارشيف تاج اراجون تحت رقم تسجيل ٤١٠ ورقة ٢٠٧ .

(٥٤) أوردت دى روس قائمة بأسماء هؤلاء الاسرى اعتمادا على الوثيقة رقم ٤٧٣ المحفوظة بارشيف تاج اراجون صندوق رقم ٨٧ (مجموعة خايمى الثانى) . راجع :
De Ros : Op. Cit. p.218 nota 42.

(٥٥) كان خايمى الثانى قد طلب مائتى الف دينار خلال سفارة ٧٢٥هـ (١٣٢٥ م) .

وقد برر الأستاذ ديفورك هذا التساهل من قبل خايمى الثانى بالقول بأن العاهل الأراجونى سبق أن تعرض لخدعة من جانب صاحب بجايه الحفصى ، حيث رفض هذا الأخير تسديد باقى ايجار السفن الأراجونية التى سبق أن استأجرها لتشترك فى الحرب ضد تلمسان • ولذلك لم يغال فى مطالبـــه حتى يتمكن الســـلطان الزيانى من الوفاء بالتزاماته التى ستفرضها عليه المعاهدة المقترحة (٥٦) • ويمكن أن نضيف الى ما ذكره ديفورك أن مشروعات خايمى الثـــانى التوسعية خارج شـــبه الجزيرة الأيبيرية وخاصة فى سردانية وكورسيكا ، كانت تحتاج الى أموال طائلة وبصورة عاجلة ، لذلك فقد قبل مبالغ تقل كثيرا عما كان يطلبه فى الماضى حتى يحصل على هذه الأموال بسرعة •

على أية حال ، وصل خايمى الأراجونى والمستشار القضائى ثيما والسفير الزيانى الى تلمسان ، وبدأت المفاوضات من جديد • وتتهـــم المصادر الأراجونية خايمى بأنه تهاون فى هذه المفاوضات ولم يحفـــل باطلاق سراح أكبر عدد من الأسرى المسيحيين ، كما لم يظهر الاهتمام لما كلف به ، بل وعمل لصالح الزيانيين أكثر من عمله لصالح تاج أراجون• وفى المقابل تذكر هذه المصادر أن المستشار القضائى ثيما قد بذل جهودا ضخمة من أجل الحصول على أفضل الشروط ، وأنه حاول عدة مرات مغادرة تلمسان حتى لا يضطر الى حضور التوقيع على معاهدة غير مشرفة لأراجون • كما حاول ثيما وفقا لهذه المصادر رشوة عدد من كبار رجال البلاط الزيانى وبايعاز من خايمى الأراجونى ، لكى يأثروا بدورهم على السلطان أبى تاشفين • ولكن بلا فائدة ، فقد أصر أبو تاشـــفين

---

(٥٦) Dufourcq : Les Espagnoles : p.88.

على مطالبه ، وشجعه على ذلك الموقف المتخاذل الذى أبداه خايمى الأراجونى (٥٧) .

ولكن يبدو أن الأمر ليس كما تصوره المصادر والوثائق الأراجونية، لأن الأحداث التالية تثبت عكس ذلك . فقد ترأس خايمى الأراجونى سفارات الى تلمسان بتكليف من أخيه الفونسو الرابع . فلو كان ما تدعيه هذه المصادر صحيحا لما أقدم الملك الأراجونى على تكليف نفس الشخص المتهم بأنه لا يعمل لصالح تاج أراجون بقدر ما يعمل لصالح الآخرين . ويمكننا أن نقدم تفسيرا لعدم توصل الطرفين الى اتفاق سريع برغم التفاوت البسيط فى وجهات النظر . فقد كانت تلمسان تترقب تطور الأوضاع فى شمال افريقيا وخاصة النزاع مع الحفصيين. فقد بدأ الزيانيون يحرزون عدة انتصارات هامة على الحفصيين ، وأصبحت جيوشهم تخرج سنويا لحصار بجاية ومضايقتها . كما أن أبا تاشفين قد أدرك مدى لهفة خايمى الثانى على توقيع المعاهدة نظرا لحاجته الشديدة للمال — كما سبق أن أوضحنا — لذلك فقد تلكأ السلطان الزيانى بعض الشىء فى مسألة التوقيع على المعاهدة . ولم يكن من الممكن أن يفعل خايمى الأراجونى شيئا ازاء هذا الوضع . بل يمكن القول أنه حاول أن يغرى الزيانيين بشتى الطرق — ومن ضمنها

(٥٧) راجع نص الخطابين اللذين ارسلهما عدد من الأسرى الاراجونيين بتلمسان ونفر من الرهبان والمبعوثين الرسوليين فى افريقيه الى الفونسو الرابع بخصوص تصرفات خايمى الأراجونى . والخطابان محفوظان فى ارشيف تاج أراجون مجموعة الفونسو الرابع صندوق رقم ١ تحت رقم ١٦٩ وثيقة ١٧٢ . وقد أوردت دى روس فقرات مطولة من هذين الخطابين . راجع :
De Ros : Op Cit.pp.218-219.

عرض رشوة على كبار رجال البـلاط الزيانى ـ للتوقيـع على هـذه المعاهدة • ولكنه فشل فى ذلك ، لأن الطرف الآخر (الزيانيين) لم يكن لديه الرغبة فى التوقيع السريع على المعاهدة •

على أية حال ، لم يفسد هذا الفشـل لنود قضـية ، فقد عاد المستشار الأراجونى ثيما الى أراجون يرافقه مبعوث من تلمسان وذلك فى الأيام الأولى من يناير عام ١٣٢٨م (صفر ٧٢٨هـ) • وقد قدم المبعوث الزيانى هدايا فاخرة للملك الأراجونى الفونسو الرابع ، اشتملت على عدد من الجمال والسباع • ولا نعرف شيئا عن النتائج التى ترتبت على هذه الزيارة ، لأن ما تحت أيدينا من مصادر ومراجع لا يوضح لنا هذه النقطـة • ولكن يمكن القول أنه لم توقع معاهدة بين الطرفين وذلك اعتمادا على سير الأحداث التالية •



سفارة زيانية لأراجون عام ٧٣٠هـ(١٣٢٩م)

هذه السفارة تمت فى نهاية عام ١٣٢٩م ، وقد ترأسها خايمى الأراجونى ، الذى يبدو أنه أصبح محل ثقة السلطان أبى تاشفين . وغرض هذه السفارة استكمال المفاوضات حول البنود التى لم يتم الاتفاق عليها فى السفارة السابقة ، وتجديد الطلب الخاص بالاستعانة بالأساطيل الأراجونية لغزو بجاية ، خاصة بعد فشل الحملة التى قادها السلطان أبو تاشفين ضد هذه المدينة عام ٧٢٩ هـ. فقد ذكر يحيى بن خلدون أن السلطان الزيانى تحرك عام ٧٢٩هـ الى بجاية لاستقدام بعض أهلها اياه لغيبة الحاجب ابن سيد الناس عنها ، وجد فى السير مهتبلا غرتها . وفى يوم نزوله عليها ، دخلها الحاجب المذكور ، فقتل الذين راسلوا السلطان أبا تاشفين من أهلها .فقفل السلطان رحمة الله الى حضرته الكريمة ، وترك عيسى بن مزروع الياتكش قائد الجيش الذى بتامزيزدكت وأمره ببناء بلاد أخرى خارج بجاية (٥٨) .

على أية حال ، فقد وصل خايمى الأراجونى الى بلنسيه حاملا معه المقترحات الزيانية الجديدة .وقد بعث الفونسو الرابع ملك أراجون رسالة مؤرخة فى ٢٦ ديسمبر ١٣٢٩م (٤ ربيع الأول ٧٣٠هـ) الى أبى تاشفين يخبره فيها باستلامه تلك المقترحات ، ويتمنى أن يتم التوقيع على المعاهدة على وجه السرعة (٥٩) وأهم هذه المقترحات :

يعرض أبو تاشفين مبلغ خمسة آلاف دينار كمقدم من نسبه الى ١٠٪ من الضرائب والتى سبق أن وافق على تقديمها كمساعده

---

(٥٨) يحيى بن خلدون ، بغية الرواد جـ١ ص١٣٨ .

(٥٩) Gimenez Soler : Caballeros Espanoles .p.339.

لأراجون (٦٠) . وقد ذكر السلطان الزيانى أنه يعرض هذا المبلغ برغم أنه لم يعد يهتم بتأجير السفن (٦١) . أما اذا وافق الملك الأراجونى على تأجير السفن لتلمسان ، فانه على استعداد لدفع جزء من الايجار مع بداية التعاقد ، والجزء الباقى عندما تبدأ أراجون فى تسليم السفن. واشترط أبو تاشفين أن يشتمل هذا الأسطول على عشرين سفينة على الأقل بالاضافة الى عدد من السفن الصغيرة الحجم . كما أبدى موافقته على توليه كل من خايمى الأراجونى والقائد الميورقى أستورس قيادة الفرقة المسيحية العاملة فى تلمسان . وأخيرا أبدى استعداده لاطلاق سراح ثلاثين أسيرا يكون من بينهم أولئك الذين سبق أن حددهم الملك الأراجونى (٦٢) وان لم يكف عدد القطلانيين فيمكن تحرير باقى العدد من أهل ميورقة .

---

(٦١) نلاحظ ان ما ذكره ابو تاشفين لا يعبر عن الواقع ، وربما يكون قد ذكر ذلك لكى يدفع الملك الاراجونى الى قبول هذا المبلغ .

(٦٠) كان الامير الفونسو قد طلب قرضا بعشرة آلاف دينار اثناء رده على المقترحات الزيانية اثناء سفارة ١٣٢٧م .

(٦٢) نلاحظ أن هذا العرض يعد تراجعا فى موقف تلمسان ، لاننا لو رجعنا الى خطاب الوزير هلال المؤرخ فى بداية صفر عام ٧٢٣هـ/٩ فبراير ١٣٢٣م لوجدنا ان بنى زيان يرفضون ان تحدد اراجون اسماء الأسرى المطلوب اطلاق سراحهم ، وقد اشار الوزير هلال انه على استعداد لاطلاق سراح اكبر عدد من الاسرى ولكن بدون أن تحدد اراجون شخصياتهم .

على الرغم من أن بنى زيان وأراجون قد توصلا الى اتفاق حول غالبية النقاط التى ستشتمل عليها المعاهدة ، وذلك خلال السفارة السالفة ، الا أنه — فيما يبدو — لم توقع معاهدة بين الطرفين ، نظر لتغير الظروف فى شمال افريقيا . فقد تمكنت الجيوش البرية الزيانية من الاستيلاء على تونس عاصمة الحفصيين . ولم يعد هناك ضروره لمساعدة الأسطول الأراجونى [٦٣] . وقد سقطت تونس فى أيدى الجيوش الزيانية فى صفر ٧٣٠هـ/نوفمبر ١٣٢٩م [٦٤] أى فى نفس الوقت تقريبا الذى كان خايمى الأراجونى يعرض فيه مقترحات تلمسان أثناء سفارة ١٣٢٩م . لذلك لم تحرص تلمسان على عقد المعاهدة . بيد أن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، حيث استنجد السلطان الحفصى أبو يحيى أبو بكر بالسلطان المرينى أبى سعيد عثمان (٧١٠ — ٧٣١هـ ١٣١٠ — ١٣٣١م) ، وأرسل اليه ولده الأمير أبا زكريا والشيخ ابن تفراجين [٦٥] ، « فلما قدموا على أبى سعيد ، واستصرخوا بكتب السلطان له بذلك ، اهتز هو وولده الأمير أبو الحسن لذلك . ولما اجتمع

---

(٦٣) كنا قد ذكرنا ان البند السادس من سفارة ١٣٢٥ نص على انه فى حالة عدم الحاجة الى الأسطول الأراجونى فلا داعى لتوقيع المعاهدة .

(٦٤) راجع : ابن خلدون العبر جـ٦ ص.٣٤٠ .

(٦٥) هو الشيخ أبو محمد عبد الله بن تفراجين ، من أشهر وزراء الدولة الحفصية . وينتسب الى بيت بنى تفراجين من الموحدين . وكان لبنى تفراجين دور كبير فى الدولة الحفصية . راجع ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٤٣٨ — ٣٥٠ ، ابن القنفذ : الفارسية ص١٦٩ . انظر كذلك : د. العبادى : دراسات ص ١٩٥ .

السلطان أبو سعيد بالأمير أبى زكريا فى يوم مقدمه قال له : والله لقد أكبر قومنا قصدك وموصلك ، والله لأبذلن فى مظاهرتك مالى ونفسى ، ولأسير بعسكرى الى تلمسان لكن بشرط أن يكون أبوك معى فانصرفوا مسرورين وقبلوا شرطه » [٦٦] . وقد تمكن الحفصيون من استعادة عاصمتهم من يد الزيانيين ، ومما زاد الأمر سوءا بالنسبة لبنى زيان . أن الروابط بين الحفصيين والمرينيين قد توثقت نتيجة للمصاهرة التى تمت بين عاهلى الدولتين ، حيث تزوج الأمير أبو الحسن على بن أبى سعيد عثمان من الحرة فاطمة ابنة السلطان أبى بكر .

لكل ذلك ، عاد السلطان أبو تاشفين الى الاستنجاد بأساطيل أراجون ، وأرسل سفارة فى عام ٧٣٠هـ (١٣٣٠م) . ولحسن الحظ لدينا نص خطاب مؤرخ فى ٤ رجب عام ٧٣٠هـ (١٤ مايو ١٣٣٠م) أرسله السلطان أبو تاشفين الى الفونسو الرابع يخبره بأمر هذه السفارة حيث يقول « فانه نعرفكم أنه يصلكم الشيخ الفارسى الأعز الأكرم الأفضل الكبير الشهير أبو عمران موسى ابن الشيخ الأجل الأعز الأرفع الأكبر الأشهر أبى عنان فارس بن حريز صحبه أخوكم القائد المكرم الأفخم دون جاقما [٦٧] وصحبتهما الشيخ الأجل المكرم الفاضل أبو يعقوب يوسف المعروف بابن الحوره [٦٨] ، وبأيدى المذكورين من الكتب ما تتفقون

---

(٦٦) الزركشى : تاريخ الدولتين ص٥٥ — ٦٥ — يحيى بن خلدون : بغية الرواد جا ص١٣٩ .

(٦٧) يقصد خايمى الأراجونى .

(٦٨) ورد اسم هذا السفير فى خطاب آخر . أبو يعقوب يوسف بن الحمراء . وقد شارك فى سفارة ٧٢٧هـ . راجع :
Alarcon y linares : Op.Cit.p.180.

عليها وتتعرفوا ما عندنا منها ان شاء الله تعالى (٦٩) .

أما المقترحات التى تقدمت بها تلمسان هذه المرة ، فهى لا تختلف كثيرا عما سبق . ونستطيع أن نستخلصها من مسودة خطاب محفوظ بأرشيف تاج أراجون (٧٠) فبالاضافة الى ما سبق عرضه فى سفارة ١٣٢٧م ، تطرقت المقترحات الزيانية الى مسألة حرية التجارة بين البلدين ، وتأمين تجار أراجون وسفنهم التى تصل لمواني التلمسانية . كما اقترح أن يتولى خايمى الأراجونى قيادة الفرقة المسيحية فى بجاية وتونس فى حالة الاستيلاء عليها ، أما قيادة الفرقة المسيحية العاملة فى خدمة الزيانيين فاقترح أن يتولى قيادتها كل من خايمى الأراجونى والقائد استورس (٧١) .

وقد رد الملك الأراجونى الفونسو الرابع على المقترحات الزيانية فى خطاب أرسله الى أبى تاشفين مؤرخ فى ٢٠ يونيو ١٣٣٠م (١١ شعبان ٧٣٠هـ) . كما أعطى تعليماته الى أخيه خايمى الأراجونى بشأن النقاط

---

(٦٩) Alarcon y linares : Op. Cit. Carta 92,p.186.

(٧٠) نشر الاركون وليناريس مسودة هذا الخطاب ، وذكر انه بدون تاريخ ، ولم يشر الى اسم مرسله ولا لمن ارسل بالتحديد . كما انهما وضعا هذا الخطاب فى القسم الخاص بالوثائق الحفصية المحفوظة فى ارشيف تاج اراجون . ولكن بعد قراءة الخطاب ودراسته ، يمكن ان نقول ان هذا الخطاب مرسل من الحاجب موسى بن على وزير السلطان ابى تاشفين سلطان بنى زيان ، الى الملك الاراجونى الفونسو الرابع ، وذلك استنادا الى بعض العبارات والفقرات الواردة فيه . راجع : Carta 137,p.304.

(٧١) Ibid

التى سيتفاوض بشأنها مع المسئولين الزيانيين ، وهذه النقاط هى :

١ — ألا يزيد عدد السفن عن عشر بالاضافة الى مركبين فقط .

٢ — ضرورة اطلاق سراح مائة أسير أراجونى دون الالتزام بدفع فدية لهم . وقد تشدد الفونسو الرابع فى هذه النقطة بالذات ، حيث ربط مسألة توقيع المعاهدة باستجابة تلمسان لمطلبه هذا .

٣ — طلب الفونسو الرابع عشرة آلاف دينار كدفعة أولى من قيمة الـ ١٠٪ من حصيلة الضرائب التى تفرض على التجارة الأجنبية (٧٢) .

٤ — فى حالة عدم رغبة تلمسان الحصول على السفن الأراجونيه ، فلا مانع من توقيع المعاهدة ، بشرط أن يتنازل السلطان الزيانى عن قيمة الضرائب التى تفرض على تجار أراجون ، مع تقديم سلفة بمبلغ ماة ألف دينار واطلاق سراح عدد من الأسرى بحد أدنى خمسين أسيرا (٧٣) .

وقد نجح خايمى الأراجونى هذه المرة فى الحصول على موافقة السلطان أبى تاشفين على توقيع المعاهدة بين الدولتين ، واشتملت هذه المعاهدة على عدد من النقاط الهامة مثل : حرية التجارة بين البلدين — وقف أعمال القرصنة المتبادلة — تعيين قنصل لأراجون فى تلمسان

---

(٧٢) فى السفارة السابقة عرض ابو تاشفين مبلغ خمسة آلاف دينار فقط .

(٧٣) راجع : De Ros : Op. Cit. p.222.

وتساعده هيئة قضائية للفصل فى المنازعات التى تنشأ بين التجار الأراجونيين • الموافقة على تأجير خمس عشرة سفينة أراجونية تشترك فى حصار بجاية قيمة ايجار السفينة الواحدة ٢٠٠٠ دينار ، وتعمل هذه السفن فى خدمة الزيانيين لمدة أربعة أشهر • دفع ايجار السفن على مرتين : الأولى عند التوقيع على المعاهدة ، والثانية خلال خمسة عشر يوما من وضع تلك السفن تحت تصرف تلمسان • كما نصت المعاهدة على أنه فى حالة عدم قيام هذه السفن بالمهام التى ستكلف بها ، والتى ستتركز أساسا على حصار بجاية ، فان الملك الأراجونى وحده هو صاحب الحق فى معاقبة قوادها • أما اذا أحجمت السفن الأراجونية عن الاشتراك فى المعارك ، نظرا لأن كفاءتها أقل من فكاءة سفن الأعداء (الحفصيين) ، تلغى المعاهدة ويسترد السلطان الزيانى ما دفعه كايجار لهذه السفن • كما التزم السلطان أبو تاشفين فى هذه المعاهدة بدفع مبلغ مائة ألف دينار لألفونسو الرابع عند استيلاء الزيانيين على بجاية• وأخيرا وافق أبو تاشفين على أن يتولى كل من خايمى الأراجونى والقائد استورس قيادة فرقة الفرسان المسيحية العاملة فى تلمسان (٧٤) •

ومنذ التوقيع على هذه المعاهدة وحتى نهاية حكم كل من أبى تاشفين (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) والفونسو الرابع (١٣٣٧م) لم نسمع عن سفارات متبادلة بين الطرفين • وقد حاول بعض الباحثين أن يعزو هذا الانقطاع فى الاتصالات الدبلوماسية بين الدولتين الى نكبه الوزير هلال بن عبد الله ، وهو — كما نعلم — من أصل قطلانى • وقد ذكرت دى روس

(٧٤) راجع الوثيقة ١٧٩ ورقة ١٥٠ المحفوظة فى ارشيف تاج اراجون تحت رقم تسجيل ٥٦٢ .

أن هذا الوزير عمل على ربط سياسة تلمسان الخارجية بعجلة أراجون ، وتدلل دى روس على صحة رأيها بالقول بأن السفارات بين الدولتين قد انقطعت فى وقت كانت تلمسان فى مسيس الحاجة للمساعدة الأراجونية، نظرا لاشتداد الضغط المرينى الحفصى عليها ، بحيث وقعت تلمسان بين مطرقة المرينيين وسندان الحفصيين (٧٥) .

بيد أننا وان كنا نسلم بصحة رأى دى روس فى أن الوزير هلال لعب دورا كبيرا فى التقريب بين أراجون و لمسان ، الا أننا لا نوافق على ما ذكرته أن السبب الرئيسى لانقطاع تلك السفارات هو محنـــة الوزير هلال . ونرى أن الدافع الأساسى لانقطاع الســفارات هو انشغال الزيانيين الكامل بمواجهة الضغط المرينى ، خاصة وأنه كان على عرش المرينيين فى ذلك الوقت واحدا من أعظم حكام المغرب فى العصور الوسطى ، وهو السلطان أبو الحسن على (٧٣١ — ٧٤٩هـ = ١٣٣١ — ١٣٤٨م) . وكان لهذا المجاهد الكبير صولات وجولات فى بلاد المغرب والأدنلس . وكان أبو الحسن — كما قلنا — مصـــاهرا للحفصيين فى الأميرة فاطمة ابنة الخليفة الحفصى أبى يحيى أبى بكر . وقد وقف السلطان أبو الحسن المرينى الى جانب أصهاره فى صراعهم ضد بنى زيان . وقد طلب أبو الحسن من السلطان الزيانى أبى تاشفين أن يكف عن التدخل فى شئون الحفصيين ويوقف العمليات العسكرية ضـــدهم . بيد أن أبا تاشفين رفض ما طلبه السلطان المرينى واستمر فى سياسته العدائية تجاه بنى حفص . وقد غضب أبو الحسن المرينى لهذا التصرف،

---

(٧٥) De Ros : Op. Cit.p.223.

وقرر التوجه الى تلمسان لاخضاعها لحكمه . وقد جهز جيشا كبيرا وسار من عاصمته فاس الى تلمسان فوصل اليها عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م . ولكنه لم يلبث أمامها كثيرا ، حيث غادرها الى تاساله (شمال شرق تلمسان) انتظارا لقدوم صهره الحفصى لكى يشتركا سويا فى مهاجمة تلمسان . وقد اضطر السلطان أبو تاشفين الى اثارة القلاقل فى وجه أبى الحسن حتى يجبره على رفع الحصار عن مدينته . فقد حرض الأمير أبا على بن أبى سعيد عثمان أمير سجلماسه على الثورة ضد أخيه السلطان أبى الحسن . وقد نجح هذا التدبير ، فأعلن الأمير أبو على عدم اعترافه بسلطة أخيه . واضطر أبو الحسن الى ترك المغرب الأوسط والعودة الى بلاده لمواجهة ثورة أخيه . وبذلك تخلص أبو تاشفين مؤقتا من خطر المرينيين (٧٦) .

ولكن أبا الحسن المرينى لم ينس ما فعله الزيانيون ، فقام فى عام ٧٣٥هـ (١٣٣٥م) بتجهيز جيش ضخم ، وسار به الى تلمسان وقد عقد العزم على اقتحام تلمسان مهما كلفه الأمر . وحاصر تلمسان حصارا شديدا ، وقام ببناء مدينة غرب تلمسان لسكناه وسكنى عسكره أسماها المنصورة (٧٧) . كما قام أبو الحسن باحاطة مدينة تلمسان بمجموعة

---

(٧٦) راجع : ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٢٥٤ — السلاوى : الاستقصا جـ٣ ص١١٩ . أيضا انظر :

Terrasse : Histoire du Maroc., 2-p.52.

(٧٧) مازالت اطلال هذه المدينة موجودة غرب تلمسان بالقطر الجزائرى. ومازال سور المدينة وقسما من مأذنة الجامع الذى بناه أبو الحسن المرينى قائما حتى الآن .

من الخنادق والأسوار امعانا فى احكام الحصار عليها • وقد ظلت الجيوش المرينية تضرب أسوار المدينة ليل نهار بقذائف المنجيقات • ولكن تلمسان صمدت لهذا الهجوم • ورأى أبو الحسن أنه لابد من القضاء على حامية المدينة كى يسهل عليه بعد ذلك اقتحامها • فأوعز الى الفعلة والعمال فى جيشه ببناء برج خشبى يعلو أسوار المدينة كى تتمكن فرق الرماة المرينية من قذف حامية المدينة بالسهام • وقد اتبع أفراد الجيش المرينى أسلوبا حربيا ذكيا لبناء هذا البرج الخشبى • فقد ركز الرماة سهامهم ونبالهم على المنطقة المراد بناء البرج فيها لمنع الحامية الزيانية من مهاجمة العمال والبنائين • وبالفعل نجح هذا التكتيك وتمكن الجيش المرينى بعد حصار دام عامين من اقتحام مدينة تلمسان عنوة فى ٢٧ رمضان عام ٧٣٧هـ (٢٩ ينـاير ١٣٣٧م) وقام أبو الحسن المرينى بقتل السلطان الزيانى [٧٨] • وهكذا زالت من الوجود مؤقتا دولة بنى زيان ولم تظهر من جديد ألا عندما تمكن الأمير عثمان بن عبد الرحمن الزيانى من استعادة عاصمة آبائه فى أواخر جمادى الثانى عام ٧٤٩هـ/٢٤ سبتمبر ١٣٤٨م •

وهكذا نرى أن اشتداد الضغط المرينى على دولة بنى زيان كان فى الواقع هو السبب الرئيسى لانقطاع السفارات بين أراجون وبنى زيان •

---

(٧٨) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون • ص ٩٤

Bargés : Op. Cit.p.57.

وقد أرسل السلطان أبو الحسن المرينى الى سلطان مصر المملوكى الناصر بن قلاوون رسالة يصف له احداث حصار تلمسان وكيفية الاستيلاء عليها • راجع محمد المنونى : علاقة المغرب بالمشرق أيام السلطان أبى الحسن المرينى • مجلة تطوان — ١٩٥٦ ص ١٠٩ — ١١٠ •

فقد شغل أبو تاشفين بمواجهة المرينيين . كما أن المعارك بينه وبين المرينيين كانت معارك برية فى أغلبها ، فهو ليس فى حاجة الى أساطيل أراجون . وكما سبق أن أوضحنا كانت الأساطيل الأراجونية واستأجرها هى حجز الزاوية فى العلاقات بين أراجون وبنى زيان فى الفترة موضوع البحث .

* * *



خاتمة

والخلاصة ، أن هذه السفارات المتعددة توضح لنا طبيعة العلاقة بين بنى زيان وأراجون • هذه العلاقة تقوم أساسا على حاجة كل منهما للآخر • فأراجون تهتم بالدرجة الأولى بمصالحها الاقتصادية ، وتعمل على أن يكون لها النصيب الأكبر من تجارة تلمسان • أما سلاطين بنى زيان فكانوا فى مسيس الحاجة الى بعض قطع الأسطول الأراجونى القوى للوقوف فى وجه أطماع جيرانهم ، خاصة اذا ما علمنا أن النشاط البحرى عند الزيانيين كان محدودا بالقياس الى نشاط الحفصيين أو المرينيين • وفضلا عن ذلك ، فان بنى زيان كانوا فى حاجة أيضا الى الفرق المسيحية العاملة فى جيوشهم كمرتزقة • وأغلب أفراد هذه الفرق كانوا من رعايا أراجون •

وقد تركزت النقاط التى دارت حولها هذه السفارات فى : التجارة — ايجار السفن الأراجونية — الأسرى — المرتزقة الأراجونيين • ونلاحظ أن عدد هذه السفارات التى تناولناها بالشرح قد بلغ ثمان سفارات • خمس منها أرسلهم سلاطين بنى زيان ، والباقى أرسلهم خايمى الثانى ملك أراجون • وهذا يوضح لنا مدى تلهف بنى زيان على ما تريده من أراجون • ومما يدل على ذلك أن غالبية سفراء بنى زيان كانوا من الرعايا الأراجونيين المقيمين والعاملين فى تلمسان • وذلك يعنى أيضا أن حكام بنى زيان وضعوا ثقتهم الكاملة فى هؤلاء الأفراد ، حتى أنهم يبعثونهم كسفراء لهم ومدافعين عن مصالحهم عند ملك أراجون • بل أن بعض الوثائق الأراجونية اتهمت أحد هؤلاء السفراء وهو خايمى الأراجونى ، أنه كان يعمل لصالح بنى زيان أكثر من عمله لصالح تاج أراجون •

جدول بالسفارات المتبادله بين اراجون وبنى زيان

مسلسل	تاريخ السفارة	مرسله من	الى	أسماء السفراء	الغرض من السفارة
١ –	٦٤٨هـ/١٢٥٠م	الأمير يغمراسن ابن زيان	ملك اراجون خايمى الأول	ابو عمران موسى +رامون دى بانير	مناقشه بعض الأمور التجاريه +طلب المساعدة بفرقة من الرسان القطلانيين .
٢ –	جمادى الثانى ٦٩٢هـ/ مايو ١٢٩٣م .	خايمى الثانى	ابى سعيد عثمان ابن يغمراسن سلطان بنى زيان	بولدمبى الفاكين	محاوله عقد معاهدة صداقة وتحالف بين الدولتين .
٣ –	محرم ٧١٣هـ / مايو ١٣١٣م .	ابى حمو موسى الزيانى الأول	خايمى الثانى	رامون بوتر	محاولة عقد معاهدة صداقة وتحالف+طلب تأجير بعض قطع الأسطول الأراجونى .
٤ –	٣ ربيع الثانى ٧١٩هـ/ ٢٤ ابريل ١٣١٩م .	خايمى الثانى	ابى تاشفين عبد الرحمن بن ابى حمو الزيانى	برناردو ديسبيوج+ برناردو زابيلا	عرض بعض السفن الأراجونية للايجار + مناقشة بعض الأمور التجارية + طلب اطلاق سراح الأسرى الأراجونيين لدى تلمسان .

مسلسل	تاريخ السفارة	مرسلة من	الى	أسماء السفراء	الغرض من السفارة
٥ –	٢٨ ربيع الأول ٧٢٥هـ/ ١٥ مارس ١٣٢٥م .	خايمى الثانى	ابى تاشفين عبدالرحمن الزيانى	خايمى الأراجونى	عرض بنود ومقترحات لمعاهدة صداقة وتحالف .
٦ –	١٧ رجب ٧٢٧هـ / ٨ يونيو ١٣٢٧م .	ابى تاشفين عبد الرحمن الزيانى	خايمى الثانى .	أبو يعقوب يوسف ابن الحوراء + خايمى الأراجونى	طالب ايجار بعض السفن الأراجونية للاشتراك فى حصار بجاية + مناقشة بعض الأمور التجارية .
٧ –	٤ ربيع الأول ٧٣٠هـ/ ٢٦ ديسمبر ١٣٢٩م .	ابى تاشفين عبد الرحمن سلطان بنى زيان	الفونسو الرابع ملك اراجون .	خايمى الأراجونى	مناقشة مسألة ايجار السفن الأراجونية + التجارة + مسألة الأسرى .
٨ –	٤ رجب ٧٣٠هـ / ١٤ مايو ١٣٣٠م .	ابى تاشفين عبدالرحمن سلطان بنى زيان .	الفونسو الرابع ملك اراجون .	أبو عمران موسى ابن ابى عنان فارس بن حريز + خايمى الأراجونى + أبو يعقوب يوسف بن الحوراء	نفس غرض السفارة السابقه.

١ ــ المصادر والمراجع العربية

١ ــ التنسى (أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل) ت : القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى .

ــ « نظم الدور والعقيان فى بيان شرف ملوك بنى زيان » نشره الأب بارجيس تحت عنوان :

Histoire des Beni Zeiyan rois de Tlemcen, par L' Imam cidi Abou-Abd Allah Mohammed Ibn Abd El-Djelyl El-Tenessy. pris, 1852.

وقد نشر الدكتور نورى سودان القسم الرابع من نظم الدرر فى بيروت ١٩٨٠ .

٢ ــ الحميرى : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) ت: أواخر القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى .

ــ « الروض المعطار فى خبر الأقطار » نشر وتحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٧٥ .

٣ ــ ابن الخطيب (لسان الدين) ت : ٧٧٦هـ/١٣٧٤م .

١ ــ الاحاطة فى أخبار غرناطة. نشر محمد عبد الله عنان . القاهرة .

٢ ــ نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب • القسم الثانى • نشر وتحقيق د• أحمد مختار العبادى • القاهرة ١٩٦٧ •

٣ ــ اللمحــة البدرية فى الدولة النصرية • نشر محيى الدين الخطيب • القاهرة ١٩٤٧م •

٤ ــ ابن خــلدون (أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد) ت : ٨٠٨هـ/١٤٠٥م •

١ ــ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر • بولاق ١٢٨٤هـ •

٢ ــ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا • نشر محمد بن تاويت الطنجى • القاهرة ١٩٥١م •

٥ ــ ابن خلدون (أبو زكريا يحيى) ت : ٧٨٠هـ/١٣٧٨م •

ــ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد • نشره وترجمه الى الفرنسية ألفرد بل Alfred Bel ــ الجزائر ١٩٠٣م•

٦ ــ دهينه (أحمد) •

ــ مساعدة الزيانيين لمسلمى الأندلس • مقــــال بمجلة تاريخ وحضارة المغرب • الجزائر • يناير ١٩٧٦ • عدد رقم ١٣ •

٧ ــ الزركشى (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى) •

ــ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية • تونس • ١٢٨٩هـ •

٨ ــ السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) ت : ١٨٩٧م •

ــ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى • تسعة أجزاء الدار البيضاء ١٩٥٤م •

٩ — العبادى (دكتور أحمد مختار) ٠

— دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ٠ الاسكندرية ١٩٦٨م ٠

١٠ — ابن القنفذ (أبو العباس احمد الخطيب) ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م ٠

— الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ٠ نشر وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ٠ تونس ١٩٦٨ ٠

١١ — المنونى (محمـــد) ٠

— علاقة المغرب بالمشرق أيام السلطان أبى الحسن المرينى ٠ مجلة تطوان ١٩٥٦م ٠

١٢ — مؤلف مجهول (من القرن السادس الهجرى/١٢ ميلادى) ٠

— الاستبصار فى عجائب الأمصار ٠ نشر وتحقيق د٠ ســـعد زغلول عبد الحميد ٠ الاسكندرية ١٩٥٨م ٠

٢ – المصادر والمراجع الأجنبية

1. Archivo de la Corona de Aragon Barcelona.
2. Al. Abbady : (DR. Ahmed Mujtar) :
   — El reino de Granada ln la epoca de Muhamed V Madrid.
   — El reino de Granada enla epoca de Muhamed V Madrid 1973.
3. Alarcon y Linares :
   Las documentes Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon. Madrid — Granada. 1946.
4. Angel Canellas :
   — Aragon y la empresa del estrecho en el siglo XIV, Estudios de edad media de la Corona de Aragon, Secion de zaragoza. 1940.
5. Brunschvig (Robert) :
   — Le Berberie orientale sous les Hafsides de origines a la Fin du XVe siecle. 2 Tomes. paris 1947.
6. Capmany y de Montpalau, Antonio :
   — Memorias historicas sobre le marina comercio y arts de la antigua ciudad de Barcelona, 4 tom. Madrid, 1779-1792.
7. De Ros (Angeles Masia) :
   — La corona de Aragon y los estados del norte de Africa, Borcelona, 1951.

8. Dufourcq (charles, E.) :

— L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIII^{e} etXIV^{e} siécles. paris, 1966.

— Les Espagnoles et le royaume de Tlemcen aux XIII^{e} et XIV e siécles. Boletin de la Real academia de Buenas letrasl, T.XXI, Barcelona. 1948.

9. Figueras (Tomas Garcia) :

Presencia de Espana en berberia central y oriental. Madrid. 1943.

10 Gimenez Soler, (A) :

— Caballeros Espanoles en Africa, Revue Hispanique, T. 12 et 16. paris. 1905-1907.

— Episadio de la historia de las relaciones entre Aragon y Tuniz, Anuari de Institut d'estudi catalans, Barcelona, 1907.

11. Latrie (De Mas).

— Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations de chrétiens avec les Arab de L'Afrique septentrionale au Moyen age, paris, 1866.

12. Miret y sans (J) :

— Un missatage de Yarmoracen de Tremecen a Jaumme 1 Boletin de la Real academia de Buenas letras de Barcelona, T.IX,1915.

13. Terrsse (H).

— Histoire du Maroc. 2 volumes, New York.1975.

المبحث الثاني

جزيرة جربة التونسية
دراسة في التاريخ السياسي والحضاري
في العصر الإسلامي

مقدمة

لم تحظ جزيرة جربة التونسية (Djerba أو Gerba) بالعناية الكافية من الباحثين فى تاريخ وحضارة المغرب فى العصر الاسلامى على الرغم من أهمية موقعها الجغرافى فى مياه البحر المتوسط قبالة الساحل التونسى ودورها البارز فى أحداث بلاد المغرب • وباستثناء الكتاب الذى ألفه محمد أبو راس الجربى (ت بعد ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) قبل نحو قرنين عن هذه الجزيرة تحت عنوان « مؤنس الأحبة فى أخبار جربة »[1] ، فانه لم تكتب فى العربية — فيما نعلم — أية دراسة عن تاريخ جربة خاصة فى العصر الاسلامى • وحتى كتاب مؤنس الأحبة لا يعطينا صورة واضحة عن هذه الجزيرة خلال الفترة الممتدة من الفتح العربى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى (١٥م) ، وقد أشار محقق الكتاب الاستاذ محمد المرزوقى الى ذلك[2] ، بل وقام الاستاذ المرزوقى بحذف مقدمة الكتاب الاصلية والتى بلغت نصف الكتاب تقريبا ، بدعوى عدم فائدتها بالنسبة لتاريخ جربة ، اذ احتوت هذه المقدمة على جداول لتواريخ تولية ووفاة أو عزل جميع الحكام المسلمين فى الدول التى لها اتصال بافريقية منذ عهد الخليفة الراشد أبى بكر الصديق (١١ — ١٣هـ/ ٦٣٢ — ٦٣٤م) حتى عهد الباى حموده باشا المعاصر للمؤلف (مطلع

---

(١) تحقيق محمد المرزوقى ، تونس ١٩٦٠ .

(٢) انظر مقدمة كتاب مؤنس الاحبة بقلم المرزوقى ص٩٤ .

القرن التاسع عشر الميلادى) . أما القسم الباقى من الكتاب فاشتمل على عدة موضوعات مثل وصف الجزيرة وأهم آثارها منذ القديم ، مع ذكر أشهر علمائها حتى عصر المؤلف ، أما الجانب التاريخى فيتعلق معظمه بتاريخ هذه الجزيرة فى العصر الحديث ، أما تاريخها فى العصر الاسلامى فلا يشغل الا صفحات قليلة العدد جدا لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة[٣] ، وحتى هذه الصفحات تبدأ بأحداث القرن السادس الهجرى عندما وقعت هذه الجزيرة فى قبضة النورمان عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م وحتى عام ٩١٦هـ/١٥١٠م . ومن هنا نرى أن كتاب مؤنس الأحبة لا يعطينا فكرة واضحة عن هذه الجزيرة وأحوالها خلال العصر الاسلامى الوسيط ، ولذلك رأيت أن أفرد هذه الدراسة فى محاولة لابراز جوانب من تاريخ وحضارة هذه الجزيرة خلال العصر الاسلامى.

وقد بدأت هذه الدراسة بتمهيد جغرافى اشتمل على تحديد موضع الجزيرة ومساحتها والطرق التى تربطها بالساحل التونسى ، ثم انتقلت بعد ذلك للحديث عن الفتح الاسلامى لجربة ، واتبعت ذلك بالحديث عن جربة والمذهب الاباضى على اعتبار أن هذه الجزيرة تعتبر مركزا من أهم مراكز المذهب الاباضى حتى العصر الحاضر ، بل نستطيع أن نؤكد أن تاريخ هذه الجزيرة خلال القرون الاربعة الاولى للهجرة ارتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الحركة الاباضية فى بلاد المغرب بصفة عامة . وقد أفردت بعد ذلك عدة صفحات للحديث عن جربة والفاطميين، حيث أوضحت أن هذه الجزيرة التى انضوت تحت لواء الفاطميين عام ٣١١هـ/٩٢٣م لم تلبث أن خلعت طاعتهم — نظرا للاختلاف المذهبى — وانضم النكارية من أهلها الى جانب أبى يزيد مخلد بن كيداد فى ثورته ضد الدولة الفاطمية ، هذه الثورة التى كادت أن تعصف بالفاطميين فى شمال افريقيا وتقضى على دولتهم ، بيد أن فشل ثورة أبى يزيد على

---

(٣) من ص١٠١ حتى ص١٠٤ وهذه الصفحات الخمس احتوت على هوامش وتعليقات كثيرة اكبر من حجم المتن نفسه .

يد المنصور الفاطمى أعاد جربة الى حكم الفاطميين ثم اتباعهم الزيريين بعد ذلك • وفى عصر الزيريين شهدت الجزيرة عدة حوادث مهمة ، حيث تحولت الى مركز من مراكز القرصنة البحرية فى حوض البحر المتوسط، وصارت مصدر ازعاج للحكام المسلمين والمسيحيين على السواء ، بسبب غارات الجربيين على السفن التى تمخر عباب البحر فى هذه المنطقة • ولذلك تعرضت جربة لعدة غارات تأديبية من قبل الزيريين ، وأخيرا استولى عليها النورمان عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، الا أنهـا لم تلبث أن تخلصت عام ٥٥١هـ/١١٥٦م من السيطرة النورماندية وانضوت تحت لواء الموحدين ثم الحفصيين من بعدهم • وقد تعرضت جربة فى عهد الحفصيين لعدد من الحوادث المهمة ، فقد احتلها الصقليون عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م بمساعدة من مملكة أراجون • وقد حاول الحفصيون استعادة هذه الجزيرة لسيطرتهم عدة مرات ولكن بدون جدوى ، ولعل أشهر محاولاتهم تلك التى قام بها شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا بن اللحيانى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م ورافقه فيها الرحالة المغـربى أبو محمد عبد الله التجانى ، الذى دون لنا وصفا دقيقا لجربة وعناصر سكانها ونشاطهم الاقتصادى ، بالاضافة الى معلومات قيمة عنها فى العصور السابقة • ولم يتمكن الحفصيون من استعادة هذه الجزيرة من يد المحتلين الا عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م •

تعرضت جزيرة جربة بعد ذلك للغزو المرينى — شأنها شـأن بقية أراضى الدولة الحفصية — أيام السلطان أبى الحسن على المرينى، ولكنها لم تلبث أن عادت الى طاعة الحفصيين الذين سمحوا لبنى مكى بالاشراف عليها بالاضافة الى قابس • ولكن جربة واجهت بعد ذلك حملتين عنيفتين قامت جنوه وحلفاؤها من المدن الايطالية بشن الاولى عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م ، فى حـين قام الفونسو الخامس ملك أراجـون بالثانية عام ٨٣٥هـ/١٤٣٢م ، بيد أن كلتا الحملتين باءتا بالفشل بعد أن أحدثتا الكثير من الدمار والتخريب فى الجزيرة •

أما عن الجوانب الحضارية في جزيرة جربة ، فقد خصصت لها عدة صفحات تناولت فيها عناصر السكان بالجزيرة ، وأوضحت أن غالبية سكانها كانوا من البربر ، بالاضافة الى عدد غير كبير من العرب ، وقلة من اليهود وفدوا اليها منذ نهاية القرن الاول الميلادى • ثم تحدثت عن لغة أهل جربة ، الذين استخدموا اللغة البربرية فى حياتهم الخاصة ، أما اللغة العربية فقد استخدمها الأهالى فى نطاق المعاملات الرسمية مع السلطات الحاكمة • ثم تعرضت بعد ذلك الى ذكر النشاط الاقتصادى لسكان جربة فى العصر الاسلامي حيث تنوعت مظاهر هذا النشاط من زراعة ورعى وصناعات وتجـــارة ، واختتمت الحـــديث عن الجوانب الحضارية بالاشارة الى الحياة الفكرية بالجزيرة خلال الفترة موضوع الدراسة ، ثم وضعت خاتمة للبحث ضمنتها أهم النتائج التى توصلت اليها •

تمهيــد جغــرافى :

تقع جزيرة جربة[1] فى الجزء الجنوبى من مياه خليج قابس بالقرب من السواحل الليبية ، فهى اذا تتبع ولاية افريقية (تبعد عن تونس العاصمة حوالى ٥١٠كم) . وقد اختلف الجغرافيون والرحالة المسلمون فى تحديد مساحة هذه الجزيرة ، فالشريف الادريسى يذكر أن طولها ستون ميلا من المغرب الى المشرق ، وعرض الرأس الشرقى خمسة عشر ميلا[2] ، أما القلصادى فقد ذكر فى رحلته أن دائرة (محيط) الجزيرة اثنان وسبعون ميلا ، وطولها ثمانية عشر وكذلك عرضها[3] . ولكن المساحة الحقيقية للجزيرة تبلغ ٢٣٤ ميلا مربعا ، فى حين يبلغ محيطها حوالى ٨٠ ميلا اذا أخذنا فى الاعتبار التعرجات الساحلية للجزيرة[4].

---

(١) بكسر الجيم أو فتحها ثم السكون والباء الموحدة خفيفة . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، بيروت ، جـ٢ ص١١٨ ، مادة جربة .

(٢) الشريف الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون تاريخ . المجلد الاول ص٣٠٥ . كذلك انظر : عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الاقطار ، نشر الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ص١٥٨ .

(٣) أبو الحسن على القلصادى : رحلة القلصادى ، تحقيق محمد ابو الاجفان ، تونس ١٩٧٨ ص١٢٣ .

(٤) Encyclopedia of Islam, Art. Djerba by G. Yver

وتعتبر جزيرة جربة من الناحية الطبيعية امتدادا لسهل الجفارة الذى تقع فيه مدينة قابس اذ لا يفصلها عن هذا السهل سوى بحر قليل العمق فى نقطتين رئيسيتين : **الاولى** وتقع فى الجنوب الغربى من الجزيرة وتسمى مجاز الجرف ، وعرض هذا المجاز نحو ميلين ، ويقع هذا المجاز بين رأس الجرف فى اليابس على الساحل التونسى ومدينة آجيم بالجزيرة ، **والثانية** تقع فى الجنوب الشرقى وتسمى مجاز القنطرة ، ويبلغ عرض هذا المجاز حوالى سبعة كيلومترات[٥] . وتوجد ثلاث جزر صغيرة المساحة قريبة من جربة ولكنها منقطعة عنها ، احدى هذه الجزر تعرف باسم جزيرة زيزوا أو ريزو ، وقد أشار اليها الادريسى فى معرض حديثه عن جربة بقوله : « ويتصل بهذه الجزيرة (أى جربة) الى جهة المشرق جزيرة زيزوا وهى صغيرة جدا وفيها نخل وكروم ، وبين جزيرة زيزوا والبر نحو ميل»[٦] . أما الجزيرتان الاخريتان فهما على الساحل الغربى لجربة قرب مرسى آجيم، احداهما جنوب المرسى وتسمى تغليسية والاخرى غرب المرسى وتسمى تاوسخت[٧].

وكانت جزيرة جربة تعرف باسم مينيكس **Menix** على أيام الفينيقيين واليونان والرومان ، ويقال أنه كان بها مصرف للفينيقيين .

---

(٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر البارون دى سلان ، الجزائر ١٩١١م ص ٨٥ . التجانى : رحلة التجانى ، نشر حسنى حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ص١٢١ حيث يذكر أن مجاز الجرف عرضه اربعة أميال وليس ميلين . انظر ايضا : روبرت برنشفيك : تاريخ افريقية فى العهد الحفصى ، ترجمة حمادى الساحلى ، بيروت ، ١٩٨٨ ج١ ص٣٤٩ .

(٦) الادريسى : نزهة المشتاق : ج١ ص٣٠٦ — الحميرى : الروض المعطار ص٢٨٠ .

(٧) محمد المرزوقى : مقدمة كتاب مؤنس الاحبة ص٧٨ — ٧٩ .

أما تسميتها بجربة ، فقد ذكر ابن خلدون أنها اكتسبت هذا الاسم من اسم أول قبيلة نزلت بها من قبائل لماية البربرية وكانت تسمى جربة[٨]. ولعل ما يعيننا — فى البداية — أن نعرض لتاريخها بداية من الفتح الاسلامى .

فتح المسلمين لجربة :

تم فتح المسلمين لجربة عام ٤٧هـ/٦٦٧م وفقا لرواية كل من المالكى والتجانى[٩] أثناء حملة معاوية بن حديج على بلاد المغرب ، وتم فتحها على يد الصحابى رويفع بن ثابت بن سكن الانصارى من بنى النجار ودفين برقة ، وقد اشترك معه كل من الصحابين حنش بن عبد الله الصنعانى وفضاله بن عبيد الانصارى الأوسى . ويبدو أن فتح جربة على يد رويفع تم بواسطة الاسطول الاسلامى الذى بدأ معاوية بن أبى سفيان فى تكوينه بعد أن حصل على موافقة الخليفة عثمان بن عفان على ذلك ، ولدينا من الشواهد ما يؤكد أن الاسطول المصرى بالذات هو الذى قام بفتح جربة ، ومن الثابت أن هذا الاسطول قد غزا جزيرة صقلية عام ٤٦هـ/٦٦٦م أثناء حملة معاوية بن حديج على افريقية ، كما أن هذا الاسطول بقيادة عقبة بن نافع الفهرى قد غزا فى البحر فى شتاء عام ٤٩/٦٦٩هـ كما ذكر البلاذرى[١٠] .

---

(٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق جـ٦ ص١٢٢ . كذلك : محمد بن مبارك الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، الجزائر ١٩٦٣ جـ٢ ص١٨٣ .

(٩) المالكى : رياض النفوس تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ١ ص٥٣ ، التجانى : رحلة التجانى : ص١٢٤ : انظر كذلك : أبو المحاسين بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٨ ، جـ١ ص١٣٢ .

(١٠) البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد جـ١ =

أما عن تاريخ جربة عقب فتح المسلمين لها ، وحتى أوائل القرن الثانى الهجرى (٨م) فيكتنفه كثير من الغموض ، لأن المصادر التى بين أيدينا لا تذكر عنه شيئا ، ولا توضح لنا هل كانت جربة تتبع طرابلس أم القيروان ؟ وعموما فالرأى الغالب أن جربة كانت تتبع طرابلس بدليل أن واليها — رويفع بن ثابت — هو الذى تولى مهمة فتحها عام ٤٧هـ/ ٦٦٧م • كما أن المسلمين — فيما يبدو — قد تركوا بها حامية اسلامية كعادتهم فى فتوحاتهم ، ويبدو أيضا أن الاسلام قد بدأ ينتشر بالجزيرة تدريجيا شأنها شأن بقية بلاد المغرب[١٢] •

جربة والمذهب الاباضى :

اقترن تاريخ جزيرة جربة بتاريخ المذهب الاباضى فى بلاد المغرب، فقد اعتنق سكان هذه الجزيرة هذا المذهب وتعصبوا له ، وتمسكوا به الى الآن • والمذهب الاباضى أحد مذاهب الخوارج المختلفة التى ظهرت فى بلاد المشرق ، وينسب هذا المذهب الى عبد الله بن اباض المرى (ت ٨٦هـ/٧٠٥م) • وقد واجه الخوارج عموما اضطهادا عنيفا من قبل الدولة الاموية بالمشرق ، مما دفعهم الى العمل على نشر مذهبهم وأفكارهم فى أماكن بعيدة نسبيا عن مركز السلطة سواء فى دمشق أو بغداد ، وكانت بلاد المغرب من بين تلك المناطق • وقد تقبل البربر المذاهب الخارجية المختلفة وخاصة الصفرى والاباضى لأنهم وجدوا أنها تناسب وضعهم السياسى والاجتماعى ، فاتخذوها عنوانا للمعارضة

ص٢٧٨ ، أبو المحاسن بن تغرى بردى : المصدر السابق جـ١ ص١٣٨ — انظر كذلك : د. السيد عبد العزيز سالم بالاشتراك مع الدكتور أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ، بيروت ١٩٧٢ ، جـ٢ ص٢٦ •

(١٢) محمد المرزوقى : مقدمة كتاب مؤنس الاحبة ص٤٢ •

القومية ضد أى سيادة تفرض عليهم[١٣] . وكانت منطقة جبل نفوسه وطرابلس وبلاد الزاب[١٣] بالاضافة الى جزيرة جربة من أهم المناطق التى انتشر فيها المذهب الاباضى ، ومن المعلوم أن هذا المذهب قد عرف طريقه الى بلاد المغرب مع بداية القرن الثانى الهجرى(٢هـ) ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد تاريخا معينا لدخوله الى جزيرة جربة ، ولكن من المحتمل أن يكون ذلك قد تم أثناء امامة اسماعيل بن زياد النفوسى (امام الدفاع عند الاباضية فى المغرب) لأنه تمكن عام ١٣٢هـ/٧٤٩م من الاستيلاء على مدينة قابس ، ولما كانت المسافة بين قابس وجزيرة جربة بسيطة جدا ، فمن المنطقى أن يكون اسماعيل بن زياد النفوسى قد بسط سيطرته على هذه الجزيرة وعمل على نشر المذهب الاباضى بها وذلك نظرا للروابط التى تربط سكان جربة بأهل جبل نفوسة[١٤] . ويبدو أن جربة لم تستمر طويلا تحت سيطرة الاباضية خاصة عقب مصرع اسماعيل بن زياد النفوسى عام ١٣٢هـ على يد شعيب بن عثمان أحد قادة عبد الرحمن بن حبيب الفهـرى مؤسس امارة الفهريين فى المغرب [١٥] . ولم يتمكن الاباضيون من استعادة سيطرتهم على جزيرة جربة الا أيام الامام الاباضى أبى الخطاب عبد الأعلى بن السـمح المعافرى (أول أمام ظهور عند الاباضية فى المغرب)، حيث استولى على طرابلس عام ١٤٠هـ / ٧٥٧م ، ثم عمد الىتوسيع حدود امارته

---

(١٢) د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس، الاسكندرية : ١٩٦٨ ص ٤٥ .

(١٣) بلاد الزاب Zab : تقع جنوبى ولاية قسنطينة بالقطر الجزائرى، وتشغل المساحة الكبيرة الواقعة فى جنوب جبل الاوراس ، وتشتهر هذه المنطقة بهوائها الحار وكثرة نخيلها . ومن أهم مدن الزاب : المسيلة ونقاوس وطبنه وبسكرة وتهودة . راجع : الحميرى ، الروض المعطار ص٢٨١ .

(١٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ليدن ١٩٢٠ ص٢٢٥ .

(١٥) نفس المصدر والصفحة .

على حساب ممتلكات مخالفيه فى المذاهب ، فاستولى على جربة وقابس وجبل دمر [١٦] فى نفس العام (١٤٠ هـ) [١٧] .

وتعود المصادر وخاصة الاباضية الى الصمت عن أخبار جزيرة جربة وخاصة فى الفترة التى أعقبت مصرع أبى الخطاب على يد محمد بن الاشعث الخزاعى قائـــد الجيش العباسى فى موقعة تاورغا عام ١٤٤هـ/٧٦١م [١٨] . ولا نعـرف هل استمرت جزيـرة جربة تحت سيطرة الاباضية أم لا ؟ كل ما نعرفه أن الولاه العباسيين فى القيروان كان لهم السلطة السياسية على هذه الجزيرة ، أما الناحيـة المذهبية فيبـــدو أن أهالى جربة كانوا يدينـــون بالتبعيـة للامام الرســتمى عبد الرحن بن رستم فى تاهرت (١٤٤ – ١٦٨هـ/٧٦١ – ٧٨٤م) . وعقب وفاته خرجت بعض الوقت عن طاعة الرستميين المذهبية نتيجـة للخلاف الذى وقع بين الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمـن بن رستم (١٦٨ – ١٩٨هـ / ٧٨٤ – ٨١٤م) ويزيد بن فندين وجماعته الذين رفضوا امامة عبد الوهاب ، وقد أطلق عليهم اسم النكارية أو النكار [١٩] .

---

(١٦) جبل دمر : يقـع بولاية طرابلس ، ويشكل الطرف الغــربى للسلسلة التى تمتد من جنوب طرابلس حتى مدينة قابس ، وقد ذكر الادريسى ان المسافة التى تفصل بينه وبين جبل نفوسه تبلغ ثلاث مراحل فى رمال متصلة . جـ١ ص٢٩٩ .

(١٧) الشماخى : (احمد بن سعيد) : كتاب السير ، القاهرة ١٨٨٤م، ص١٢٨ . محمد المرزوقى : مقدمة كتاب مؤنس الاحبة ، ص ٤٥ . عوض محمد خليفات : نشأة الحركة الاباضية ، عمان ١٩٧٨ ص ١٥٠ .

(١٨) عن معـــركة تاورغا وهزيمـــة الاباضية . راجع : ابو زكريا يحيى بن ابى بكر : كتاب سير الائمة واخبارهم ، تحقيق اسماعيل العربى ، الجزائر ١٩٧٩ ص٤٦ – ٤٧ – الشماخى : المصدر السابق ص١٣٢ .

وقد مال نفر من أهل جربة الى رأى النكارية ، ولكن الامام عبد الوهاب استطاع بعد حروب عنيفة مع الأغالبة حكام افريقية ، أن يبسط نفوذه على منطقة طرابلس بعد أن اتفق مع الامير الاغلبى عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب على اقتسام منطقة طرابلس بينهما ، فيكـــون البلد والبحر لعبد الله ، وما كان خارجا عن ذلك لعبد الوهاب[٢٠] . وقد استولى الامام عبد الوهاب على قابس ثم عبرت جيوشه البحر حيث بسطت سيطرتها على جزيرة جـــربة عام ١٩٦هـ / ٨١١م التى عين عليها أحـــد الولاة التابعين له . وقد قام هذا الوالى ببناء جامـــع فى الجزيرة أطلق عليه اسم جامع تاجديت [٢١] .

جربة بين الوهبية والخلفيـــة :

ظلت جربة تابعة لسلطة الامام الرستمى بتاهرت فترة طويلة من

=

(١٩) النكار أو النكارية : هم اتباع ابى قدامه يزيد بن فندين الذين أنكروا امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، لأن هذا الاخير رفض الاعتراف بجماعة المشورة (أو مجلس العزابة فى مصطلح الاباضية) التى اقترح ابن فندين أن يسترشد الامام برايها ، كما أن الاجماع — من وجهة نظر النكارية — لم ينعقد على امامة عبد الوهاب ، ومن المعلوم أن الاجماع شرط من شروط الامامة عند الاباضية ، ولذلك انكروا امامة عبد الوهاب فسموا بالنكارية ، وقد أطلق أبو زكريا عليهم عدة أسماء مثل : النجوية لانهم كانوا يجتمعون ويتناجون ، والشغبية لانهم ادخلوا الشغب فى الاسلام، والنكاثية لنكثهم بيعة الامام بغير حدث . انظر : أبو زكريا : المصدر السابق ص٥٨ — ٦٠ ، ابن الصغير المالكى : اخبار الائمة الرستميين ، تحقيـــق د. محمد ناصر وابراهيم بحاز ، بيروت ١٩٨٦ ص٤٣ ، انظر كذلك : محمود اسماعيل : الخوارج فى بلاد المغرب ، القاهرة ١٩٨٦ ص١٥٦ .

(٢٠) الشماخى : السير : ص١٦١ .

(٢١) الشماخى : نفس المصدر والصفحة — محمد المرزوقى : مقدمة كتاب مؤنس الاحبة ص٤٧ .

الزمن ، وعلى الرغم من تقلص نفـوذ الرستميين فى بعض الأقاليـم الشرقية لدولتهم فى أواخر أيام الامام عبد الوهاب ، الا أن جربة كانت من بين المناطق التى لم تخضع طاعة الامام عبد الوهاب خاصـة أثناء النزاع الذى نشـب بين هذا الاخـير وبين خـلف بن السمح بن أبى الخطاب عامل جبل نفوسه الذى ولاه أهل الجبل عليهم دون انتظـار لموافقة الامام عبـد الوهاب . وتشبت عدة معـارك بين الولاة الذين بعثهم عبد الوهاب لجبل نفوسة وبين خلف وأنصاره . ولكن هذه المعارك لم تؤد الى حسم هذا الخلاف (أو الافتراق كما يسميه أبو زكريا) . وفى عهد الامام أفلح بن عبد الوهاب تمكـن العباس بن أيوب أحد القادة الرستميين من هزيمة خلف وأتباعه فى معركة تسـمى معـركة أجناون عشية الخميس ١٣ رجب ٢٢١هـ/٤ يوليو ٨٣٦م ، فانسحب خلف الى مكان يسمى تميثى حيث توفى هناك(٢٣)، أما ابنه المسمى الطيب فقد رحل الى جربه مع بعض أتباعه حيث استقروا بها جنبا الى جنب مع الوهبيـة (أتباع الامام عبـد الوهاب) وعرفوا باسم الخلفية (٢٤) وتشير المصادر الاباضية الى أن أحد حفدة خلف (ولا تذكر لنا أسمه)

---

(٢٢) أبو زكريا : المصدر السابق ص ٨٠ — كذلك انظر : السـيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٥٦٣ .

(٢٣) أبو زكريا : نفس المصدر ص٨٨ .

(٢٤) أبو زكريا : المصدر السابق ص٨٨ — ٨٩ — الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب المعروف بطبقات الاباضية ، تحقيق ابراهيـم طلاى ، قسنطينة ١٩٧٤ ، ج١ ص٧٦ . وقد اشار الدرجينى الى أن حفيـد خلف — وليس ابنه الطيب — هو الذى فر الى جربة مع انصار جده حيث أقاموا بعيـدين عن المشاركة فى أمور الدولة الرستمية . انظـر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ج٢ ص٣٤٧ .

قد شق عصا الطاعة على الرستميين خلال فترة حكم الامام أبى حاتم يوسف بن محمد بن أبى اليقظان (٢٨١ — ٢٩٤هـ/٨٩٤ — ٩٠٦م) ، وقد غادر هذا الحفيد جربة ورحل الى جبل نفوسة فى محاولة لنشر دعوته وكسب تأييد أهل الجبل ، وقد عهد الامام الرستمى لواليه على الجبل أبى منصور الياس بمهمة القضاء على هذا الثائر وأتباعه من قبيلة زواغة[٢٥] . وتمكن أبو منصور الياس من هزيمة هذا الحفيد وأتباعه الزواغيين واضطرهم الى العودة لجربة مرة أخرى ، حيث لجأ حفيد خلف الى رجل من زواغة يقال له معقل من بنى مراية ، فأنزله بقصر من قصور جربة يقال له غرداية[٢٦] . وفى نفس الوقت تتبع أبو منصور الياس هؤلاء الثائرين الى جزيرة جربة وحاصرهم بها[٢٧]، ثم أرسل أحد أتباعه من بنى يهراسن ومعه مائة دينار الى معقل

---

(٢٥) يذكر الدكتور محمود اسماعيل ان يعقوب بن افلح منافس الامام الرستمى أبى حاتم يوسف كان وراء تحرك الخلفية ضد الامام الرستمى ، لأن يعقوب اراد اثارة القلاقل فى وجه أبى حاتم عن طريق اثارة زواغة ضد نفوسه اتباع الامام الرستمى . راجع : الخوارج فى بلاد المغرب ص ١٨٠ ، ص١٨١ .

(٢٦) أبو زكريا : المصدر السابق ص ١٠٠ — الدرجينى : المصدر السابق جـ١ ص ٨٥ — ٨٦ . ونلاحظ ان غرداية الواردة فى المتن غير مدينة غرداية الواقعة بالصحراء الجزائرية ، وان كانت هذه الاخيرة من مراكز الاباضية فى المغرب الاوسط الآن .

(٢٧) الواقع أن ما قام به أبو منصور الياس من تتبع الفارين من الخلفية يعتبر مخالفا لتعاليم المذهب الاباضى التى تحرم تتبع المدبر بشرط الا يكون له مأوى يلوذ به ، ولكن أبا منصور الياس اعتبر أن هؤلاء الفارين من زواغة لهم مأوى بجزيرة جربة ، ولذلك استحل مطاردتهم والاجهاز عليهم . راجع : محمود اسماعيل : المرجع السابق ص١٨١ .

الزواغى كى يسلمه حفيد خلف ، ويذكر أبو زكريا أن رسول أبى منصور صار يصب الدنانير فى كم الزواغى ، « فلما أحس الزواغى بالدراهم جعل يسأله عن أحوال الشيخ ويقول له : لو أتيت الى أولادنا لدفعناهم اليك »[٢٨] . وهكذا تمكن أبو منصور من القاء القبض على حفيد خلف والقضاء على ثورة الخلفية فى جربة . ولكن الدعوة الخلفية لم يقض عليها تماما ، مما أقلق مشايخ الاباضية فى المغرب وخاصة جبل نفوسة، ولذلك أرسلوا أحد مشايخهم الى جربة وهو الشيخ أبا مسور سيجا بن يوجين اليهراسانى[٢٩] كى يتمكن عن طريق الاقناع والدعوة من تحويل الخلفية الى الوهبية[٣٠] . وقد بدأ أبو مسور فور وصوله الى جربة فى دعوة أهلها الى الوهبية ، فأجابه بعضهم ، ويذكر أبو زكريا أن تنافسا قد حدث بين الشيخ أبى مسور وشخص من زواغة يقال له خلف بن أحمد كان على مذهب النكار فى سبيل تحويل الخلفية اما الى الوهبية أو النكارية « فمن لم يجب أبا مسور أجاب خلف بن أحمد » . وقد تمكن الشيخ أبو مسور عن طريق بذل أموال كثيرة لأهالى جربة من استمالة الخلفية الى مذهبه ، حيث كان الشيخ أبو مسور يمضى بأحمال الدقيق ويطعم الناس كى يرجعوا الى مذهبه « فلم يبق فى الجزيرة على مذهب خلف بن السمح أحدا »[٣١] . وبعد أن انتهى

---

(٢٨) ابو زكريا : المصدر السابق ص ١٠٠ — الدرجينى : المصدر السابق جـ١ ص١٨٦ . البارونى : الازهار الرياضية فى أئمة وملوك الاباضية. بدون تاريخ ص٢٧٧ — انظر كذلك : د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٥٦٣ .

(٢٩) راجع ترجمته فى : ابو زكريا : سير الائمة ، ص ١٦٥ ، الدرجينى : طبقات المشايخ : جـ١ ص١٥٧ مع ملاحظة ان الدرجينى ينقل ترجمة الشيخ أبى مسور حرفيا من كتاب سير الائمة لأبى زكريا .

(٣٠) أبو زكريا : المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٣١) نفس المصدر السابق ص ١٦٥ — ١٦٦ .

أبو مسور من مهمته الاساسية ، تولى ادارة شئون الجزيرة منتهزا فرصة الاضطراب الذى حل بافريقية نتيجة لانهيار دولة الاغالبة ودولة الرستميين على يد الداعى أبى عبد الله الشيعى . وقد تولى أبو مسور أمور الاباضية فى جربة دون انتظار لموافقة شيوخ الاباضية فى جبل نفوسة على تعيينه ، على الرغم أن تعاليم المذهب الاباضى تقضى بألا يتولى أحد ولاية أتبـــاع المذهب الاباضى بدون شهادة الامناء (أى مشايخ الاباضية) ، الا أن أباضية جبل نفوسة أجازوا ذلك بالنسبة لأبى مسور نظرا لشهرته وحب العامة له ، وقد أشار أبو زكريا الى هذه الحادثة بقوله « وحدث أبو الربيع سليمان بن يخـــلف عن أبى عبد الله محمد بن بكر رضى الله عنهما عن الشيخ أبى نوح سعيد بن زنغيل رضى الله عنه أنه كان اذا سئل عن المشهور الذى تجوز ولايته لمن يتولاه بغير شهادة الامناء الا لشهرته وخبر العامة ، يقـــول مثل أبى خزر فى افريقية وأبى مسور فى جربة»[٣٢] . وقد اشتهر أبو مسور بعدله وحسن سيرته ولذلك قصد جربة عدد كبـــير من أتباع المذهب الاباضى عقب سقوط الدولة الرستمية على يد الشيعة الفاطميين[٣٣] . ومما يؤثر عن الشيخ أبى مسور أنه عمـــد فى عام جدب وقحط الى اطعام أهل جزيرة جربة بأن أرسل ابنه أبا زكريا فيصل الى نفزاوه ليشترى منها التمر على نفقته الخاصة ويوزعها على الناس بجربة ، ولما توجه أبو زكريا فيصل الى نفزاوة اجتمع شيوخها وقرروا امداد جربة بالتمور والطعام دون أن يتقاضوا ثمنه[٣٤] . كذلك فقـــد بدأ أبو مسور انشاء الجامع الكبير بجـــربة وذلك فى مطلع القـــرن الرابع

---

(٣٢) ابو زكريا : المصدر السابق : ص١٦٦ .

(٣٣) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥٦٥ — محمود اسماعيل : الخوارج فى بلاد المغرب ص ٢٣٥ .

(٣٤) ابو زكريا : المصدر السابق ص ١٦٦ .

الهجرى (١٠م) ، ويعرف هذا الجامع الآن باسم جامع أبى مسور على الرغم من أنه توفى قبل بنائه وأكمله ابنه فيصل[٣٥] .

عقب وفاة الشيخ أبى مسور تولى ابنه أبو زكريا فيصل أمور الاباضية فى جربة حتى سقطت فى أيدى الفاطميين عام ٣١١هـ/٩٢٣م عندما أنفذ المهدى عبيد الله أول خلفاء الدولة الفاطمية بالمغرب حملة بحرية بقيادة على بن سلمان الداعى تمكنت من الاستيلاء على الجزيرة وضمها الى دائرة نفوذ الفاطميين[٣٦] . وبرغم ذلك فان الشيخ أبا زكريا فيصل ظل يتمتع بالنفوذ والسلطة على الاباضية بجربة ، ويبدو أن الفاطميين لم يجدوا غضاضة فى ذلك على الرغم من تعيينهم للولاة على الجزيرة ، طالما أن الاباضية لا يثيرون المشاكل فى وجه الفاطميين . ومما يدل على ذلك تلك العلاقة الطيبة التى كانت تربط بين أبى زكريا فيصل ووالى الفاطميين بالجزيرة ، وهناك عدة حوادث أوردها أبو زكريا فى كتابه سير الائمة كلها تشير الى هذه العلاقة ، فعلى سبيل المثال يروى أن عامل الفاطميين على جربة فرض على بنى يهراسن شيئا من الخراج، فتحدث أبو زكريا فيصل معه كى ينقص من مقدار الخراج ، ومازال به حتى أنقصه كما أراد أبو زكريا فيصل ، كذلك قبل عامل الفاطميين على جربة شفاعة أبى زكريا فيصل فى رجل قبض عليه العامل وأطلق سراحه[٣٧] .

وعلى الرغم من استيلاء أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى النكارى الثائر على الفاطميين على جزيرة جربة عام ٣٣١هـ/٩٤٢م ، وانتشار مذهب النكارية بها ، الا أن الوهبية فى الجزيرة فيما يبدو لم ينضموا

---

(٣٥) محمد المرزوقى : مقدمة كتاب مؤنس الاحبة ص٨٩ .

(٣٦) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمه ص١٠١ .

(٣٧) ابو زكريا : المصدر السابق ص ١٦٧ .

الى حركته نظرا للعداء الشديد بينهم وبين النكارية[٣٨] • ولذلك احتفظ الوهبية وزعيمهم أبو زكريا فيصل بمكانتهم لدى الفاطميين عقب انتهاء ثورة أبى يزيد مخلد عام ٣٣٥هـ/٩٤٦م • وقد عمل الخليفة الفاطمى المنصور (٣٣٤ — ٣٤١هـ/٩٤٥ — ٩٥٢م) على استعادة جزيرة جربة من أيدى النكارية ، فقام فى هذا الصدد بقتل عدد كبـير من أصحاب أبى يزيد ، كما أرسل الى أهل جربة عام ٣٤١هـ/٩٥٢م يدعوهم الى طاعته فأجابوه الى ذلك وأخذ منهم رجالا كرهائن[٣٩] •

وقد ظلت جربة خاضعة لنفوذ الفاطميين السياسى أيام الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣٤١ — ٣٦٥هـ/٩٥٢ — ٩٧٥م) ، وعنـدما أراد أباضية جبل نفوسة الثورة ضـد الفاطميين طلبا لثـار الشيخ أبى القاسم يزيد بن مخلد الوسيانى الذى قتل على يد الفاطميين[٤٠] ، بعثوا أحد مشايخهم وهو « أبو نوح سعيد بن زنغيل » الى جزيرة جربة لاستشارة أهلها فى الخروج على المعز لدين الله ، « وكان مراد العامة منهم طلب الثأر للشيخ ، الا ما كان من أبى صالح اليهراسنى رضى الله عنه ، بأنه كره ذلك وقال لأبى نوح : لا تهيجـوا لأنفسكم أهل الخلاف ، فانهم أكثر منكم عددا ومددا وأقوى بدا »[٤١] • وهكذا لم يوافق مشايخ جربة على الثورة ضد الفاطميين ادراكا منهم بضعف

(٣٨) مما يدل على شدة العـداء بين الطائفتين ان أصحاب ابى يزيد مخلد بن كيداد من النكارية طالبوه بقتال الوهبية أخذا بثار زعيمهم يزيد بن فندين ، فوافقهم على ذلك ولكن بعد الانتهاء من قتال الشيعة الفاطميين . راجع : ابو زكريا : نفس المصدر ص ١١٨ •

(٣٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ٨ ص٤٩٧ .

(٤٠) حول الظروف التى ادت الى مقتل الشيخ أبى القاسم الوسيانى راجع : ابو زكريا : المصدر السابق ص١٣٩ — ١٤٠ .

(٤١) نفس المصدر السابق ص١٤٢ .

الاباضية أمام قوة الفاطميين ، وقد أثبتت الحوادث سلامة موقف أهل جربة من الثورة ضد الفاطميين ، حيث لقى أباضية جبل نفوسة الذين ثاروا ضد الدولة الفاطمية هزيمة ساحقة فى موقعة باغاى بالقرب من جبل الاوراس •

أما الشيخ أبو زكريا فيصل فقد ظل على مكانته عند الاباضية بجربة وجبل نفوسة ، وكثيرا ما كان يرسل لعلماء المذهب الاباضى فى جبل نفوسة يستشيرهم فى بعض الامور الفقهية ، ولدينا رواية طريفة عن الشيخ أبى زكريا فيصل فى هذا الشـــأن ، حيث علم أن الشيخ أبا خزر يعلى بن زلتاف الوسيانى شيخ الاباضية فى جبل نفوسة قد قرر الرحيل من المغرب الى مصر رفقه المعز لدين الله ، فغادر جزيرة جربة والتقى مع الشيخ الوسيانى وسأله فى ثلاث مسائل فقهية فأجابه فيها[٤٢] • وبالجملة ، فقد تمتع أتباع الوهبية فى جزيرة جربة بمكانة ممتازة بفضل سيرة الشيخ أبى مسور وولده أبى زكريا فيصل ، ويروى فى هذا المجال أن عامل الفاطميين سأل يوما عن الشيخ أبى زكريا فقيل له أنه مات فقال : أمضوا بى الى قبره ، فمضوا به الى قبره فقال : عاش حميدا ومات فقيرا ، اللهم أخلف على جربة بعده »[٤٣] •

جربة والزيريون :

عندما قرر المعز لدين الله الفاطمى الانتقال من المغرب الى مصر عام ٣٦١هـ/٩٧١م ، استخلف على بلاد المغرب قائده بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، وقد توارث بنو زيرى ولاية المغرب وحكموها باسم الفاطميين • ولم توضح لنا المصادر وضعية جربة عقب رحيل الفاطميين عن المغرب ، هل خضعت للزيريين أم استقلت عنهم ؟ والواقع أنه ليس

---

(٤٢) نفس المصدر ص١٥٢ •
(٤٣) نفس المصدر ص ١٧٠ •

من السهل الاجابة على هذا السؤال طالما تعوزنا النصوص ، ولكـن يمكن القول أن الزيريين الذين استخلفوا على جميع المناطق التى كانت تحت سيادة الفاطميين قد ضموا جربة الى دائرة نفوذهم ، ويؤيد ذلك الظن أن بعض مدن الساحل التونسى مثل المهدية وقابس كانت خاضعة لهم ، وان كان ذلك لا يمنع من القول أن الاباضية بمختلف فرقهـم فى جزيرة جربة كانوا يتحينون الفرصة للانفراد بالسلطة فى الجـزيرة، ولذلك حدثت عدة مصـادمات بينهـم وبين السلطة الحاكمة ، ويذكر التجانى أن أحد الخوارج النكارية قام بثورة ضـد المعز بن باديس الصـنهاجى (٤٠٦ — ٤٥٤هـ/١٠١٦ — ١٠٦٢م) وذلك عام ٤٣١هـ/١٠٣٩م ، وقد رحل هذا الثائر الى جزيرة جربة وتمكن من الاستيلاء عليها « وقتل من أراد من أهلها وسبى ذراريهم وأسر ابن كلدين مقدمهم ثم قتله وصلبه ، فجهز اليه المعز أسطوله وقتل أصحابه قتلة شنيعة واستقرت جربة تحت طاعته »[٤٤] . ولدينا نص لابن عذارى يوضح أن الاسطول الذى استعاد جربة عام ٤٣١هـ من أيدى الثائرين ، انما خرج من جزيرة مالطة التى كانت تابعة فى ذلك الوقت لبنى زيرى ، يقول ابن عذارى : « وفى سنة ٤٣١ دخلت جيوش مالطة جزيرة جربة ففتحتها وقتلت كثيرا من أهلها »[٤٥] .

بيـد أن جزيرة جربة لم تستمر طويلا تحت سيطرة الزيريين ، فعقب وفاة المعز بن باديس وتولى ابنه تميم أمور دولة الزيريين ، بدأت مظاهر الضعف والاضطراب تنتاب تلك الدولة نتيجة للغزوة الهلالية لبلاد المغرب . وعلى الرغم من أن جربة كانت من المناطق التى أعلنت خضوعها لتميم بن المعز ، الا أن أموره كانت معتلة فيها وفقا لما يذكره

---

(٤٤) التجانى : رحلة التجانى ص ١٢٥ .

(٤٥) ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، بيروت ١٩٨٠ ، تحقيق ليفى بروفنسـال و ج.س.كولان ، جـ١ ص ٢٧٥ .

ابن الخطيب[٤٦] . ولذلك ثار أهل جربة « وأظهروا العناد والفساد وأنشأوا مراكب يقطعون بها السبل على البحر على سائر السواحل»[٤٧]. منذ ذلك الوقت بدأت جربة فى الظهور كمعقل من معاقل القرصنة البحرية فى البحر المتوسط ، بحيث سيكون لجربة شأن كبير فى هذا المجال[٤٨].

وقد حاول الامير تميم بن المعز (٤٥٤ — ٥٠١هـ/١٠٦٢ — ١١٠٧م) التصدى لعمليات القرصنة البحرية التى يقوم بها أهل جربة ، خاصة وأنهم كانوا يغيرون على السفن الاسلامية والمسيحية على السواء ودون تمييز مما أدى الى قطع السبل على التجارة الواردة الى المهدية والصادرة عنها[٤٩] . ولذلك ففى عام ٤٩٩هـ/١١٠٦م « وجه السلطان تميم أبا الحسن الفهرى الى جزيرة جربة فى عدد جم وأسطول كبير ، فوجد أهلها قد أخذوا الاهبة له واستعدوا واستمدوا فلم يتم له شىء من أمرها »[٥٠] . وعلى الرغم من فشل تلك الحملة ، الا أن الزيريين لم يتخلوا عن فكرة اخضاع هذه الجزيرة لسيطرتهم الكاملة ، خاصة بعد أن أنشأ أهالى جربة السفن وقاموا بأعمال القرصنة كما سبق القول ،

---

(٤٦) لسان الدين بن الخطيب : اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور احمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص٧٨ .

(٤٧) التجانى : رحلة التجانى ص ١٢٥ .

(٤٨) من المعروف أن المعز بن باديس الصنهاجى انشق عن الخلافة الفاطمية وأعلن تبعيته للخلافة العباسية ، فهل قام الفاطميون بتحريض اهل جربة بالقيام باعمال القرصنة البحرية ضد الزيريين بالاضافة الى الغارات البرية بواسطة الهلالية ؟؟ .

(٤٩) محمد ابو راس : مقدمة كتاب مؤنس الأحبة ص٦٦ .

(٥٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٣٠٢

ويذكر التجانى أن أمر جربة واستصلاح أهلها قد استعصى على الامراء الزيريين برغم اتساع ملكهم وكثرة جيوشهم ووفرة أموالهم[51] . ولذلك فقد جهز الامير أبو الحسن علي بن يحيى بن تميم بن المعز (٥٠٩ — ٥١٥هـ/١١١٥ — ١١٢١م) حملة بحرية قوية عام ٥١٠هـ/١١١٦م بغية اخضاع هذه الجزيرة بالقوة والقضاء على المفسدين بها ، وقد أشار التجانى فى رحلته الى هذه الحملة بقوله : « لما ولى أبو الحسن ابن يحيى بن تميم بن المعز وذلك فى آخر سنة تسع وخمسمائة واستتب له أمره واستوثق ملكه ، أمر باعداد الاساطيل لغزو جزيرة جربة ، وحركه فى ذلك ما ترادف عليه من قطع أهلها فى البحر وأخافتهم المسافرين فيه ، فتم ذلك وقدم على الاسطول قائد الجيش ابراهيم بن عبيد الله وأصحابه من أهل الدولة للمشورة فلانا وفلانا وذلك سنة عشر وخمسمائة ، فحاصروها وأخذوا بمخنقها الى أن أقر أهلها بالطاعة للسلطان وانقادوا لأمره ونزلوا على حكمه ، وضمن شياخهم ومقدموهم قطع جميع الفساد الواصل الى ساحل افريقية من قطاعهم وأشرارهم ، وأن لا يتعدوا بمتاجرهم المهدية وأعلم السلطان بذلك ، فكف عنهم ورجع الاسطول وصلح البحر وارتفع الفساد وآمن المسافرون »[52] . وقد هنأ الشاعر ابن حمديس الصقلي الامير علي بن يحيى بهذا الفتح فى قصيدة طويلة يقول فى بعض أبياتها :

لأمر أدمت الحصر فى حرب جربة

وما حربها الا مداومة الحصر

---

(٥١) التجانى : رحلة التجانى ص١٢٦ .

(٥٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٥ — ١٢٦ — انظر كذلك : ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٣٠٦ الذى يشير الى ان هذه الغزوة تمت فى شهر جمادى الاولى عام ٥١٠هـ ، أما ابن خلدون (العبر جـ٦ ص٣٧٤) فيذكر أن هذه الغزوة تمت فى عام ٥٠٩هـ .

وتركك بالزرق اللهاذم أهلها
وبالبيض صرعى فى الجزيرة كالجزر
وما ضويقوا من قبل هذا وانما
بقدر التهاب النار تغلية القدر(٥٣)

ومن الواضح — طبقا لنص التجانى — أن هذه الحملة كان الهدف منها تأديب أهل جربة والقضاء على أوكار ومعاقل القرصنة البحرية بها ، بحيث خضعت جربة لسيطرة الزيريين واستمرت كذلك حتى استولى عليها النورمان عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م .

جربة والغزو النورمانى(٥٤) :

كان لسقوط صقلية فى أيدى النورمان سنة ٥٢٩هـ أثر كبير على الاحداث فى منطقة شمال افريقيا وبلاد المغرب ، فقد ارتبطت صقلية

---

(٥٣) ابن حمديس الصقلى : ديوان ابن حمديس ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ص٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٥٤) المقصود بالنورمان (أو النورثمن Northmen) مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة اسكنديناوه ، وهم ثلاثة شعوب : السويديون ، والنرويجيون والدانمركيون ، أصلهم من العنصر الجرمانى أو التيوتونى ، وكان النورمان أمة بحرية شنوا العديد من الغارات على غرب اروبا وغرب الاندلس ، وقد استقر قسم منهم فى غرب فرنسا فى الجزء الذى عرف فيما بعد باسم نورماندبا وذلك على عهد زعيمهم «روللو» Rollo وذلك عام ٩١١م ، حيث اعتنقوا المسيحية بعد ذلك وتركوا ديانتهم الوثنية . وقد اشتهر النورمان بحبهم للمغامرة والتوسع ، ولذلك فقد سار قسم منهم الى انجلترا واستولوا عليها ايام ملكهم وليم الفاتح (١٠٣٥ — ١٠٨٧م) واستقروا هناك ، فى حين اتجه قسم آخر الى جنوب ايطاليا الذى كان يموج بالاضطرابات والفتن ، وتتنازع عدة قوى للسيطرة عليه مثل البيزنطيين

بهذه البلاد بسبب موقعها الجغرافى والطبيعى ، وبسبب بعض التطورات التاريخية ، فمن بلاد المغرب غزا المسلمون صقلية ، والى بلاد المغرب رحل كثير من أهل صقلية المسلمين عقب سقوط صقلية فى أيدى النورمان[55] . وكانت جزيرة جربة منذ القديم منطقة صراع بين حكام السواحل الشمالية والجنوبية للقسم الغربى من حوض البحر المتوسط لاسيما من جانب حكام جنوب ايطاليا وصقلية . وقد أزدادت حدة هذا الصراع عقب استيلاء النورمان على صقلية . وكان روجر الثانى (١١١٣ — ١١٥٤م/٥٠٦ — ٥٤٩هـ) يحاول بشتى الطرق أن يجد لنفسه موضعا لقدم على السواحل التونسية ، وكانت جربة هى المكان المناسب له بفضل موقعها الجغرافى وسط البحر وقربها من السواحل التونسية . ويستطيع اذا تمكن من الاستيلاء عليها أن يتخذها رأس جسر لعملياته المقبلة ضد بقية مدن ساحل شمال افريقيا . كما يمكنه التحكم فى التجارة البحرية فى هذا الجزء من البحر المتوسط . وقد

= واللمبارديين والمسلمين ، وقد تمكن النورمان أن يجدوا لأنفسهم موضعا لقدم فى جنوب ايطاليا عندما أسسوا مدينة افرسا Aversa عام ١٠٣٠م . وتولى أفراد أسرة هوتفيل Houteville حكم النورمان فى جنوب ايطاليا . وقد تمكن روجر الاول بمساعدة اخيه روبرت جيسكارد من الاستيلاء على صقلية وانتزاعها من ايدى المسلمين وذلك عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م . ومن صقلية أخذ النورمان يشنون هجماتهم على السواحل التونسية المقابلة مثل جربة والمهدية وطرابلس . راجع : د. سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨١ (الطبعة الثامنة) جـ١ ص٣٢٧ — ٣٣٢ — د. محمد محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية فى اوربا فى العصور الوسطى. الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص٣٠٧ — ٣٢٠ .

(٥٥) اومبرتو ريتشيتانو : النورمنديون وبنو زيرى من الفتح النورمندى لصقلية حتى وفاة روجر الثانى ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الاول ١٩٤٩ ص١٩٢ — ١٩٣ .

ساعدت الظروف النورمان على تحقيق ذلك ، فجزيرة جربة كانت تخضع اسميا للزيريين الذين كانوا يعانون من الضعف ، بالاضافة الى انشغالهم بصراعهم ضد بنى عمومتهم بنى حماد ، كذلك استغل روجر الثانى التحاق جرجس بن ميخائيل الانطاكى فى خدمته ، وعهد اليه بمهمة مهاجمة السواحل التونسية — ومن ضمنها جربة — • ومن المعروف أن جرجس هذا كان قد عمل لدى الامير تميم بن المعز أمير الزيريين فترة من الوقت ، ثم رحل من المهدية الى صقلية حيث دخل خدمة روجر الثانى الذى استغل معرفة جرجس باللغة العربية وخبرته بالسواحل التونسية وعهد اليه بقيادة الاساطيل النورماندية المغيرة على السواحل التونسية • وتجمع المصادر العربية على أن روجر الثانى أرسل اسطوله لغزو جزيرة جربة عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م[٥٦] ، ولا بأس هنا أن نورد نص ابن الاثير حول هذا الهجوم النورماندى على جزيرة جربة نظرا لأهميته وكثرة التفصيلات التى يوردها ، يقول ابن الاثير : « كانت جزيرة جربة قد استوت فى كثرة عمارتها وخيراتها، غير أن أهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ، ويعرفون بالفساد وقطع الطريق ، فخرج اليهم جمع من الفرنج أهل صقلية فى أسطول كثير وجم غفير ، فيه من مشهورى فرسان الفرنج جماعة ، فنزلوا بساحتها وأداروا المواكب بجهاتها ، واجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا ، فوقع بين الفريقين حرب شديدة ، فثبت أهل جربة ، فقتل منهم بشر كثير ، فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة ، وغنموا أموالها وسبوا نساءها

---

(٥٦) ابن الاثير : الكامل جا١ ص٣٢ — التجانى : رحلة التجانى : ص١٢٦ — ابن خلدون : العبر ج٦ ص٣٧٤ . النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ، القسم الخاص بالمغرب تحقيق مصطفى ابو ضيف ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥ ص٣٦٨ . اما ابن عذارى فيذكر ان غزو جربة تم عام ٥٣٠هـ . البيان المغرب ، جا ص٣١٢ .

وأطفالها ، وهلك أكثر رجالها ، ومن بقى منهم أخذوا لأنفسهم أمانا من رجار ملك صقلية ، وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم »[٥٧] .

ويتضح من النص السابق أن أهالى جربة قاوموا الغزو النورماندى قدر استطاعتهم ، ولكن هذه المقاومة لم تجد شيئا أمام تفوق الاسطول النورماندى ، كما يوضح النص أيضا أن أهالى جربة استعادوا أسراهم بعد أن أخذوا أمانا لأنفسهم من روجر الثانى صاحب صقلية .

على أية حال خضعت جربة لسيطرة النورمان الذين تركوا بهـا حامية عسكرية كبيرة ، كما اتخذوا من سواحلها مرفأ لسفنهم وأساطيلهم . والواقع أن سير الاحداث فى الاعوام التالية يدل على أن احتلال جربة كان جزءا من خطة وضعها روجر الثانى لاحتلال السواحل التونسية والجزائرية[٥٨] . فمن هذه الجزيرة (جربة) سدد الاسطول النورماندى ضرباته الى جيجل[٥٩] عام ٥٣٨هـ/١١٤٣م . ثم شن هجوما عنيفا على الموانىء الصغيرة الموجودة بين شرشال وتنس ، ثم استولى على جزيرة

---

(٥٧) ابن الاثير : المصدر السابق جـ١١ ص٣٢ . النويرى : نهـايه الارب ص٣٦٨ ، ويكاد نص النويرى يتطابق مع نص ابن الاثير السالف مما يرجح انه ينقل عنه هذا الخبر .

(٥٨) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ترجمة أمين توفيـق الطيبى ، ليبيا ١٩٨٠م ، ص٦٧ .

(٥٩) جيجل : مدينـة حصينة من مدن الساحل الشرقى للجـزائر . لا تبعد كثيرا عن مدينة بجاية (حوالى ٥٠ ميلا) ، اشتهرت بانتاج التفاح والكروم والفواكه ، وقد سكنها اقوام من قبيلة كتامة اعتمد عليهم أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين فى المغرب عند بداية دعوته للشيعة الفاطمية . راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الامصار ، تحقيق د. سعد زغلـول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص١٢٨ . الحميرى : الروض المعطار ص١٨٤ .

قرقنه[٦٠] عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م ، وأخيرا طرابلس الغرب عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م[٦١] .

ولكن أهل جربة لم يستسلموا للاحتلال النورماندى لجزيرتهم وان تأخر تنظيم حركة المقاومة نحو عشرين عاما ، فقاموا فى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م بثورة كبرى ضد هذا الاحتلال ، وقد أورد التجانى بعض التفصيلات المفيدة حول ثورة أهل جربة تلك ، فيذكر أنه فى عام ٥٤٨هـ « ثار أهلها على النصارى وقتلوا منهم جماعة كثيرة فغزاهم النصارى من عامهم وتغلبوا على الجزيرة ثانية فنقلوا أكثر أهلهـا سبايا الى بلادهم ولم يبقوا الا من لا بال له »[٦٢] . ومن الواضح أن ثورة أهل جربة كانت عنيفة وأنهم تمكنوا من قتل عدد كبير من النورمان ، الا أن هؤلاء تمكنوا من استعادة سيطرتهم على الجزيرة بعد أن نكلوا بأهلها، كما قاموا بنقل العديد من سكانهـا الى صقلية واسترقوهم وباعوهم عبيدا فى أسواقها[٦٣] . ولكن جربة لم تستمر طويلا فى قبضة النورمان

---

(٦٠) جزيرة قرقنه (وتسمى سرسناى فى العصر القديم) : جزيرة تقع فى عرض البحر أمام مدينة صفاقس وصفها الحميرى بأنها عامرة بأهلها وليس بها مدينة وتشتهر بزراعة الكروم . راجع : البكرى : المغرب ص ٢٠، ص٨٥ ، الحميرى : المصدر السابقص٤٦١ .

(٦١) ابن الاثير : المصدر السابق جا١ ص١٠٦ .

(٦٢) التجانى : المصدر السابق ص١٢٦ .

(٦٣) من الشخصيات الاسلامية التى اسرها النورمان واصطحبوها معهم الى صقلية شخصية القائد احمد الصقلى ، وهذا القائد أصله من قبيلة صدغيان الموطنين بجربة من سدويكش ، وقد استخلصه روجر الثانى صاحب صقلية لنفسه واعتنى به ، فلما توفى روجر الثانى خشى احمد الصقلى على نفسه من بطش الملك وليم الاول الذى خلف اباه فى حكم صقلية ، ففر الى تونس حيث انضم الى الموحدين ، وقد اهتم الخليفة الموحدى =

حيث خرجت عن أيديهم عام ٥٥١هـ/١١٥٦م[٦٤] . ولم يحدو التفكير فى استعادتها نظرا لانشغالهم بالصراع ضد كل من البيزنطيين والامبراطور فريدريك الاول (بربروسا)[٦٥] ، كما أن ظهور الموحدين على مسرح الاحداث ، ووصول الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على الى المغرب الاوسط لتطهير السواحل التونسية من يد النورمان . كل ذلك أدى الى عودة جربة وغيرها من مدن الساحل التونسى الى حظيرة الاسلام ، وقد عين عبد المؤمن بن على على جربة من يقوم بأمورها تحت اشراف والى تونس[٦٦] .

جربة فى عهد الموحدين :

منذ آن استعاد عبد المؤمن بن على سواحل افريقية والمغـــرب الاوسط من أيدى النورمان ، استقاءت هذه البلاد للموحدين ، بيد أن المصادر لا تذكر لنا شيئا عن جربة فى ظل الموحدين ، مما يدل على خضوعها لهم تماما . ولكن حدث فى عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م فى أواخر عهد الموحدين أن تعرضت الجزيرة لهجوم بحرى من قبل اسطول صقلية ، وقد اختلف الباحثون حول الدافع وراء هذا الهجوم ، فقد ذكر البعض أن الامبراطور فريدريك الثانى قام بحملته تلك لأنه كان يرمى الى

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بهذا القائد وقلده أمر اساطيله ، فكانت له مواقف مشهودة فى الجهاد ضد النصارى . راجع : ابن خلدون : مقدمة كتاب العبر ص٢١٣ د.أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغــرب والاندلس ص٣٤٦ .

(٦٤) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٢٠٣ .

(٦٥) حول الصراع بين وليـــم ملك صقلية والبيزنطيين والامبراطورية الغربية راجع : محمد محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية ص٣٢٨ــ ٣٢٩.

(٦٦) التجانى : المصدر السابق ص١٢٦ .

ضمان سوق لتصدير الحبوب الصقلية ، ومنافسة الجمهوريات الايطالية في المعاملات التجارية[٦٧] • في حين ذهب البعض الآخر الى أن حملة فريدريك على جربة كان الغرض منها الانتقام من مسلمي جربة وشمال افريقيا الذين مدوا يد المساعدة للمسلمين في صقلية الذين أشعلوا نيران الثورة ضد الامبراطور فريدريك[٦٨] ، وقد اضطر هذا الاخير في الفترة ما بين ٦١٩هـ/١٢٢٢م و ٦٢١هـ/١٢٢٤م الى اتخاذ اجراءات عنيفة ضد مسلمي صقلية حتى أجبرهم على الاستسلام ، حيث قام بترحيلهم الى مدينة لوشره Lucera في مقاطعة أبوليا Apulia • وقد قام أسطول فريدريك بحملته السالفة على جربة وعاث فسادا فيها حيث قتل العديد من الرجال والنساء ، كما قام بنقل الكثير من سكانها الى لوشره[٦٩] ثم عاد الاسطول الى صقلية بعد أن خرب جربة •

جربة والحفصيون :

انتقلت تبعية جربة للحفصيين عندما تمكن هؤلاء من الاستقلال ببلاد افريقية عن الموحدين وذلك عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م على يد أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ، وظل ولاة الحفصيين يحكمون الجزيرة • ويبدو أن حملة فريدريك الثاني التي أشرنا اليها قد نالت كثيرا من عزيمة أهل جربة ، فمالوا الى الاستكانة لسلطة الحفصيين ، ولكن الى حين ، فقد حدث في عام ٦٨١هـ/١٢٨٣م أن خلع أهل جربة طاعة السلطان الحفصي أبي اسحاق ابراهيم بن يحيى (٦٧٨ —

---

(٦٧) روبرت برنشفيك : تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، جـ١ ص٥٥ •

(٦٨) حول ثورة مسلمي صقلية بزعامة محمد بن عباد ضد الامبراطور فريدريك الثاني راجع : الحميري : الروض المعطار (مادة انطاله) ص ٤٠ — ٤١ •

(٦٩) عزيز احمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ص٩٦ •

٦٨١هـ/١٢٧٩ — ١٢٨٣م) وأرسلوا ببيعتهم الى أحمد بن مرزوق بن عمارة المسيلى الذى أدعى أنه الامير الفضل بن يحيى الواثق الحفصى ، وقد ظلت جربة تحت طاعة هذا الدعى حتى استولى عليها الاراجونيين عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م [٧٠] .

سقوط جربة فى أيدى الاراجونيين :

تأثرت جربة تأثرا شديدا بتغير الاوضاع السياسية والحربية فى حوض البحر المتوسط وجنوب ايطاليا فى نهاية القرن السابع الهجرى (١٣م) ، فقد عملت مملكة أراجون على بسط سيطرتها على هذا الجزء من البحر المتوسط ، بالاضافة الى رغبة ملوكها — وخاصة بدرو الثالث Pedro III — فى بسط نفوذهم على جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . ولاشك أن العامل الاقتصادى كان الباعث الاول لهذه التغيرات ، فأراجون كقوة بحرية كبرى ، لها مصالح تجارية قوية مع دول البحر المتوسط ، وتلقى منافسة شديدة فى هذا المجال من الجمهوريات الايطالية، كانت ترغب فى كسب مواقع استراتيجية لها على سواحل البحر المتوسط. وقد أدى ذلك الى اصطدامها بجيرانها من المسلمين والمسيحيين على السواء . ولتحقيق سياسة أراجون التوسعية ، رأى بدرو الثالث أن يتخذ عدة اجراءات لذلك ، فبدأ أولا بمصاهرة الامير مانفريد دى هوهنشتوفن صاحب صقلية وجنوب ايطاليا حيث تزوج ابنته الاميرة كونستانس [٧١] ، فلما ماتت هذه الاميرة طالب بدرو الثالث بارث زوجته

---

(٧٠) راجع : ابن خلدون : العبر ج٦ ص٣٠٢ — ابن القنفذ القسنطينى : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ، تونس ١٩٦٨ ص١٤١ — ١٤٤ — الزركشى : (ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى) ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ١٢٨٩ ص ٣٥ .

(٧١) د. سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ج١ ص٥٥٩ .

فى صقلية التى سبق أن استولى عليهـا شارل دانجو عام ١٢٦٦م/ ٦٦٤هـ بمساعدة البابا كليمنت الرابع[٧٢] (١٢٦٥ — ١٢٦٨م/٦٦٣ — ٦٦٧هـ) . وقد أدرك بدرو الثالث ملك أراجون أنه اذا أراد الوصول الى هدفه فى ضم صقلية الى تاج أراجون ، فانه يتعين عليه الدخول فى مواجهة مسلحة مع آل آنجو ، ولذلك عول على أن يجد لنفسه موضعا لقدم على سواحل افريقية القريبة من صقلية . وقد حاول بدرو الثالث بشتى الطرق الوصول الى ذلك ، فقد ساعد القائد أبا بكر بن الوزير والى قسنطينة فى ثورته ضد السلطان الحفصى أبى اسحاق ابراهيم ابن يحيى (٦٧٨ — ٦٨١هـ/١٢٧٩ — ١٢٨٣م) ، ثم هاجم أسطوله مدينة القل على الشاطىء الجزائرى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م لمساعدة القائد ابن الوزير[٧٣] . ولكن الظروف سرعان ما تغيرت لصالح ملك أراجون الذى استولى على صقلية وانتزعها من يد آل آنجو وذلك عام ١٢٨٢م. بيد أن أطماع بدرو الثالث لم تقف عند هذا الحد ، بل أراد أن يستكمل خطته الرامية الى بسط سيطرته على غرب البحر المتوسط وذلك عن طريق

---

(٧٢) من المهم أن نوضح هنا ان البابوية كانت قد خرجت فى هذه الفترة ظافرة فى نزاعها الطويل الذى استمر فترة طويلة مع اباطرة الدولة الرومانية من اسرة هوهنشتوفن ، وبالتالى اعتبرت البابوية نفسها قيمة أو وصية على اراضى هؤلاء الاباطرة فى جنوب ايطاليا وصقلية — ولكن مانفرد دى هوهنشتوفن رفض الاعتراف بمطلب البابوية ، مما دفع البابوية الى عرض مملكة صقلية على شـارل دآنجو Charles D'Anjou ليحكمها كتـابع للبابوية ، وقد قبل شارل هذا العرض وغزا صقلية وقتل مانفرد وحكـم الجزيرة ، وقد ظلت صقلية تحت حكم آل آنجـو حتى استولى عليها بدرو الثالث ملك اراجون عام ١٢٨٢م . راجع : د. سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى جـ١ ص٥٥٩ — ٥٦٠ .

(٧٣) راجع : ابن خلدون : العبر : جـ٦ ص ٣٠٠ — ٣٠١ — ابن القنفذ: الفارسية ص١٣٩ .

الاغارة على ممتلكات الحفصيين الذين لم يعترفوا بسيادة أراجون على صقلية وذلك نظرا للصداقة العميقة التى كانت تربطهم بآل آنجـو أصحاب صقلية وجنوب ايطاليا السابقين(٧٤) • وعلى ذلك فقد سمح حاكم مسينا الامير خايمى الصقلى (الذى تولى عرش أراجون فيما بعد باسم خايمى الثانى) للقـائد البحرى القطلانى روجـير دى لوريا Roger de Lauria بشن هجوم بحرى كبير على جزيرة جربة التونسية عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م • والواقـع أن أحوال الدولة الحفصية فى ذلك الوقت ، وما كان يعتريها من مظاهر الضعف نتيجة للصراع الدائر بين الامراء حول العرش ، بالاضافة الى ضعف تحصينات جزيرة جربة من ناحية وكثرة خيراتها من ناحية أخرى ، كل ذلك جعل جربة هدفا سهل المنال بالنسبة للاراجونيين(٧٥) • زد على ذلك أهمية موقع الجـزيرة بالنسبة للساحل التونسى حيث يمثل هذا الموقع قاعدة بحرية جيـدة للتجارة أو للقرصنة(٧٦) •

وتصور الروايات المسيحية عملية غزو روجير دى لوريا لجربة على أنها تمت بمبادرة فردية منه ولحسابه الخاص ، برغم أنه حصل على موافقة الامير خايمى أمير صقلية ، فقد دفع دى لوريا نفقـات وتسليح وتجهيز عشرين سفينة بجنودها من ماله الخاص(٧٧) • وقد هاجم دى لوريا جزيرة جربة مرتين : الاولى فى مارس ١٢٨٤م/محرم

---

(٧٤) روبرت برنشفيك : تاريخ افريقية فى العهـد الحفصى : جـ١ ص١٢٤ •

(٧٥) DuFourcq (Charles-Emmanuel) : L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles, Paris 1966, p. 264.

جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية جـ٢ ص٨٣ •

(٧٦) روبرت برنشفيك : المرجع السابق جـ١ ص ١٢٥ •

(٧٧) نفس المرجع السابق والصفحة •

٦٨٣هـ حيث استولى على الكثير من الغنائم ، كما أسر عددا من سكانها المسلمين[٧٨] • وبرغم ذلك فلم يؤد هذا الهجوم الى الاستيلاء على الجزيرة بفضل حصانتها الطبيعية نظرا لكثرة تعرج سواحلها ، كذلك قاوم أهل جربة الاسطول القطلانى مقاومة عنيفة تحت قيادة مرغم بن صابر زعيم قبيلة دباب ، ولكن القطلانيين تمكنوا من أسر مرغم ، وأرسل الى صقلية ثم الى برشلونة[٧٩] • وتستطرد الرواية المسيحية فتقول أن هجوم دى لوريا على جربة توقف فترة من الوقت (من مارس حتى سبتمبر — أكتوبر من نفس العام) وأن هذا التوقف كان سببه تلك المفاوضات التى جرت بين أهالى جربة والقائد دى لوريا ، وقد طلب الجربيون الامان من بدرو الثالث ، كما طلبوا الافراج عن مرغم بن صابر • وعلى الرغم أن مرغم عرض على القطلانيين أربعة عشر ألف دينار كفدية له ، الا أن هذه المفاوضات لم تسفر عن شىء •

المرة الثانية تمت فى نهاية شهر سبتمبر وبداية أكتوبر ١٢٨٤م/ رجب — شعبان ٦٨٣هـ حينما عاود دى لوريا الهجوم على جربة ، وتعترف المصادر المسيحية بقسوة هذا الهجوم ، حيث لم يرحم دى لوريا امرأة ولا طفلا رضيعا ، وعندما حاول بعض سكان الجزيرة مغادرتها الى الساحل التونسى ، قطع أسطول دى لوريا عليهم الطريق ، فوقعوا أسرى فى أيدى القطلانيين الذين أرسلوهم الى صقلية حيث بيعـــوا هناك كعبيد ، أما الذين بقوا فى جربة فقد عاملهم القطلانيون كرقيق[٨٠] •

---

(٧٨) ذكر مونتانر **Muntaner** فى حوليته ان عدد الاسرى المسلمين بلغ عشرة آلاف اسير مسلم ، وهذا الرقم مبالغ فيه بلا شك • راجع :
Dufourcq, op. cit. p. 265 et note No. 4.

(٧٩) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٣٠٨ •

(٨٠) روبـــرت برنشـــفيك : المرجـــع الســـــابق جـ١ ص ١٢٥ —

أما الرواية الاسلامية فلا تمدنا الا بتفصيلات قليلة ، كما أن هناك اختلافا فيما بينها حول تاريخ حملة دى لوريا على جربة ، فابن القنفذ القسنطينى يذكر أن تاريخها هو ٦٨٣هـ أى نفس التاريخ الذى ذكرته المصادر والمراجع المسيحية ، حيث يقول « وفى السنة التى بويع فيها أبو حفص (هو السلطان أبو حفص عمر بن يحيى الواثق ٦٨٣هـ — ٦٩٤هـ/يوليو ١٢٨٤ — أكتوبر ١٢٩٥م) وهى سنة ثلاث وثمانين وستمائة أخذ النصارى جزيرة جربة ، وأسروا من الشاب القوى والشابة الحسناء ثمانية آلاف وقتلوا الصغار ونهبوا الامتعة والاموال والزيت والزبيب ، فحملوا الى سفنهم التى هى نحو السبعين وفى سفن الجزيرة التى هى نحو الثلاثين »[٨١] .

أما التجانى فبرغم أنه كان طفلا عندما وقع غزو جربة ، وبالتالى فهو قريب جدا من الحوادث ، فقد ذكر أن هذه الغزوة وقعت عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م حيث قال « وكان تغلبهم عليها فى هذه المدة الاخيرة سنة ثمان وثمانون وستمائة بسبب انشغال ملك الحضرة اذ ذاك رحمه الله ببعض الثائرين »[٨٢] . أما ابن خلدون فيذكر نفس التاريخ الذى ذكره التجانى وأورد بعض التفصيلات التى لم ترد فى المصادر العربية الاخرى حيث يقول : « كان من أعظم الحوادث تكالب العدو فى أيام هذا السلطان (أبو حفص عمر) على الجزر البحرية ، فاستوت أساطيلهم على جزيرة جربة فى رجب سنة ثمان وثمانين (٦٨٨هـ) ورياستها يومئذ من محمد بن سمومن شيخ الوهبية ويخلف بن امغار

Dufourcq : op. cit. P. 265. وقد نقل كل من برنشفيك وديفورك معلوماتهما عن الحوليات الجنوية Annales Januenses ، الجزء الثامن ص١٣٧ — ١٣٨ .

(٨١) ابن القنفذ القسنطينى : الفارسية ص١٤٩ — ١٥٠ .

(٨٢) التجانى : رحلة التجانى : ص١٢٦ .

شيخ النكارية وهى فرقتا الخوارج ، وزحف اليهـا المراكيا صاحب صقلية نائبا عن العدريك بن انبريداكون ملك برشلونة شاطئة البحر ، وكانوا فيما قيل سبعين اسطولا من غربان وشوانى وضايقهم مرارا ، ثم تغلبوا عليها ، فانتهبوا أموالها وحملوا أهلها أسرا وسبيا ، فقيل أنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضف فى الجيوب »[٨٣] .

ومن الواضح أن رواية ابن خلدون لا تختلف كثيراً عن رواية ابن القنفذ القسنطينى الا فى مسألة تاريخ هذه الغزوة ، وان امتازت رواية ابن خلدون عن غيرها من الروايات الاسلامية بكثرة تفصيلاتها ، فقد أشارت الى أن رئاســـة جزيرة جربة كانت موزعة بين الوهبية والنكارية ، كما ذكرت أيضا أن غزو جربة تم على يد حاكم صقلية ، وهذا ما تحاول الرواية المسيحيه نفيه والادعاء بأن هذا الهجوم تم بمبادرة شخصية من القائد دى لوريا .

أما اذا ما قارناً بين الروايتين المسيحية والاسلامية ، فيمكننا القول أن الاختلاف بينهما يكاد يكون قليلا ، اذ أننا لو طرحنا جانبا مسألة تاريخ هذه الغزوة (هل ٦٨٣هـ أم ٦٨٨هـ ؟) لوجدنا أنهما تتفقان على أن الهجوم على جربة قد تم بواسطة اسطول قطلانى وقائد قطلانى وبموافقة حاكم صقلية الاراجونى الامير خايمى ابن الملك بدرو الثالث، كما تتفق الروايتان على ذكر الاعمـــال الوحشية التى ارتكبها رجال الاسطول القطلانى ضد أهالى جربة ، وحمل عدد كبـير من الرجال والنساء من أهلهـــا الى صقلية حيث بيعوا هنـــاك كرقيق . أما عن الاختلاف بين هاتين الروايتين فيتمثل فى أن الرواية المسيحية أشارت الى أن عدد الاسرى بلغ عشرة آلاف فى حين أن الرواية الاســـلامية اكتفت بثمانية آلاف ، والرواية المسيحية تلقى تبعة هذه الحملة على

---

(٨٣) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ٣٠٥ ، ص٣٧٤ .

كاهل دى لوريا شخصيا ، فى حين أن الرواية الاسلامية تشير صراحة الى أن هذا الهجوم تم على يد حاكم صقلية ، وهنـاك اختلاف آخر ويتمثل فى عدد السفن القطلانية التى شارت فى الهجوم على جربة فالحوليات الجنوية أشارت الى أن عدد هذه السفن حوالى عشرين فى حين أن ابن القنفـذ نص على أن عدد سفنهم بلـغ سبعين سفينة بالاضافة الى ثلاثين استولوا عليها من أهل جربة •

وكيفما كان الامر ، فان الروايتـين تكمـل كل منهما الاخرى ، ولا يبق الا مسألة الاختلاف حول تاريخ هذه الغزوة ، وان كنا نميل الى الاخذ بالتاريخ الذى ذكرته الرواية المسيحية على أسـاس أن ابن القنفذ القسنطينى قد أيد ذلك التاريخ أيضا وهو ٦٨٣هـ ، كما أن أحوال الدولة الحفصية فى هذا العام بالذات كانت مضطربة ، فقـد استولى الدعى ابن أبى عمارة على تونس حاضرة الحفصيين بعد أن هزم السلطان الحفصى أبا اسحاق ابراهيم وابنه الامير أبا فارس ، ولكن الامير أبا حفص (السلطان فيما بعد) ابن السلطان أبى اسحاق ابراهيم تصدى لهذا الدعى ودخل فى عدة معارك معه حتى استطاع القضاء عليه فى ربيع الآخر عام ٦٨٣هـ/يونيو ١٢٨٤م • وبالطبع لم يكن الملك بدرو الثالث ملك أراجون بعيدا عن تلك الحوادث[٨٤] ، وأراد أن يستغل تلك الظروف الصعبة التى تمر بهـا دولة الحفصيين لتحقيق أهدافه التى سبق أن أشرنا اليها •

جـربة وأسـرة دى لوريا :

بعد أن تمكن القائد روجير دى لوريا من احتلال جربة ، اتخذ

---

(٨٤) سبق ان اشرنا الى تدخل بدرو الثالث الى جانب ابن الوزير الثائر بقسنطينة ضـد السلطة الحفصية ، والهجـوم الذى شنه اسطول اراجون ضد مدينة القل الجزائرية •

عددا من الاجراءات التى تمكنه من بسط سيطرته على الجزيرة تماما ؛ ومن أهم هذه الاجراءات بناؤه لحصن ضخم على الساحل الجنوبى الشرقى لجربة عند مدخل مضيق القنطرة وشحنه بالرجال والسلاح ، هذا الحصن عرف فى المصادر العربية باسم القشتيل (من الكلمة الاسبانية Castillo بمعنى حصن) • وقد أشادت هذه المصادر بقوة ومنعة هذا الحصن ، فالتجانى — الذى شاهد هذا الحصن بنفسه — يصفه بقوله « يهول الناظر اتقانا وحصنا ، وهو مربع الشكل وفى كل ركن منه برج ، فاثنان منهما مستديران واثنان مثمنان وبين كل برجين من هذه فى وسط الحائط برج صغير مربع ويدور به فيصل صغير ويدور بجميع ذلك حفر متسع »(٨٥) • ولا يختلف وصف ابن خلدون لهذا الحصن كثيرا عن وصف التجانى(٨٦) • كما ألزم دى لوريا سكان جزيرة جربة بأن يؤدوا له مائة ألف دينار سنويا كجزية(٨٧) •

ولاشك أن استيلاء القطلانيين على جزيرة جربة كان له انعكاسات مهمة على العلاقات السياسية بين أراجون وتونس، فقد عمل الاراجونيون على توطيد سلطتهم على هذه الجزيرة كى تصبح نقطة ارتكاز لحماية مصالحهم سواء فى صقلية أو على السواحل التونسية • ولما كانت هذه المصالح فى أغلبها تجارية ، فانه وفى ظل المنافسة الشديدة بين أراجون والجمهوريات الايطالية ، استغل بدرو الثالث هذا الوضع الجديد وقرب قواته من الشاطىء التونسى ، فى الضغط على السلطات الحفصية ليحصل على مزيد من الامتيازات للتجارة الاراجونية فى الاراضى التونسية • ويتجلى ذلك الضغط بصورة واضحة فى المعاهدة التى أبرمها مع السلطان الحفصى أبى حفص عمر فى السابع والعشرين من ربيع الاول عام

---

(٨٥) التجانى : المصدر السابق ص١٢٨ •

(٨٦) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٣٠٦ ، ص٣٧٤ •

(٨٧) نفس المصدر السابق ص٣٠٦ •

٦٨٤هـ/الثانى من يونيو ١٢٨٥م (أى بعد احتــلال الجزيرة بعدة أشهر) ، هذه المعاهدة اشتملت على أربعة وأربعين بندا أعطت العديد من الامتيــازات للتجـــار والرعايا الاراجونيـــين فى أراضى الدولة الحفصية[٨٨] ، كما تنازلت الدولة الحفصية عن الكثير من حقوقها تجاه التجارة الاراجونية بموجب هذه المعاهدة ، والواقع أنه لم يكن من السهل على الدولة الحفصية أن تتنازل عن حقوقها بمثل هذا الشـــكل الذى ورد فى بنود المعاهدة لولا الضغط العسكرى الذى مارسه بدرو الثالث على الحفصيين نتيجة لاحتلال القائد روجير دى لوريا لجزيرة جربة .

واستمرارا للسياسة الاراجونية تجاه الدولة الحفصية ، فقــد استغل دى لوريا موقعه فى جزيرة جربة وأخذ فى شن الهجمات المتتالية على مدن الساحل التونسى ، ففى عام ٦٨٥هـ استولى على جزيرة قرقنة التونسية ، كما شن الاسطول القطلانى هجمات تخريبية على مرسى الخزر وجزيرة ريس والمهدية[٨٩] . كما شارك الاســطول القطلانى المرابط فى جربة فى أحداث الثورة التى أشعل نيرانها الامير عبد الواحد ابن أبى دبوس أدريس آخر خلفــاء الدولة الموحدية ، وكان الامير عبد الواحد قد فر من مراكش عقب اجتياح المرينيين لعاصمة أبيه عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م ، ولجأ الى بلاط خايمى الاول ملك أراجون (١٢١٣ ــ

---

(٨٨) De Mas Latrie : Traités et Documents divers concernant les relations des Chrétiens et des Arabes au Moyen_Age, Paris 1889, Section : Royaume D'Aragon, Doc. No. IV, pp. 286-290.

(٨٩) روبرت برنشفيك : تاريخ افريقية فى العهد الحفصى ، جا ص١٢٩ــ محمد العروسى المطوى ، السلطنة الحفصية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص٢٧٣ ــ ص٢٧٤ .

١٢٧٦م/٦١٠ — ٦٧٥هـ) صحبة أخيه أبى سعيد عثمان . وقد استغل ملك أراجون ألفونسو الثالث (١٢٨٥ — ١٢٩١م/٦٨٤ — ٦٩٠هـ) وجود هذين الاميرين فى بلاطه ، وقرر ارسالهما الى افريقية للمطالبة بالعرش الحفصى باعتبارهما من سلالة الموحدين . وكان ألفونسو الثالث يهدف من وراء ذلك الى اثارة مزيد من المتاعب فى وجه السلطان الحفصى أبى حفص عمر ، خاصة وأن ألفونسو الثالث اتفق مع الامير عبد الواحد على أن تقدم أراجون عدة سفن مجهزة بالجنود والمؤنة لمساعدته فى حربه ضد الحفصيين ، ولم تكن هذه السفن سوى جزءا من سفن الاسطول القطلانى المرابط فى جربة بقيادة دى نوريا . كما أرسل ألفونسو الثالث مرغم بن صابر زعيم دباب والذى كان أسيرا لديه لكى يساعد هو وقبيلته الأمير الموحدى فى صراعه ضد السلطان أبى حفص. وبالفعل نزل الامير عبد الواحد فى جهة طرابلس عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م وحاول التقدم للاستيلاء على حاضرة الحفصيين ، ولكن نزاعا — فيما يبدو — نشب بين المسلمين وحلفائهم النصارى ، فانسحب الاسطول القطلانى بقيادة دى لوريا وعاد الى جربة بعد أن تسلم فدية مرغم بن صابر . وبعد فترة قليلة توفى الامير عبد الواحد وقام أخوه الامير عثمان بالمطالبة بالعرش ، بيد أنه دب خلاف كبير بينه وبين مرغم بن صابر وحلفائه من العرب ، وبالتالى وجد نفسه وحيدا فى الميدان ، فرحل الى جزيرة جربة حيث توفى هناك ، أما أبناؤه فقد انتقلوا الى تونس[٩٠] .

وهكذا نرى أن خضوع جربة لسيطرة الاراجونيين كان له اسوأ الاثر على السواحل التونسية والدولة الحفصية ، ولذلك تمسك حكام أراجون بهذه الجزيرة وعملوا على ابقائها تحت سيطرتهم بشتى الطرق لتنفيذ سياستهم تجاه الحفصيين . وعلى الرغم من أن جربة لم تتبع

---

(٩٠) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٣٠٨ — ٣٠٩ .

تاج أراجون بصفة رسمية ، الا أن حاكم صقلية خايمى الاراجونى كان يعتبرها هى وجزيرة قرقنة من أملاكه(٩١) ، وبناء على ذلك كان لأراجون حقوق على جزيرة جربة بصورة أو بأخرى(٩٢) . ولكن حدث فى عام ١٢٩٥م/٦٩٥هـ أن أعلن البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII أنه عهد بجزيرتى جربة وقرقنة للقائد القطلانى روجير دى لوريا ولأبنائه من بعده على سبيل الاقطاع فى مقابل أن يؤدى دى لوريا للبابوية مبلغا سنويا قدره خمسون أوقية من الذهب(٩٣) .

استمر دى لوريا حاكما على جربة — برغم أنه لم يكن يقيم بها بصفة دائمة — حتى توفى بقطالونيا فى يناير عام ١٣٠٥م/جمادى الآخر ٧٠٤هـ ، فخلفه ابنه روجير الثانى على حكم الجزيرة ، ولكن هذا الاخير لم يكن فى حزم وشدة أبيه ، بل على العكس كان شخصية ضعيفة ، بالاضافة الى أنه ترك جربة وأقام فى ايطاليا تاركا أمر هذه الجزيرة فى أيدى القـادة العسكريين ، وعين حاكما عاما عليهـا وهو القـائد « ايخيديو مارتين » Egidio Martin (٩٤) . ولذلك انتهز أهالى جربة هذه الفرصة . وثاروا ضد المحتلين القطلان . وقد وجد الحفصيون فى هذه الثورة فرصة مواتية لانهاء الاحتلال القطلانى لجربة ، وعلى هذا

---

(٩١) روبرت برنشفيك ، المرجع السابق جـ١ ص١٣٣ .

(٩٢) Angeles Masia de Ros : La Corona de Aragon Y Los estados del norte de Africa, Barcelona, 1951, p. 70.

(٩٣) راجع نص المرسوم البابوى الذى اصدره البابا بونيفاس الثامن فى الحادى عشر من اغسطس عام ١٢٩٥م (١٠ شوال ٦٩٥هـ) والخاص بمنح روجير دى لوريا جزيرتى جربة وقرقنة كاقطاع له ولابنائه من بعده فى: Mas Latrie : op. cit. Docum. Section : Lettres et bulles des Papes, Doc. No. XIX, pp. 18-19.

(٩٤) DuFourcq : L'Espagne Catalane, p. 431.

الاســـاس طلب شـــيخ الموحدين أبو يحيى زكريا بن اللحيـــانى من السلطان الحفصى أبى عصيده محمد بن يحيى الواثق (٦٩٤ — ٧٠٩هـ/ ١٢٩٥ — ١٣٠٩م) أن يأذن له بالخروج الى جربة وتطهيرها من يد الغاصب ، « فأذن له وسرح معه العساكر ، فخرج من تونس فى جمادى (الأولى) سنة ست »[٩٥] (٧٠٦هـ) . ولحسن الحظ لدينا مصدر معاصر لهذه الحملة دون تحركاتها بكل دقة ونعنى به رحلة التجانى ، فقد كان أبو عبد الله محمد التجانى مشاركا فى هذه الحملة باعتباره من كبار رجال ابن اللحيانى ومشرفا على رسائله[٩٦] . ويذكر التجـــانى أنه تعينت للتوجه الى جزيرة جربة حصتان : برية وبحرية . وقد خرجت القوة البحرية من تونس أوائل جمـــادى آلاول عام ٧٠٦هـ/نوفمبر ١٣٠٦م ، فى حين خرجت القوة البرية بعد ذلك ، وقد اتفق على أن تتجمع الجيوش كلها فى جزيرة جربة[٩٧] . وقد وصل الجيش البرى الى مجاز الجرف يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الآخر (٢٧ ديسمبر)، ثم عبر المجاز الى مدينة آجيم على الساحل الجنوبى الغربى لجربة . وقد مكث الجيش فى هذه المدينة لمدة يومين ، ثم واصل السير فى اتجاه حصن القشتيل الذى احتمى به الجنود القطلانيون نظرا لمناعته وشدة حصانته ، وقد ضرب ابن اللحيانى الحصار على هذا الحصن . وفى أثناء ذلك أرسل الى شـــيوخ الاباضية فى الجزيرة يطلب منهـــم مساعدته بالاموال ، ويذكر التجانى أن شيخى الاباضية من النكارية والوهبية بالجـــزيرة كانا قد فرا عقب نزول جيش الحفصيين بهـــا خوفا على أنفسهما ، ولكنهما لم يلبثا أن عادا اليها حيث تقابلا مع ابن اللحيانى

---

(٩٥) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٣١٩ .

(٩٦) راجع : حسـن حسنى عبد الوهاب : مقـــدمة رحلة التجانى ص ٢٥م .

(٩٧) التجانى : رحلة التجانى ص ٥ .

الذى ألزمهما بدفع مبلغ من المال يتقوى به أثناء حصاره القشتيل .
وقد ظل الجيش الحفصى محاصرا لهذا الحصن مدة شهرين كاملين لم يتمكن خلالهما من اقتحامه ، برغم أنه نصب المجانيــق لضربه(٩٨) .
وأخيرا أضطر ابن اللحيانى الى رفع الحصار والاستعداد لمغــادرة الجزيرة . ويبرر التجانى — ويؤيده ابن خلدون — السبب فى فشل حصار القشتيل بقوله : « وكانت كثرة الجيش الذى معنا من أعظــم الاسباب فى الاقلاع عنه لانقطاع الاقوات بتلك الجزيرة ، وتعذّر الميرة الا فى الشىء اليسير الذى لا تحصل به كفاية ، فعلمنا أن أخذه يصعب بتلك المحاولة ، وانما يؤخذ بالحصار والمطاولة »(٩٩) . وقد غادر الجيش الحفصى جزيرة جربة فى ٢٦ شعبان ٧٠٦هـ/ ٢ مارس ١٣٠٦م عن طريق مجاز القنطرة حيث رحل بعد ذلك الى قابس(١٠٠) . ويمكننا أن نضيف الى ما قاله التجانى عن عجز القوات الحفصية اقتحام هذا الحصن . أن ابن اللحيانى — فيما يبدو — علم بأنبــاء الحملة العسكرية التى جهزها الملك فريدريك الثالث ملك صقلية لمساعدة الامير روجر الثانى لاخماد ثورة أهل جربة والقضاء على التدخل الحفصى ، لذلك آثر ابن اللحيانى رفع الحصار عن حصن القشتيل حتى لا يضطر الى الدخول فى مواجهة عسكرية مع قوات ملك صقلية(١٠١) .

على أية حال لم تستمر ثورة أهل جربة المسلمين ضد الاحتــلال

---

(٩٨) ابن القنفد : الفارسية ص ١٥٩ .

(٩٩) التجانى : المصدر السابق ص١٢٨ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ٣٢٠ .

(١٠٠) التجانى : نفس المصدر ص١٣٢ .

(١٠١) برنشفيك : تاريخ افريقية جـ١ ص ١٥٥ — محمــد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية ص ٣٠٢ — ٣٠٣ . أنظر كذلك :
DuFourcq : op. cit. p. 432.

القطلانى طويلا ، حيث وصل الامير روجير الثانى ومعه اسطول كبير ، وتمكن من النزول بالجزيرة وأخمد تلك الثورة[١٠٢] • وعلى الرغم من ذلك ، فقد عاود مسلمو جربة الثورة من جديد منتهزين فرصة وفاة روجر الثانى (توفى ٢٣ نوفمبر ١٣٠٧م/٢٦ جمادى الاول ٧٠٧هـ) وتنازع كل من أخويه غير الاشقاء : بيرنجر **Bérenger** ، وشـــارل **Charles** للسيطرة على جربة • ويذكر ابن خلدون أن شيخ الموحدين أبا عبد الله ابن الحسين ومعه يخلف بن امغار شيخ النكارية قد تزعما ثورة أهل جربة وذلك عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م • وإزاء هذه الاحداث اضطر فريدريك الثالث ملك صقلية (وهو أخ لخايمى الثانى ملك أراجون) الى ضـــم جربة بصفة رسمية الى دائرة أملاكه بعد أن أجبر أبناء روجر دى لوريا على التنازل عن حقوقهم فى جربة لصالحه • ومن المعلوم أن البابوية هى صاحبة الحق على هذه الجزيرة منذ أن أصدر البابا بونيفاس الثامن قرارا بذلك وأسند ادارتها الى روجر دى لوريا كما سبق أن أوضحنا • وقد عهد فريدريك الثالث ملك صقلية الى القائد القطلانى سيمون دى منتوليى **Simon de Montoliu** بمهمة اخماد ثورة أهل جربة المسلمين • وقد اصطحب سيمون معه أسطولا قليل العدد نسبيا ومعه أحد قراصنة مدينة بلنسية ويدعى جايوم كاستيار **Jaume Castellar** ، ولكنه لم يتمكن من اخماد ثورة أهل جربة ، بل لقى هزيمة نكراء وقتل كاستيار[١٠٣] • ولاشك أن أنباء الانتصار الرائع الذى أحرزه الجربيون على القـــوى النصرانية قد شجع الحفصيين على التدخل مرة أخرى لصـــالح أهل الجزيرة ، حيث قدم من تونس أربعمائة فارس للمساعدة فى الهجوم على حصن القشتيل ، وبات واضـــحا أن جربة ستتمكن من استعادة

---

(١٠٢) راجع :
Mas Latrie : op. cit. (Introduction), pp. 157-160.

(١٠٣) انظر : **DuFourcq : op. cit. p. 432** انظر كذلك : ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص ٣٢٠ •

حريتها وتتخلص من الاحتلال الاجنبى ، ولكن فريدريك الثالث ملك صقلية رأى أن خروج جربة عن قبضته يشكل خطرا كبيرا على وضعه كحاكم لصقلية ، بالاضافة الى أنه يشكل كذلك خطـرا على سياسة أراجون الخارجية تجاه الدولة الحفصية ، ولذلك اضطر فريدريك الثالث الى الاستعانة بخبرة القائد القطلانى الشهير رامون مونتانر **Ramon Muntaner** الذى تصادف وجوده فى مسينا فى يوليو ١٣٠٩م/صـفر ٧٠٩هـ ، وعهد اليه بمهمة القضاء على ثورة أهل جربة واعادة الامن والاستقرار اليها • وللاسف لا تمدنا المصادر العربية بأية تفصيلات عن مقاومة أهل جربة للاحتلال القطلانى باستثناء الاسطر القليلة التى ذكرها ابن خلدون وأشرنا اليها • وعلى العكس من ذلك يمدنا القائد مونتانر ذاته بتفصيلات عديدة حول هذا الموضوع • ومن المعلوم أن مونتانر قد دون مذكراته التى وصلت الينـا ونشرت تحت عنـوان **Cronica** أى حولية مونتانر(١٠٤) • ويشير مونتانر فى حوليته الى أنه وجد أن عدد الجنود المسلمين المحاصرين لحصن القشتيل بلغ حوالى ثمانية آلاف فارس وعشرة آلاف راجل ، ولكنه ألحق الهزيمة بهـم وأجبرهم على رفع الحصار عن الحصن ، كما عمل على التفريق بين مسلمى الجزيرة ، فاستمال شيخ الفرقة الوهبية الى جانبه بعد أن أمده وأنصاره بالغذاء والمؤنة ، كما استمال أيضا قبائل الاعراب المقيمة على الساحل التونسى المقابل والتى ترتبط مع الوهبية برباط الحلف ، بل أنه كون من هؤلاء الاعراب فرقة بلغ عددها مائتى فارس ضمهم الى صفوف جيشه • وهكذا استغل مونتانر العداء التقليدى بين الوهبية والنكارية لصالحه ، وأخيرا تمكن بفضل المساعدة القيمة التى قدمهـا له فريدريك الثالث وهى عبارة عن ألفى رجل يقودهم كونراد دى لانشيا **Conrad de Lancia** من انهاء ثورة مسلمى جربة وذلك فى المحرم عام

---

(١٠٤) ظهرت عدة طبعات من حوليـة مونتانر آخرها كانت طبعـة برشلونة عام ١٩٥٢م •

٧١١هـ/مايو ١٣١١م • وقد كافأ الملك فريدريك مونتانر بأن منحه جزيرتى جربة وقرقنة كأقطاع خاص به لمدة ثلاث سنوات[١٠٥] •

جربة والقرصنة البحرية فى عهد الاحتلال القطلانى :

لم تنقطع أعمال القرصنة البحرية التى تتخذ من جزيرة جربة مركزا لها خلال فترة استيلاء الاراجونيين عليها ، واذا كان روجر الثانى النورمانى قد اتخذ من أعمال القرصنة التى قام بها مسلمو جربة مبررا للهجوم عليها وعلى غيرها من السواحل التونسية فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى (١٢م) ، فان الاراجونيين والصقليين حينما وقعت الجزيرة فى أيديهم لم يتورعوا ارتكاب نفس الشىء • وكانت أعمال القرصنة التى يقوم بهـا أسطول القطلانيين المرابط فى جربة تشمل أيضا السفن المسيحية والاسلامية على السواء • ولدينا رسالة بعث بها خايمى الثانى ملك أراجون الى روجر الثانى صاحب جربة (الرسالة مؤرخة فى ١٢ أبريل ١٣٠٧م/٨ شوال ٧٠٦هـ) يحمله فيها مسئولية الاعتداء الذى حدث على سفينة بضائع قطلانية تخص اثنين من أتباع الملك خايمى وهما : Jaime Restany , Père Bussot وقد حاول روجر الثانى أن يلقى تبعة هذا العمل على كاهل القائد ايخيديو مارتين Egidio Martin الذى أعاد جزءا من البضائع لصاحبها ، ولكن خايمى الثانى ملك أراجون أمر باعادة بقية البضائع لأصحابها أو يقوم القائد مارتين بدفع قيمتها[١٠٦] •

أما اعتداءات السفن القطلانية المتمركزة فى جربة ضد سفن المسلمين ، فقد ورد بعض أخبارها فى رسائل وجهها السلطان الحفصى أبو عصيدة محمد الى خايمى الثانى ملك أراجون ، ففى شهر جمادى

---

(١٠٥) برنشفيك : المرجع السابق جـ١ ص١٧١ — ٢٧٢ ؛
Dufourcq : op. cit. pp. 430-431

(١٠٦) أنظر : Defourcq : op. cit. pp. 430-431 والمصادر

الاول عام ٧٠٥هـ/نوفمبر ١٣٠٥م ، اكترى تجار من تونس جفنا لأحد أصحاب السفن القطلانيين وشحنة بما قيمته ثمانية آلاف دينار مواد غذائية وعطور ، وقد تعرض هذا الجفن لهجوم السفن القطلانية التى استولت عليه وعلى ما فيه من بضائع . ولا بأس أن نورد هنا بعض سطور من الرسالة التى بعث بها السلطان أبو عصيدة الى خايمى الثانى وتصف لنا هذه الحادثة ، تقول الرسالة «.وفى شهر جمدى الاول من عام التاريخ (٧٠٥هـ/نوفمبر ١٣٠٥م) اكترى تجـار من أهل تونس وجهاتها جفن جيم ملقدر القطلانى لوسق طعام وغير ذلك لبلد قابس ، فوسقوا فيه ما قيمته ثمانية آلاف دينر بين طعام وعطريات ، فلما كان بمقربة من جربة خرج عليهم شيطيان أحدهما من جربة والآخر من اطرابنه أسم صاحبه جيم طرطوزه ، فتكلموا معهم وانصرفوا عنهم ، ثم بعد ذلك بيومين التقيا فى بحر قبودية سحر (هكذا وردت فى النص) ومعهم طريدة أخذوها من مرسى المهدية للسلمين ، فاستعانوا بها على الجفن المذكور وأخذوه ، فمن الناس من قال باتفاق مع صاحب الجفن ومنهم من قال بقتال وغدر »(١٠٧)

وفى رسالة أخرى بعث بها السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمـد اللحيانى (٧١١ — ٧١٧هـ/١٣١١ — ١١٣٧م) الى نظيره الاراجونى

=

والمراجع الواردة بالصفحة ، مع ملاحظة ان الرسـالة محفـوظة فى ارشـيف تاج اراجون Archivo de La Corona de Aragon

القسم الخاص بعصر الملك خايمى الثانى ، صندوق رقم ١٥ رسـالة رقم ٣٠٧٠ .

(١٠٧) راجع : Alarcon y Linares : Los Documentos Arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid-Granada, 1940, p. 260.

خايمى الثانى ، طلب منه أن يصدر أوامره للادميرال روجر قائد أسطول جربة بأن يكف عن التعرض لسفن المسلمين الآتية لمراسى الدولة الحفصية ، والا فان السلطان الحفصى سيشن هجوما عنيفا على جربة ويخربها ويهدم ديارها(١٠٨) .

أحوال جربة منذ العقد الثانى من القرن الثامن الهجرى حتى استعادة الحفصيين لها :

فى الفترة التى تلت تثبيت القائد رامون مونتانر كحاكم لجزيرة جربة وسيد اقطاعى لها تابع لملك صقلية فريدريك الثالث ، وقعت عدة حوادث ليس لها أهمية كبرى على وضع الجزيرة السياسى أو العسكرى، فعلى سبيل المثال قام أحد مساعدى مونتانر ويسمى بال جارنيرا Val Garnera بتشييد برجا يحمل اسمه فى الطرف الشمالى الغربى للجزيرة(١٠٩) ، كما كانت هناك محاولة من جانب الملك الصقلى فريدريك الثالث لتسكين بعض الرهبان الفرنسيسكان فى جزيرة جربة ، وهؤلاء الرهبان كانوا على خلاف مع البابوية ، ولكن يبدو أن محاولته تلك لم يكتب لها النجاح اذ لم تشر المصادر الى وجود طائفة مسيحية فى جربة فى ذلك الوقت(١١٠) . وفى عام ٧١٨هـ/١٣١٨م طلب السلطان المخلوع أبو يحيى زكريا اللحيانى من فريدريك الثالث ملك صقلية أن ينقذ حياته المهددة من طرف الامير أبى يحيى أبى بكر ، وكان اللحيانى مقيما فى طرابلس ، فوصلت اليه ست سفن من أسطول جربة حملته هو وأهله

---

(١٠٨) راجع : Alarcon y Linares : op. cit. p. 284. ونظرا لاهمية هذه الرسالة فقد رأينا نشرها كملحق فى نهاية هذا البحث .

(١٠٩) برنشفيك : المرجع السابق جا ص ٣٥٠ .

(١١٠) نفس المرجع جا ص٤٨٩ .

الى الاسكندرية حيث نزلوا عند السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون[112] .

وقد استمرت جربة تحت سيطرة ملك صقلية حتى تم تحـريرها عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م على يد الحفصيين ؛ فقد اندلعت ثورة عارمة فى أنحاء الجزيرة ضد السلطات المحتلة بسبب المظالم التى ارتكبها ولاة وجنود الحامية النصرانية بالجزيرة ، وقد حاول أهل جربة رفع شكواهم الى الملك فريدريك الثالث ملك صقلية ، ولكن هذا الاخير كان مشغولا بشئون ايطاليا ، فلم يعر شكواهم آذانا صاغية ، واكتفى بارسال خمس سفن حربية لاخضاع ثورة أهل جربة . وحتى هذا الاسطول الصغير لم يصل الى جربة حيث فاجأه اسطول تابع لجمهورية نابولى فهجم عليه وحطمه . وفى نفس الوقت كانت أنبـاء هذه الثورة العارمة قد بلغت أسماع السلطان الحفصى أبى يحيى أبى بكر (٧١٨ — ٧٤٧هـ/ ١٣١٨ — ١٣٤٧م) ، فجهز اسطولا كبيرا وضع على قيادته القـائد مخلوف بن الكماد ، وقد حاصر الجيش الحفصى الذى نزل بالجزيرة حصن القشتيل حصارا شديدا ، وتعاون أهل جربة مع الجيش الحفصى فى احكام الحصار ، حتى سقط الحصن فى أيدى المسلمين ، وتم تحرير الجـزيرة من سيطرة الصقليين والاراجونيـين . وقد ولى السلطان أبو يحيى أبو بكر قائده ابن الكماد واليا على جزيرة جربة[112] .

---

(١١١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المعروفة بتحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار . نشر ديفرميرى وسنجونيتى ، باريس ١٩٧٩ ، ج١ ص٣٢ — ٣٣ — المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٧١ ، الجزء الثـانى ، القسم الاول ، ص١٩٤ — ابن خلدون : العبر ج٦ ص ٣٣٠ — ٣٣١ .

(١١٢) راجع : ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٧٤ — الزركشى: تأريخ الدولتين ص٦١ — برنشفيك : المرجع السابق ج١ ص١٨٩ ، جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية ج٢ ص١٨٤ .

جربة منذ تحريرها حتى حملة الفونسو الخامس ملك أراجون عليها عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م :

عقب عودة جربة الى طاعة الحفصيين ، تولى ابن الكماد تسيير أمورها فترة من الوقت لم تستمر طويلا حيث عزله السلطان الحفصى أبو يحيى أبو بكر ، وأضاف جربة الى أعمال بنى مكى أصحاب قابس[١١٣] ، وقد عين عبد الملك بن مكى أخاه أحمد بن مكى واليا على جربة[١١٤] . وقد شاركت هذه الجزيرة فى العديد من الحوادث التى جرت بافريقية خلال النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (١٤م) . فقد شاركت قطع من أسطول جربة فى الاسطول الذى سيره السلطان الحفصى أبو يحيى لصهره السلطان أبى الحسن المرينى للمشاركة فى الجهاد بالاندلس[١١٥] ، حيث كان السلطان أبو الحسن يعد العدة للاشتباك مع القوى المسيحية فى الاندلس[١١٦] . وعندما اجتاح السلطان أبو الحسن المرينى البلاد التونسية عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م كانت جربة من ضمن المناطق التى أرسلت بيعتها اليه ، وقد وضع عليها عبد الواحد بن السلطان الحفصى أبى يحيى زكريا اللحيانى حيث استقر بها . ولاشك

---

(١١٣) عن بنى مكى أصحاب قابس وجربة وبلاد الجريد ودورهم فى أحداث الدولة الحفصية راجع : ابن خلدون : جـ٦ ص٣٥٢ .

(١١٤) نفس المصدر السابق والصفحة .

(١١٥) عن السلطان أبى الحسن على المرينى وعصره راجع : ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن . تحقيق د. ماريا خيسوس بيجيرا ، الجزائر ، ١٩٨١ .

(١١٦) راجع : السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى . الدار البيضاء ١٩٥٤ جـ٣ ص ١٣٥ ، انظر أيضا :
Angel Canellas : Aragon y La empresa del estrecho en el siglo XIV, Zaragoza, 1940, p. 31.

أن تولية عبد الواحد بن اللحياني على جربة قد أثار بنو مكي ، لأن جربة كانت من ضمن المناطق التابعة لهم ، كما أنهم كانوا قد بايعوا السلطان أبا الحسن المريني ، وكادت الامور تتأزم بينهم وبين السلطان المريني لولا أن عبد الواحد بن اللحياني والي جربة توفي فجأة عام ٧٤٩هـ في الطاعون الجارف الذي اجتاح بلاد المغرب[١١٧] . وعقب انسحاب المرينيين من افريقية ، قام الحاجب أبو محمد عبد الله بن تفراجين[١١٨] بتولية أحد أبناء الخليفة الحفصي أبي يحيى أبي بكر سلطنة الحفصيين وبايعه باسم المستنصر ، وقد بايعت غالبية الولايات التونسية هذا الخليفة الجديد ماعدا الجنوب الشرقي بزعامة أحمد ابن مكي صاحب قابس وجربة نظرا للخصومة القائمة بينه وبين ابن تفراجين[١١٩] . وقد تعرضت جربة عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م لحملة بحرية شنها أسطول صاحب طرابلس محمد بن ثابت ، ويرجع سبب تلك الحملة الى العداء المستحكم بين بني ثابت وبني مكي . ولكن الامير أبا العباس أحمد (السلطان فيما بعد) والذي تربطه صداقة وتحالف مع بني مكي، عبر البحر الى جربة حيث تمكن من فك حصار الجزيرة وأعادها لبني مكي[١٢٠] .

---

(١١٧) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة جا ص١٣٣ ، ابن خلدون : العبر ج٦ ص٣٦١ م

(١١٨) هو الشيخ أبو محمد عبد الله بن تفراجين من أشهر وزراء الحفصيين ، ينتسب الى بيت بني تفراجين من الموحدين ، وكان لهم دور كبير في توجيه الاحداث في الدولة الحفصية . راجع : ابن خلدون : ج٦ ص٣٤٨ — ٣٥٠ — ابن القنفذ : الفارسية ص١٦٧ ، ص١٦٩ — أنظر كذلك : د. مختار العبادي : دراسات ص ١٩٥ .

(١١٩) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٧٤ — ٣٧٥ — أنظر كذلك محمد العروسي المطوي : السلطنة الحفصية ص٤١٦ .

(١٢٠) ابن خلدون : العبر ج٦ ص٣٦٩ .

وعندما غزا السلطان المرينى أبو عنان فارس (٧٤٩ — ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ — ١٣٥٨م) البلاد التونسية ، بعث ابن مكى ببيعته وبيعة المناطق التابعة له للسلطان المرينى[١٢١] . ومن المعلوم أن جربة كانت من ضمن المناطق التابعة لبنى مكى . وإذلك عمل الحاجب ابن تفراجين على انتزاع جربة من يد بنى مكى عقابا لهم على مبايعتهم السلطان أبى عنـــان ، فانتهز فرصة غياب أحمد بن مكى بطرابلس[١٢٢] ، وتذمر أهل جربة من سوء معاملة ابن مكى لهم ، وأرسل اسطولا كبيرا بقيادة ابنه أبى عبد الله محمد وذلك عام ٧٦٣هـ/١٣٦٢م لحصار جربة . وقد حاصر الجيش الحفصى حصن القشتيل القديم الذى اعتصم به رجال ابن مكى حتى سقط فى أيدى أبى عبد الله محمد، فعين كاتبه محمد بن أبى القاسم بن أبى العيون واليا على جربة ، فى حين غادرها هو عائدا الى تونس ، وبذلك خرجت جربة من يد بنى مكى وعادت الى سلطة الحفصيين المبـــاشرة بصفة نهائية[١٢٣] .

استمرت جربة تحت حكم ابن أبى العيون حتى توفى الحاجب ابن تفراجين عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م ؛ فأعلن ابن أبى العيون الثورة ضد السلطان الحفصى أبى اسحاق ابراهيم (٧٥١ — ٧٧٠هـ/١٣٥٠ — ١٣٦٩م)

---

(١٢١) ابن الحاج النميرى : فيض العباب وافاضة قداح الآداب فى الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب . تحقيق د. رضـــوان البارودى و د. احمد الطوخى (تحت الطبع) لوحة رقم ١١٤ .

(١٢٢) كان الجنويون قد استولوا على طرابلس عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م ، وفاوضهم احمد بن مكى بعد ذلك على ترك طرابلس له بمقابل أن يدفع لهم مبلغا كبيرا من المال بلغ خمسين الف دينار من الذهب ، فوافقوا على ذلك . فترك قابس وجربة ورحل الى طرابلس لاستلامها من الجنوية . راجع : ابن خلدون : جـ٦ ص ٣٧٥ .

(١٢٣) نفس المصدر السابق ص٣٦٩ .

وامتنع بجربة حيث انضم اليه أهلها فى ثورته ، وظل ابن أبى العيون مستقلا بجربة حوالى ثمان سنوات . وعندما اعتلى أبو العباس أحمد عرش الحفصيين عام ٧٧٢هـ/١٣٧٠م عمل على اخضاع المناطق الثائرة عليه ومن ضمنها جربة ، فبعث فى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م ابنه الامير أبا بكر فى عسكر عظيم الى جربة وسير معه محمد بن على بن ابراهيم من كبار رجال دولته « وأمده فى الاسطول فى البحر لحصارها ، ونزل الامير بعسكره على مجازها ووصل الاسطول الى حراسها ، فأطاف بحصن القشتيل وقد لاذ ابن أبى العيون بجدرانه وافترق عنه شيوخ الجزيرة من البربر وانحاش معه بطانته من الجند المستخدمين معه بها »[١٢٤] . ولم يصمد ابن أبى العيون طويلا حيث قبض عليه وأرسل الى تونس، فظل معتقلا بها حتى توفى عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م .

حملة تخريبية على جربة عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م :

تعرضت جزيرة جربة لحملة بحرية عام ٧٩٠هـ من قبل أساطيل جنوه وبيزه وصقلية ، وهذه الحملة تدخل فى نطاق الصراع بين المسلمين والمسيحيين للسيطرة على التجارة البحرية فى حوض البحر المتوسط . وقد تبادل الطرفان شن الغارات على مدن وسواحل وسفن الطرف الآخر . وكان المسلمون يعتبرون هجماتهم على السفن والسواحل المسيحية نوعا من أنواع الجهاد ، فى حين كان المسيحيون يعتبرون ذلك نوعا من القرصنة البحرية يجب ايقافها[١٢٥] . وقد أوضح لنا ابن خلدون جانبا من جوانب هذا الصراع بين الفريقين ، فقال أن الفرنج قد بسطوا سيطرتهم على البحر الابيض عقب انتزاعهم الجزر البحرية مثل سردانيا وصقلية وميورقة من أيدى المسلمين . وصار لهم الكلمة العليا فى هذا البحر ، ولكن اختلاف الممالك المسيحية وافتراق كلمتها أتاح

---

(١٢٤) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص ٣٧٥ .

(١٢٥) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية : جـ٢ ص٣٢٢ .

للمسلمين فرصة الهجوم عليها ، بيد أن هذا الهجوم لم يكن يتم بتخطيط من قبل السلطات الاسلامية الحاكمة ، بل يقوم به بعض المجاهدين ، يقول ابن خلدون « فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم وشرع فى ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الاسطول ويتخيرون له أبطال الرجال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبى »[١٢٦] . ولاشك أن هذه الغارات البحرية الاسلامية كانت تثير القلق والضيق لدى الدول المسيحية مثل جنوه وبيزه وأوراجون وفرنسا ، لذلك رأت تلك الدول أنه من الضرورى وضع حد لهذه الغارات التى يشنها المسلمون على سفنهم وسواحلهم . وقد أخذت جنوه على عاتقها مهمة تنظيم حملة بحرية كبرى ضد الاماكن التى تتواجد فيها السفن الاسلامية التى تهاجم مثل جربة وقرقنه والمهدية وبجاية . وتشير المصادر المسيحية[١٢٧] الى أن جنوه تحالفت مع كل من صقلية وبيزه فى سبيل تنظيم هذه الحملة ، وأن هذه الحملة اتخذت من جزيرة جربة والجزر الاخرى الواقعة فى خليج قابس هدفا لها[١٢٨] . وقد شاركت جنوه بأثنتى عشرة سفينة تحت قيادة رفائيل أدورنو Raffaele Adorno ، فى حين قدم

---

(١٢٦) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص٣٩٩ — ٤٠٠ .

(١٢٧) لم تشر المصادر الاسلامية الى هذه الغزوة البحرية على جربة، ولذلك استقينا مادتها من المصادر والمراجع الاروبية وبعض المراجع العربية الحديثة التى اعتمدت هى الاخرى على المصادر الاروبية .

(١٢٨) راجع :
K.M. Setton : The Papacy and the Levant, Philadelphia, 1976 Vol. 1, p. 330

البيزيون خمس سفن[129] ، أما صقلية ، فبرغم أن الملكة مارى شقيقة الملك فريدريك البسيط وحفيدة بدرو الرابع ملك أراجون لم تشارك فى هذه الحملة بصفة رسمية ، الا أن أحد رجال مملكتها ويدعى مانفريدو دى شاراموتتى Manfredo de Chiaramonte استأجر ثلاث سفن جنوية من ماله الخاص وتولى قيادتها .

أما البندقية فانها وعدت بتقديم خمس سفن حربية للمشاركة فى هذه الحملة وذلك كما يتضح من نص الخطاب الذى بعث به دوق جنوة الى دوق البندقية يشكره على ذلك الوعد ويطلب منه أن تلتحق هذه السفن بالاسطول الجنوى فى شهر مايو من نفس العام (١٣٨٨م) وذلك بميناء ترابانى[130] . أما البابا أوربان السادس (١٣٧٨ — ١٣٨٩م) فقد أبدى موافقته ومباركته لهذه الحملة . وهكذا تجمع أسطول كبير بلغ عدد سفنه حوالى عشرين سفينة تحت قيادة شاراموتتى وذلك فى يوليو ١٣٨٨م/رجب ٧٩٠هـ ، وانطلق هذا الاسطول الى جربة حيث استولى عليها دون صعوبة تذكر وذلك فى منتصف سبتمبر من نفس العام ، وقام رجال الحملة بنهب الجزيرة[131] . وعلى الرغم من أن جنوة هى التى أخذت على عاتقها مهمة تنظيم هذه الحملة وقدمت معظم السفن التى اشتركت فيها ، الا أن دى شاراموتتى أعلن ضم جربة الى ممتلكات تاج صقلية وأن الملكة مارى صاحبة الحق على هذه الجزيرة .

---

(١٢٩) ارسل دوق بيزة عقب فشل الحملة على جربة رسالة الى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد يعتذر له عن اشتراك السفن البيزية فى هذه الحملة وادعى ان اصحاب السفن الخاصة هم الذين ساعدوا جنوه دون اى تدخل منه شخصيا . راجع :

(١٣٠) راجع : Mas Latrie : op. cit. (Docum.) p. 129.

(١٣١) راجع : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ص١١٧٩ ،
Setton : op. cit. Vol. 1, p. 339.

وفى مقابل ذلك قام بدفع مبلغ ٣٦ ألف فلورين ذهبى للجنوية نظير قيامهم بالمساعدة فى الاستيلاء على جربة • وقد قام البابا أوربان السادس بتقليد شارامونتى حكم الجزيرة والجزر الاخرى الواقعة فى خليج قابس كسيد اقطاعى تابع للبابوية يؤدى الضريبة الاقطاعية لها وكذلك القسم الاقطاعى[١٣٢] • ولكن جربة لم تستمر طويلا فى حوزة دى شارامونتى حيث استعادها الحفصيون ، وان لم تحدد لنا المصادر الكيفية التى تم بها هذا الامر ولا التاريخ الذى وقع فيه •

وبالنسبة لرد الفعل الذى اتخذه الحفصيون ازاء هجوم الجنوية وحلفائهم على جزيرة جربة ، فقد تمثل فى غارة انتقامية شنها الاسطول الحفصى على جزيرة جودش[١٣٣] Gozzo عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م • ويبدو أن هذه الغارة الحفصية الحقت أضرارا بالغة بهذه الجزيرة ، كما كان لها صدى طيبا لدى السلطان المملوكى الظاهر برقوق ، فقد أرسل الى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد رسالة يهنئه فيها بانتصاره على النصارى فى جودش ، ويطلب منه مزيدا من التفصيلات عن هذه الغزوة ، ويشير القلقشندى الى أن السلطان الحفصى قد أرسل الى نظيره المملوكى رسالة مطولة اشتملت على بعض تفصيلات هذه الغزوة، وأن الوزير الحفصى محمد بن أبى هلال هو الذى حمل الرسالة للسلطان برقوق[١٣٤] •

عودة جربة الى سيادة الحفصيين :

عقب فشل الحملة الجنوية على جربة ، عين السلطان أبو العباس

---

(١٣٢) Setton : op. cit. vol. 1, pp. 330-331.

(١٣٣) جودش : احدى جزر أرخبيل مالطه ، وقد ذكر الادريسى أنها تبعد حوالى مائة ميل عن جزيرة قوصرة . راجع : نزهة المشتاق جـ٢ ص٥٨٧ .

(١٣٤) راجع : القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، نشر

أحمد أحد العلوج ويسمى منصور حاكما عليها ، ولكن الامير عمر ابن السلطان أبى العباس أراد أن يضم جربة الى دائرة نفوذه خاصة بعد الفشل الذى منيت به حملته على طرابلس عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م لاخضاع ثورتها . وقد ذكر ابن خلدون أن الامير عمر بعد أن أمضى عاما فى حصار طرابلس ، وتركها وقفل عائدا الى تونس ، وفى طريق عودته مر بجزيرة جربة ، وحاول النزول بها ، ولكن العلج منصور رفض ذلك ومنعه من دخولها ، ولذلك طلب الامير عمر من والده أن يوليه جربة وصفاقس فوعده بذلك[١٣٥] . ولقد أدى هذا العمل الى غضب العلج منصور واحتمى بحصن القشتيل . وقد بلغت أنباء هذا التمرد الذى قام به منصور الى مسامع الوصى على عرش صقلية ودوق مونبلان[١٣٦] Duc de Mont-Blanc مارتن لافييى (أى العجوز أو الاكبر تمييزا له عن ابنه وسميه مارتن الاصغر ملك صقلية) Martin La Vieux الذى أراد أن يستغل هذه الفرصة لاستعادة جربة الى سيطرة صقلية. وفى سبيل تحقيق ذلك قرر أن يبعث اثنين من كبار رجال دولته وهما: جليوم الطلمنحى[١٣٧] Guillaume de Talamanca وفيتو مالكونديني

مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية جـ٧ ص٣٧٩ — ٣٨٤ ، جـ٨ ص٧٩ — ٨٤ .

(١٣٥) ابن خلدون : جـ٦ ص٤٠٢ .

(١٣٦) مونبلان Mont-Blanc هى منطقة الجبل الابيض اكثر جبال الالب وجبال أوربا ارتفاعا ويبلغ ارتفاع قمة الجبل الابيض ٤٨١٠م وتقع على الحدود بين فرنسا وايطاليا .

(١٣٧) نسبة الى مدينة طلمنكه Talamanca وهى مدينة بالثغر الاندلسى بناها الامير الاموى محمد بن عبد الرحمن (حكم من ٢٣٨ — ٢٧٥هـ/٨٥٢ — ٨٨٦م) ، بينها وبين وادى الحجارة عشرون ميلا . راجع : الزهرى (ابو عبد الله محمد بن ابى بكر) : كتاب الجغرافيا . تحقيق محمد حاج

Vitt de Malcondignis الى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد للتفاوض ... بشأن مصير جربة ، وقد أعطى مارتن الاكبر تعليماته لمبعوثيه بأن يطلبا من السلطان الحفصى أن يتنازل عن جزيرة جربة لصالح تاج صقلية لأنها كانت تابعة له فى جميع العصور على حد قوله[١٣٨] . ولكن هذين الرسولين لم يصلا الى تونس ، فقد تلقى مارتن الاكبر رسالة من العلج منصور والى جربة وعلى بن عمار الثائر بطرابلس يطلبان منه التدخل لصالحهما ضد الحفصيين . وبناء على هذا الوضع الجديد بعث مارتن الاكبر كل من جليوم الطلمنكى وهو جو دى سانتاباز Hugues de Santa-Paz الى ابن عمار بطرابلس وعرضا عليه استعداد صقلية تقديم يد المساعدة له مقابل مساعدتهما فى الاستيلاء على جربة وضمها الى أملاك صقلية[١٣٩] . بيد أن جربة لم تسقط فى يد الصقليين ، حيث بعث السلطان الحفصى الى العلج منصور يأمره بتمكين ابنه الامير عمر من الحصن وتسليمه الجزيرة ، وأتبع ذلك بارسال ابنه على رأس جيش كبير تمكن من النزول بالجزيرة واستعان بأهلها فى القضاء على هذا العصيان[١٤٠] .

على أية حال ، استمر الامير عمر بن أبى العباس حاكما على جربة حتى وفاة أبيه عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م ، فلما تولى أخوه أبو فارس عزوز سلطنة الحفصيين ، ثار الامير عمر وأعلن استقلاله بجربة ، بيد

صادق ، القاهرة بدون تاريخ ص١٠٤ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة جـ٢ ص٤٢ — الحميرى : الروض المعطار ص٣٩٣ .

(١٣٨) Mas Latrie : op. cit. p. 161.

(١٣٩) Ibid, pp. 163-166.

(١٤٠) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٤٠٣ — كذلك راجع : المطوى : السلطنة الحفصية ص ٥٣٠ .

أن تلك الثورة لم تستمر طويلا حيث تمكن السلطان أبو فارس من القضاء عليها ، وبذلك عادت جربة لسلطة الحفصيين المباشرة[141] . ولكى يضمن السلطان الحفصى عدم خروج جربة عن طاعته ، قام ببناء قنطرة تربط بين الطرف الجنوبى الشرقى من الجزيرة والساحل التونسى المقابل ، بحيث يسهل على القوات الحفصية البرية العبور الى الجزيرة كلما احتاج الامر لذلك . وقد أشار الشماخى فى كتابه «السير»[142] الى أهمية هذه القنطرة التى بناها أبو فارس عزوز فقال « كان الناس لا يدخلون لليهـا الا فى السفن قبل بنـاء القنطرة التى بنيت أيام عبد العزيز أبى فارس سلطان افريقية » .

وفى عهد أبى فارس أيضا تصادفنا حادثة غريبة بعض الشىء وتتمثل فى تلك المعاهدة التى وقعها مع ملوك أراجون مارتن الاكبر (تولى عرش أراجون فى الفترة من ١٣٩٥ — ١٤١٠م/٧٩٨ — ٨١٣هـ) وذلك عام ٨٠٥هـ/١٤٠٣م ، فقد تضمنت هذه المعاهدة بندا يتعلق بأحقية ملك صقلية (مارتن الاصغر) فى احتلال جربة ولكن بعد مضى خمس سنوات من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة ، وبشرط أن يعلن ملك صقلية نيته فى احتلال جربة قبل القيام بأى عمل عسكرى بستة أشهر ، وفى المقابل يعترف ملك أراجون بأحقية السلطان الحفصى فى احتلال

---

(١٤١) المطوى : المرجع السابق ص٥٥٩ .

(١٤٢) ص٥٥٧ . ولكن هذه القنطرة هدمت اثناء حملة الفونسو الخامس ملك اراجون على جربة عام ٨٣٥هـ/١٤٣٢م وقد اعاد السلطان الحفصى أبو فارس بناءها عقب رحيل الاراجونيين عن الجزيرة ، بيد انها هدمت مرة أخرى عقب وفاة السلطان أبى عمر عثمان علم ٨٩٣هـ/١٤٨٨م حيث هدمها هذه المرة اهل جربة كى يحولوا دون وصول اية قوات حفصية لجزيرتهم اذا ما فكروا فى الانفصال عن السلطة الحفصية راجع : ليون الافريقى : وصف افريقيا ص٤٦٨ .

جزيرة قوصرة التابعة لصقلية بنفس الشروط أى بعد مضى خمس سنوات وضرورة اخطار السلطات الصقلية بنية الغزو قبل ستة أشهر[١٤٣] • ولكن شيئا من كل هذا لم يحدث ، حيث ظلت جربة فى حوزة الحفصيين حتى قيام ألفونسو الخامس ملك أراجون بشن حملته عليها عام ٨٣٥هـ •

حملة ألفونسو الخامس على جربة عام ٨٣٥هـ/١٤٣٢م وهزيمتها :

تدخل هذه الحملة فى نطاق الهجمات البحرية المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين فى هذا الجزء من البحر المتوسط ، وفى نطاق رغبة أراجون تنفيذ المشروع القديم الخاص بضم جربة الى أملاك تاج صقلية حتى يأمن الاراجونيين والصقليون من الغارات التى يشنها المجاهدون المسلمون على المدن الساحلية والسفن المسيحية فى حوض البحر المتوسط• وكان الاسطول الحفصى بقيادة القائد أبى النعيم رضوان قد شن غارة مدمرة على جزيرة مالطة التابعة لتاج صقلية وذلك عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م حيث نهبها لمدة ثلاثة أيام • وكانت هذه الغارة ردا على غارة أخرى شنها أسطول صقلية على جزيرة قرقنة فى العام السابق[١٤٤] • ولذلك لم يجد ملك أراجون وسيلة لايقاف الهجمات البحرية الاسلامية الا أن يخرج بنفسه ويشن حملة تأديبية ضد مراكز السفن الاسلامية الامامية وخاصة جزيرة جربة ، حيث استغل فرصة انشغال السلطان الحفصى أبى فارس عزوز ببعض الثورات المحلية فى الجنوب التونسى، وجهز اسطولا قويا بلغ عدد سفنه مائة وثلاثين ؛ وقد أبحر ألفونسو الخامس من مالطة فوصل الى جزيرة جربة فى ذى الحجة ٨٣٥هـ/

---

(١٤٣) راجع : روبرت برنشفيك : المرجع السابق جا ص ٢٥٥ • والمصادر الواردة فى الصفحة •

(١٤٤) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١١٠ — المطوى : السلطنة الحفصية ص٥٧٧ — ٥٨١ •

أغسطس ١٤٣٢م ، وتمكن من احتلال قسم كبير من الجزيرة ، كما قام بقطع القنطرة التى تربط جربة بالبر ، وأقام سورا خشبيًا يفصل بين قواته وقوات المسلمين بجربة ، وقد أرسل أهالى جربة الى السلطان الحفصى أبى فارس عزوز يخبرونه بتعرض جزيرتهم لهجوم الاراجونيين ويطلبون مساعدته ، فترك السلطان بلاد الجريد وعاد مسرعا الى تونس ، ومنها رحل الى مكان قريب من الجزيرة على الشاطىء التونسى حيث أقام معسكره هناك • وقد علم الاراجونيون عن طريق بعض عيونهم أن كثيرا من رجال السلطان الحفصى ينصرفون من المعسكر وقت الظهيرة لقضاء حوائجهم ولا يبقى معه الا الخواص ، فأرسلوا عدة سفن أحاطت بموضع القنطرة وهاجمت الجيش الحفصى ، ودار قتال عنيف انتهى بهزيمة المسلمين ، وكاد السلطان أبو فارس يقع فى الاسر لولا أن فر من المعركة ، وقد استولى الاراجونيون على عشرين منجنيقا وقدر كبير من الاسلحة ، كما قتل أحد أصهار السلطان ويدعى محمد ابن شيخ الموحدين بن عبد العزيز • وبرغم هذه الهزيمة التى لحقت بالجيش الحفصى ، الا أن مسلمى جربة باغتوا القوات الاراجونية بهجوم سريع ألحق بها خسائر فادحة ، كما أن الجنود الحفصيين استغلوا فرصة انحسار الماء أمام أجزاء من الجزيرة أثناء حركة المد والجزر ، وعبروا الى الجزيرة واشتبكوا مع الجيش الاراجونى فى قتال عنيف انتهى بانتصار المسلمين ومصرع عدد كبير من أفراد الجيش الاراجونى[١٤٥]• ويذكر أبو راس الجربى أن أهالى جربة بنو برؤوس القتلى الاراجونيين برجا كالمنارة على ساحل البحر[١٤٦] • وهكذا أضطر الفونسو الخامس

---

(١٤٥) الزركشى : المصدر السابق ص١١٣ •

(١٤٦) محمد أبو راس : مؤنس الاحبة ص١٠٤ — ١٠٥ ويسمى هذا البرج الآن برج الجماجم •

الى ترك جزيرة جربة بعد أن أمضى بها سبعة وعشرين يوما ، وعادت الجزيرة الى طاعة الحفصيين من جديد(١٤٧) .

(١٤٧) الزركشى : المصدر السابق ص١١٣ — ١١٤ — ابن الشماع : الادلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية . تحقيق الطاهر بن محمد المعمورى . ليبيا ١٩٨٤ ص١١٦ — ١٢٧ — ليون الافريقى : وصف افريقيا : ص٤٧٦ . انظر كذلك : أندريه جوليان : تاريخ شمال افريقيا ج٢ ص١٨٧ ، برنشفيك : المرجع السابق ج١ ص٢٦١ — ٢٦٣ .

بعض الجوانب الحضارية فى جزيرة جربة

اذا كنا قد عرضنا لتاريخ جربة ، وتطورها السياسى ، وتوالى الحكومات عليها ، فما من شك أن ثمة تحولات وتطورات حضارية واكبت تلك التغيرات السياسية ، وسنحاول خلال الاسطر القليلة التالية أن نتناول هذه التطورات . ونبدأ بالحديث عن :

(أ) السكان : سكن جزيرة جربة خلال العصر الاسلامى عدة عناصر لعل أبرزها وأكثرها عددا هم البربر ، بالاضافة الى أعداد قليلة من القبائل العربية واليهود . ومن أشهر القبائل البربرية التى استوطنت جربة خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين) قبيلة لماية وهى احدى بطون بنى فاتن من ضريسة من البربر البتر[1] ، وقبيلة لماية كانت من الظواعن بافريقية والمغرب وخاصة فى التخوم الجنوبية للصحراء بأرض السرسو ، وهم الذين عاونوا عبد الرحمن بن رستم فى تأسيس عاصمته تاهرت ، وباسم لماية سميت قرية لماية الواقعة بين زواوة وطرابلس[2] . وقد انتقل قسم من لماية الى جزيرة جربة ابان فترة خضوعها للرستميين ، ثم ازدادت هجرتهم اليها عقب سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين . ويذكر ابن خلدون أن من قبائل لماية قبيلة تسمى جربة هى التى أعطت للجزيرة اسمها ،

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١١٨ .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية ، معلمة المدن والقبائل ، ملحق ٢ . المحمدية . ١٩٧٧ ص٢٥٦ — عبد الوهاب بن منصور . قبائل المغرب جـ١ ص٣٠٩ .

بأن هذه القبيلة مازالت تسكن هذه الجزيرة حتى عصره[٣] (القرن الثامن الهجرى/١٤م) ٠

ومن القبائل البربرية التى سكنت جربة **قبيلة زواغه** [٤] وهم من البربر البتر ، ومن أشهر بطونهم بجربة بنو دمر الذين كانوا يقطنون أيضا بجبل دمر الممتد جنوب قابس حتى جبل نفوسة[٥] ٠ كذلك فقد استوطن جربة بعض قبائل كتامة البرانسية وخاصة قبيلتى صدغيان وسدويكش ، وقد جاءتا الى جربة فى بداية القرن الرابع الهجرى(١٠م)٠ وعلى الرغم من أن قبيلة كتامة كانت الدعامة الرئيسية للدولة الفاطمية، الا أن ذلك لم يمنع صدغيان وسدويكش من اعتناق المذهب الاباضى والنزوح الى جربة[٦] ٠ كذلك سكنت بعض أقسام من **قبيلة هـــواره** جزيرة جربة[٧] ٠

وفى القرن الثامن الهجرى كان البربر فى جزيرة جربة ينقسمون الى قسمين : قسم يقطن الناحية الشمالية والشمالية الغربية وهم من

---

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص١٢٢ ٠ انظر كذلك : محمد بن مبارك الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، الجزائر ، بدون تاريخ جـ٢ ص١٨٣ ٠

(٤) العبدرى البلنسى : الرحلة المغربية ٠ تحقيـــق احمد بن جدو ، ص ٩١ ٠

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص١٢٩ — المرزوقى : مقدمة كتاب مؤنس الاحبة ص٣٣ ٠

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص١٢٢ — لقبال موسى : دور كتامة فى تاريخ الدولة الفاطمية ٠ الجزائر ١٩٧٩ ص ٦١٠ ٠ انظر كذلك : Encyclopedia of Islam. Art Djerba by Ever

(٧) ابن خلدون : نفس المصدر جـ٦ ص٣٧٤ ٠

الخوارج الوهبية وينتسبون الى بنى سمومن ، وقسم آخر يسكن الناحية الجنوبية والجنوبية الشرقية وهم من الخوارج النكارية وينتسبون الى بنى عزون[8] .

أما **العناصر العربية** التى سكنت جربة فهى قليلة العدد نسبيا ، أبرزها بنو دباب وهم من الاعراب المنتجعين داخل البلاد[9] . كذلك وجد فى جربة بعض العناصر اليهودية[10] ، ولكن هؤلاء اليهود كانوا يعيشون فى حالة اجتماعية سيئة حسبما أشار روبرت برنشفيك استنادا الى رسالة تنسب الى أحد اليهود ويدعى ميمون ، وقد أشار ميمون هذا الى أن اليهود فى المغرب ومن بينهم يهود جربة كانوا على درجة كبيرة من الانحطاط الثقافى[11] . وفى العصر الحفصى ، رحل قسم من يهود جربة الى مدينة بلرمو بصقلية للاستقرار هناك وذلك عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م . وقد شكل هؤلاء اليهود طائفة مستقلة عن بقية اليهود المقيمين فى بلرمو ، وتمكنوا بفضل براعتهم فى الزراعة من الحصول على تصريح من الامبراطور فريدريك الثانى لزراعة الحناء والنيلة ، كما عمل بعضهم فى البستان الملكى الخاص بالامبراطور فريدريك حيث أشرفوا على زراعة النخيل بهذا البستان[13] .

---

(٨) التجانى : رحلة التجانى : ص١٢٣ — ابن خلدون : نفس المصدر جـ٦ ص٣٧٤ .

(٩) روبرت برنشفيك : المرجع السابق جـ١ ص٣٤٩ .

(١٠) يرجع تاريخ هذه العناصر اليهودية فى جزيرة جربة الى نهاية القرن الاول الميلادى عندما تعرضت مدينة بيت المقدس للتخريب من قبل الرومان . ففر قسم من سكانها اليهود الى بلاد المغرب حيث استقروا فى جزيرة جربة . وانحدر من اصلابهم معظم يهود جربة حتى الوقت الحاضر .
Encyclopedia of Islam, Art Djerba by : J. DesPois

(١١) برنشفيك : المرجع السابق جـ١ ص٤٣١ .

(١٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

لغة أهل جربة :

على الرغم من انتشار الاسلام واللغة العربية فى بلاد المغرب عقب حركة الفتوحات الاسلامية ، الا أن هناك مناطق عديدة حافظت على لهجتها المحلية رغم معرفتها بالعربية ، وجزيرة جربة كانت من ضمن هذه المناطق ، فاللغة العربية استخدمت فى جربة فى أوساط المثقفين والمتصلين بالسلطة بصفتها اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ، ولم تتغلغل العربية بين سكان جربة فى الفترة ما بين القرنين الثانى والرابع الهجريين ، لأن جربة فى هذه الفترة خضعت لأئمة نفوسة وتاهرت ، وتولى أبناء جربة مهمة تسيير شئون مجتمعهم الاباضى . وبالطبع لم يستخدم هؤلاء اللغة العربية بل استخدموا اللغة البربرية . وقد أشار الادريسى الى أن أهالى جربة يستخدمون اللغة البربرية خاصهم وعامهم[١٣] ، كما ذكر ليون الافريقى أن البربر بافريقية — ومنهم بربر جربة — يتكلمون لغة واحدة تسمى آوال أمازيغ وهى التى يطلق عليها العرب اسم اللغة البربرية[١٤] .

ولاشك أن عزلة جربة النسبية عن بقية مجتمع افريقية ، واحتفاظ أهلها بأصولهم البربرية قد ساعد على استمرار استخدامهم لهذه اللغة، ويحاول أندريه جوليان أن يتخذ من الخلاف المذهبى بين أهل جربة وبقية مجتمع شمال افريقيا مبررا لبقاء اللهجة البربرية مستخدمة الى وقت قريب بين أهالى جربة[١٥] . ولكن يبدو أن هذه اللهجة لم تستخدم الا فى نطاق ضيق لا يتجاوز الاسرة والمسكن ، أما فى النطاق العام خارج المنزل ، فاللغة العربية كانت هى المستعملة بين الناس جميعا[١٦] .

---

(١٣) الادريسى : نزهة المشتاق جا ص ٣٠٥ .

(١٤) ليون الافريقى : وصف افريقيا ص٤٧ ، ص٤٦٦ .

(١٥) أندريه جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج٢ ص١٨٩ — ١٩٠ .

(١٦) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى جا ص١١١ .

مساكن أهل جربة :

يجمع الرحالة الذين زاروا جربة ، وكذلك المؤرخون على أن أهل هذه الجزيرة يعيشون فى قرى بسيطه ، اذ لا يوجد بجزيرة جربة مدن كبيرة ، كما أن هؤلاء السكان نادرا ما يستخدمون الحجارة فى بناء مساكنهم • وقد أشار التجانى الى أن أهل جربة يستخدمون جريد النخيل لبناء مساكنهم التى هى عبارة عن أخصاص (جمع خص) أو أكواخ بسيطة ، وكل أسرة لها خص أو أكثر تقيم فيه ، كما أن الابنية القائمة قليلة جدا بهذه الجزيرة[١٧] • أما ليون الافريقى فقد ذكر أن أهالى جربة يعيشون فى مداشر[١٨] تتبعثر فيها البيوت ولكل مزرعة بيتها الذى تسكنه فى الغالب عائلة واحدة[١٩] •

أهل جربة فى نظر الرحالة والجغرافيين المسلمين :

يتحامل كثير من الرحالة والجغرافيين المسلمين على أهالى جربة من البربر ويصفونهم بأشنع الصفات[٢٠] ، فالادريسى يذكر أنهم أهل فتنة وخروج عن الطاعة وأن الشر والنفاق موجود فى جبلتهم[٢١] ، أما التجانى ومعه الحميرى فيذكران بعض العادات الغريبة عن أهل جربة

---

(١٧) التجانى : رحلة التجانى ص١٢٢ — ١٢٣ . ونلاحظ ان اهالى جزيرة قرقنه يعيشون ايضا فى الاخصاص المصنوعة من جريد النخيل . راجع : الادريسى : نزهة المشتاق جا ص٣٠٤ .

(١٨) المداشر : (جمع مدشر) وهى مجموعة من البيوت القليلة العدد يبلغ عددها حوالى عشرة منازل تقريبا .

(١٩) ليون الافريقى : المصدر السابق ص٤٦٦ .

(٢٠) البكرى : المغرب ص ٨٥ — العبدرى : الرحلة المغربية ص٩١ .

(٢١) الادريسى : المصدر السابق جا ص ٣٠٥ .

سواء من النكارية أو الوهبية ، فيذكران أن أهالى جربة لا يماسح أحدهم ثوب رجل غريب ولا يمسكه بيده ولا يؤاكله ولا يأكل له فى آنية الا أن تكون آنية لا يقربها سواه ، ورجالهم ونساؤهم يتطهرون كل يوم عند الصباح ويتوضؤون ثم يتيممون لكل صلاة ، وان استسقى عابر سبيل شيئا من مياههم وعاينوه ، طردوه واستخرجوا ذلك الماء من البئر ، وثياب الجنب لا يقربها الطاهر ، وثياب الطاهر لا يقربها الجنب . ولكن برغم ذلك فقد أشاد الادريسى والحميرى ببعض الخصال الحميدة فيهم ، فهم يطهون الطعام ويندبون اليه ويسالمون الناس فى أحوالهم وفيهم عدالة بينة لمن نزل بهم(٢٢) .

النشاط الاقتصادى لأهل جربة فى العصر الاسلامى :

تنوعت مظاهر النشاط الاقتصادى لأهل جربة فى العصر الاسلامى من زراعة وصناعة وتجارة ، وكانت الزراعة والرعى هما الحرفتان الرئيسيتان لغالبية السكان على الرغم من أن التربة بجربة من النوع الرملى الذى يستلزم مجهوداً كبيراً فى اعدادها للزراعة ، وقد أشار ليون الافريقى الى ذلك بقوله « والتربة هناك هزيلة ، ولهذا يجب العكوف على خدمتها وريها بماء ينتج من آبار عميقة كى يمكن زراعة قليل من الشعير فيها ، وينجم عن ذلك ندرة شديدة فى الغلة(٢٣) . وقد وصف أحد سكان جربة فى أواخر القرن السابع الهجرى كيفية تغلب الاهالى على ضعف التربة بجزيرتهم فقال « ان لدينا مياه عذبة مناسبة ، واننا نقوم بتسوية الارض الصالحة للحرث وقلب التربة بسكة المحراث وتنظيفه من الحصى ، وبعد ذلك نخلط التراب بالماء لنجعل منه نوعا من الغرين ، ثم نستعمل المحراث من جديد لشق الخطوط ،

---

(٢٢) التجانى : المصدر السابق ص١٢٣ — ١٢٤ — الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٥ .

(٢٣) ليون الافريقى : المصدر السابق ص٤٦٦ .

ويترتب على ذلك كنتيجة لازمة يرجع سببها الى عزمنا على العمل أكثر مما يرجع الى الطبيعة ، وأن الله يمن علينا بخيراته فى الوقت المناسب بكميات ان لم تكن وافرة فهى على الاقل معقولة »[٢٤] .

وبرغم ذلك كانت جربة تنتج العديد من المحاصيل الزراعية مثل الكروم[٢٥] الذى ينتج بكثرة فى أراضيها ، ويقوم أهالى جربة بتجفيفه وعمله كزبيب يصدرونه للخارج خاصة الى الاسكندرية وبعض الاسواق الاوربية[٢٦] ، كما يزرع أهل جربة التين ويجففونه أيضا[٢٧] ويصدرونه للخارج، كما تنتج جربة كميات لا بأس بها من البلح نظرا لوجود أعداد كبيرة من أشجار النخيل[٢٨] فى أغلب أنحاء جربة . أمّا الرمان فهو من أصناف الفاكهة التى زرعها أهل جربة[٢٩] . ومن أشهر أنواع الفاكهة التى تنتجها جربة التفاح ، فالعبدرى البلنسى يذكر أن تفاح جربة مشهور يجلب منها الى البلاد[٣٠] ، أما القلصادى الاندلسى — الذى زار جربة

---

(٢٤) روبرت برنشفيك : المرجع السابق جا ص٢١٦، نقلا عن Néo Castro : Historia Sicula, Chap. 66.

(٢٥) التجانى : المصدر السابق ص١٢٢ — ابن خلدون : العبر ج٦ ص٣٧٤ — الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٨ .

(٢٦) Léon Mirot : Une expédition Française en Tunise au XIVe Siècle : Le Siège de Mahdia (1390), Revue des études historiques, Paris, 1931, p. 363.

انظر كذلك : ليون الافريقى : وصف افريقيا : ص٤٦٧ .

(٢٧) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص٣٧٤ . كذلك راجع : برنشفيك : المرجع السابق ج٢ ص٢٣١ .

(٢٨) ليون الافريقى : المصدر السابق ص ٤٦٦ .

(٢٩) العبدرى : الرحلة المغربية ص٩١ .

(٣٠) نفس المصدر السابق والصفحة .

عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م — فيشير الى أن تفاح جربة له رائحة عجيبة[٣١] ، فى حين أن التجانى يذكر أن تفاح جربة لا يوجد له فى جميع بقاع الارض نظير « لما يوجد بها منه صفاء وجفافا وطيب مذاق ، وعطارة استنشاق، ورائحته توجد فى المسافة المديدة والاميال العديدة » . ويضيف أن أشجار التفاح كانت كثيرة جدا بجزيرة جربة قبل احتلال النصارى لها (حملة روجير دى لوريا ٩٨٣هـ) ، ولكن فى مطلع القرن الثامن الهجرى قلت أعداد أشجار التفاح بها لأن المحتلين النصارى كانوا يستولون على محصول الجزيرة من التفاح ويتحفون به ملوكهم وكبارهم دون دفع تعويض لأربابه ، ولذلك قام أهالى جربة بقطع أشجار التفاح وزراعة أصناف أخرى تعود عليهم بالفائدة ، ولهذا قل انتاجه بجربة[٣٢] .

ومن الحاصلات الزراعية التى تشتهر جربة بزراعتها نذكر الزيتون[٣٣] ، ومن المعلوم أن غالبية بلاد شمال افريقيا تشتهر بانتاجه ، وتتركز زراعة الزيتون فى المناطق الجنوبية منها . وقد اعتمدت البلاد التونسية على زيتون جربة عقب الدمار الذى أحدثته الغزوة الهلالية لبلاد المغرب . وقد أشار العبدرى الى ذلك ، فذكر أن الطريق بين القيروان ونفطه كان غابة افريقية حيث يكثر بها الزيتون الذى يعصر زيتا طيبا ، بيد أن هذا الطريق أصبح معطلا لفساد البلاد واستيلاء العربان عليها « فانقطعت بنفعتها رأسا حتى صار زيت افريقية مجلوبة من جزيرة جربة وهى جزيرة صغيرة منقطعة فى البحر فيها زيتون ورمان »[٣٤] . وكان زيت الزيتون المنتج من جربة من الانواع الممتازة ،

---

(٣١) القلصادى : رحلة القلصادى : ص١٢٣ — ١٢٤ .
(٣٢) التجانى : المصدر السابق ص١٢٢ .
(٣٣) البكرى : المغرب ص١٩ ، العبدرى : المصدر السابق ص٩١ .
(٣٤) العبدرى : نفس المصدر السابق والصفحة .

ويصدر الى المشرق وخاصة مصر وأقريطش (كريت) ؛ وقد ذكر الرحالة المصرى عبد الباسط بن خليل أنه شاهد سفينة تابعة لتجار البندقية تقوم بنقل زيت الزيتــون من جربة الى الاسكندرية[٣٥] . كذلك كان زيت الزيتون الذى تنتجه جربة يصدر الى البلاد الاوربية[٣٦] ؛ وقد ذكر برنشفيك أن مكيال الزيت فى جربة يتمثل فيما عرف باسم «المطر» وهو يعادل حوالى ٦٩ر٢٠ لترا تقريبا[٣٧] .

أما أشجار النخيل فقــد وجدت بكثرة فى جربه ، حيث استفاد أهلها من جريد الاشجار فى عمل مساكنهم التى أطلق عليهــا كل من الادريسى والتجانى الاخصاص ؛ ونظرا لوفرة انتاج التمور كان قسم كبير منه يصدر الى خارج الجزيرة وخاصة الى البلاد الاوربية[٣٨] .

ومن الاشجار التى زرعت فى جزيرة جربة شجر السدر (النبق) حيث شاهد التجانى هذا النوع من الشجر فى مدينة جربة القديمة ، وذكر أن هذا الشجر يعرف بالسدر المصرى وأنه عظيم الحجم . ويقارن التجانى بين شجر السدر بجربة ونظيره المعروف فى البلاد التونسية

---

(٣٥) عبد الباسط بن خليل : رحلة عبد الباسط المستخرجة من كتاب الروض الباسم . تحقيق روبرت برنشفيك الذى نشرها تحت عنوان :
Deux Récits de Voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, Paris, 1936, pp. 95-96.
انظر كذلك : روبرت برنشفيك : المرجع السابق ج٢ ص٢٧٢ .

(٣٦) Léon Mirot : op. cit. p. 363. Setton : The Papey and the Levant V, 1, p. 330

(٣٧) برنشفيك : المرجع السابق ج٢ ص٢٦٢ .

(٣٨) التجانى : المصدر السابق ص١٢٢ — ابن خلدون : المصـــدر السابق ج٦ ص٣٧٤ — القلصادى : المصدر السابق ص١٢٤ .

فيقول « وهذا السدر مخالف لسدر بلادنا هذه ، وهو أكثر ثمرا وأعطر رائحة ، وأما المطعم ففيه غثاثه ... وانما نسب لمصر لكثرته بها »[39].

أما المعادن بجزيرة جربة فكانت قليلة فيما يبدو . فلم تحدثنا المصادر عما تنتجه الجزيرة من معادن ، وان كان البكرى قد أشار الى أن الذهب يوجد بأرضها بكثرة[40] . وقد أشتهر أهالى جربة ببراعتهم فى استخراج الملح ، حتى أن الملح كان من السلع الاساسية التى يصدرها أهالى جربة الى الخارج وخاصة لمدينة البندقية[41] ، فهناك وثيقه مؤرخة فى ٣ مارس ١٣٢١م/٢١ صفر ٧٢١هـ تتعلق بسعر وشروط تصدير ملح جربة الى البندقية[42] ، كما أن أحد سفراء البندقية قد أوضح للسلطان الحفصى أبى العباس أحمد أثناء مقابلته له عام ١٣٩١م / ٧٩٣هـ أن البندقية ترغب فى أن تقتصر التجارة مع الحفصيين على سلعتين اثنتين هما : الحبوب والملح ؛ وكان يشير الى ملح جربة[43] .

ويعتبر رعى الاغنام من الحرف التى اشتغل بها عدد لا بأس به من سكان جربة ، فالمصادر تشير الى وفرة الاغنام بها وخاصة من السلالة ذات الالية الغليظة المنتشرة فى البلاد التونسية[44] ، وقد اكتسب صوف أغنام جربة شهرة طيبة فى الاسواق الخارجية نظرا لليونته

---

(٣٩) التجانى : ص١٢٧ .

(٤٠) البكرى : ص ٨٥ .

(٤١) Encyclopedia of Islam : Art. Djerba, by J. Despois

(٤٢) Mas Latrie : op. cit. (Section de République de Venise) pp. 221-222.

(٤٣) برنشفيك : المرجع السابق جـ٢ ص٢٧٤ .

(٤٤) ليون الافريقى : وصف افريقيا : ص٦٤٣ .

ورطوبته ، وقد أشار القلصادى فى رحلته الى هذه الناحيـة بقوله : « ومما خصت به لين الصوف ورطوبته ، وتصير الشاة من غير الجزيرة فيما بعد اقامة سنة مثل أشياهها من رطوبة الصـوف »[٤٥] . وكان أهالى جربة يصدرون قسما من الصوف اما خاما أو مغسولا الى كل من مارسيليا والبندقية وجنوه وبيزة وذلك فى عهد الحفصيين[٤٦] . كما قام أهل جربة بصـناعة الاقمشة والمنسوجات من صوف هذه الاغنام ، وقد أشاد التجانى بجودة المنسوجات الصوفية التى تنتج فى جربة وقال « واختصت هذه الجزيرة أيضا دون غيرها من البلاد بحسن الاصواف المحمودة الاوصاف التى ليس بافريقية لما ينسج من أثوابها نظير ، وذلك معلوم وأمرها شهير »[٤٧] . أما ابن خلدون فلم يخف هو الآخر اعجابه بأصواف جربة ، فذكر أن جزيرة جربة اختصت بالنسيج وعمل الصوف ، وأن أهالى جربة يتخذون منه الاقمشة المعلمة التى يصنعون منها الشمل (جمع شملة) ، أما غير المعلمة فكانوا يصنعون منها ملابسهم ، وكانت جربة تصدر هذه الاقمشة بنوعيها الى كافة الاقطار فيتقنيها الناس للباسهم[٤٨] . أما الرحالة المصرى عبد الباسط فقد شاهد هو الآخر خلال رحلته سفينة تحمل المنسوجات الصوفية من جربة الى الاسكندرية[٤٩] .

---

(٤٥) القلصادى : المصدر السابق ص١٢٣ ــ ١٢٤ .

(٤٦) برنشفيك : المرجع السابق جـ٢ ص٢٧٣ .

(٤٧) التجانى : المصدر السابق ص١٢٢ .

(٤٨) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص٣٧٤ .

(٤٩) عبد الباسط : الرحلة (نشر برنشفيك) ص٩٦ ، ويتفق ليـون الافريقى مع عبد الباسط بن خليل فى ان الاقمشة الصوفية التى تصنع بجربة كانت تنقل منها الى تونس ومنها الى الاسكندرية . راجع : وصف افريقيا ص ٤٦٧ .

وفى بلاد المغرب الاقصى عرف نوع من الزرابى يسمى الزرابى الجربية كان يصنع فى جربة من الصوف ويصدر الى هذه البلاد[٥٠] .

كذلك عمل قسم كبير من أهالى جربة فى صناعة الاوانى الخزفية، وهى من الصناعات المعروفة فى جربة منذ وقت بعيد ومازالت قائمة حتى الآن ، حيث يستخدم الخزافون الجربيون الصلصال اللزج الذى يوجد بكثرة حول قرية قلاله ويصنعون منـــه آوانى خزفية بيضـــاء برلقة يصدرونها الي تونس وطرابلس[٥١] . أما ســكان السواحل فكانوا يعملون فى صيد الاسماك .

واذا تحدثنا عن الاسواق فى جربة ، نقول أن هذه الجزيرة كانت تستهوى كثيرا من التجار نظرا لرخص أسعارها وتنوع منتجاتها ، وكانت بلدة حومة السوق (احدى قرى جربة وتقع فى أقصى شمال الجزيرة) تشتهر بسوقها الكبير ، وقد نشأت هذه البلدة من فكرة السوق الاسبوعية التى تقام مرة كل أسبوع . وقد تحدث ليون الافريقى عن شهرة سوق هذه البلدة بقوله : « ويقام فى هذه القرية سوق مرة كل أسبوع وهو يشبه معرضا لأن كل سكان الجزيرة يتجمعون فيه ، ويقصده الكثـــير من العرب ، كذلك من البربر وهم يقودون ماشيتهم ويجلبون اليه كمية من الصوف »[٥٢] .

أما عن علاقات جربة التجارية مع الخارج ، فقد كان لها علاقات تجارية مع غالبية مدن البحر المتوسط ، لأن موقعها على طرف خليج قابس لفت أنظار الدول البحرية اليها ، وجعلها من الاماكن الصالحة لكى تكون مرفأ تجاريا ، ولذلك قصدها العديد من تجـــار الاسكندرية

---

(٥٠) عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب جا ص ٢٨٥ .

(٥١) راجع مادة « جربة » فى دائرة المعارف الاسلامية بقلم ج. ايفر .

(٥٢) ليون الافريقى : المصدر السابق ص٤٦٦ — ٤٦٧ .

وتونس[٥٣] . ولذلك وجد فى جربة عدد من الفنادق الخاصة بالتجار المسيحيين خاصـــة فى العصر الحفصى[٥٤] . ولاشك أن أهالى جربة إستفادوا كثيرا من وضع جزيرتهم كمركز تجارى ومعبر من معـــابر تجارة البحر المتوسط ، وقد نوه ليون الافريقى بكثرة المبالغ التى تحصل عليها السلطات فى جربة كرسوم للجمارك بسبب التجارة التى تمارس فيها على نطاق واسع[٥٥] .

ومن الانشـــطة التى مارســـها بعـــض أهل جربة — برغم عدم مشروعيتها — القرصنة البحرية حيث اشتهرت الجزيرة فى العصور الوســـطى وبداية العصور الحديثة على أنهـــا واحدة من أهم مراكز القرصـــنة فى حوض البحـــر المتوســـط . وقد قاسى كل من المسلمين والمسيحيين من الهجمات المتكررة التى شنها الجربيون على الســـفن التجارية التى تمر بالقرب من جربة . وسبق أن أشرنا الى الحملة التى شنها الامير أبو الحسن على بن يحيى بن تميم ع ى هذه الجزيرة للقضاء على نشاط القراصنة بها ، كما أشرنا أيضا الى الحملات المتكررة التى شنتها القوى المسيحية على هذه الجزيرة والتى كانت تتخذ من نشاط أهل جربة البحرى ذريعة لشن هذه الحملات .

ولعل حديثنا عن اشتغال أهل جربة بركوب البحـــر يدفعنا الى القول بأن صناعة السفن والمراكب كانت من المهن التى يعمل بها العديد

---

(٥٣) ذكر ابن بطوطه أنه أثناء عودته من مصر الى بلاد المغرب استقل قرقورة لبعض التجار التونسيين حملته من الاسكندرية الى جربة حيث نزل بها ثم غادرها الى طرابلس . راجع : رحلة ابن بطوطه : ج٤ ص٣٢٧ .

(٥٤) أندريه جوليان : المرجع السابق ج٢ ص٢٩٦

Ateya : op. ci. p. 401.

(٥٥) ليون الافريقى : المصدر السابق ص٤٦٨ .

من الجربيين ، وعلى الرغم من أن المصادر التى بين أيدينا لم تشــر صراحة الى وجود دار لصناعة السفن فى جربة ، الا أننا يمكن أن نقول أن صناعة السفن والمراكب كانت من المهن التى عمل بهــا أهل جربة وساعدهم على ذلك وجود كميات لا بأس بها من أشجار النخيل وأشجار السدر ، والا فكيف نفسر وجود هذا العدد الكثــير من السفن التى هاجم بها أهل جربة السفن التجارية فى حوض البحر المتوسط ؟ .

الحياة الفكرية فى جربة

كانت جربة من المراكز العلمية المهمة خاصة فيما يتعلق بعــلوم المذهب الاباضى ، فقد برز من أبنائها أو من أقام فيها عدد لا بأس به من الفقهاء الذين كانت نظرياتهم الفقهية وفتاويهم يعمل بها فى سائر مراكز تجمع الاباضية ، كما قصد اليهم كل اباضى يريد التفقه فى أصول هذا المذهب • وقد نشطت الحركة العلمية فى جربة خاصة خلال الفترة التى انضوت فيها تحت لواء الرستميين[٥٦] • وكان هؤلاء الفقهــاء (أو المشايخ كما تسميهم كتب الطبقات الخاصة بالاباضية) يقومون بالقاء دروسهم فى المساجد وخاصة المسجد الكبير . ويتحلق الطــلاب حولهم • ومن أشهر علماء المذهب الاباضى فى جربة الشيخ أبو مسور يصلتين اليهراسانى (من بنى يهراسن) الذى سبق أن أشرنا اليــه والى ولده فيصل الذى وصف بأنه فقيه عالم عارف بجميع العلوم[٥٧]. كذلك نذكر أبا الربيع سليمان بن يخلف المزاتى الوسيانى(ت ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) الذى وصفه الدرجينى بأنه الاصولى الفقيه الزكى النبيه[٥٨]. ويشير ابن خلدون الى أن الاباضية فى جربة كانوا يتدارسون مذاهبهم

---

(٥٦) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥٧٥ .

(٥٧) محمد أبو راس : مؤنس الاحبة ص ٩٠ .

(٥٨) الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب جـ١ ص ٤٢٥ — ٢٤٩ .
انظر كذلك : أبو زكريا : سير الائمة ص١٨٤ — ١٨٨ .

فى مجلدات تشتمل على تآليف ، لأنهم فى توعر ديانتهم وأصول عقائدهم وفروع مذاهبهم يتناقلونها ويعكفون على دراستها وقراءتها[٥٩] .

ومن مشاهير علماء الفقه الاباضى الشيخ أبو الطاهر اسماعيل بن موسى الجيطالى (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) ، هذا الرجل كان يقيم فى بداية حياته بطرابلس ، ولكنه لم يلبث أن غادرها الى جربة حين وقع خلاف بينه وبين علماء المذهب بجبل نفوسه ، وفى جربة نزل بالجامع الكبير حيث اجتمع اليه العلماء والطلبة . ومن أشهر تآليف الجيطالى كتاب القواعد والقناطر وكتاب شرح قواعد الاسلام[٦٠] ، وكتاب شرح النونيه[٦١] . وتعتبر مؤلفات الجيطالى الفقهية من المصادر الاساسية لدراسة أصول المذهب الاباضى فى وقتنا الحالى .

وفى مجال التأليف التاريخى أشتهر اثنان من أبناء جربة فى هذا المجال وخاصة فى كتب الطبقات ، وأولهما أبو العباس أحمد بن سعيد بن على بن يخلف الدرجينى ، وهو من أهل القرن السابع الهجرى/١٣م وينتمى الى أسرة تجارية من أهل جبل نفوسة ، وكان والده يعيش فى منطقة درجين السفلى بالقرب من نفطه فى بلاد الجريد ، ولذلك نسب اليها . وقد وصل أبو العباس أحمد الى جربة بعد عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م حيث أخذ عن مشايخها وعلمائها أصول الفقه الاباضى ، وقد اكتسب الدرجينى تقدير علماء الاباضية فى جربة بفضل ذكائه ومقدرته الفائقة على استيعاب كافة ما يتعلق بالفقه الاباضى ، ولذلك طلب منه مجلس

(٥٩) ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٢٢ ــ ١٢٣ .

(٦٠) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٠٦٧ب .

(٦١) أنظر : محمد ابو راس : المصدر السابق ص٩١ ــ ٩٢ .

العزابة(٦٢) فى جربة أن يؤلف لهم كتابا عن سير أئمة ومشايخ الاباضية سواء فى المشرق أو المغرب فألف كتابه الشهير « طبقات المشايخ بالمغرب » . وقد توفى الدرجينى حوالى عام ٦٧٠هـ/١٢٧٢م(٦٣) .
وثانيهما أبو القاسم ابراهيم البرادى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى/١٤م ، وقد تلقى البرادى علومه الاولية على يد الشيخ الاباضى أبى البقاء يعيش الجربى وذلك فى مدينة دمر بالجنوب التونسى ، ثم رحل بعد ذلك الى جبل نفوسة ثم الى جربة حيث استقر به المقام هناك وصار أحد علمائها البارزين، وكان يلقى دروسه فى جامع الزبيب بجربة ، وألف كتابه المسمى « الجواهر المنتقاة فى اتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبى العباس الدرجينى » . وواضح من اسم هذا الكتاب أنه استكمال لكتاب طبقات المشايخ للدرجينى . وللبرادى أيضا رسالة ذكر فيها عناوين بعض المؤلفات الاباضية أسماها « رسالة فى تقييد كتب أصحابنا »(٦٤) .

---

(٦٢) العزابة : اسم لجماعة ومفردهم عزابى ، وهو مشتق من العزوب عن الشىء أو البعد عن الامور الدنيوية ، والعزابة تعنى الانقطاع والعزلة الجماعية وتنطبق خصوصا على طلبة العلم ، ويطلق لفظ العزابة عند الخوارج الاباضية على هيئة تقوم بالاشراف على شئون المجتمع الاباضى الدينية والسياسية والاجتماعية ، وهى بمثابة مجلس للشورى ، ومقر مجلس العزابة بالمسجد . راجع : أبو زكريا : سير الأئمة ص١١٨ والحاشية رقم ٥ ص١٢٣ .

(٦٣) راجع ترجمته فى : البرادى : الجواهر المنتقاة فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لأبى العباس الدرجينى . القاهرة ، طبعة حجرية ١٣٠٢هـ/١٨٨٤ ص ٢١٥ . كذلك انظر : عوض خليفات : نشأة الحركة الاباضية ص١٧ — ١٨ .

(٦٤) توجد نسخة مخطوطة من هذه الرسالة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٧٩١ب . وعن البرادى راجع : عوض خليفات : المرجع السابق ص ٢٠ — ٢١ .

خاتمــــــة

استعرضنا خـلال الصفحات القليلة السابقة جوانب من تاريخ جربة السياسى والحضارى ، وكما قلنا فى بداية هذا البحث أن تاريخها يكتنفه الكثير من الغموض فى العصور الاسلامية نظرا لقلة ما كتب عنها، وقد حاولنا بقدر الامكان أن نجلى بعض جوانب هذا الغموض وخاصة خلال القرون الاربعة الاولى للهجرة • وقد أوضحت هذه الدراسة أن إعتناق أهل جربة للمذهب الاباضى الخارجى كان عاملا رئيسيا فى تشكيل تاريخها ، بحيث اقترن تاريخ جربة خلال هذه الحقبة بتاريخ المذهب الاباضى فى بلاد المغرب ، كما أن الصراعات التى نشبت بين معتنقى هذا المذهب وانقساماتهم المختلفة قد انتقلت الى جربة ، فانقسم أهلها الى وهبية ونكارية • وعلى الرغم من خضوع هذه الجزيرة من الناحيـــة السياسية للسلطات الحاكمة فى افريقية مثل الفاطميين والزيريين ، الا أن أهل جربة كان لهم قدر كبير من الحرية فى تصريف شئونهم الداخلية عن طريق مشايخهم ومجالس عزابتهم • وقد حاول أهالى جربة التخلص من سيطرة مخالفيهم فى المذهب عليهم عن طريق القيام بعدة ثورات ، الا أن هذه الثورات أخفقت فى تحقيق الاستقلال السياسى للجزيرة •

وقد استمر وضع الجزيرة كذلك حتى تعرضت لهجـــوم النورمان عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، فقد أراد هؤلاء النورمان أن يتخذوا من جربة نقطة أنطلاق لشن الهجمات على السواحل التونسية والاستيلاء على مدن وموانىء هذه السواحل ، وقد نجح النورمان فى ذلك بفضـــل تمركز أسطولهم القوى فى جزيرة جربة • بيد أن جربة لم تستمر طويلا تحت حكـــم النورمان ، حيث تم تحـــريرها على يد الموحدين أيام الخليفة

عبد المؤمن بن على الذى تمكن من طرد النورمان من كل المدن الساحلية لبلاد المغرب حتى انهارت دولتهم وبسط الحفصيون سيطرتهم على هذه الجزيرة • وقد تعرضت جربة خلال العصر الحفصى لعدة حوادث هامة، فقد استولى عليها اسطول صقلية والاراجونيون عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، وقد أشرت الى الاختلاف بين الروايات حول تاريخ هذه الغزوة وهل تمت فى عام ٦٨٣هـ أم فى ٦٨٨هـ؟ وقد خلصت الى ترجيح تاريخ ٦٨٣هـ لعدة أسباب أشرت اليها فى ثنايا هذا البحث • وقد تناولت حكم أسرة دى لوريا القطلانية لجزيرة جربة ، ثم أشرت الى محاولات الحفصيين استعادة هذه الجزيرة لدائرة نفوذهم ، خاصة وأنها أصبحت تشكل خطرا كبيرا على بلادهم • وفى هذا الصدد تعرضنا لذكر الحملة الشهيرة التى قام بها شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا بن اللحيانى عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٦م لطرد الاراجونيين منها • وعلى الرغم من فشل حملة أبى يحيى بن اللحيانى الا أن محاولات الحفصيين لم تنقطع لاستعادة هذه الجزيرة من يد الاراجونيين ، حتى تمكـن الحفصيون عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م من تحريرها من المحتلين • وقد استمرت جربة منذ ذلك التاريخ تابعـة للحفصيين حتى تعرضت فى عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م لغارة تخريبية من قبل أساطيل جنوه وبيزه وصقلية ، ثم هاجمها ألفونسو الخامس ملك أراجون بأساطيله عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م ، ولم تؤد هذه الغارات الا الى احداث بعض الاضرار المادية ، أما الجزيرة فقد بقيت تابعة للحفصيين •

أما الجوانب الحضارية لجزيرة جربة ، فبرغم قلة المادة التاريخية التى تعين على توضيح هذه الامور فاننا استطعنا أن نعطى صورة تكاد تكون واضحة لبعض هذه الجوانب ، فعلى سبيل المثال تناولنا بالحديث عناصر سكان هذه الجزيرة وأوضحت أن غالبيتهم كانوا من العنـاصر البربرية ، بالاضافة الى أعداد قليلة من العناصر العربية واليهودية ، كما أشرت الى لغة أهل جربة حيث أنهم ظلوا يستخدمون البربرية فى تعاملاتهم اليومية وشئونهم الخاصة ، أما العربية فقد استخدمت فى

التعامل مع السلطات الحاكمة • وتناول البحث آراء بعض الرحالة والجغرافيين المسلمين فى أهل جربة حيث وصفوهم بأشنع الصفات ، ويبدو أن سبب هذا التحامل من قبل هؤلاء يرجع الى الاختلاف المذهبى بين أهل جربة الخوارج وهؤلاء الرحالة من السنيين • أما النشاط الاقتصادى لأهالى جربة فقد كانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية لهم ، وكان الكروم والتفاح والزيتون من أشهر حاصلات جربة ، وكانت تصدر كميات كبيرة منها الى الخارج • كما برع أهل جربة فى استخراج الملح من أراضيهم وصدروه كذلك الى الخارج • أما رعى الأغنام فقد عمل نفر كبير من أهل جربة فى هذه المهنة ، كما اشتهرت الاصواف والملابس الصوفية والزرابى التى تنتجها جربة شهرة واسعة تحدث عنها الرحالة والمؤرخون مثل ابن خلدون والرحالة المصرى عبد الباسط بن خليل وليون الافريقى • وفى الختام أشرت الى الحياة الفكرية بجزيرة جربة وذكرت بعض مشاهير علمائها •

ملحـــق

رسالة بعث بها السلطان الحفصي أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني الى خايمى الثانى ملك أراجون يطلب منه أن يصدر أوامره لقائد أسطول جربة بعـدم التعرض للسفن الاســلامية المتجهـة الى الشــواطىء التونسية[1] . (الرسالة مؤرخة بتاريخ ١٣ مايو وان لم تحدد العام الذى كتبت فيه) .

نص الرســالة

الملك الجليل الأثير الخطير الرفيع الشهير الأظهر الأوفى الأمجـد الأسعد الأحفل ملك أرغون وبلنسيه ومرسية جاقم[2] بن الملك الجليل الأثير الخطير الرفيع الشهير الأظهر الأوفى بطره[3] تولى الله ارشـاده وواصل اسعاده ، شاكر رتبته ، العليم بقدره ومكانته[4] ، زكرياء بن

---

(١) نص الرســالة محفـوظ فى أرشيف تاج اراجون ونشـره آلاركون وليناريس فى كتابهما :

Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon. P. 284.

(٢) هو خايمى الثانى .

(٣) يقصد الملك بدرو الثالث Pedro III ملك اراجون ووالد خايمى الثانى .

(٤) وردت : مكنته .

أحمد يسلم عليكم بأتم السلام . وأعرفكم أنى أمرت بالكتب لكم فى أمر المراليه لجير[٥] لتنهوه عن التعرض لبلاد افريقية فانه قد أفسد فيها فى العام الفارط كثيرا . وهو عبدكم وعامل على مرضاتكم . فان أمرتموه أن لا يتعرض لبلادنا فهو يقف أمركم ولا يتعداه ، وقد حصل بيننا وبين أخيكم السلطان فدريك[٦] من المحبة والمواصلة كثيرا ، وسررت بذلك ، فالحمد لله الذى جعل المحبة فيكم وفى اسلامكم ثابتة ، وهذا المراليه لم يقف عند حده ، والغرض أن يصل كتبكم له بالارتجاع عن هذه الجهات ، فان وقف عند حده فحسن فهو القصد ، وان لم يرتجع ويصل جوابكم ولم يقف عند أمركم ، فوالله لأنزلن جربة بنفسى ونقطع ثمارها ونهدم ديارها ، ولا نترك فيها منفعة . ومحبكم على أول حبة فيكم وهو كل يوم يتزايد ويتضاعف ، والله يصل ارشادكم ويتولى اسعادكم ، والسلام عليكم ، وكتب فى الثالث عشر لمايه . .

---

(٥) يقصد الامير ال أو القائد البحرى روجر : Almirante Roger حاكم جربة فى ذلك الوقت .

(٦) يشير الى الملك فريدريك الثالث ملك صقلية .

مصادر ومراجع الكتاب

أولا : المصادر العربية :

١ ــ ابن الأثير : أبو الحسن على بن حمد الجزرى (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
ــ الكامل فى التاريخ ، طبعة دار صادر . بيروت .

٢ ــ الادريسى : أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م) .
ــ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، تحقيق مجموعة من العلماء، نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة بدون تاريخ .

٣ ــ البرادى : أبو القاسم بن ابراهيم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) .
ــ الجواهر المنتقاة فى اتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبى العباس الدرجينى . القاهرة . طبعة حجرية ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م .

٤ ــ ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد الطنجى اللواتى (ت ٧٧٩هـ/
ــ تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار . نشره وترجمه الى الفرنسية ديفريمرى وسانجونيتى . أربعة أجزاء . باريس ١٩٦٩م .

٥ ــ البكرى : أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) .
ــ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر البارون دى سلان . الجزائر ١٩١١م .

٦ — البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) .
— فتوح البلدان . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . القاهرة ١٩٥٦م .

٧ — التجانى : أبو محمد عبد الله بن محمد (ت حوالى ٧١٧هـ/١٣١٧م).
— رحلة التجانى . نشر حسن حسنى عبد الوهاب . تونس ١٩٥٨م .

٨ — ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٥م) .
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ١٩٣٨م .

٩ — الجربى : محمد أبو راس (ت بعد ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) .
— مؤنس الأحبة فى أخبار جربة . تحقيق محمد المرزوقى . تونس ١٩٦٠م .

١٠ — ابن الحاج النميرى : أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م) .
— فيض العباب وافاضة قداح الآداب فى الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب . تحقيق د. رضوان البارودى ود. أحمد الطوخى . الاسكندرية (تحت الطبع) .

١١ — ابن حمديس الصقلى : أبو بكر عبد الجبار بن محمد (ت ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م) .
— ديوان ابن حمديس . تحقيق د. احسان عباس . دار صادر . بيروت ١٩٦٠م .

١٢ — الحميرى : عبد المنعم السبتى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى/ ١٥م) .

ـ الروض المعطار فى خبر الاقطار . تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٧٥م .

١٣ ـ ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م).
ـ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، القسم الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، نشره الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ ابراهيم الكتانى . الدار البيضاء ١٩٦٤م .

١٤ ـ ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).
ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . بولاق ١٢٨٤هـ .

١٥ ـ الدرجيني : أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٦٧٠هـ/١٢٧١م) .
ـ طبقات المشايخ بالمغرب المعروف بطبقات الاباضية . تحقيق ابراهيم طلاى . مطبعة البعث . قسنطينة ١٩٧٤م .

١٦ ـ الزركشى : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى .
ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس ١٢٨٩هـ .

١٧ ـ أبو زكريا : يحيى بن أبى بكر السدراتى الورجلانى (ت ٤١٧هـ/١٠٧٨م) .
ـ كتاب سير الأئمة وأخبارهم . تحقيق اسماعيل العربى . الجزائر . ١٩٧٩م .

١٨ ـ الزهرى : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر (ت أواسط القرن السادس الهجرى/١٢م) .
ـ كتاب الجغرافية . تحقيق محمد حاج صادق . نشر مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة . بدون تاريخ .

١٩ ـ ابن سعيد المغربى : أبو الحسن على بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) .

— المغرب فى حلى المغرب • تحقيق د• شوقى ضيف • القاهرة ١٩٦٤ • جزءان •

٢٠ — السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) •

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى • الدار البيضاء ١٩٥٤م •

٢١ — الشماخى : أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م) •

— كتاب السير • طبعة حجرية • القاهرة ١٨٨٤م •

٢٢ — ابن الشماع : أبو عبد الله محمد ابن أحمد (من رجال القرن التاسع الهجرى/١٥م) •

— الادلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية • ليبيا ١٩٨٤ •

٢٣ — ابن الصغير المالكى : (ت أواخر القرن الثالث الهجرى/بداية العاشر الميلادى) •

— أخبار الأئمة الرستميين • تحقيق وتعليق الدكتور محمد ناصر والاستاذ ابراهيم بحاز • منشورات دار الغرب الأسلامى • بيروت ١٩٨٦ •

٢٤ — عبد الباسط بن خليل : زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفى (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م) •

— رحلة عبد الباسط بن خليل ، مأخوذة من كتابه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » • نشرها روبرت برنشفيك فى كتابه :

Deux Récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, Paris, 1936.

٢٥ — ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) .

— كتاب فتوح مصر وأخبارها . ليدن ١٩٢٠م .

٢٦ — العبدرى : محمد بن على البلنسى : (ت أواخر القرن السابع الهجرى/١٣م) .

— الرحلة المغربية . تحقيق أحمد بن جدو . الجزائر .

٢٧ — ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢هـ/ ١٣١٢م) .

— البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . الاجزاء الثلاثة الاولى تحقيق ليفى بروفنسال و ج.س.كولان . بيروت ١٩٨٠ . والجزء الرابع تحقيق احسان عباس . بيروت . ١٩٨٠ . والقسم الخاص بعصر الموحدين وبداية عصر دولة بنى مرين ، تحقيق عبد القادر زمامه ومحمد الكتانى ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر . الدار البيضاء ١٩٨٥ .

٢٨ — القلصادى : أبو الحسن على بن محمد بن على البسطى (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م) .

— رحلة القلصادى . دراسة وتحقيق محمد ابو الاجفان . تونس ١٩٧٨ .

٢٩ — القلقشندى : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .

— صبح الاعشى فى صناعة الانشا . نشر مركز تحقيق التراث بدار الكتب . القاهرة .

٣٠ — ابن القنفذ القسنطينى : أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م) .

ـ الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية • تقـديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى • تونس ١٩٦٨م•

٣١ ـ ليون الافريقى : الحسن بن محمد الوزان الزياتى (ت ٩٣٩هـ/١٥٣٢م) •

ـ وصف افريقيا ، ترجمه عن الفرنسية الدكتور عبد الرحمن جميدة ، منشورات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية• الرياض ١٣٩٩هـ •

٣٢ ـ المالكى : أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله (ت القرن الخامس الهجرى/١١م) •

ـ رياض النفوس • تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١م •

٣٣ ـ ابن مرزوق : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أحمد بن أبى بكر بن مرزوق التلمسانى (ت ٧٨١هـ/١٣٧٩م) •

ـ المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن • نشر وتحقيق د• ماريا خيسوس بيجيرا • الجزائر • ١٩٨١ •

٣٤ ـ مؤلف مجهول : (ت القرن السادس الهجرى/١٢م) •

ـ الاستبصار فى عجائب الامصار ، نشر وتحقيق د• سعد زغلول عبد الحميد • مطبوعات جامعة الاسكندرية ١٩٥٨م•

٣٥ ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) •

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك • نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة • القاهرة ١٩٧١ •

٣٦ ـ النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م) •

— نهاية الأرب فى فنون الأدب • القسم الخاص ببلاد المغرب والاندلس • نشر دكتور مصطفى أبو ضيف • الدار البيضاء ١٩٨٥م •

٣٧ — ياقوت الحموى : أبو عبد الله شهاب الدين الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) •

— معجم البلدان • طبعة بيروت • بدون تاريخ •

ثانيا : المراجع الحديثة والمعربة :

١ — أحمد (عزيز) :

— تاريخ صقلية الاسلامية • ترجمة د• أمين توفيق الطيبى • طرابلس الغرب ١٩٨٠م •

٢ — اسماعيل (دكتور محمود) :

— الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى • الطبعة الثانية • القاهرة ١٩٨٦م •

٣ — البارونى (سليمان بن الشيخ عبد الله) :

— الازهار الرياضية فى أئمة وملوك الاباضية • تونس • بدون تاريخ •

٤ — برنشفيك (روبرت) :

— تاريخ افريقية فى العهد الحفصى • ترجمة وتعليق حمادى الساحلى ، منشورات دار الغرب الاسلامى • بيروت ١٩٨٨م •

٥ — جوليان (شارل آندريه) :

— تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامة ، تونس ١٩٧٨م •

٦ — خليفات (دكتور عوض محمد) :
— نشأة الحركة الاباضية . عمان ١٩٧٨م .
٧ — ريتشيتانو (أمبرتو) :
— النورمنديون وبنو زيرى من الفتح النورمندى لصقلية حتى وفاة روجر الثانى ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الاول ، ١٩٤٩م .
٨ — زمباور :
— معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى . ترجمه دكتور زكى محمد حسن ودكتور حسن أحمد محمود ودكتورة سيدة اسماعيل كاشف . القاهرة ١٩٥١م .
٩ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) :
١ — المغرب الكبير . الاسكندرية ١٩٦٦م .
٢ — تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر الابيض المتوسط ، بالاشتراك مع الدكتور أحمد مختار العبادى . بيروت ١٩٧٢ .
١٠ — الشيخ (الدكتور محمد محمد مرسى) :
— الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى . الاسكندرية ١٩٧٥م .
١١ — عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) :
١ — أوربا العصور الوسطى . الجزء الاول . القاهرة ١٩٦٦م.
٢ — الحركة الصليبية . الجزء الثانى . الطبعة الثالثة . القاهرة .
١٢ — العبادى (الدكتور أحمد مختار) :
— دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس . الاسكندرية ١٩٦٨م.

١٣ — عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) :

— تاريخ المغرب العربى • الاسكندرية ١٩٧٩م •

١٤ — عبد العزيز بن عبد الله :

— الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية ، معلمة المدن والقبائل • المحمدية ١٩٧٧م •

١٥ — عبد الوهاب بن منصور :

— قبائل المغرب • المطبعة الملكية بالرباط ١٩٦٨ •

١٦ — المطوى (محمد العروسى) :

— السلطنة الحفصية • منشورات دار الغرب الاسلامى بيروت ١٩٨٦م •

١٧ — الميلى (محمد بن مبارك) :

— تاريخ الجزائر فى القديم والحديث • الجزائر ١٩٦٣م •

ثالثا : المراجع الاجنبية :

1 — **Alarcon Y Linares :**

Los documentos arabes diplomaticos del **archivo de La Corona** de **Aragon**, Madrid-Granada 1940.

2 — **Atiya (Aziz Sorial) :**

— **The crusade in the later** middle **ages**, London, 1938.

3 — **Canellas (Angel) :**

— **Aragon Y La empresa** del estrecho en el Siglo XIV, **Estudios** de **edad** media de La Corona de Aragon, **Seccion de Zaragoza**, Vol. II., Zaragoza, 1940.

4 — Dufourcq (Charles-Emmannel) :

— L'Espagne Catalane et Le Maghrib aux XIIIe et XIVe sièiles, Paris, 1966.

5 — Encyclopedia of Islam

6 — Latrie (De Mas) :

— Traités et Documents divers concernant les relations des Chrétiens et des Arabes au Moyen Age. Paris. 1889

7 — Mirot (Léon) :

— Une expédition Française en Tunis aux XIVe siecle Le siège de Mahdia (1390). Revues des Etudes historiques. Paris, 1931.

8 — Ros (Angel Masia de)

— La Corona de Aragon Y Los estados del norte de Africa, Barcelona. 1951

9 — Setton (Kenneth M.) :

— The Papacy and the Levant, Vol., 1. Philadelphia. 1976


حومة السوق
برج جليج
الحارة الكبيرة
الحارة الصغيرة
الماي
تقرماس
ميدون
المحبوبين
أغير
سدويكش
قلالة
أجيم
رأس الجرف
الجرف
برج القنطرة
خليج بوغرارة
بوغرارة
جرجيس
كم
١٥
١٠
٥

جزيرة جربة

المحيط الأطلنطي
البحر المتوسط
صقلية
تونس
طنجة
تطوان
وهران
تاهرت
تلمسان
فاس
جيجل

بلاد المغرب

المبحث الثالث

أضواء على المسيحية والمسيحين في المغرب
في العصر الإسلامي

تمهيد ...

المسيحية ودخولها الى بلاد المغرب :

عرفت بلاد المغرب العديد من المعتقدات الدينية المختلفة ، نبع بعضها من البيئة المحلية ، ومثل صورة ساذجة للدين مثل الوثنية وبعض طقوس السحر والشعوذة ، فى حين تسلل بعضها الآخر من خارج البلاد خاصة من فلسطين وشبه الجزيرة العربية ، وأعنى بها الديانتين اليهودية والمسيحية وذلك قبل الفتح العربى للمغرب .

وجاء انتشار اليهودية فى بلاد الغرب فى القرن الاول قبل الميلاد على أيدى المهاجرين اليهود الذين فروا من فلسطين بسبب اضطهاد الرومان لهم ، وان كان هذا الانتشار محدودا بين السكان المحليين وهم البربر . كذلك عرفت المسيحية طريقها الى شمال افريقيا منذ فترة مبكرة، اذ يرى البعض أن انتشار المسيحية فى بلاد المغرب كان وثيق الصلة بالحكم الرومانى ، فقد كانت مبادىء المسيحية تتعارض مع تقاليد المجتمع الرومانى ، فلما خرجت المسيحية من بلاد الشام ، استهدفت القضاء على الوثنية فى الامبراطورية الرومانية [1] . ثم انتقلت المسيحية الى المغرب اما عن طريق مصر أو عن طريق الرومان فى القرون الأولى للميلاد . فليس هناك تاريخ مؤكد يعين دخول المسيحية الى هذه البلاد . وان غدت المسيحية فيما يقرب من القرن الثالث الميلادى ديانة

---

(١) انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الاسكندرية ١٩٧٩ ، جـ١ ص١١٧ .

وعقيدة لها اتباع عديدون فى تلك البلاد [٢] ، وذلك حين تم تنظيم الكنيسة الافريقية على يد القديس سبيريان St. Cyprien (توفى فى ١٤ سبتمبر ٢٥٨ م) • وتعرض المسيحيون فى بلاد المغرب للاضطهاد — شأنهم فى ذلك شأن بقية المسيحيين فى أنحاء الامبراطورية الرومانية — وخاصة عندما طلب الامبراطور الرومانى دكيوس Decius من جميع رعاياه عام ٢٥٠ م أن يعلنوا ولاءهم للدولة وأن يخلصوا فى عبادة الامبراطور ويقدموا القرابين باسمه ويتنصلوا من العبادات الاخرى خاصة المسيحية والمانوية [٣] • واشتد اضطهاد الرومان الوثنيين للمسيحيين عندما رفضوا عبادة الامبراطور ودخول المعابد لتقديم القرابين باسمه ، كما رفضوا الانخراط فى جيش الدولة ، مما فسره الرومان بأنهم غدوا دولة داخل الدولة بعد أن استهانوا بتقاليد الامبراطورية ورسومها [٤] • وفى عصر الامبراطور دقلديناوس رأى

---

(٢) يرى شارل اندريه جوليان ان المسيحية وجدت استعدادا طيبا من البربر ، لان الطبقة الارستقراطية منهم تقبلت فكرة الوحدانية بفضل الفلسفة . أما عامة الناس فقد تقبلوا هذه الفكرة بفضل الديانة البونية التى كان اصحابها يدينون باله واحد ولكن دون أن يسلموا بانه اوحد . ولذلك سجلت المسيحية تقدما سريعا وانتشرت فى اماكن عديدة فى هذه الفترة المبكرة . راجع : شارل جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية . تعريب محمد مزالى والبشير ابن سلامة . تونس ١٩٧٨ ، جا ص٢٥٥ — كذلك انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨١ ، جا ص٤٩ •

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جا ص١١٧ •

(٤) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى • الاسكندرية ١٩٩٠ ص٤٨ •

أن هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحية وانصرفوا عن عبادة الامبراطور انما يجنحون الى حركات انفصالية هدامه [5] ، ذلك أن دخول المعابد الوثنية وعبادة الامبراطور كانت لونا من ألوان الطاعة السياسية يؤكد بهـــا الرعايا ولاءهم للامبـــراطور ، ولهذا اشتد دقلـــديانوس فى اضطهاد المسيحيين لا سيما فى السنوات الاخيرة من حكمه .

وقـــد اختلف رد فعل سكان المغـــرب من معتنقى المسيحية ازاء سياسة القمع والاضطهاد التى انتهجتها الامبراطورية الرومناية . فقد ارتد كثير من هؤلاء السكان عن المسيحية ، لأن المسيحية لم تكن قد تغلغلت بعد فى نفوسهم ، بل كان اعتناقهم لها سطحيا [6] . أما المؤمنون منهم فقد تمسكوا بعقيدتهم ، وتحملوا من أجل ذلك ألوانا مختلفة من العذاب والاضطهاد . فقد هدمت كنائسهم وأحرقت كتبهم المقدسة ، وألقى قساوستهم فى السجون ، وطردوا نهائيا من الوظائف الحكومية ، ولقى الكثير منهم حتفه فى هذه الفترة، وغدوا فى نظر المسيحية شهداء. ويعبر القديس أوغسطين [7] عن ذلك بقـــوله « ان أرض أفريقية مليئة

---

(٥) ابراهيم احمد العدوى : المجتمع المغربى . القاهرة ١٩٧٠ ص٥٥ .

(٦) ليون الافريقى (الحسن الوزان الفاسى) : وصف افريقيا . نشر ايبولار وآخرون : ترجمة عبد الرحمن حميدة . منشورات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . الرياض ١٣٩٩هـ ص٧٧ .

(٧) القديس اوغسطين : واحد من اعظم الفلاسفة المسحيين فى بلاد المغرب . ولد فى نوميديا عام ٣٠٤م من أب وثنى وام مسيحية . تلقى علومه الاولى فى قرطاجنة ، ثم انتقـــل الى روما لاستكمال دراسته هناك . ثم رحل الى ميلان حيث اعتنق المسيحية وتعمق فى دراسة الفلسفة واللاهوت ويعتبر كتابه « مدينة الله » من اهم اعماله الادبية والفلسفية تأثيرا فى الفكـــر المسيحى . ولمزيد من

بأحباء القديسين » [8] .

وعلى الرغم من هذا الاضطهاد الذى تعرض له مسيحيو المغرب ، الا أن ذلك لم يمنع من وجود طائفة ظلت تحافظ على عقيدتها وبقيت صامدة متمسكة بدينها . وتركز المسيحيون فى الفترة التالية وحتى الفتح الاسلامى فى مناطق الاستقرار . أى فى السهول الساحلية حيث استقرت العناصر الرومانية ، وفى بعض الحصون الداخلية . أما فى داخل البلاد حيث تنزل قبائل البربر ، كان انتشار المسيحية ضعيفا . وان كان ذلك لم يمنع عددا من قبائل البربر — خاصة التى ارتبطت بالحضارة الرومناية — أن تدين بالمسيحية [9] وقد اعتنق مسيحيو شمال افريقيا فى غالبيتهم — وخاصة البربر — المذهب الدوناتى المعارض لمذهب الدولة لرفض الدوناتيين (نسبة الى زعيمهم دوناتس Donatus) ما قال به اثناثيوس من أن السيد المسيح اله مساو للاله الأب فى المكانة والمنزلة والقدرة ، وما قرره مجمع نيقيه المسكونى من أن المسيح « اله من اله واله حق من اله حق ونور من نور ومولود غير مخلوق » [10] .

— التفاصيل عن القديس اوغسطين راجع . نورمان بينز : الافكار السياسية للقديس اوغسطين عن مدينه الله . ترجمة وتعليق أسامة زكى زيد : مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية . العدد ٢٩ عام ١٩٨١ ص١٤٣ — ١٩٣ .

(٨) جوليان : المرجع السابق جا ص٢٥٧ .

(٩) عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤هـ جـ٦ ص١٠٧ . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر بافريقية والمغرب قبل الاسلام كانوا تحت ملك الفرنج وعلى دين النصرانية الذى اجتمعوا عليه مع الروم .

(١٠) محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص٦١ .

ولما استولى الوندال على شمال افريقيا حاولوا فرض مذهبهم الاريوسى (نسبة الى أريوس Arius) على أهل البلاد ، وهذا المذهب كان يعارض مذهب اثناثيوس أيضا الذى أخذت به الدولة البيزنطية ، فأريوس أنكر ألوهية السيد المسيح ، وقال أنه مادام المسيح هو ابن الله ، فلابد أن يكون أقل منه شأنا وأدنى منزلة ، واذا كان الخلود هو صفة الله الذى لا أول ولا آخر ، فان المسيح لا يعد خالدا ، لان له بداية ، ولهذا فليس المسيح الها [11] .

غير أن المذهب الاريوسى لم يلبث أن تلاشى من المغرب بنهاية دولة الوندال واسترجاع الدولة البيزنطية لبلاد المغرب عام ٥٣٥ م . وبرغم ذلك فقد ظلت عوامل الخلاف بين بيزنطة وأهالى المغرب قائمة الى حد ما . وقد حاول الامبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع (٦٦٨ ــ ٦٨٥ م) ازالة أسباب الخلاف بين الدولة البيزنطية ورعاياها من من سكان المغرب لاستمرار الخلاف المذهبى وما ترتب على ذلك لجوء السلطات البيزنطية الى سياسة التنكيل بالاهالى ، فعقد هذا الامبراطور مجمعا دينيا عام ٦٨٠م لمناقشة هذه الامور . وبالفعل نجح هذا المجمع فى ازالة أسباب التوتر بين الدولة البيزنطية وسكان المغرب المسيحيين . وترتب على ذلك النجاح اعتناق عدد من القبائل البربرية الديانة المسيحية ومنها قبيلة أوربة البرانسية [12] .

---

(١١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(١٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى : جا ص١٩١ ، ابراهيم العدوى : المجتمع المغربى : ص٩١ ــ ٩٢ .

المسيحية والمسيحيون منذ الفتح العربى لبلاد المغرب حتى نهاية القرن الخامس الهجرى (٧ — ١٢م) :

أ — فى زمن الفتــح :

بعد أن فرغ عمرو بن العاص من فتح مصر ، انطلق غربا الى بلاد المغرب لتأمين الفتوح الشامية المصرية ، وكان يسكن المغــرب عناصر بيزنطية أطلق عليهم الكتاب العرب اســم الروم ، وكانوا يعتنقــون المسيحية ، وكانت منازلهم بالسواحل والقلاع الداخلية ، بالاضــافة الى البربر وهم أهل البلاد الاصليين الذين سكنوا فى المناطق الداخلية والوعرة على وجه الخصوص • ولم يكــن يدين بالمســيحية من هؤلاء البربر الا عدد قليل خاصة أولئك الذين اختلطوا بالروم وأصبحوا من المولدين وتأثروا بالحضارة الرومانية[١٣] • ومع ذلك فقــد أنتشرت الكنائس والابرشــيات والاســقفيات فى ربوع المغــرب ، حتى بلغ عددها قبيل الفتح الاسلامى مباشرة ما يقرب من مائتى اسقفية[١٤] • ولقى المسلمون هؤلاء المسيحيين اثناء فتحهم لبلاد المغرب ، فيذكر ابن عذارى أن عمرا اتجه بعد أن صالح أهل برقة على الجزية الى طرابلس،

---

(١٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى جـ١ ص٢٠٦ ، أنظر كذلك G. Marçais : La Berberie musulmane et l'orient ay Moyen age, Paris, 1946, P. 71.

(١٤) هذا الرقم ورد فى رسالة وجهها البابا ليون التاسع Léon IX الى توماس Thomas اسقف افريقية (الرســالة مؤرخة فى ١٧ ديسمبر ١٠٥٣م) اظهر فيها البابا أسفه لتقلص عدد الاسقفيات فى افريقية بسبب تناقص عدد المسحيين هناك . راجع : Mas Latrie : Traités et documents divers concernant les relations des chrétiens et des Arabes au Moyen âge, Paris, 1889, Doc. No. 1, P. 1.

فافتتحها بعد استغاثة أهلها بقبيلة نفوسه البربرية التي كانت قد دخلت في دين النصرانية [١٥] .

وفي اثناء حملة عبد الله بن سعد على افريقية عام ٢٧ هـ / ٦٤٧م واجه العرب مقاومة عنيفة من الروم بقيادة بطريقهم جريجوريوس ويسميه العرب جرجير . أما أبو المهاجر دينار (٥٥ — ٦٢ هـ / ٦٧٦ — ٦٨٢ م) فقد تمكن بفضل سياسته الحكيمة من استمالة كسيلة بن لمزم زعيم أوربة البرانسية الى الاسلام بعد أن كان يدين هو وقبيلته بالمسيحية [١٦] . وتشير المصادر الى العناصر المسيحية التي واجهتها الجيوش الاسلامية اثناء ولاية عقبة بن نافع الفهري الثانية على المغرب، فابن عذاري يذكر أن النصارى كانوا يهربون من طريق عقبة يمينا وشمالا وهو يفتتح البلاد وأنه أفنى من كان بها من النصارى [١٧] . كذلك فقد حاصر عقبة مدنية نفيس التي يذكر البكري أن أهلها كانوا نصارى من الروم والبربر [١٨] .

---

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب في اخبار افريقية والمغرب . تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال ، بيروت جـ١ ص٨ .

(١٦) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق اكرم العمرى . بغداد ١٩٦٨ جـ١ ص٣٤٥ — ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٠٨ — جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية جـ٢ ص٢١ .

(١٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص١٩ ، ص٣٤ .

(١٨) البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر دى سلان . الجزائر ١٩١١ ص ١٦٠ ، مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الامصار . تحقيق سعد زغلول عبد الحميد . الاسكندرية ١٩٥٨ ص٢٠٨ .

أشار ابن عبد الحكم الى هــرب عاملها ابراهيــم بن النصرانى تاركا

وفى خلال الهجوم الذى شنه الروم على برقه عام ٦٩هـ /٦٨٩م العرب وأهل الذمة من النصارى تحت رحمة الروم ٠ وواضح من اسم هذا العامل أنه كان مسيحيا[١٩] ٠ وفى ولاية حسان بن النعمان على المغرب تذكر المصادر أن ثلاثمائة من النصرانى استغاثوا بحسان حينما أقدمت الكاهنة على تخريب بعض مناطق افريقية مما أضر بمزارعهم هناك[٢٠] ٠ وبعد أن أنتهى حسان من مشكلة الكاهنة ، عاد الى القيروان لتنظيم أمور ولايته ، بما فى ذلك أوضــاع البربر النصارى أو عجــم افريقية ، فوضع الخراج على عجم افريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر[٢١] ومعظمهم من البرانس وأقلهم من البتر ٠ أما مدينة قرطاجنة التى كانت معقلا من معاقل المسيحية فى بلاد المغــرب ومقرا لأسقفية كبرى استمرت فترة طويلة من الزمن ، فقد خربهــا حسان واضطــر أهلها من نصــارى الروم الى الرحيــل الى صقلية

---

(١٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ليدن ١٩٢٠ ، ص٢٢ ٠

(٢٠) الرقيق القيروانى : تاريخ افريقيــة والمغرب ٠ تحقيــق المنجى الكعبــى ٠ تونس ١٩٦٧ ص٦١ — ٦٢ ، الحمــيرى : الروض المعطار فى خبر الاقطار ٠ تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ص٦٦ ٠ كذلك انظر : رضوان البارودى : جبل الاوراس منــذ الفتــح العربى تحت الغــزوة الهــلالية ٠ الاسكندرية ١٩٨٥ ص٢٢ — ٢٣ ٠

(٢١) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص٢٠١ ، ابو عبد الله بن صــالح: نص جديد عن فتح العرب للمغرب نشره ليفى بروفنسال وعلق عليه حسين مؤنس ٠ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٤ ص٢٣ ٠

والاندلس [٣٢] وبذلك تمكن حسان من توجيه ضربة قوية الى النصرانية فى بلاد المغرب • وعندما فكر حسان فى بناء مدينة عربية أسلامية مكان قرطاجنة لتصبح دار صناعة اسلامية ، أرسل الى الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥م) يطلب ألف أسرة قبطية من أقباط مصر ، فكتب الخليفة الى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر « بأن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهى تونس ••• فوصل القبط الى حسان وهو مقيم بتونس »[٢٣] • وقد اتخذ هؤلاء الاقباط المصريون طريقهم الى تونس برا ، ثم شرعوا فى بناء دار الصناعة الاسلامية بتونس مستعينين فى ذلك بخبرتهم الكبيرة فى هذا المجال ، فقد اشتهروا كنجارين وعمال مهرة ومقلفطين وقصاري الاقمشة ، كما تخصصوا فى سد الثغرات فى السفن واستخدام المسامير الحديدية فى بنائها [٢٤] • وقد أرسل حسان فريقا من هؤلاء الاقباط الى مرسى رادس بالقرب من موضع قرطاجنة القديم ، ووزع الفريق الباقى على مراسى افريقية ، ثم أجرى البحر من رادس الى موضع دار الصناعة ، وجلب البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن،

---

(٢٢) المالكى : رياض النفوس جـ١ ص٣٧ — ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٣٥ — ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ١١٠ .

(٢٣) البكرى : المصدر السابق ص٣٨ • ويذكر الرقيق القيروانى (وعنه ينقل التجانى) أن عبد الملك أمر عبد العزيز بان يوجه الى حسان ألف قبطى وألف قبطية يستعين بهم • راجع : الرقيق القيروانى ص٦٦ ، التجانى : الرحلة — تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب : تونس ١٩٥٨ ص٦ •

(٢٤) أحمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، بيروت ١٩٧٢ جـ١ ص٦ ٥ =

وأمر القبط بعمارتها فى الميناء المتصل بالبحيرة وأصبحت البحيرة متصلة بالبحر(٢٥) .

ولاشك أن هذه الاسرات القبطيـــة استقرت فى افريقيـــة ، لأن الخليفة عبد الملك بن مروان كان قد وافق على ارسال هؤلاء الصناع مصحوبين بأسرهم ، مما يدل على رغبته فى استقرارهم فى افريقية . وعلى الرغم من أن المصادر التى بين أيدينا تصمت ولا تتحـــدث عن مصير هذه الاسرات القبطية بعد فراغها من انشاء دار صناعة تونس الا أنه يبدو أنهم انتشروا على سواحل افريقية والمغـــرب كما أشار التجانى الى ذلك(٢٦) .

واسم مدينة تونس التى أنشئت على يد حسان بن النعمان فى حد ذاته يرتبط ارتباطا وثيقا بدير للنصارى كان قائما فى ذلك الموقع، فقد ذكروا أن حسانا أطلق عليها هذا الاسم بسبب وجود صومعـــه للرهبان كانت تقع فى نفس الموضع الذى أسست فيه المدينة كان الناس يلجأون اليها ويقيمون بجوارها فيأنسون بترانيم رهبانهـــا ، ولهـــذا كانوا يقولون أن هذه الصومعة تؤنس فعـــرفت المدينـــة لذلك باسم «تونس»(٢٧) ، وعلى الرغم من الطابع القصصى لهذه الرواية ، الا أنها

---

(٢٥) عبد العزيز سالم : المرجع السابق جـ٢ ص٣١ . وعن دار صناعة تونس ومساعدة أقباط مصر فى انشائها راجع :
G. Marçais : Les villes de la Côte Aigerienne et la Piraterie au Moyen âge, dans A.I.E.O. (Annale de. Institut d'Etudei Orientales) Alger, XIII, 1955, P.P. 127-128

(٢٦) التجانى : الرحلة ص٦ — انظر كذلك : سعد زغلول : المرجـــع السابق جـ١ ص٢٣٤ .

٢٧) لم يقتصر الاصل المسيحى على اسم المدينة فقط ، بل ان جامعها الشهير وهو جامع الزيتونة ينسب الى قديسة مسيحية عاشت زمن

تشير الى وجود طائفة من الرهبان المسيحيين فى موقع تونس القديم، كما يمكن أن تعطى تفسيرا مقبولا لاسم هذه المدينة العربية، ونستدل على وجود كنائس مسيحية بافريقية من عدة نصوص وردت فى المصادر العربية ، فابن عبد الحكم يشير الى وجود كنيسة عظمى بطرابلس عندما قام العرب بفتح طرابلس[٢٨] . أما البكرى فيحدثنا أن حسان ابن النعمان اتخذ بمحراب جامع القيروان ساريتين حمراويتين موشاتين بصفرة أحضرهما من كنيسة قديمة كانت فى الموضع المعروب باسم القيسارية ونصبهما فى عضادتى محراب الجامع[٢٩] . كذلك وجدت كنيسة للنصارى فى مدينة القيروان فى عصر الاغالبة ، ويعنى ذلك وجود بعض المسيحيين المقيمين فى هذه المدينة[٣٠] . أيضا وجدت آثار كنائس قديمة فى مدينة باجه بالقطر التونسى ، حيث أشار كل من البكرى وصاحب كتاب الاستبصار الى أن من قرى مدينة باجه قرية للبربر تسمى المغيرية « قرية شريفة بها آثار عظيمة عجيبة للاول من كنائس قائمة البنيان محكمة العمل ، كأنما رفعت عنها الأيدى بالأمس وكلها مفروشة بالرخام النفيس»[٣١] . ومن المدن التونسية التى وجدت بها كنائس قديمة مدينة صفاقص ، ومن الطريف أن نذكر أن الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠هـ/٩١٢ — ٩٦١م) قد جلب السوارى الوردية والخضراء التى استخدمها فى بناء مدينة الزهراء

= الوندال كانت تسمى القديسة اوليفيا اى القديسة زيتونة . راجع : عبد العزيز سالم : المغرب الكبير والعصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص٢٤٩ .

(٢٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها : ص١٧١ .

(٢٩) البكرى : ص٢٢ .

(٣٠) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية . تحقيق محمد بن ابى شنب . الجزائر ١٩١٤ ص٢٤٤ .

(٣١) البكرى : ص٥٧ — الاستبصار لمؤلف مجهول : ص١٦٠ — ١٦١ .

بحوار قرطبة من كنيسة صفاقص[٣٢] . وهناك بعض النصوص تشير الى وجود بعض النصارى في مدينة تمسان في القرن الخامس الهجرى (١١م) كانت لهم كنيسة يقيمون فيها شعائرهم[٣٣] . كذلك وجدت بقايا كنائس في مدينة سبتة في القرن الخامس أيضا ، كما أن جامعها كان في الاصل كنيسة ، وبالقرب من هذا الجامع مكان يسمى الكنيسة[٣٤] .

ونستدل على أن طوائف من بربر المغرب كانت تدين بالمسيحية من اقدام موسى بن نصير الذى ولى المغرب بعد حسان على اخضاع عدد من القبائل البربرية في المغــرب الاقصى كانت تدين بالنصرانيــة فاعتنقت الاسلام على يديه ومنهم بربر من مدينة أغمات الذين نبذوا ديانتهم المسيحية ودخلوا في الاسلام[٣٥] . والواقع أن الاسلام انتشر في بلاد المغرب انتشارا سريعا منذ ولاية موسى بن نصير ، ويبرر أحد المؤرخين المحدثين ذلك بأنه لم يكن من الصعب على الاسلام بمبادئه التى تدعو الى المساواة أن يقضى على المسيحية بسهولة في المغرب ، خاصة بعد أن خرجت المسيحية مع البيزنطيين عند جلائهم عن المناطق الساحلية التى كانوا يحتلونها[٣٦] . ولكن خروج البيزنطيين عن البلاد لا ينهض مبررا لحمل الطوائف المسيحية من البربر على نبذ المسيحية واعتناق

---

(٣٢) المقرى (ابو العباس احمد) : ازهار الرياض في اخبار القاضى عياض : تحقيق: ابراهيم الابيارى واحمد السقا ، القاهرة ١٩١٩ ، جـ٢ ص٢٧٠ .

(٣٣) البكرى : ص ٧٦.

(٣٤) نفس المصدر ص١٠٤، ١١٣ — ١١٤ — الحميرى: الروض المعطار ص٣٠٢ .

(٣٥) انظر : عبيد الله بن صالح : النص الجديد ص٢٢٤ — انظر ايضا: العدوى : المجتمع المغربى ص١٣٥ .

(٣٦) سعد زغلول : المرجع السابق جـ١ ص١٢٦ — هوبكنز : النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى . ترجمة محمد أمين الطيبى ، ليبيا ١٩٧٧ ص١١٩ .

الاسلام ، ومن المرجح أن سياسة العنف التى اصطنعها موسى بن نصير مع البربر هى التى أدت الى أن ينبذوا ديانة لم تكن قد رسخت فى قلوبهم ، ولاننسى أن حسان كان قد سير عددا من التابعين الى القبائل لتعليم البربر قواعد الاسلام . ومع ذلك فقد حافظت فئات من المسيحيين البربر على دينهم ، وهذه الفئات كانت تتوزع فى مناطق متفرقة فى كافة أنحاء المغرب . وللأسف لا نجد فى مصادرنا العربية أخبارا عن هؤلاء المسيحيين الا نادرا ، وسنحاول خلال الصفحات القليلة القادمة أن نتتبع أخبار هذه العناصر :

ب — مراكز استقرار المسيحيين فى المغرب بعد الفتح العربى :

تمثلت بعض الطوائف المسيحية فى المغرب بعد الفتح العربى فى عدة مراكز منها واحة الفرفرون وهى واحة داخلية كثيرة الاشجار والنخيل تضم عددا من القرى وكان أهلها أقباط نصارى(٣٧) . ويذكر صاحب الاستبصار أن الواحات الليبية تضم قبائل من لواته وأنهم من الاقباط(٣٨) . كما توجد مدينة يسميها البكرى بهنسى الواحات — ويشير الى أنها غير مدينة البهنسا المصرية — وهى مدينة مسورة ، وأن أهلها عرب مسلمون وقبط نصارى ، ويضيف البكرى رواية طريفة عن أهل هذه المدينة ، فيذكر أن رجلا من أهل مدينة صفاقس دخلها ورأى فيها فى يوم عيد النصارى تابوتا فيه رجل ميت يجعلونه على

---

(٣٧) البكرى : ص ١٥ ومن المعروف أن كلمة قبطى كلمة يونانية تعنى مصرى ، وقد أطلقت على أهل مصر خاصة عندما اعتنقوا الديانة المسيحية ، وربما كان البكرى يقصد بأهل الفرفرون الاقباط النصارى أنهم النصارى المصريون الذين نزحوا من بلادهم الى منطقة الواحات الليبية .

(٣٨) مؤلف مجهول : الاستبصار ص١٤٨ .

عجلة يسمونه ابن قرمى ويزعمون أنه من الحواريين يتطوفون به فى سكك البلد ويتبركون بذلك الى الله ، وتجر تلك العجلة البقر فان نفرت من موضع ولم تسر فيه علموا أن فى هذا الموضع نجلسة[39] .

وكانت مدينة احدابيه هى الاخرى لحدى المناطق التى نزلها النصارى ، فقد وصفها صاحب الاستبصار بأنها مدينة كبيرة طيبة الهواء والماء وبها بساتين ونخل وبها فنادق وحمامات كثيرة وأهلها ذوى يسار وأكثرهم أقباط[40] . كما أقام حول مدينة طرابلس أقوام من القبط فى زى البربر وكلامهم باللغة القبطية[41] . وفى بلاد الجريد كان يعيش جماعة من النصارى ، حيث يشير التجانى عند حديثه عن هذه المنطقة أن العرب فتحوها صلحا ، ويضيف أنه مما يؤكد أنها فتحت صلحا بقاء « كنائس النصارى بها خرابا الى زماننا (القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى) هذا لم يتصرف فيها ، وأن المسلمين بنوا بازاء كل كنيسة مسجدا »[42] . ومن مدن بلاد الجريد التى استقر بها جماعات نصرانية مدينة قابس ، حيث يشير البكرى الى وجود بعض الأفارقة يقطنون بها . ويفسر جوتييه فى كتابه « ماضى افريقيا الشمالية » لفظ الأفارقة بأنهم بقايا سكان قرطاجنة القديمة وكانوا يدينون بالمسيحية ويتحدثون اللغة اللاتينية

---

(٣٩) البكرى : ص١٤ — ١٥ .

(٤٠) مؤلف مجهول : الاستبصار ص١٤٤ — الحميرى : الروض المعطار ص١٢ .

(٤١) البكرى : ص٧ — كذلك أنظر : عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى فى بلاد المغرب . القاهرة ، ١٩٨٣ ص١٠٤ .

(٤٢) التجانى : الرحلة ص١٦٢ .

الافريقية[٤٣] • وبالاضافة الى قابس وجد هؤلاء الأفارقة فى قفصه ونفطه وتيقيوس والحامه ومنستير عثمان وتوزر[٤٤] •

وكان هؤلاء الأفارقة يشتغلون بزراعة الزيتون واستخراج زيته ، كما عملوا بزراعة الحبوب ، بالاضافة الى اشتغالهم ببعض الصناعات التقليدية[٤٥] • وهناك رواية طريفة يرويها كل من أبى العرب تميم والدباغ تشير الى اشتغال هؤلاء الأفارقة النصارى بتجارة زيت الزيتون • ومفاد هذه الرواية أن البهلول بن راشد زاهد المغرب (ت ١٨٣هـ/٨٠٠م) دفع دينارين لرجل وطلب منه أن يشترى له بهما من الساحل زيتا من نوع جيد ، وقد ظل هذا الرجل يبحث عن أجود أنواع الزيت حتى وجده عند أحد التجار النصارى ، فسأل التاجر النصرانى الرجل لمن سيحمل هذا الزيت ، فأجابه أنه للبهلول بن راشد، فقال له التاجر النصرانى : نحن نتقرب الى الله بالبهلول كما تتقربون به الى الله ، وأعطاه مقدارا كبيرا من الزيت يفوق قيمة الدينارين • ولما علم البهلول بذلك رفض أن يأخذ هذا الزيت وطلب من الرجل أن يرد عليه الدينارين وقال : خشيت أن آكل زيت النصرانى فتحدث له مودة فى قلبى فأكون ممن حاد الله ورسوله على عرض من الدنيا يسير[٤٦] •

---

(٤٣) E.F. Gautier : Le Passé L'Afrique du Nord : Le Siecles Obscurs du Maghreb, Paris, Payot, 1927 — P. 97.
كذلك انظر : عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٤١٩ .

(٤٤) البكرى : ص٥٦ .

(٤٥) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية : جـ٢ ص٥٣ .

(٤٦) ابو العرب تميم : طبقات علماء افريقية . تحقيق محمد بن ابى شنب. الجزائر ١٩١٤ ص٥٦ — ٥٧ — الدباغ : معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان : جـ١ ص ٢٠٠ .

كما يذكر ابن خلدون أن سكان قرى توزر وبعض نواحى قسنطينة كانوا من بقايا قبيلة نقراوه ، ويقيم معهم معاهدون من الفرنجة الذين ينسبون الى سردانية نزلوا على حكم الجزية والذمة منذ الفتح وبعد أعقابهم حتى القرن الثامن الهجرى (١٤م)[٤٧] . وفى مدينة سوسه عرف أحد أزقتها باسم زقاق الروم ويقع بالقرب من مسجد المدينة. وهؤلاء الروم هم من العناصر البيزنطية والرومانية التى فضلت البقاء فى افريقية بعد الفتح العربى والتمتع بحماية الدولة الاسلامية[٤٨] .

جـ ــ أوضاع المسيحيين فى المغرب الاسلامى حتى بداية عهد المرابطين :

تحددت وضعية النصارى فى المغرب فى العصر الاسلامى ، فعلى الرغم من قلة أعداد المسيحيين ، فقد طبقت عليهم أحكام الشريعة الاسلامية فيما يختص بمعاملة أهل الذمة . ولما كان المذهب المالكى هو المذهب الأكثر شيوعا وانتشارا فى بلاد المغرب ، فقد طبق على هؤلاء النصارى الفقه المالكى وأحكامه . وتتضمن مدونة سحنون[٤٩] المسماه «المدونة الكبرى» العديد من الاحكام حول أوضاع أهل الذمة من وجهة نظر الفقه المالكى . وعلى الرغم من أن هذه المدونة عبارة عن أسئلة واجابات ، الا أنها غطت كافة الموضوعات الفقهية ، ومن ضمنها وضعية أهل الذمة . فعلى سبيل المثال تناولت المدونة موضوع الارث بين أهل الذمة ، وطعام أهل الذمة ، وزواجهم وقضاءهم وغير

(٤٧) ابن خلدون : العبر : جـ٦ ص١١٦ ، ص٤١٩ .

(٤٨) حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق جـ٢ ص٥٢ .

(٤٩) سحنون : هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى ، من كبار فقهاء المالكية بالمغرب . ولد عام ١٦٠هـ/٧٧٦م وتتلمذ على كبار علماء القيروان وخاصة البهلول بن راشد ، ثم رحل الى تونس حيث أخذ عن على بن زياد . وقام برحلة الى مصر حيث لقى

ذلك من الموضوعات التى تنظم حياتهم فى ظل الدولة الاسلامية[٥٠] .
وقد خضع أهل الذمة من المسيحيين أو اليهود فى بلاد المغرب لرقابة المحتسب ، فكان يلزمهم بنهج معين فى لباسهم وزيهم وفى أبنيتهم وفى ممارسة شعائرهم وحتى فى نشاطهم التجارى[٥١] . وقد تمتع المسيحيون فى المغرب بقدر من الاستقلال الادارى والثقافى ، فكان من حق هؤلاء المسيحيين أن ينظموا شئونهم بأنفسهم ووفق مشيئتهم ، وكان لهم نظمهم المالية والقضائية وشئون شعائرهم الدينية والاعمال الخيرية والتعليم وتطبيق الاحوال الشخصية ، وحتى الحقوق العينية بالنسبة لأفراد الطائفة فيما بينهم[٥٣] .

= تلاميذ مالك وأخذ عنهم . وأدى فريضة الحج وعاد الى القيروان عام ١٩١هـ/٨٠٧م . وقد تولى قضاء القيروان عام ٢٣٤هـ/٨٤٨م بعد امتناع دام عاما كاملا . وقد توفى فى رجب عام ٢٤٠هـ/ديسمبر ٨٥٤م وصلى عليه الامير محمد بن الاغلب . راجع المالكى: رياض النفوس جا ص٢٤٩ ، القاضى عياض : ترتيب المدارك حـ٤ ص ٤٥ — ٨٨ .

(٥٠) راجع المدونة الكبرى لسحنون فى مواضع مختلفة .

(٥١) لقبال موسى : الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب : الجزائر ١٩٧١ ص٢٧ ، ص٧٢ .

(٥٢) روبرت برنشفيك : تاريخ افريقية فى العهد الحفصى : ترجمة وتعليق حمادى الساحلى . بيروت ١٩٨٨ جا ص٤٤٧ . ومن الملاحظ أن اهل الذمة من النصارى فى الاندلس كانوا يتمتعون بقدر اكبر من الحرية ، فقد كان لكل مدينة رئيس منهم يسمى القومس ، وكان هؤلاء القوامسة المحليين ينتخبهم النصارى فى كل مدينة . وهذا لا نجده عند المسيحيين فى بلاد المغرب ، وربما كان السبب فى ذلك — كما ذكرنا فى المتن — قلة اعدادهم وضعف =

أما عن دور أهل الذمة المسيحيين فى أحداث بلاد المغرب فى هذه الفترة فهو محدود للغاية ، نظرا لقلة أعدادهم من ناحية ، وضعف تأثيرهم فى مجريات الامور من ناحية أخرى . ففى خلال الفترة التى تولى فيها المهالبة افريقية (من ١٧١ — ١٧٩هـ/٧٨٧ — ٧٩٥م) لا نسمع عن هؤلاء النصارى شيئا باستثناء الاشارة الى طبيب نصرانى يسمى يحيى أو يوحنا اصطحبه المهالبة معهم من المشرق ، وهو أول طبيب مشرقى يمارس الطب فى افريقية[٥٣] .

وفى عهد دولة الأغالبة تمتع النصارى بمكانة طيبة فى المجتمع الأغلبى بفضل ثقافتهم التقليدية الموروثة منذ العصر الرومانى[٥٤] . فقد ذكر اليعقوبى أن بقايا الحاميات البيزنطية أخذت فى الاندماج تدريجيا فى المجتمع[٥٥] . وفى بداية عهد الدولة الأغلبية ، حدثت ثورة

= تأثيرهم فى مجريات الامور . راجع : حسين مؤنس : فجر الاندلس ، الطبعة الثانية . جدة ١٩٨٥ ص٤٥٩ — ٤٦١ ، عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاندلس ، الاسكندرية ص١٧٦ .

(٥٣) ابو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص٢٩ — انظر كذلك : محمد الطالبى : الدولة الاغلبية . نقله الى العربية المنجى الصيادى ، بيروت ١٩٨٥ ص٤٧ .

(٥٤) ذكر محمد الطالبى — نقلا عن ج. ش. بيكارد G. Ch. Picard أن النصارى تحت حكم الاغالبة كانوا يشكلون نسبة لا بأس بها من السكان ، وان افريقية فى عهد الاغالبة بمدنها الكثيرة وبواديها العديدة المزدهرة واهاليها النصارى العديدين الذين مازال لهم نفوذ ، لم تختلف كثيرا عن افريقية زمن القديس اوغسطين . راجع محمد الطالبى ، المرجع السابق ص١٣٧ .

(٥٥) اليعقوبى : كتاب البلدان (طبع بيروت) جـ٢ ص٤٣ — أندريه جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية جـ٢ ص٦١ — ٦٢ .

أشعل نيرانها شخص يسمى منصـور الطنبذى ، شارك الاقبـاط فى أحداثها • وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر الى ذلك صراحة ، الا أننا بمكننا أن نستنتج ذلك من خلال أبيات من الشعر قالها الفقيه عبد الله ابن أبى حسان اليحصبى[٥٦] نطالع فيها :

أباح طغـام الجنـد مهـلا حريمنا
وشقوا عصا الاسلام من كل جانب
وعاثوا وجاروا فى البـلاد سـفاهة
وظنـوا بأن الله غـير معـاقب
ولو أنهـم عـرب كـرام لدافعت
نفـوس كـرام عن مريم الأعارب
ولكنهـم أوباش كل قبيـلة
وقيـط وأغنام لئـام المناسب[٥٧]

وفى عهد الأمير ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمى أول أمراء بنى الأغلب (١٨٤ — ١٩٦هـ/ ٨٠٠ — ٨١٣م) ، عمل الكارولنجيون على الافادة من صلاتهم الطيبة بالدولة العباسية فى حماية العناصر المسيحية فى المغرب الأدنى ، فقد استغل شارلمان أمبراطور الغرب صلاته الطيبة بالخليفة العباسى هارون الرشـيد (١٧٠ — ١٩٣هـ/ ٧٨٧ — ٨٠٨م) ، وعمل على مساعدة نصارى افريقية بالأموال والهبات • ويشير اينهارد Einhard — الذى دون تاريخ حياة شارلمان — الى تلك المساعدات

(٥٦) راجع ترجمـة فى : طبقات علمـاء افريقيـة لأبى العرب تميـم ص٨٧ — ٩٠ •

(٥٧) المالكى : رياض النفوس : جـ١ ص٢٠٣ •

التى قدمها شارلمان لمسيحيى قرطاجنة (تونس)[٥٨] • ويعلق أحد المؤرخين المحدثين على تلك المساعدات بالقول بأن « شارلمان بهذه الخطوة ، قد حقق نجاحا دبلوماسيا كبيرا ، فقد ظهر بمظهر الحامى للمسيحيين فى شمال افريقيا المرتبطين بالكنيسة الرومانية التى كان شارلمان حاميا لها »[٥٩] • ولم يقتصر اهتمام شارلمان بمسيحيى افريقية على مجرد تقديم المساعدات المالية لهم ، بل أنه عمد الى استرجاع رفات القديس سيبريان الذى استشهد أثناء اضطهاد الرومان للمسيحية فى القرن الثالث الميلادى ودفن فى افريقية • ولذلك فقد شارك شارلمان الكنيسة الأروبية اهتمامها فيما عرف باسم تقديس الرفات أو الآثار Clute des Reliques ، وأرسل سفارة من لدنه الى افريقية أيام الأغالبة للبحث عن رفات هذا القديس[٦٠] •

وعندما شرع الأمير زيادة الله بن الأغلب (٢٠١ — ٢٢٣هـ/ ٨١٧ — ٨٣٨م) فى زيارته بجامع القيروان ، جلب لها الأساطين المجزعة بالبياض والسواد الشديدين من الكنائس القديمة فى أنحاء افريقية[٦١]• ويشير أندريه جوليان الى أن الأغالبة اعتمدوا فى تشييد كثير من مبانيهم على قدماء العبيد النصارى الذين أصبحوا فيما بعد موالى لهم[٦٢] • ويبدو أن هؤلاء النصارى العاملين فى خدمة الأغالبة قد أثاروا

(٥٨) Einhard and Notker : The Stammerer two Life of Charlemagne, Trans. with an Introudction by : Lewis Thorpe, London, 1974 P. 80.

(٥٩) محمد الطالبى : الدولة الاغلبية ص٤٣٨ — ٤٣٩ •

(٦٠) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى جـ١ ص١١٧ ح٢٥٤ •

(٦١) نفس المرجع السابق جـ٢ ص٧٤ •

(٦٢) جوليان : المرجع السابق : جـ٢ ص٦٦ •

مشكلة العمل يوم الأحد ، فقد سئل محمد بن سحنون عن اجبار المسيحيين على العمل يوم الأحد وهل يجوز ذلك فأجاب بنعم لأن الامتناع عن العمل يوم الأحد ليس جزءا من دينهم(٦٣) .

وتصادفنا في عهد الأمير الأغلبى أبى العباس محمد بن الأغلب (٢٢٦ — ٢٤٢هـ/٨٤١ — ٨٥٦م) حادثة لها مغزاها ، فقد اشترط الامام سحنون حينما قبل أن يقوم بمهمة القضاء للأمير الأغلبى ، ألا يأخذ راتبا أو مكافأة من مال الدولة على قضائه ، حيث كان يرى عدم شرعية مال السلطان ، ولكنه اشترط أن تكون رواتب مساعديه والقضاة المعاونين له سواء فى القيروان أو فى الاقاليم من مال الجزية المفروضة على أهل الذمة من اليهود والنصارى(٦٤) . وهذا يعنى أن سحنونا كان يرى أن الجزية هى الضريبة الشرعية الوحيدة التى لم يدخلها غش فى ذلك الوقت .

أما فى عهد الأمير ابراهيم بن أحمد (٢٦١ — ٢٨٩هـ/٨٧٥ — ٩٠٢م) فنسمع عن قاضى طرابلس أبى الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان الذى رفض أن يقرض الأمير الأغلبى أموال اليتامى التى فى حوزته ، فقبض عليه وحبس لعدة أشهر فى كنيسة تونس(٦٥) ، ثم أطلق سراحه

---

(٦٣) R. Marston Speight : The Place of the Christians in Ninth Century in North Africa according to Muslim Sources, Revue : Islamo-Christiana, Roma, 1978 P. 53.

(٦٤) المالكى : رياض النفوس : جـ١ ص٢٧٥ — القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٩ . كذلك انظر : محمد الطالبى : تراجم اغلبية مستخرجة من ترتيب المدارك للقاضى عياض ، تونس ١٩٦٨ ص١٠٢ .

(٦٥) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص١٥٩ — الدباغ : معالم الايمان جـ٢ ص٢٣١ .

بعد ذلك . وقد قال الأمير الأغلبي : مثل هذا لا يسجن مع السراق . ويبدو أن هذه الكنيسة كانت مستخدمة في زمن الأغالبة كسجن يحبس فيه المجرمون — وفي ذلك ما يشير الى أنها كانت كنيسة أثرية قديمة ربما مهجورة .

وفي عهد هذا الأمير أيضا نسمع عن مصرع أحد أهل الذمه النصارى ، حيث رفض أن يعمل كصاحب ديوان الخراج لدى الأمير ابراهيم . وقد ذكر ابن عذارى هذه الحادثة فقال . « وعرض ديوان الخراج على سوادة النصرانى على أن يسلم ، فقال ما كنت لأدع دينى على رياسة أنالها فقطع بنصفين وصلب »[٦٦] . والواقع أن هذا الخبر يوضح لنا أن الأغالبة لم يجدوا حرجا في الاستعانة بالنصارى في بعض الوظائف الادارية والمالية خاصة ما يتعلق بجباية الضرائب والخراج . ومن المرجح أن ذلك يرجع الى براعة هؤلاء النصارى في الشئون المالية ، أو لأن الأمير أراد أن يسند هذا العمل الى أشخاص لا تربطهم بدافعى الضرائب أو الخراج أية عصبية سوى عصبية المنافسة[٦٧] . كما استخدم الأغالبة أيضا بعض النصارى في العمل بدار الضرب الأغلبية[٦٨] .

ومن الشخصيات المسيحية التى برزت فى افريقية في عصر دولة الأغالبة ، نذكر القديس ايلى Saint Elli (٨٢٣ — ٩٠٣م) . وكان هذا الرجل قد أسر خلال هجوم شنه الاسطول الأغلبى على مدينة قصريانه بصقلية ، وبيع في افريقية حيث اشتراه تاجر نصرانى من

---

(٦٦) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ١ ص١٢٢ .

(٦٧) هوبكنز : النظم الاسلامية في المغرب ص ١١٠ — ١١١ .

(٦٨) Marston Spoight : Op. Cit. P. 50.

تونس . ويذكر مؤلف سيرة القديس ايلى أن هذا التاجر خرج فى رحلة بعيدة للتجارة ، وترك ايلى ليباشر تجارته بافريقية ، وقد قاوم ايلى اغراء زوجة التاجر مثلما قاوم سيدنا يوسف اغراء زوجة العـــزيز ، ولقى من جراء ذلك متاعب عديدة حتى ظهرت براءته ، واضطر ايلى الى ترك افريقية ورحل الى البقاع المقدسة بفلســطين ، ثم عاد مرة ثانية الى افريقية حيث مكث فترة من الوقت ، ثم غادرها الى صقلية التى كانت تابعة لبنى الأغلب فى ذلك الوقت ، حيث توفى ودفن فى مدينة طارومين(٦٩) . وعلى الرغم من الطابع القصصى لسيرة القديس ايلى ، الا أننا يمكن أن نستنتج منها أن المسيحيين كانوا يشكلون جزءا من المجتمع الأغلبى ، وكان لهم مطلق الحرية فى العمل بالتجارة والتنقـــل من مكان لآخر سواء داخل حدود الدولة الأغلبية أو خارجها .

وعلى الرغم من هذه السياسة القائمة على التسامح والتى اتبعها الأغالبة تجاه أهل الذمة من النصارى ، الا أننا نسمع عن بعض الحوادث التى توضح أن أولئك المسيحيين قابلوا تسامح الأغالبة بنـــوع من الجحود . فحينما شرع ابراهيم بن الأغلب فى بناء أسطول قوى يواجه به الأساطيل البيزنطية ، نقل نصارى افريقية أخبار هذه الاستعدادات الأغلبية لقائد الاسطول البيزنطى المقيم فى صقلية ، فأخذ البيزنطيون فى تعزيز بحريتهم تحسبا لهجوم الأغالبة(٧٠) .

ويروى ابن الأثير أن الأمـــير زيادة الله بن الأغلب ســـير عام ٢٢٢هـ/٨٣٧م أسطولا من افريقية الى صقلية بقيـــادة أبى الأغلب بن

---

(٦٩) محمد الطالبى : الدولة الاغلبية ص٥٨٥ — ٥٨٦ .

(٧٠) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية . ترجمة أمين توفيق الطيبى، ليبيا ١٩٧٩م، ص١٢ .

عبد الله ، فبعث أبو الأغلب قسما من هذا الاسطول الى قوصرة . فاستولى على حراقة للروم وجد فيها رجلا من النصارى من أهل افريقية فأمر بضرب رقبته هو ومن معه(٧١) .

أما تاهرت حاضرة الرستميين بالمغرب الأوسط ، فكانت شأن غيرها من مدن افريقية تضم جماعات من بعض النصارى . ويذكر ابن الصغير المالكى أن الامام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية (١٤٤ — ١٦٨هـ/٧٧١ — ٧٨٤م) كان ينظر فيما يجتمع اليه من مال الجزية والخراج ، فيقتطع لنفسه ولحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم من سنته(٧٢) . وهكذا كانت الجزية من الموارد الرئيسية عند الرستميين(٧٣) . كما كان للنصارى فى تاهرت حى خاص بهم يعرف باسم الكنيسة أقيم على مكان مرتفع فى المدينة ، بنوا فيه منازل وقصور(٧٤) . ويبدو أن نصارى الدولة الرستمية كانوا مقربين من الأئمة الرستميين ، فقد ذكر ابن الصغير أن الامام أبا بكر ابن أفلح الرستمى (٢٣٨ — ٢٤١هـ/٨٥٢ — ٨٥٥م) حينما بلغه خبر ثورة محمود بن الوليد ضده ، بادر باستنفار أعوانه من الرستميين والمسيحيين(٧٥) . كما كانت حاشية الامام أبى حاتم يوسف (٢٨١ —

---

(٧١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة دار صادر ، بيروت ج ٥ ص٣٢٨ . انظر كذلك : ميشيل امارى : المكتبة الصقلية ص٢٢٦ .

(٧٢) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين . تحقيق وتعليق محمد ناصر وابراهيم بحاز ، بيروت ١٩٨٦ ص٤١ — ٤٢ .

(٧٣) أندريه جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج٢ ص٤٥ .

(٧٤) ابن الصغير : المصدر السابق ص٧٩ .

(٧٥) نفس المصدر والصفحة .ولكن الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ذكر أن لفظ المسيحيين هنا عبارة من تحريف من الناسخ وأن صحتها =

٢٩٤هـ/٨٩٤ ـ ٩٠٦م) تضم مجموعة من النصارى بالاضافة الى بعض الاعيان . وكان أحد هؤلاء النصارى فارسا مشهورا يعتبر من حماة المدينة يسمى بكر بن الواحد[٧٦] . ونستدل على التأثير القوى للطائفة المسيحية فى دولة بنى رستم بما ذكره أندريه جوليان اذ يقول أن فن بنى رستم قد تأثير فى زخارفه بزخارف الأديرة القبطية المصرية ، وأن عناصر الفن الرستمى كانت متأثرة بالمبانى المصرية المعاصره لها[٧٧] .

كذلك كان بعض الأئمة الرستميين يحفظون الانجيل ويعرفون معناه ، فقد ذكر أبو زكرياء أن الامام يعقوب بن أفلح حينما طرد من تاهرت ، وصل الى ورقله[٧٨] (أو ورجله أو ورجلان) حيث اشتهر بين أهلها بالعلم والتقوى وحفظ القرآن . وقد سأله أحد أهل ورقله : هل تحفظ القرآن كله ؟ فأجاب : « معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى ما لم أحفظه وأعرف معناه ، فكيف بكتاب الله ؟»[٧٩] .

= المسيحيين ، ويقول أن السبب فى هذا الخطأ هو وجود الموضع المعروف باسم الكنيسة بتاهرت . ولكننا نعتقد أن ما ذكره ابن الصغير صحيحا على أساس ان تاهرت كانت تضم عددا لا بأس به من المسيحيين ولا مانع أن يستعين بهم الامام لدفع خطر أعدائه . راجع : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى جـ٢ ص٣٥٩ .

(٧٦) ابن الصغير : المصدر السابق ص١٠٧ .

(٧٧) أندريه جوليان : المرجع السابق جـ٢ ص٤٣ .

(٧٨) ورقله Ourgla : احدى واحات بلاد الزاب ، تقع فى الجنوب الشرقى لبلاد الجزائر الحالية ، اشتهرت بأنها كانت من مراكز الاباضية الشهيرة ببلاد المغرب .

(٧٩) أبو زكرياء : كتاب سير الأئمة وأخبارهم . تحقيق اسماعيل العربى ، الجزائر ١٩٧٩ ص١٢٤ .

أما فى عهد الدولة الادريسية بالمغرب الأقصى ، فتذكر المصادر أن الامام ادريس بن عبد الله مؤسس الدولة ، حينما استقر بمدينة وليلى قام بغزو بلاد تادلا عام ١٧٢هـ/٧٨٩م ، فافتتح معاقلها وحصونها ، وكان أكثر أهل هذه البلاد على دين النصرانية واليهودية ، أما الاسلام فقليل بها ، فأسلم الجميع على يديه[٨٠] وعاد الى وليلى . ثم قام فى المحرم من العام التالى بغزو من بقى بالمغرب من البربر على دين النصرانية والمجوسية « وكان قد بقى منهم بقية متحصنون فى المعاقل والجبال المنيعة ، فلم يزل الامام أدريس يجاهدهم ويستنزلهم حتى أدخلوا فى الاسلام طوعا وكرها »[٨١] . كذلك تشير بعض الروايات المغربية الى أن الامام أدريس الأكبر حينما شرع فى بناء مدينة فاس ، خرج يرتاد موضعا يصلح لبنائها فمر به شيخ كبير راهب من رهبان النصارى كان يقيم فى تلك المنطقة ، قد نيف على مائة وخمسين عاما ، كان مترهبا فى صومعته بالقرب من تلك الجهة . وقد أخبر هذا الراهب الامام أدريس أنه فى هذا الموضع ستنبى مدينة كبرى يبنيها أحد سلالة رسول الله ﷺ[٨٢] . وعلى الرغم من الطابع الأسطورى لهذه

---

(٨٠) ابن ابى زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر تورنبرج ، أوبسالا ١٨٤٣م ، ص٧ . كذلك انظر : لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . القسم الثالث ، نشر احمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص١٩٢ .

(٨١) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص٧ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٠٧ .

(٨٢) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص٩ .

الرواية أيضا ، الا أنها تشير الى وجود النصارى فى هذه المنطقة . ومما يؤيد ذلك أن الامام أدريس اشترى الأرض التى بنيت عليها مدينة فاس من قبيلتين من زناتة : زواغه وبنى يرغش « وكانوا أهل أهواء مختلفة منهم على الاسلام ومنهم على النصرانية ومنهم على اليهودية »[٨٣] . كذلك سمى أحد أبواب عدوة الأندلسيين بمدينة فاس باسم باب الكنيسة وهو باب شرقى يقابل ربض المرضى ومنه كان يتوجه الى تلمسان[٨٤] .

أما فى عهد **الدولة الفاطمية** بالمغرب ، فلا يصادفنا شىء يتعلق بالمسيحية أللهم الا تلك الحادثة التى رواها ابن عذارى وتشير الى أن أبا عبد الله الشيعى داعى الفاطميين بالمغرب ، لما استولى على مدينتى طبنه وبلزمه فى ذى الحجة عام ٢٩٣/سبتمبر ٩٠٦م ، أحضر له الجباه المغارم فسأل أحدهم عن هذه الاموال ، فقال له الجابى « جبيته عن اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم ، فقال كيف أخذته عينا وانما كان يأخذ رسول الله ﷺ من المليىء ثمانية وأربعين درهما ومن المتوسط أربعة وعشرين درهما ومن الفقير أثنى عشر درهما . فقال أخذت العين عن الدراهم بالصرف الذى كان يأخذه عمر رحمه الله . فقال أبو عبد الله : هذا مال طيب »[٨٥] . ويمكن أن نستنتج من هذه الرواية أن مدينتى طبنه وبلزمه كانتا تضمان طوائف من أهل الذمة سواء من المسيحيين أو اليهود يدفعون الجزية للدولة بانتظام .

---

(٨٣) نفس المصدر السابق ص١٥ .

(٨٤) البكرى : ص١١٦ ، الجزنائى : زهرة الآس فى ذكر مدينة فاس . نشر الفرد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ص١٩ — ٢٠ .

(٨٥) ابن عذارى : البيان المغرب جا ص١٤١ — كذلك أنظر : ابراهيم العدوى : المجتمع المغربى ص٣٥٨ .

وعقب رحيل الفاطميين عن المغرب ، واستخلافهم لبنى زيرى بن مناد الصنهاجى ، استخدم الصنهاجيون بعض الغلمان النصارى للعمل لديهم دون حرج . ويروى ابن عذارى أن العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ – ٣٨٦هـ/٩٧٥ – ٩٩٦م) أرسل الى أبى مناد باديس بن أبى الفتوح الصنهاجى الى افريقية يطلب منه أن يرسل اليه القاضى محمد بن عبد الله بن هاشم ، ولكن القاضى كان مريضا ، وخشى أبو مناد من العزيز بالله الفاطمى ، فبعث العساكر الى دار القاضى « فهجموا عليه وحملوه ببساطه الذى كان مريضا عليه فى ثيابه التى يلبسها فى داره وخرجوا به محمولا وقد اجتمع عند داره خلق عظيم ولم ينطق أحد منهم ، ومشوا به الى رقاده وخلفه غلام نصرانى يمسكه »[٨٦] .

وفى أواخر عهد الدولة الزيرية بافريقية ، تصادفنا شخصية مسيحية لعبت دورا كبيرا فى أحداث الصراع بين النورمانديين أصحاب صقلية والزيريين . تلك هى شخصية « جرجس بن ميخائيل الانطاكى ». وكان هذا الرجل من نصارى انطاكيه بالشام ، فهاجر منها الى افريقيه حيث التحق بخدمة الأمير تميم بن المعز الذى اصطنعه لما وجد عنده من براعة فى اللسان العربى وعلم الحساب ، فأسند اليه أمور الدخل والخراج . وقد حظى جرجس الانطاكى بمكانة عظيمة فى بلاط تميم حتى أن الأمير كان يشاوره فى كل أمور دولته وأصبح أمين سره[٨٧] . ولما توفى تميم عام ٥٠١هـ/١١٠٧م ، خاف جرجس من الأمير يحيى بن تميم ، فاتصل سرا بصاحب صقليه روجر الثانى الذى دبر له سفينة فر على متنها من المهدية خلسة . وقد عمل جرجس فى بلاط روجر الثانى .

---

(٨٦) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٦١ .

(٨٧) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص٢٤٨ .

سفيرا له ثم مقدما على الاسطول طيلة أربعين عاما • واستغل جرجس معرفته السابقة ببلاد افريقيـــة وأحوال سكانها ، وتمكن من قيـــادة الاسطول النورماندى وشن الغارات على السواحل المغربية ، فاستولى على طرابلس عـــام ٥٤١هـ/١١٤٦م والمهـــدية عـــام ٥٤٣هـ/١١٤٨م وصفاقس • وقد توفى جرجس الانطاكى عام ٥٤٦هـ/١١٥٢م بعد أن عانى المسلمون منه الكثير[٨٨] •

على أية حال ، يلاحظ أن أعداد النصارى فى بلاد المغرب أخذت تتناقص تدريجيا حتى يمكن القول أنهم كادوا يتلاشون تماما فى المغرب مع نهاية القرن الخامس الهجرى ومطلع القـــرن السادس • ولعـــل مراسلات البابوية مع أسقفية قرطاجنة توضح ذلك • وسبق أن أشرنا الى تقلص عدد الاسقفيات والكنائس فى شـــمال افريقيـــا من مائتى اسقفية الى خمس اسقفيات فقط • ولحسن الحظ لدينا نصوص لعدة رسائل وجهتها البابوية لأساقفة شمال افريقيا توضـــح كلهـــا تراجع المسيحية فى هذه المنطقة • ففى وثيقة تنسب للبابا جريجورى السابع (مؤرخة فى ١٦ ديسمبر ١٠٧٣م) نلمح شكوى البابا من عدم طاعة مسيحيى مدينة قرطاجنة للأسقف كيرياك Cyriaque أسقف مدينتهـــم وخضوعهم للمسلمين[٨٩] • وفى رسالة أخرى تحمل نفس التاريخ يطلب البـــابا من الاسقف أن يصبر على المعـــاملة السيئة التى يلقـــاها من المسيحيين[٩٠] • وفى عام ١٠٧٦م أضطر رئيس أساقفة قرطاجنة الى

---

(٨٨) ابن عذارى : البيان المغرب جا ص٣١٢ — التجانى : الرحـــلة ص٣٣٣ — أنظر كذلك : عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلاميـــة ص ٦٥ •

(٨٩) De Mas Latrie : Traités, Doc. No. III, P. 5

(٩٠) Ibid : Doc. No IV, P.P. 5-6

ارسال أسقفه عنابة الجديد الى روما لتتوى البابوية رسامته فى منصبه ، اذ تعذر على أسقف قرطاجنة جمع ثلاث أساقفة من كافة أنحاء المغرب لاقامة موكب الترسيم له وتقليده منصبه الدينى(٩١) . وبالفعل تم ترسيم الاسقف الجديد لعنابه ويسمى Servand فى روما . وقد أرسل البابا معه رسالة الى كهنة مدينة عنابه وشعبها يطلب منهم أن يطيعوا الاسقف الجديد وأن يؤدوا الصلاة بكل ايمان(٩٢) . وفى نفس العام (١٠٧٦م) أرسل البابا رسالة الى الناصر بن علناس بن حماد أمير دولة بنى حماد (٤٥٤ — ٤٨١هـ/١٠٦٢ — ١٠٨٩م) يخبره فيها بموافقته على تعيين الاسقف سيرفان أسقفا لعنابه ويشكره على المعاملة الطيبة التى يلقاها المسيحيون فى دولته(٩٣) . ولعل كل تلك المراسلات توضح لنا الى أى مدى تضاءلت أعداد المسيحيين فى بلاد المغرب مع نهاية القرن الخامس الهجرى/١١م .

---

(٩١) Ibid : Doc. No V, P. 6.

(٩٢) Ibid : Doc. No VI P. 7.

(٩٣) Ibid : Doc. No VII P.P. 7-8.

المسيحيون فى المغرب الاسلامى فى عصر دولتى المرابطين والموحدين :

أشرنا فى الأسطر القليلة السابقة الى تناقص أعداد المسيحيين فى بلاد المغرب بصورة واضحة ، حتى كادت المسيحية المحلية تنقرض من هذه البلاد • ولكن اعتبارا من مطلع القرن السادس الهجرى (١٢م) بدأت المسيحية تتلقى روافد جديدة من خارج المغرب • وتتمثل هذه الروافد فى أعداد كبيرة من المسيحيين وفدت الى بلاد المغرب للعمل جنودا مرتزقة فى جيوش المرابطين والموحدين[٩٤] • ويعتبر على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ — ٥٣٧هـ/١١٠٦ — ١١٤٣م) من أمراء المرابطين أول من استخدم هؤلاء النصارى أجنادا وحراسا خصوصيين له • ويشير صاحب الحلل الموشية الى ذلك بقوله « وهو (يقصد على ابن يوسف) أول من استعمل الروم وأركبهم فى المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين فى مغامرتهم ويأخذون منهم فى نفقاتهم وأكثر ما يجب عمله »[٩٥] • وقد عهد الأمير على بن يوسف الى هؤلاء النصارى بالاضافة الى عملهم كحرس خاص ، مهمة تحصيل الضرائب أحيانا وحراسة جباة الضرائب أحيانا أخرى ، سيما فى المناطق النائية حيث تضعف السلطة المركزية • ولم يكن من السهل جباية الضرائب فى هذه

---

(٩٤) اوضح ابن خلدون السبب فى استخدام المسيحيين فى الجيوش الاسلامية فذكر ان ذلك يرجع الى ثبات هؤلاء فى القتال وزحفهم فى صفوف متراصة ، فكانوا قاعدة ثابتة يكون السلطان فى وسطها بخلاف الجنود المغاربة الذين يعتمدون على اسلوب الكر والفر . راجع ابن خلدون : المقدمة ص٢٧٤ .

(٩٥) مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية . تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، الدار البيضاء ١٩٧٩ ص٨٤ — ٨٥ — ابن عذارى : البيان المغرب ، القسم الخاص بالموحدين ج٤ ص١٠٢ .

المناطق بدون ارسال قوات عسكرية لتحصيلها ، ولذلك استخدم المرابطون هؤلاء النصارى للقيام بهذا العمل[٩٦] . ويذكر ابن الاثير ان الامير اعتمد على جنده النصارى لجباية الخراج من أهل جبل درن .

ولم يكن هؤلاء النصارى من جند المرابطين (أو الروم كما تسميهم غالبية المصادر العربية) أهل ذمة ، فلم تكن تفرض عليهم الجزية باعتبارهم مرتزقة لا يدخلون فى عداد الرعية ، بل كانوا أحرارا فى غالبيتهم ، وهم فى ذلك يختلفون تماما عن نصارى العجم وأعنى بهم طائفة من المعاهدين النصارى من أهل الاندلس أو المستعربين Mozarabes أرغموا على التغرب فى أعقاب الحملة التى قام بها ألفونسو المحارب Alfonso El Batallador ملك أرغون بتحريض من هؤلاء المعاهدين فى أواخر شعبان ٥١٩هـ/أوائل سبتمبر ١١٢٥م ، أخترق فيها بلاد المسلمين مخربا ومدمرا ما قابله من الحصون والقرى والمراكز العمرانية حتى وصل الى قرب غرناطة ، فانضموا اليه[٩٨] . ولما أحس المرابطون بخطر هؤلاء المعاهدين على بلادهم ، سافر الفقيه أبو الوليد ابن رشد الجد قاضى الجماعة بقرطبة الى مراكش لمقابلة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وبين له أمر الاندلس وما بليت به من معاهدتها وما جروه اليها وجنوه عليها من استدعاء لابن ردمير

---

(٩٦) الامير عبد الله الزيرى : كتاب أو مذكرات الامير عبد الله ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ ص٢١٣ — ٢١٤ .

(٩٧) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص٥٧٣ .

(٩٨) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ص ٩٠ — ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان جا ص١١٤ الى ص١٢٠ — وقد أورد ابن الخطيب اخبار هذه الحملة بشىء من التفصيل . انظر كذلك : عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٧٣٦ ، Aguado Bleye : Manual de historia de Espâna, Madrid, 1947, P. 630.

(ألفونسو المحارب) وما فى ذلك من نقض للعهد والخـروج عن الذمة، « فوقع النظر على تغريبهم واجلائهم عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم ونفذ عهده الى جميـع بلاد الاندلس باجلاء المعاهدين الى العدوة ، فنفى منهم فى رمضان عدد جم أنكرته الاهواء وأكلتهـم الطرق ونسفتهم الأسفار ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شـذر مذر وأحل بهم عاقبة مكرهم وأذاقهم وبال أمرهم »(٩٩) • وقد تم تغـريب هؤلاء المعاهدين فى ٢٠ رمضان عام ٥٢٠هـ/سبتمبر ١١٢٦م فاستقروا فى مراكش وسلا ومكناسه وغيرها من بلاد العدوة(١٠٠) • ويبدو أن أعداد هؤلاء المعاهدين كانت كبيرة ، بدليل أن معـاهدة غرناطة الذين كاتبوا ألفونسو المحـارب يستدعونه لحرب المرابطين بلغ أثنى عشـر ألفا (١٠١) • وقد عمل قسم من هؤلاء المعاهدين فى الزراعة بحكم طبيعة عملهم السابق(١٠٢) ، فى حين انضـم القسم الآخر لصـفوف الجيش المرابطى •

وفى عصر دولة المرابطين برزت عدة شخصيات مسيحية لعت دورا هاما فى أحداث بلاد المغـرب فى هذه الفترة ، ولعـل أشـهر هذه الشخصيات شخصية القائد القطلانى الربرتير Reverter • وكان هذا القائد من أهالى مدينة برشلونة وعمل فى خدمة ملك أرغون ولكنه وقع

---

(٩٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ ص٧٣ — انظر : محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ص١٢٥ — ١٢٦ ، ص١٦٧ •

(١٠٠) الحلل الموشية ص٩١ .

(١٠١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٤ ص٦٩ .

(١٠٢) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب ص١٠٩ .

أسيرا فى يد أمير البحر المرابطى على بن ميمون ، فحمله الى الامير على بن يوسف بمراكش فولاه قيادة المرتزقة المسيحيين فى جيشه . وقد بلى الريرتير بلاء حسنا فى قتـال أعداء المرابطين ، وخاصـة الموحدين ، حيث قتل فى معركة ضدهم عند مدينة تلمسان عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م(١٠٣) .

وعقب انهيار دولة المرابطين ، انضـم المسيحيون العاملـون فى جيش المرابطين الى صفوف الموحدين ، بعد أن سهلوا على عبد المؤمن بن على دخول مدينة مراكش عام ٥٤١هـ/١١٤٦م(١٠٤) . ومن ثم ضـم عبد المؤمن هؤلاء الى صفوف جيشه ، ولم يجـد حرجا فى ذلك على الرغم مما عرف عنه من قسوة وشدة تجـاه أهل الذمة . فالمراكشى يفخر بأنه لم تنعقد ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قيام دولة المصامدة (الموحدين) ولا يوجـد فى جميـع بـلاد المسلمين بالمغـرب بيعـة ولا كنيسة(١٠٥) . وممـا يؤثر عن عبد المؤمن بن على قوله لليهـود

(١٠٣) عن الريرتير ودوره فى تاريخ المرابطين وصراعه ضـد الموحدين راجع : ابن القطان : نظم الجمان فى لخبار الزمان . نشر محمود على مكى ، الرباط ١٩٦٤ ص٩٦ ، البيذق : اخبـار المهدى بن تومرت . تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ١٩٧٤ ص٨٦ الى ص٩٦ ، ص١٧٢ — ١٧٣ — ابن عذارى : البيان المغـرب ج٤ ص٩٨ ، ص١٠٣ — حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين . صحيفة معهد الدراسـات الاسلامية بمدريد ١٩٥٥ ص١٠٢ ، مختار العبادي : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٥٥ . أيضا انظر : R. Dozy : Recherches sur L'histoire et la Litterature de l'Espagne, Amesterdam, 1965, Tom 2, pp. 437—442.

(١٠٤) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص٥٨٤ — مؤلف مجهـول : الحلل الموشية ص١٣٨ .

(١٠٥) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب : تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ ص٣٨٣ .

والنصارى « لا حاجة لنا بجزيتكم فاما الاسلام أو القتل »(١٠٦) . ويذكر ابن القفطى أنه نادى فى أنحاء مملكته « باخراج اليهود والنصارى وقدر لهم مدة معينة ، ومن أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين . ومن بقى على ملته ولم يخرج بعد الاجل فهو فى حكم السلطان مستهلك النفس والمال ، فخرج المخفون وبقى من ثقل ظهره »(١٠٧) . ومن الجدير بالذكر أن عبد المؤمن بن على أقدم على ترحيل المعاهدين الذين سبق أن غربهم المرابطون من الاندلس الى المغرب . وقد رحل هؤلاء المعاهدون الى طليطلة استنادا الى ما أشارت اليه حولية الملك الفونسو السابع Alfonso VII ملك قشتاله . فقد ورد فى تلك الحولية أن ألوفا كثيرة من النصارى عبرت البحر مع أسقفهم وعدد كبير من رجال الدين من مراكش حاضرة على بن يوسف وولده تاشفين ووصلوا الى طليطلة وذلك عقب استيلاء عبد المؤمن بن على على مراكش عام ١١٤٧م(١٠٨) . أما الضعفاء من هؤلاء النصارى المعاهدين ممن لم يقو على الرحيل فقد أعلنوا اسلامهم واندمجوا فى المجتمع .

وقد استعان الموحدون بعسكر النصارى فى اخماد الثورة التى قام بها محمد بن عبد الله بن هود الماسى(١٠٩) (نسبة الى رباط ماسة على

---

(١٠٦) هوبكنز : النظم الاسلامية : ص٢٢ — روبرت برنشفيك : تاريخ افريقية جـ١ ص٣٣ .

(١٠٧) ابن القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء : ص .

(١٠٨) Pierre de Cenival : L'Eglise Chrétienne de Marrakech au XIIIe Siécle, Revue Hespéris, Tome VII, Année; 1927, 1er Trimestre, P. 72.

(١٠٩) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ص١٤٦ .

ساحل المحيط الاطلسى) فى عهد عبد المؤمن بن على . وفى عهد الخليفة أبى يوسف يعقوب (٥٥٨ — ٥٨٠هـ/١١٦٣ — ١١٨٤م) أنضم الفارس البرتغـالى جيرالدو سمبافور Giraldo Sampavor ، والذى عرف فى المصادر العربية باسم جرانده الجليقى ، انضم مع جماعته من الفرسان المسيحيين لخدمة الموحدين بعد أن استسلم لهم عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م . ورأى الخليفة أبو يعقوب يوسف أنه من الضرورى نقل هذا الفارس وجماعته من الاندلس الى المغرب . ويشير البيذق الى أن الخليفـة الموحدى أجاز الفارس جرانده الى مركش ، ثم صرفه هو وجماعته الى السوس الأقصى حيث عينه قائدا للنصارى المرتزقة العامليـن فى الجيش الموحدى فى هذه المنطقة . ولكن جرانده الجليقى راسل ألفونسو انريكث Alfonso Enriquez ملك البرتغال (وتطلق عليه المصـادر العربية ابن الرنك) وقال له : « لعلك تعمر القطائع[110] لتأخذنى وأجد معكم » . ولكن هذه الرسالة وقت فى أيدى الموحدين فاستدعاه الخليفة أبو يعقــوب من السوس الى مراكش فى عام ٥٧١هـ/١١٧٥م . وقرر الانتقام منه هو وأصحابه ، فكتب الى موسى بن عبد الصـمد عامله على درعه وقال له « اذا وجهنا لكم جرانده وأصـحابه ، فقسموهم على القبائل واقتلوه لأنا أخذنا عليه كتب الدلس » . وفى نفس الوقت طلب الخليفة الموحدى من جرانده المسير الى درعة بحجة أنها أحسن له من السوس « فسار مع أصحابه وكان عددهم ثلاثمائة وخمسين من آيفرخان[111] ، فلما وصلوا فعل بهم موسى ما أمره أمير المؤمنين»[112] .

---

(١١٠) المقصود بالقطائع هنا السفن أو الاسطول . راجع : R. Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes, Beyrouth, Vol. 2. P. 380.

(١١١) آيفرخان : كلمة بربرية بلغة تاشلحيت ومفـــردها آفروخ بمعنى شاب . وتستعمل هنا بمعنى مرتزقة النصارى ولاشك ان هذه الكلمة هى اصل كلمة Far Fanes التى اطلقت فى اسبانيا بعـد

وواضح من هذا النص أن الفرقة المسيحية التى كانت مصاحبة لجرانده قد توزعت على القبائل فى درعه ، فى حين لقى جرانده مصرعه .

أما الخليفة أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور (٥٨٠ — ٥٩٥هـ/ ١١٨٤ — ١١٩٩م) فقد اتخذ من الرماة النصارى حرسا له ، وأسكنهم فى أحد القصور التى شيدها ، ويذكر ليون الأفريقى أن هؤلاء الرماة كانوا يسيرون أمام الخليفة أينما تنقل من مكان لآخر[١١٣] .

ولكن نلاحظ أن تأثير هؤلاء المسيحيين الذين نصادفهم سواء فى عصر المرابطين أو الموحدين وحتى بداية عصر المأمون الموحدى ، كان محدودا ، ولم يتعد دورهم أكثر مما رسمه الحكام المسلمون لهم . فقد عملوا كحرس خاص لهؤلاء الحكام أو كجباة للضرائب ، كما عمل بعضهم — وخاصة معاهدو الاندلس الذين غربوا أيام المرابطين — فى الزراعة . ولم يكن لهم أية حقوق دينية مثل حقهم فى ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية ، أو وجود كنائس خاصة بهم أو حتى أساقفة لهم . ولكن من ناحية أخرى لم يكن هؤلاء النصارى — وخاصة المرتزقة منهم — أهل ذمة يؤدون الجزية ، وذلك بحكم كون غالبيتهم أحرارا مرتزقة يعملون لدى المرابطين أو الموحدين لقاء أجر معين . أما أهل الذمة منهم فهم أولئك المعاهدون الذين كانوا يشتغلون بالزراعة .

— ذلك على اعقاب هؤلاء النصارى الذين اعيدوا الى اوطانهم . انظر :

Levi-Provençal : Documents inedits : D'histoire Almohade, Paris, 1928, P.83 Pierre de Cenival : Op. Cit. P. 76.

(١١٢) البيذق ، اخبار المهدى بن تومرت ص١٦٧ — ١٦٨ .

(١١٣) ليون الافريقى : وصف افريقيا ص١٤٤ .

وحتى هؤلاء لم يستمر وجودهم فى بلاد المغـرب طويلا ، حيث رحلوا الى الاندلس فى بداية عهد الموحدين . ولكن منذ عصر المأمون الموحدى (٦٢٤ — ٦٣٠هـ/١٢٢٧ — ١٢٣٢م) أخذت هذه الطوائف المسيحية تبرز بصورة واضحة فى بلاد المغرب على مسرح الاحداث . فمن المعروف انه بويع للخليفة المأمون بالخـلافة فى اشبيلية بالأندلس عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م ، فى حين بويع ليحيى بن الناصر بالخلافة فى مراكش . ومن ثم دب النزاع بينهما للظفر بالعرش الموحدى . ولما تبين للمأمون تعذر تغلبه على خصمه نظـرا قلة عدد أتبـاعه لجأ الى فرناندو الثـالث Fernando III ملك قشتاله يلتمس منه المساعدة بفـرقة من الجنـد النصـارى يتقـوى بهـا . وبالفعل أمده فرناندو بجيش بلغت عدته اثنى عشر ألف فارس برسم الخدمة معه والجواز الى العدوة[١١٤] . وفى مقابل ذلك تعهد المأمون الموحدى بالسماح لهؤلاء الجند النصارى ببناء كنيسة لهم وسط مدينة مراكش « يظهرون بها دينهم ويضربون فيهـا نواقيسهم أوقات صلواتهم ، وان أسلم أحد من الروم لا يقبل اسلامه ويرد الى أخوانه فيحكمـون فيه بحكمهم ، ومن تنصر من المسـلمين فليس لأحد عليه من سبيل »[١١٥] .

وقد انتقد كثير من مؤرخى المغرب القدامى منهم والمحدثين هذا التصرف الشائن من جانب المأمون ، فصاحب كتـاب « ذكر مشاهير أعيان فاس » ندد بالموحدين لسماحهم للنصـارى بممارسة حريتهـم الدينية فى مراكش مع أسقافتهم[١١٦] . ويبالغ المؤرخ التونسى محمد

(١١٤) ابن ابى زرع : الانيس المطـرب : ص١٦٧ — فى حين ان ابن عذارى يذكر ان عدد هؤلاء الفرسان بلغ خمسمائة فارس فقط . البيان المغرب جـ٤ ص٢٨٤ وهذا العدد الاخير هو الارجح .

(١١٥) ابن ابى زرع : نفس المصدر والصفحة .

(١١٦) مؤلف مجهول : ذكر مشاهير أعيان فاس . تحقيق عبد القـادر زمامه ، مجلة البحث العلمى بالرباط ، العدد ٣ ص٥٣ .

العروسى المطوى فى الحكم على الخطوة التى أقدم عليها المأمون ، وذهب بخياله بعيدا حيث ذكر أن ما فعله المأمون انما كان مدفوعا فيه برغبته فى التنصر والارتداد عن الاسلام ، وفسر بعض التصرفات التى أقدم عليها المأمون تفسيرا خاطئا . فقد أمر المأمون باسقاط اسم المهدى ابن تومرت من الخطبة وأنكر عصمته وقال لأتباعه « لا مهدى الا عيسى عليه السلام »(١١٧) . ويرى الاستاذ المطوى أنه كان متأثرا فى ذلك بنزعة مسيحية لأنه ارتقى عرش الموحدين على أسنة رماح النصارى ، ثم أن أم المأمون أم ولد رومية نصرانية . وبالاضافة الى ذلك فقد التجأ بعض أحفاد عبد المؤمن بن على الى مملكة قشتاله وتنصروا ، وتنصر البعض الآخر منذ عهد بعيد ولم يعلن تنصره الا حينما تسنح الفرصة(١١٨) .

ولكننا لا نتفق مع الاستاذ المطوى فيما ذهب اليه لأن استعانة المأمون بالنصارى لمساعدته ضد منافسه على العرش ليست بدعة أو سنة جديدة استنها المأمون ، فقد سبق أن استعان أمراء المسلمين المرابطون ومن بعدهم خلفاء الموحدين بالنصارى للعمل فى جيوشهم أو كحرس خاص بهم . أما بناء كنيسة للنصارى فى قلب احدى العواصم الاسلامية — برغم أن الفقيه ابن رشد الجد لم يجز ذلك — فأمر لم ينفرد به المأمون . وقد سبق أن أشرنا الى أنه كان بتاهرت موضع يسمى الكنيسة فى سياق حديثنا عن دولة الرستميين فى تاهرت ، كما وجد المسيحيون فى تلك المدينة . كما أن المرينيين بعد ذلك سمحوا للنصارى العاملين فى جيوشهم ببناء كنيسة لهم فى «فاس الجديد» لممارسة شعائرهم الدينية . أما القول بأن المأمون كان متأثرا بنزعة

---

(١١٧) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص١٦٧ .

(١١٨) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية ، منشورات دار الغرب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٦م ص١٢٤ — ١٢٥ .

مسيحية وأنه كان يرغب فى التنصر فقول بعيد تماما عن الصحة[119].
لأن هذا الاتهام سبق أن اتهم به غير واحد من حكام المغـرب الذين
ارتبطت مصالحهم بمصالح بعض الملوك المسيحيين ، فقد اتهم المستنصر
بالله الحفصى (٦٤٧ — ٦٧٥هـ/١٢٤٩ — ١٢٧٧م) هو الآخر بأنه كان
يرغب فى اعتناق المسيحية ، حتى أن مؤرخا مشرقيا مثل المقريزى ذكر
أن المستنصر الحفصى لا يجـوز أن يلى أمـور المسـلمين لمـالأته
للمسيحيين[120] . والواقع أن ما قام به المأمون الموحدى لا دخل له
بالنصرانية أو أنه يشير الى ميله الى اعتناق المسيحية — كمـا توهم
المطوى — بل هى مجرد وسيلة توصله الى الظفر بالخلافة والقضـاء
على منافسه ، والا جاز لنا القول — اذا سلمنا بوجهة نظر المطـوى —
أن ألفونسو العاشر ملك قشتاله الملقب بالعالم El Sabio كانت لديه
نزعة اسـلامية حيث اسـتعان بالمسلمين حينما ثار عليه ابنه المسمى
سانشو وخلعه من العرش[121] . بل وما فعله ملوك قشتالة قبل ذلك مع
الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر عنـدما استنصروا به لاستعادة
عروشهم .

---

(١١٩) راجع : Pierre de Ceniva! : Op. Cit. P. 75. وقد ذكر دى سينفال ان ما قام به المامون لا يعنى انه كان يفكر فى اعتناق المسيحية .

(١٢٠) تقى الدين احمد بن على المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٦ جـ١ ص٦٠١ ، أنظر كذلك : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧٥ جـ٢ ص١١٧٧ .

(١٢١) عن أحداث هذه الثورة وطلب الفونسو العاشر مساعدة ابى يوسف يعقوب المرينى له ضد ابنه . راجع : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثانى ، نشر ليفى بروفنسـال ، بيروت ١٩٥٦ ص٣٣٣ ، ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٢٠٥ .
Aguado Bleye : Op. Cit. P. 694.

على أية حال ، فان ما قام به المأمون الموحدى انما كان يستهدف منه التخلص من التقاليد القديمة التى وضعها المهدى بن تومرت ، ومن سيطرة أشياخ الموحدين • وقد أدى هذا العمل الى اثارة البعض عليه، فاستغلوا استعانته بالنصارى للطعن فيه ، خاصة وأن هؤلاء النصارى قد أثاروا فزع المسلمين ومسوا مشاعرهم الدينية(١٣٢) • ولذلك انتهز يحيى بن الناصر فرصة انشغال عمه الخليفة المأمون بحصار مدينة سبته عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، وأقدم على مهاجمة مراكش واقتحمها عنوة ، وتقربا منه لأهل المدينة ، قام بحرق كنيسة نوتردام التى خصصها المأمون لجنده النصارى ، كما أمر بقتل عدد كبير من النصارى كانوا قد لاذو ابالكنيسة(١٣٣) • ويزودنا دى سينفال ببعض التفصيلات عن هذه الحادثة — نقلا عن أحد المخطوطات الخاصة بتاريخ الفرنسيسكان — فيذكر ان كثيرا من المسحيين بمراكش التجأوا الى كنيسة نوتردم ، فقام المسلمون من أهل المدينة بمحاصرة الكنيسة وحرقها بمن فيها ، حتى أبيد كل المسيحيين داخلها ، كما قتل رجال الدين المسيحى وعددهم خمسة أفراد ، وقد اعتبر هؤلاء الخمسة فى عداد الشهداء(١٣٤) •

وكان رد فعل المأمون وجنوده النصارى الذين كانوا معه أمام سبتة عنيفا ، فقد ذكر ابن عذارى أن النصارى أصيبوا بالارتباك وخافوا على أنفسهم ، فى حين استشاط المأمون غضبا وقرر الانتقام من أهل مراكش ، وأقسم أن يطلق جنوده المسيحيين على البلد حتى ينتصفوا(١٣٥) • ولكن القدر لم يمهله لكى يبر بقسمه ، اذ توفى بوادى العبيد عقب قفوله من سبتة فى ذى الحجة عام ٦٢٩هـ/أكتوبر ١٢٣٢م•

---

(١٢٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٤ ص٢٩٨ .

(١٢٣) نفس المصدر والصفحة — ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص١٩٦ .

(١٢٤) Pierre decenival : Op. Cit. P. 76-79.

(١٢٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٤ ص٢٩٨ .

وحينما بلغ أهل مراكش ما عزم عليه النصارى من الرغبة فى الانتقام ، بادروا بالاستعداد لقتالهم . ولكن الخليفة الموحدى الرشيد ابن المأمون أرسل اليهم الفقيه القاضى أبا محمد عبد الحق وبعث معه ظهيرا لأهل مراكش يؤمنهم ويعفو عن عامتهم ويعدهم بألا يتعرض النصارى لهم بسوء[١٢٦] . ويذكر السلاوى أن الرشيد اضطر الى دفع مبلغ قدره خمسة آلاف دينار لقائد الجند النصرانى المسمى فرنسيل حتى لا يتعرض لأهل مراكش بسوء[١٢٧] .

ومما لاشك فيه أن نفوذ النصارى فى هذه الفترة المضطربة من تاريخ دولة الموحدين ازداد بشكل واضح وأصبح خلفاء الموحدين يعتمدون عليهم كثيرا . وليس أدل على ذلك مما يرويه ابن عذارى من أن الخليفة الموحدى الرشيد عندما أراد التخلص من مسعود بن حميد زعيم العرب الخلط الذى لم يكن راضيا عن بيعة الرشيد ، لم يجد سوى النصارى يستعين بهم ، فقد وجه أحد فتيانه ويسمى عنبر الى كنيسة النصارى يستصرخ من بها من النصارى من تجارهم وضعفائهم، ويصف ابن عذارى هذه الحادثة نقلا عن أحد شهودها وهو الفقيه أبى عبد الله التلمسانى فيقول « فلقيت بسوق البرذعيين الفتى المذكور وهو على فرس خالى الركاب أشهب اللون من خيل الخليفة وليس على الفتى رداء ولا فى قدميه الا جلدها . وكان المطر فى ذلك اليوم وفيما قبلهمن الايام متواليا لا يفتر والأزقة والسكك قد غصت بالناس ، وهو قد أطلق عنان فرسه ووراءه نحو ثلاثين من فرسان النصارى وتجارهم وهو يستحثهم والطين قد علاه حتى لا يتبين لون فرسه

---

(١٢٦) ابن عذارى : نفس المصدر السابق جـ٤ ص٣٠١ .

(١٢٧) السلاوى : الاستقصا : جـ٢ ص٢٤٢ .

ولا لون ثيابه »[١٢٨] . ولم يكد النصارى يصلون الى موضع العرب حتى هاجمهم الرشيد وفتك بهم .

كذلك شارك الجند النصارى فى الدفاع عن مراكش حينما حاصرها عرب الخلط للثأر لمقتل زعيمهم . فقد خرج قائد الجند النصرانى المسمى غنصاله (أو جونزاليس Gonzales) من مراكش ومعه جنوده، والتقى مع العرب عند وادى تانسيفت سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥م) لكنهم هزموا هزيمة شنعاء ، وحينما أرادوا العودة مسرعين الى مراكش ، وعبروا على قنطرة الوادى فاجأهم العرب وقتلوا منهم عددا كبيرا ، ولم ينج منهم الا عدد قليل[١٢٩] .

وعندما حاصر الرشيد الموحدى مدينة سجلماسه فى نهاية عام ٦٣٣هـ للقضاء على ثورة واليها أرقم بن يحيى بن شجاع بن مردنيش ، كان الجنود النصارى من بين العناصر التى اشتركت فى هذا الحصار. وحدث أن تعرض جيش الموحدين لنقص شديد فى الميرة والاقوات حتى أشرف على الهلاك جوعا ، وعندئذ أقدم عسكر ابن مردنيش على فتح أبواب سجلماسة ، ولم يترددوا فى بذل طاعتهم للرشيد تضامنا مع لخوانهم النصارى فى جيش الخليفة ، وبذلك استولى الرشيد على المدينة[١٣٠] .

وفى عهد السعيد بن المأمون الموحدى (٦٤٠ — ٦٤٦هـ/١٢٤٢ — ١٢٤٨م) استمر النصارى ينعمون بمركزهم الممتاز فى الدولة نظرا لشدة الحاجة اليهم . وقد كثرت أعدادهم بصورة ملحوظة فى مراكش فى

---

(١٢٨) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٤ ص٣١٩ — ٣٢٠ .

(١٢٩) نفس المصدر السابق جـ٤ ص ٣١٥ — ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ٢٥٥ — السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص٢٤٣ .

(١٣٠) نفس المصدر جـ٤ ص٣٢٥ .

خلافة السعيد ، الذى سمح لهم بدق أجراس كنيستهم بصورة علنية[١٣١] . وعليهم اعتمد السعيد فى القضاء على ثورة أهل سجلماسه[١٣٢] .

بيد أن النصارى برغم تلك المكانة التى تمتعوا بها ، والحماية التى أسبغها خلفاء الموحدين عليهم ، لم يسلموا من التعرض للاغتيالات والمؤامرات وخاصة فى عهد المرتضى الموحدى . فقد كان هذا الخليفة يشك كثيرا فى اخلاصهم له . ولذلك دبر مؤامرة لاغتيال قائد الجند النصرانى فى جيشه ويسمى ذى اللب Del Lobo لتخاذله فى قتال أحد الثوار ويدعى على بن يدر . وقد أرسل المرتضى الى ذى اللب يأمره بالعودة من السوس الى مراكش . وفى نفس الوقت كتب الى الشيخ أبى زيد بن زكريا الجدميوى يأمره بقتل القائد النصرانى عند مروره عليه . وزيادة فى التمويه على القائد النصرانى ، أعطاه المرتضى كتابا لأبى زيد يوصيه فيه بالجند النصارى وبقائدهم وأن يعمل على اكرامهم . وقد استقبل الشيخ أبو زيد هؤلاء الجند النصارى استقبالا حافلا وأنزل القائد ذى اللب فى منزل خاص به ، وسمح له باصطحاب ستة من الجند النصرانى برسم خدمته . أما باقى الجند فقد أقاموا معسكرهم خارج المدينة . ثم وثب عسكر أبى زيد على ذى اللب وجنوده الستة فغدروا بهم وفى اليوم التالى دخل الترجمان الحكيم ترجمان الفرقة النصرانية على أبى زيد فأخبره أن القائد قد فر من داره « فعاد الترجمان الى جماعته النصارى الكفار فأعلمهم بهروب قائدهم من الدار . فدخل بعضهم فى السلاح وقام بالعويل والصياح ، وأيقنوا أن قائدهم قد مات ... فلما دخلوا مراكش علموا أن الامر فى قائدهم قد انقضى »[١٣٣] .

---

(١٣١) المصدر السابق جـ٤ ص ٣٦٠ .

(١٣٢) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٤ ص٤٢٩ — ٤٣٠ .

(١٣٣) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٥٧ .

كذلك قام المرتضى بالقبض على غرسياطاليس قائد الجند النصارى بمراكش Garcia Tales لأنه خشى أن يفر الى أعدائه • ولكنه أضطر الى اطلاق سراحه عندما حاصر الأمير أبو دبوس الموحدى مدينه مراكش مطالبا بعرش الموحدين • وزوده بفرس ودرقة كي يشترك فى الدفاع عن المدينة • بيد أن القائد النصرانى غافل المرتضى وفر الى باب الطبول (أحد أبواب مدينة مراكش) حيث اجتمع مع وجوه الدولة وقرروا جميعا الدخول فى طاعة أبى دبوس وذلك عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[١٣٤] • وعلى الرغم من عدم ثقة المرتضى فى هؤلاء المسيحيين الا أنه أرسل الى الاندلس عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م يطلب أعدادا كبيرة منهم ليركبهم معه ويكونوا أعوانا فوصلوا اليه فى هذه السنة[١٣٥] •

---

(١٣٤) نفس المصدر السابق ج٤ ص٤٣٦ — ابن خلدون : العبر ج٦ ص٢٦١ •

(١٣٥) ابن عذارى : نفس المصدر السابق ج٤ ص٣٩٩ •

المسيحيون فى المغرب الأدنى فى ظل الدولة الحفصية :

الحفصيون فرع من الموحدين ، ينتسبون الى أبى حفص يحيى ابن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاته احدى بطون مصموده . والشيخ أبو حفص كان من كبار رجال المهدى بن تومرت . وترجع صلة الحفصيين بتونس الى أيام الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص صهر الخليفة المنصور الموحدى ، حيث ولى افريقية فى خلافة الناصر الموحدى عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م . ولما انهارت دولة الموحدين ورث الحفصيون الموحدين فى حكم افريقية . أما بالنسبة للمسيحيين ومكانتهم فى الدولة الحفصية ، فمن المعروف أن سكان البلاد الحفصية كانوا فى غالبيتهم الساحقة من المسلمين . ولكن هذا لا يمنع من وجود أقلية من النصارى واليهود . ولم يكن للنصارى فى العهد الحفصى أية علاقة لا من حيث أصلهم ولا من حيث طبيعتهم ولا من حيث وضعيتهم مع العناصر المحلية القديمة التى انقرضت باستثناء أقلية ضئيلة من بقايا قبيلة نفزاوه ظلت مقيمة فى نواحى توزر وقسنطينة[١٣٦] ، وانما كانوا طارئين تابعين لدول أجنبية[١٣٧] . ويمكن أن نصنف هؤلاء على الوجه التالى : التجار — رجال الدين — الجند المرتزقة — العبيد .

أما بالنسبة للتجار ورجال الدين ، فقد كانوا لا يخضعون لسيطرة الدولة الحفصية ، اذ كانت المعاهدات المبرمة بين دولهم والحفصيين تنظم فى الواقع وضعيتهم[١٣٨] . فقد أعطى الحفصيون التجار المسيحيين

---

(١٣٦) راجع ما سبق ان ذكرناه ص   من هذا البحث .

(١٣٧) رنشفيك : تاريخ افريقية فى العهد الحفصى جـ١ ص٤٦١ — ٤٦٢ .

(١٣٨) راجع على سبيل المثال المعاهدة التى وقعت بين المستنصر بالله الحفصى وجمهورية البندقية فى صفر عام ٦٤٩هـ/أبريل ١٢٥١م والتى نصت فى احد بنودها على حق التجار المسيحيين البنادقة فى

الحق فى اقامة فنادق خاصة بهم ،كما سمحوا لهم ببناء كنائس صغيرة داخل تلك الفنادق يمارسون فيها شعائرهم الدينية بحرية تامة ، كما خصصت لهـم أراضى اتخذت كمقابر لدفن موتاهم حسب طقوسهم الدينية . وقد انتشرت هذه الكنائس الصغيرة فى المدن الساحلية مثل تونس وبجاية وعنابه . كذلك اعترف سلاطين بنى حفص بحق المسيحيين فى الاحتفال بأعيادهم الدينية بكل حرية(١٣٩) . ومن الأدلة على تسامح الحفصيين تجـاه هؤلاء المسيحيين سماحهـم للنصارى بدق أجراس كنائسهم على نحو لا يؤذى مشاعر المسلمين . ولدينا رواية طريفة يرويها

= اقامة فندق لهم وبداخله كنيسة لاقامة شعائرهم الدينية Mas Latrie : Op. Cit. P.P. 199-202. وكذلك معاهدة الصلح التى عقدت بين المستنصر الحفصى والملوك الصليبيين : شارل دانجو ملك صقلية وفليب الثانى ملك فرنسا وتيباط ملك نافار عقب حملة لويس التاسع الفاشلة على تونس ، حيث نصت فى احد بنـودها على ما يلى : « يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكانا فى بلاد أمير المؤمنين ، وهو يعطيهم موضعا يعمرون فيه دياره وبيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم . والرهبان القسوس المذكورين يعظون ويصلون مجهرا فى كنائسهم » Mas Latrie: Op. Cit. P.P. 93-96 وقد نشر الدكتور مصطفى الكنانى النص العربى لهذه المعاهدة فى كتابه « حملة لويس التاسع الصليبية على تونس » الاسكندرية ١٩٨٥ ص٢٨٧ وما بعدها . كذلك المعاهدة الموقعة بين بدرو الثالث ملك اراجون والسلطان الحفصى ابى حفص عمـر بن يحيى عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وكان من ضمن بنودها حق النصارى فى ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية ، وان يسمح لهـم بقـرع اجراس كنائسهم Mas Latrie: Op. Cit. P. 286 وراجع فى هذا الموضوع ايضـا : سعيد عبد الفتاح عاشـور : الحـركة الصليبية ج٢ ص١١٨٠ — ١١٨٤ .

(١٣٩) Charles, E. Dufourcq : L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XIIIe Siècles, Paris, 1966. P. 104.

الونشريسى فى كتابه المسمى «المعيار» توضح مدى تسامح الحفصيين مع هؤلاء المسيحيين • فقد حدث أن جدد بعض النصارى كنيسة فى فندقهم وعلا عليها بناء يشبه الصومعة فاعتقد المسلمون أن النصارى سيضعون ناقوسا فى هذا البناء، وطلبوا من قاضى تونس التدخل لوقف أعمال البناء ، ولكن النصارى أتوا بكتاب العهد فوجد فيه أنه لا يحال بينهم وبين أن يبنوا بيتا للعبادة ، وبرروا بناءهم لهذا البرج المماثل للصومعة بأنه مخصص لادخال الضوء ، فبعث القاضى من عاين هذا البناء فوجد أنه مخصص فعلا لادخال الضوء كما ذكروا فتركه[140] • وهناك حادثة أخرى يرويها محمد بن أحمد العقبانى (من أهل القرن الثامن الهجرى/١٤م) توضح مدى حساسية المسلمين تجاه النصارى ، فقد حدث أن بنى النصارى فى تونس متنزها ارتفعت بعض أجزائه على المدرسة التوفيقية ، فتكلم أبو القاسم البرزلى مع ابن عرفه فى الموضوع فتغافل عنه ولم يجبه اشعارا بعدم خطورة الامر[141] •

وعلى الرغم من هذا التسامح فانه لم يسمح للنصارى ببعض الاعمال مثل ركوب الخيل فى المدن الساحلية أو التشبه بالمسلمين فى زيهم وهيئتهم •

---

(١٤٠) الونشريسى : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب • طبعة فاس ١٣١٤ — ١٣١٥ هـ ج ٢ ص ١٧٢ •

(١٤١) لقبال موسى : الحسبة المذهبية ص٥٦ •

التبشير فى افريقية فى العهد الحفصى :

مارس رجال الدين المسيحى نشاطهم فى أراضى الدولة الحفصية بكل حرية ، وقد اختلفت نوعيات رجال الدين المسيحى وأهدافهم من وقت لآخر . ففى بداية عهد الدولة وفد الى افريقية مجموعة من القساوسه ورجال الدين لاقامة الشعائر الدينية للتجار والجند النصارى العاملين فى صفوف الجيش الحفصى . وكان هؤلاء القساوسة يمارسون عملهم داخل الفنادق التى قلنا انها كانت تضم كنائس صغيرة . وكان لكل جنسية قسيسها الخاص ، بمعنى أنه لم تكن هناك كنيسة كبرى أو أسقفية تهيمن على عملية اقامة الشعائر الدينية لمختلف الطوائف المسيحية بافريقية . وقد حاولت البابوية جمع شمل هذه الكنائس الصغيرة المتفرقة ، وجعلها تتبع كنيسة توتردام بمراكش ولكن دون جدوى[١٤٢] . كذلك وصلت الى افريقية طائفة من الرهبان المسيحيين ينتمون الى بعض الجماعات الدينية الشهيرة مثل الفرنسيسان والدومنيكان . وقد وصلت هذه الطائفة الى تونس وغيرها من المدن الساحلية بغرض افتداء أسرى المسيحيين من أيدى المسلمين ، وقد نجحت هذه الطائفة فى اطلاق سراح أعداد كبيرة من هؤلاء الأسرى خاصة فى عهد السلطان الحفصى أبى زكريا والسلطان المستنصر . وعلى الرغم من أن هؤلاء الرهبان كانوا يعملون فى افريقية بموافقة السلطات الحفصية ، الا أن كثيرا منهم تعرض للقتل بسبب سلوكهم الذى كان يؤذى مشاعر المسلمين . فكثيرا ما تجاوز هؤلاء الرهبان نطاق مهامهم وأقدموا على التبشير بالديانة المسيحية فى الأوساط الاسلامية مما أثار موجة عارمة من الاستياء بين المسلمين كان لها آثار سيئة على هؤلاء الرهبان ، ويذكر مسناج Mesnage فى كتابه « كنائس المستعربين » أن أول من قتل من الرهبان فى تونس راهب

---

(١٤٢) Charles Dufourcq : Op. Cit. P.P. 105-106.

يدعى الأب ريشار عام ١٢١٩م بسبب حماسته الزائدة لنشر للديانة المسيحية فى تونس(١٤٣) •

وهكذا تطور عمل هذه الفرق الدينية المسحية من مجرد افتداء أسرى المسيحيين الى التبشير بالمسيحية فى أوساط للمسلمين • والغريب فى ذلك أن يقدم رجال الدين المسيحى على مجرد محاولة التبشير فى بلاد رسخ فيها الاسلام بين سكان حسن اسلامهم ، فقد عرف لأهل المغرب بايمانهم الشديد بدينهم الاسلامى ، وغيرتهم عليه ، بالاضافة الى تأصل فكرة الجهاد فى نفوسهم • وكثيرا ما تدخل أبناء المغرب الاسلامى لانقاذ الاسلام والمسلمين فى الاندلس من ضربات المسيحيين • ومن المعروف أنه لولا تدخل المغاربة لوقف تيار الاسترداد المسيحى فى أسبانيا ، لما قدر للاسلام أن يستمر فى هذه البلاد حتى نهاية القرن التاسع الهجرى/١٥م • ولكن يبدو أنه عندما أخفق القائمون على شئون المسيحية فى الغرب الأروبى فى الاستيلاء على بلاد المشرق بالقوة ، فكروا فى التحول الى أسلوب آخر لكسب المعركة بين الاسلام والمسيحية ، ويتمثل هذا الاسلوب فى تحويل المسلمين الى مسيحيين • ولهذا الغرض تقرر وضع خطة لدراسة اللغة العربية والدين الاسلامى بين القسس والرهبان الذين تتولى الكنيسة أو الجماعات الرهبانية ارسالهم الى شمال افريقيا • وقد نشأت أول مدرسة لندراسات العربية والاسلامية بتونس باسم Studium Arabicum عام٦٤٨هـ/١٢٥٠م نتيجة للضغط الذى مارسه خايمى الأول ملك أرغون الملقب بالفاتح Ja'me I Elconquistador على الخليفة الحفصى

---

(١٤٣) برنشفيك : المرجع السابق جا ص٤٨٤ — ٤٨٥ — جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية : جـ٢ ص١٦١ •

المستنصر[١٤٤] . ولقد واجه الحفصيون هذه التحركات المسيحية بكل شدة وحزم . ومن المثير للدهشة أن هؤلاء الرهبان لم يكفوا عن القيام بأعمال التبشير على الرغم من العنف الذى تعرضوا له من قبل السلطات الحفصية . ويعلل روبرت برنشفيك هذا المسلك من قبل الرهبان بالقول بأن هؤلاء لم يكونوا يريدون الاستشهاد فقط ، بل كانوا يريدون أن يضربوا المثل للمسلمين فى التضحية بالنفس فى سبيل المسيحية ، اعتقادا منهم أن ذلك العمل من شأنه أن يعجل بتنصير المسلمين الذين يصعب اقناعهم بالقول[١٤٥] .

وعلى الرغم من عدم جدوى التبشير بالمسيحية بين سكان افريقية المسلمين ، حيث لم تشر المصادر العربية أو الاجنبية على السواء الى حالات ارتد فيها المسلمون عن دينهم الى المسيحية[١٤٦] . الا أننا نصادف ظاهرة غريبة انتشرت فى أوربا فى القرن الثالث عشر

---

(١٤٤) Ch. Dufourcq : Op. Cit. P. 109. وقد تولى الاب ريموند مارتين Roymond Martin والاب ساندرا Sandra وهما من الآباء الدومنيكان رئاسة هذه المدرسة بتونس .

(١٤٥) برنشفيك : المرجع السابق جـ١ ص٤٨٨ — انظر كذلك : Dufourcq : Op. Cit. P. 107.

(١٤٦) فى الواقع تصادف فى بعض المصادر العربية الاشارة الى حالة واحدة فى العصر الحفصى اتهم صاحبها بالتنصر ، حيث أشار ابن القنفذ القسنطينى أن والى قسنطينة المسمى ابن الوزير ثار ضد السلطان الحفصى أبى اسحاق بن أبى زكريا عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م ، وكتب الى ملك أرغون بدرو الثالث يستدعيه لمناصرته ضد السلطان الحفصى . وقد كتب أهل قسنطينة الى السلطان أبى اسحاق عهدا مشهود بشهودها أن ابن الوزير ارتد وأكل الخنزير ونه اظهر مايدل على نفاقه . راجع : ابن القنفذ القسنطينى : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية . تحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ، تونس ١٩٦٨ ، ص١٣٩ .

الميلادى/٧ھ . وتتمثل فى تلك الموجة من التفاؤل التى انتابت الاوساط المسيحية هناك بامكانية تنصير مسلمى المغرب وحكامهم . وقد أدعت كتب الرهبان والمبشرين المسيحيين العاملين بتونس أنه تم تحويل عدد كبير من مسلمى هذه البلاد الى المسيحية . ولكن هذه الكتابات - باعتراف الباحثين الأروبيين أنفسهم - يغلب عليها عنصر الوهم والخيال . ولعل أشهر الشخصيات التى أدعى الرهبان الدومنيكان أنها ترغب فى التنصر شخصية الخليفة الحفصى المستنصر بالله ، حتى أن البعض يرى أن حملة لويس التاسع على تونس انما كان الغرض الاساسى منها هو حماية المستنصر من بطش المسلمين الذين سيفتكون بخليفتهم اذا اعتنق المسيحية . وقد فند الكتاب الأروبيون - قبل المسلمين - هذه المزاعم ، وأوضحوا أن هذه الاشاعة أطلقها الراهب الدومنيكانى ريموند مارتن الذى أوحى الى الملك لويس التاسع بذلك مستغلا صداقته للخليفة الحفصى . ولكن يبدو أن سياسة السلطان الحفصى تجاه المسيحيين وتسامحه معهم هى التى أوحت لهذا المبشر بهذا الزعم(١٤٧) .

ومن أشهر المبشرين الذين عملوا فى افريقية فى العهد الحفصى الراهب الدومنيكانى رامون لل Ramon Lull وهو مبشر أسبانى من جزيرة ميورقة . كان يعتقد أنه بالامكان التبشير بالمسيحية بين المسلمين فى المغرب ، ولذلك حرص على تعلم اللغة العربية حتى أتقنها ثم درس الفقه الاسلامى . وقد رحل لل الى افريقية أول مرة عام ٦٩٢ھ/١٢٩٢م على عهد السلطان الحفصى أبى حفص عمر (٦٨٣ھ - ٦٩٤ھ/١٢٨٤ - ١٢٩٥م) ، وبدأ يزاول نشاطه التبشيرى بصورة علنية ودخل فى جدال عنيف مع علماء المسلمين حول الاسلام والمسيحية . وقد ثار المسلمون ضده وطالبوا السلطان الحفصى بقتله باعتبار

---

(١٤٧) أندريه جوليان : المرجع السابق جـ٢ ص ١٨٠ .

مشركا يحرض الناس على ترك دينهم • ولكن السلطان أبا حفص اكتفى بنفيه الى خارج البلاد[١٤٨] • ولكنه عاد مرة أخرى الى المغرب عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م حيث نزل فى مدينة بجاية وطلب من قاضى المدينة أن يسمح له باجراء مناظرة مع علماء المسلمين ، ولكن والى بجاية أمر بحبسه لمدة ستة أشهر حتى لا يثير الفتنة بين المسلمين ، ثم طرده من المدينة بعد ذلك • وعلى الرغم من الفشل الذى منى به لل ، الا أنه لم يرجع عن فكرته الرامية الى تنصير المسلمين ، ولذلك عاد الى تونس عام ٧١٥هـ/١٣١٥م ومعه رسالة من خايمى الثانى ملك أرغون يطلب فيها من السلطان الحفصى زكريا بن أحمد اللحيانى (٧١١ — ٧١٧هـ/١٣١١ — ١٣١٧م) السماح لرامون لل بالاقامة فى تونس • وقد تعهد الملك الأرغونى ألا يثير لل أية متاعب دينية للحفصيين ، وأنه (أى لل) سيعمل فقط على القاء المواعظ الدينية على المسيحيين هناك فى سرية تامة• ولكن ذلك كان مجرد وعود زائفة فما كاد لل يستقر فى افريقية حتى استبدت به فكرة تنصير المسلمين ، ولهذا لم يلبث أن ترك تونس ورحل مرة أخرى الى بجاية حيث لقى حتفه ، فقد رجمته جماهير المسلمين بالحجارة ، وظلت جثته ملقاه على شاطىء بجاية حتى حملها بعض التجار الجنوية فى سفنهم الى ميورقة[١٤٩] •

وهكذا نلاحظ أن حركة التبشير بالمسيحية بين المسلمين فى المغرب لم تلق نجاحا على الاطلاق ، بل على العكس من ذلك ، كانت حالات دخول المسيحيين فى الاسلام فى العهد الحفصى كثيرة ، ونستدل على ذلك من تلك الرسالة التى بعث بها أحد الآباء العاملين فى المغرب وهو

---

(١٤٨) Aziz Sorial Ateya : The Cursade in the Later middle ages, London, 1938, P. 98.

(١٤٩) A.S. Atia : Op. Cit. P.P: 93-94

الأب ريمون دى بنافورت Raymoud de Penafort الى البابا هتوريوس الثالث Honorius III عام ١٢٤٦م/٦٤٤هـ يعرب له فيها عن استيائه وحزنه لتحول عدد كبير من النصارى الى الاسلام[١٥٠] . ويعلق برنشفيك على هذه الظاهرة (ظاهرة ازدياد أعداد معتنقى الاسلام من المسيحيين فى العهد الحفصى) بالقول بأن الرقيق المسيحى كانوا من أكثر الناس اعتناقا للاسلام ، ربما للخلاص من الأسر والهوان . ولكن هناك من اعتنق الاسلام عن ايمان واقتناع كاملين . ولعل أشهر من ترك المسيحية واعتنق الاسلام فى العصر الحفصى الراهب الفرانسيسكانى انسالم تورميدا ، حيث أعلن اسلامه فى مدينة تونس فى نهاية القرن الثامن الهجرى/١٤م . وكان هذا الراهب قد قدم الى تونس للتبشير بالمسيحية ودخل فى مناظرات فقهية مع علماء المسلمين . وانتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام وتسمى باسم عبد الله الترجمان . وقد ألف كتابا باللغة العربية دافع فيه عن الاسلام وفند آراء المسيحيين فى هذا الدين وسمى هذا الكتاب « تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب »[١٥١] .

الجنود المسيحيون فى جيش الحفصيين :

استخدم الحفصيون — شأنهم شأن بقية حكام المغرب — الجنود المسيحين المرتزقة للعمل فى صفوف جيوشهم وخاصة كحرس لهم . وتشير المصادر الى أن استخدام هؤلاء النصارى يرجع الى بداية عهد الدولة . وقد خصص السلطان الحفصى أبو زكريا يحيى بن المستنصر والملقب بالواثق لهؤلاء النصارى ربضا خارج النطاق الشرقى من مدينة

---

(١٥٠) Dufourcq : Op. Cit. P. 108.

(١٥١) برنشفيك : المرجع السابق جـ٢ ص٣٩٥ — ٣٩٦ . وقد نشر هذا الكتاب بالقاهرة عام ١٩٠٧ .

تونس وسمى بربض النصارى[١٥٢] . كان الغرض منه أن يمارس هؤلاء الجند النصارى شعائرهم الدينية بحرية تامة بعيدا عن أعين المسلمين . كما سمح لهم ببناء كنيسة فى ربضهم تحمل اسم القديس فرانسوا يقام بها القداس وسمح لهم بدق الأجراس[١٥٣] . وكما تعرض الموحدون لانتقاد الناس لهم بسبب استخدام النصارى فى جيوشهم ، لم يسلم الحفصيون من ذلك النقد ، فقد ذكر الآبى فى كتابه «الأكمال» أن السلطان الحفصى زكريا بن أحمد اللحيانى كان مارا من باب السويقة — أحد أبواب مدينة تونس — ويحيط به حرسه من النصارى ، فتصدى له الشيخ القروى أحد زهاد افريقية فى ذلك الوقت ، وكان صديقا للسلطان فقال له : يا فقيه لا يجوز ذلك ، فتوقف السلطان واستفسر حول هذا النداء ، فأجابه الشيخ مستشهدا باحدى قواعد الفقه المالكى وهى أن الله حرم الاستعانة بمشرك ، ولم يزد السلطان فى رده على الشيخ القروى أكثر من قوله : أجل ، ثم انصرف[١٥٤] . ونلاحظ أن هذا الاعتراض على استخدام النصارى انما صدر من أحد المتشددين فى الدين ، ولذلك لم يعبأ به السلطان . وظل استخدام المسيحيين فى الجيش الحفصى قائما حتى نهاية عصر الدولة الحفصية .

---

(١٥٢) ليون الافريقى : وصف افريقيا ص٤٤٦ — ٤٤٧ — راجع ايضا : ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس . تونس ١٣٥٠هـ ص١٤٥ — ١٥٠ .

(١٥٣) برنشفيك : المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٨ .

(١٥٤) الآبى : الاكمال ، طبعة القاهرة ١٣٢٧ — ١٣٢٨هـ ج٤ ص٣٥٥ .

I.

1053 [1], 17 décembre.

Lettre de Léon IX à Thomas, évêque en Afrique. Le pape déplore l'état de l'Église de ce pays, où l'on comptait autrefois deux cent cinq prélats, et qui est réduite maintenant à n'avoir que cinq évêques; le pape engage l'évêque Thomas à défendre avec ses collègues, Pierre et Jean, les prérogatives de l'archevêché de Carthage contre les empiétements de l'évêque de *Gummi*, qui voudrait s'arroger le droit de consacrer les évêques et de convoquer les conciles en Afrique.

Labbe, *Concil.*, t. IX, col. 972; Mansi, *Concil.*, t. XIX, col. 657, Baronius, *Annal. eccles.*, 1053, § 41; Migne, *Patrol. lat.*, t. CXLIII, col. 728.

Leo, episcopus, servus servorum Dei, Thomæ, confratri carissimo et coepiscopo, salutem.

Cum ex venerabilium canonum auctoritate recolimus ducentos quinque episcopos concilio interfuisse Carthaginensi, et nunc a tua fraternitate audimus quinque vix episcopos superesse in tota Africa, utique tertia hujus corruptibilis mundi parte, compatimur tantæ vestræ imminutioni totis visceribus animi. Cum autem ipsas Christianitatis reliquias ediscimus interna et mutua dissensione discindi et dispergi, et adversus se invicem zelo et contentione principatus inflari, nil aliud nobis primo dicendum occurrit quam illud sancti Amos [2] vatis : « Parce, Domine, parce obsecro; quis susci-

« tabit Jacob, quia parvulus est? » Sed quamvis in tali tantoque defectu religionis plurimum doleamus, multum tamen gaudemus quia sanctæ Romanæ ecclesiæ, matris vestræ, sententiam requiritis et expectatis super quæstionibus vestris; et quasi rivulis ab uno fonte erumpentibus et in suo decursu per diversa spargentibus, ad ipsius fontis primam scaturiginem reverti debere optimum putatis, ut inde resumatis directionis vestigium, unde sumpsistis totius Christianæ religionis exordium. Noveris ergo procul dubio quia post Romanum pontificem primus archiepiscopus et totius Africæ maximus metropolitanus est Carthaginensis episcopus; nec quicumque sit ille Gummitanus [1] episcopus, aliquam licentiam consecrandi episcopos, vel deponendi, seu provinciale concilium convocandi habet, sine consensu Carthaginensis archiepiscopi, cujuslibet dignitatis aut potestatis sit, exceptis his quæ ad propriam parrochiam pertinent; cætera autem, sicut et alii Africani episcopi, consilio Carthaginensis archiepiscopi, aget. Unde, carissimi confratres nostri et coepiscopi, Petrus et Joannes recte sentiunt de Carthaginensis ecclesiæ dignitate, nec consentiunt errori Gummitanæ ecclesiæ. Hoc autem nolo vos lateat non debere præter sententiam Romani pontificis universale concilium celebrari, aut episcopos damnari, vel deponi; quia etsi licet vobis aliquos episcopos examinare, diffinitivam tamen sententiam absque consultu Romani pontificis, ut dictum est, non licet dare; quod in sanctis canonibus statutum, si quæritis, potestis invenire.

Quamvis enim omnibus generaliter apostolis dictum sit a Domino : « Quæcumque » ligaveritis in terra, ligata erunt et in cœlo; et quæcumque solveritis in terra, soluta » erunt et in cœlo [2] »; tamen non sine causa specialiter et nominatim dictum est beato Petro, apostolorum principi : « Tu es Petrus, et super hanc petram ædificabo eccle- » siam meam, et tibi dabo claves regni cœlorum [3] »; et in alio loco : « Confirma fratres » tuos [4]. » Scilicet quia omnium ecclesiarum majores et difficiliores causæ per sanctam

et principalem beati Petri sedem a successoribus ejus sunt diffiniendæ. Jam quia ad interrogata etiam confratrum nostrorum Petri et Joannis episcoporum decrevimus respondere, optamus ut sanctam tuam fraternitatem jugiter invigilantem utilitatibus sanctæ catholicæ ecclesiæ, devote pro nobis orantem, sancta et individua Trinitas semper conservet, carissime frater.

Datum XVI kalendas Januarii, anno domini Leonis papæ IX quinto, indictione VII.

خطاب موجه من البابا ليو التاسع الى توماس أسقف افريقية .
حيث يرثى البابا لحال الكنيسة فى هذه البلاد التى كان بها ٢٥٠ أسقفية
والآن أصبحوا خمس فقط . ويطلب منه أن يدافع عن تلاميذه : بطرس
وجان ضد ادعاءات أسقف قرطاجة .

وثيقــة رقــم (١)*

النــص :

الأسقف ليو ، عبد عبيد الله ، يرســل التحية الى زميــله
الأسقف توماس شقيقه الحبيب .

بناءا على (ما سبق من بيــانات معــروفة) من رجال الدين
فاننا نحصى أن مائتين وخمسة اسقف كانوا قد حضروا مجمــع
قرطاجة ، والآن قد علمنا منك أيها الأخ لا يوجد ســوى خمسة
أساقفة فى أفريقيا بأسرها التى تشكل ثلث هذا الكون الفانى ،
ولقد تأثرنا تأثرا كبيرا بهذا الأمر وشعرنا بالألم الشديد يعتصر
نفسك ولكننا نعلم أيضا أن هذه الخمس الباقية تتعرض لانقسامات
وخلافات داخلية شديدة ، وأنها تتضارب ضد بعضها البعض فى
خصومات منذ البداية .

ولم يحدث أى انقسام مثل هذا من قبل ، مما يذكرنا بكلمات
الكاهن المقدس عموس :

« اصفح عنى ، أيها الرب ، أصفح عنى ، أتوسل اليك ،
أى شىء سيثيره يعقوب ، انه صغير جدا » ؟ .

Mas Latrie : Traités et Documents P.P. 1-2.

ومع ذلك وبالرغم من أننا فى غاية الأسى لهـذا المصاب الفادح كما وكيفا فى ديننا ، الا أننا مع ذلك مسرورون كثيرا لأنكم طلبتم حكم امكم الكنيسة المقدسة ، وانتظرتم حكمنـا هذا فى مشكلتكم ، (وهذه الكنائس) كما لو كانت أنهارا تخرج من نبع واحد ثم تتوزع مصباتها ومساراتها بعد ذلك ، وانكـم الآن تزمعون وترون أنه يجب أن يعود الفرع الى مصبه الأصلى لكى تستعيدوا صحة الاتجاه ، ومن ثم تتخذون البداية لدين المسيحية ككل .

ولذا فقـد علمتم ، ولا ريب ، أن رئيس الأساقفة فى كل أفريقيا والمتروبوليتان الأعظم لها ، وأسقف قرطاجة — كل هؤلاء — يأتون فى المرتبة التالية بعد البـابا الرومانى ، ولن يكون له أى تصريح فى تكريم الأساقفة ، أو عزلهم أو عقد مجلس الولاية بدون موافقة رئيس أساقفة قرطاجة ، ولن يكـون له أى منصب أو سلطة، الا تلك التى تمتد الى أبرشية (Parroehism) لكن يدير الشئون الاخرى تماما مثل أساقفة أفريقيـا الآخرين باستشارة رئيس أساقفة قرطاجة . ومن ثم فان الأخوين العزيزين علينـا الأسقفين ، بطـرس وجون يدركان بحـق كرامة مركز كنيسـة قرطاجـة ، ولا يوافقـان علـى خـطأ كنيسـة جوميتـــان Gumnitana ، لكن لا أريد أن يغيب هذا الأمر عنكم لأنه لا يجب أن تحتفلوا بالمجمع العام أو الاساءة للأساقفة أو خلعهم بدون رأى البابا الرومانى وموافقته . لأنك حتى لو كان مسموحا لكـم باختيار وتقييم بعض الأساقفة ، الا أنه ليس مسموحا لكم قط باتخاذ الحكم النهائى بدون مشورة البابا الرومانى ، كما ذكرنا .

ويمكنكم أن تجدوا ما هو مقرر فى الآيات المقدسة اذا بحثتم

فى هذا الأمر • ذلك أنه بالرغم من أب الرب يقول لجميع الرسل عامة :

« ان أى شىء تبرمونه فى الأرض ، سـيكون قد أبرم فى السماء ، وأى شىء تحاون عقـدته فى الأرض سيكون قد حل فى السماء »[1] •

ومع هذا فقد خاطب القديس بطرس ، سيد الرسل ، خاصة بقوله :

« أما أنت يابطرس ، فوق كل ذلك ، فلسوف أشيد كنيستى لك ، وسوف أعطيك مفاتيح مملكة السموات »[2] •

وفى موضع آخر :

« أكد ذلك لاخوانك »[3] •

زد على ذلك أن القضايا الأكبر والأعقد بالنسبة لكل الكنائس يجب حسمها من خلال كرسى البابوية الرئيسى وخلفائه • ولقد قررنا بالفعل أن نرد على تساؤلات أخوينا بطرس وجون ، واننا لتمنى أن ترتبط أخوتك المقدسة باستخدامات الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وأن تصلى من أجلنا ، وليمتعك الرب الثلاثى الواحد ياأخانا العزيز •

(تم فى يوم ١٦ يناير ، العام الخامس للبابا ليون ، بند ٧)

---

(١) انجيل متى : ١٨ •
(٢) انجيل متى : ١٦ •
(٣) انجيل لوقا : ٢٢ •

V.

1076, au mois de juin. De Rome.

Grégoire VII, regrettant que l'Afrique, où florissaient autrefois un si grand nombre d'évêchés, n'ait pas aujourd'hui trois évêques pour consacrer un nouveau prélat, charge Cyriaque, archevêque de Carthage, de lui envoyer à Rome un sujet régulièrement élu, auquel il imposera les mains.

Labbe, *Concil.*, t. X, col. 145; Epist., lib. III, ep. 19; Migne, *Patrol. lat.*, t. CXLVIII, p. 449.

Gregorius, episcopus, servus servorum Dei, dilecto in Christo fratri Cyriaco, Carthaginensi archiepiscopo, salutem et apostolicam benedictionem.

Pervenit ad aures nostras quod Africa, quæ pars mundi esse dicitur, quæque etiam antiquitus, vigente ibi Christianitate, maximo episcoporum numero regebatur, ad tantum periculum devenerit, ut in ordinando episcopo tres non habeat episcopos. Qua in re maximum Christianæ religionis periculum considerantes, et in maximo agro paucis operariis desudantibus, corde tenus compatientes, consuluimus vobis, videlicet tibi et illi cui nuper manum imposuimus, ut aliquam personam secundum constitutionem sanctorum patrum eligatis, nobisque eam literis vestris fultam mittatis, quatenus ipso, Deo cooperante, a nobis ordinato vobisque remisso, necessitati ecclesiarum, ut sancti canones præcipiunt, episcoporum ordinationibus succurrere valeatis, et ut Christiana gens quotidie gaudeat atque proficiat pastorali regimine, et labor, qui supra vires vos opprimit, levior sit, ex sociorum necessaria administratione.

Data Romæ, mense Junii, indictione XIVa.

وثيقة رقم (٥)*

رسالة من البابا جريجورى السابع الى كيرياك أسقف قرطاجة يبدى فيها البابا أسفه على افريقية التى كانت تزخر قديما بالاسقفيات ولم يعد بها الآن سوى ثلاثة أساقفة .

النص :

الأسقف جريجورى ، عبد عبيد الله ، يرسل التحية والسلام الى أخيه الحبيب فى المسيح ، كيرياك Cyriacus ، رئيس أساقفة قرطاجة .

لقد تناهى الى مسامعنا أن افريقيا ، التى يقال أنها جزء من العالم والتى منذ أن أشعت فيها المسيحية ، كان يديرها عدد هائل من الأساقفة قد تعرضت لخطر عظيم ، فلم يعد لها سوى ثلاثة أساقفة . وهذا الأمر يعد خطرا عظيما على دين المسيحية ، اننا نتألم ألما شديدا لأن هذا الحقل العظيم لا يعمل فيه الا القليل من العاملين ، ولقد استبان لكم ، بالذات لك أنت ، ولذلك الذى وضعنا اليد عليه ، أن أى شخص تختارونه كنظام «كهيئة» ثانية للآباء المقدسين ، وترسلون لنا ذلك القرار فى خطاب خاص ، والرب يعينكم ، وبعد اقراره من جانبنا ، واعادة ارساله من جانبكم ، يمكنكم أن تقدموا العون لتنظيمات الأساقفة ، بما يمس حاجة الكنائس الرئيسية ، كما توصى بذلك الآيات القدسية ، وليسعد شعب المسيح كل يوم ، وليخضع لراعى الملكوت ، ويخف الجهد الذى يعد فوق طاقتكم بناء على اشراف ومعاونة الحلفاء .

(تم فى روما ، شهر يونيو ، بند ٢٤)

Mas Latrie : Op. Cit. P.P. 6-7.

VII.

[1076.]

Grégoire VII annonce à Anzir ou En-Nacer, prince hammadite, roi de la Mauritanie sitifienne, que sur sa demande il a consacré évêque le prêtre Servand; il le remercie de ses bonnes dispositions à l'égard des Chrétiens de ses États, et lui fait savoir que deux nobles Romains, Albéric et Cencius, heureux de ce qu'ils ont appris de sa bienveillance, lui envoient des messagers pour l'assurer de leur désir de lui être en tout agréables.

Labbe, *Concil.*, t. X, col. 146; Epist., lib. III, ep. 21; Migne, *Patrol. lat.*, t. CXLVIII, p. 450.

Gregorius, episcopus, servus servorum Dei, Anzir, regi Mauritaniæ Sitiphensis provinciæ [1], in Africa, salutem et apostolicam benedictionem.

Nobilitas tua hoc in anno litteras suas nobis misit quatenus Servandum presbyterum

episcopum secundum Christianam constitutionem ordinaremus; quod quia petitio tua justa et optima videbatur, facere studuimus; missis etiam ad nos muneribus, Christianos qui apud vos captivi tenebantur, reverentia beati Petri principis apostolorum et amore nostro, dimisisti, alios quoque captivos te dimissurum promisisti. Hanc denique bonitatem, creator omnium Deus, sine quo nihil boni facere, imo nec cogitare possumus, cordi tuo inspiravit ipse qui illuminat omnem hominem venientem in hunc mundum, in hac intentione mentem tuam illuminavit. Nam omnipotens Deus, qui omnes homines vult salvos facere et neminem perire, nihil est quod in nobis magis approbet, quam ut homo post dilectionem suam hominem diligat, et quod sibi non vult fieri alii non faciat. Hanc itaque caritatem nos et vos specialibus nobis quam ceteris gentibus debemus, qui unum Deum, licet diverso modo, credimus et confitemur, qui eum creatorem sæculorum et gubernatorem hujus mundi quotidie laudamus et veneramur. Nam sicut apostolus dicit : « Ipse est pax nostra qui fecit utraque unum. » Sed hanc tibi gratiam a Deo concessam plures nobilium Romanorum per nos cognoscentes, bonitatem et virtutes tuas omnino admirantur et prædicant. Inter quos duo familiares nostri Albericus et Cincius, et ab ipsa pene adolescentia in Romano palatio nobiscum enutriti, multum desiderantes in amicitiam et amorem tuum devenire, et de his quæ in partibus nostris placuerit tibi libenter servire, mittunt ad te homines suos, ut per eos intelligas quantum te prudentem et nobilem habeant, et quantum tibi libenter servire velint et valeant. Quos magnificentiæ tuæ commendantes, rogamus ut eam caritatem, quam tibi tuisque omnibus semper impendere desideramus, eis pro amore nostro et recompensatione fidelitatis predictorum virorum impendere studeas. Scit enim Deus quia pure ad honorem Dei te diligimus et salutem et honorem tuum in præsenti et in futura vita desideramus. Atque ut ipse Deus in sinum beatitudinis sanctissimi patriarchæ Abrahæ post longa hujus vitæ spatia te perducat corde et ore rogamus.



وثيقة رقم (٧)

(١٠٧٦م)

رسالة من جريجورى السابع الى الناصر أمير دولة بنى حماد يخبره فيها بموافقته على تعيين الاسقف سيرفان ، ويشكره على الرعاية الطيبة التى يلقاها المسيحيون فى بلاده .

النص :

الأسقف جريجورى ، عبد عبيد الله ، يرسل التحية والسلام للناصر[1] Aazir ، ملك ولاية Mouritania Sitiphensio (موريتانيا) .

لقد أرسلت نبالتكم لنا فى هذا العام خطابات بشأن أن نقوم بتعيين الأب سيرفاند Serandus أسقفا ثانيا للمؤسسة المسيحية، وكان طلبك هذا يبدو عادلا وطيبا جدا ، فدرسنا تنفيذ هذا الأمر ، وكذلك بعد ارسال الهدايا الينا ، وانك قد أطلقت سراح النصارى الذين كانوا أسرى لديك ، بورعنا وحبنا للقديس بطرس سيد الرسل . بعد ذلك أيضا اننا لا نستطيع أبدا أن نقدر هذه الخيرية التى أضاء بها قلبك الرب الخالق لكل شىء ، والذى بدونه لا يمكننا أن نفعل شيئا طيبا ، وهو الذى أضاء قلب كل انسان يأتى الى هذا العالم ، كما أضاء قلبك بهذا الهدف . ذلك أن الله القادر على كل شىء ، الذى يريد أن يجعل جميع البشر آمنين أصحاء ،

---

(١) هو الناصر بن علناس (أو علاء الناس) أمير دولة بنى حماد (٤٥٤ — ٤٨١هـ/١٠٦٢ — ١٠٨٩م) .
Mas Latrie : Op. Cit P.P. 7-8.

ولا يهلك أحدا ، فلا شيء يبدو أكبر فيما بيننا ، من أن يحب المرء أخاه بعد الاختيار ، ولا يتمنى شيئا طيبا لنفسه لا يتمناه أن يكون للآخرين •

هكذا فنحن وأنتم ، الذين نؤمن ونقر بالاله الواحد ، يجب أن نقبل هذا الاعزاز لنا خاصة دون بقية الشعوب — نؤمن بالله الواحد — الذى لأننا نمتدحه ونبجله كخالق للأجيال والحكومات فى هذا العالم كل يوم • ذلك أنه كما يقول الرسول :

« انه هو نفسه سلامنا الذى صنعه لنا الرب » •

لكن نحن نشكرك ونقر لك بالفضل ، وأكثر نبــلاء الرومان الذين يعرفون ذلك منا ، معجبون بطيبتك وفضائلك كلها ويوصون بها • ومن بينهم اثنان من أقاربنا ألبير Albericus ، وكينكيــوس Cincuis وهم اللذان ترعرعا منذ صباهما فى البــلاط الرومانى يتوقان بشدة لنيل صــداقتك ومحبتك ، وبشأن هذه الأشياء فى ربوعنا مما يروق لك أن تخضع لها تطوعا ، يرسلان رجالهما اليك، لكى تعلم منهم مقدار ما يعتبرانك حكيما ونبيلا ، ومقدار ما يريدان أن يخدماك طواعية • ولك أن تدرس تقديرهما لفخامتك ، ونطلب منك أن تهتم بتقديم رعايتك التى نود أن تتعلق بك وبجميع من طرفك دائما ، من أجل حبنا ، وتقدير اخلاص الرجال المشاهير •

ذلك أن الله يعلم أننا نحبك بنقاء اجلالا لله ونتمنى لك الأمان والشرف فى حياتك الحاضرة والمستقبلة • ونصلى بقلوبنا وأفواهنا أن يمد الرب فى عمرك كما أطال عمر البطريرك القديس العظيم ابراهام •

المصـــادر والمراجـــع

أ — المصادر العربية :

١ — الآبى :

— كتاب الأكمال ، سبعة أجزاء ، القاهرة ١٣٢٧ — ١٣٢٨هـ .

٢ — ابن الأثير : أبو الحسن على بن محمد الجـــزرى (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) .

— الكامل فى التاريخ ، طبعة دار صادر ، بيروت .

٣ — البكرى : أبو عبيـــد الله بن عبد العـــزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) .

— المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشـــر البـــارون دى سلان ، الجزائر ١٩١١ .

٤ — البيذق : أبو بكر بن على الصنهاجى (ت ق ٦هـ/١٢م) .

— أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيق وتعليـــق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ١٩٧٥ .

٥ — التجـــانى : أبو محمد عبد الله بن محمـــد (ت حوالى ٧١٧هـ/ ١٣١٧م) .

— رحلة التجانى ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ .

٦ — تميم : أبو العرب :

— طبقات علماء افريقية ، تحقيق محمـــد بن أبى شنب ، الجزائر ١٩١٤ .

٧ ــ الجزنائى : أبو الحسن على :

ــ زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشر ألفرد بل ، الجزائر ١٩٢٢م .

٨ ــ الحميرى : عبد المنعم السبتى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى/ ١٥م) .

ــ الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥م .

٩ ــ ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) .

١ ــ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، القسم الخاص بتاريخ الأندلس ، نشره ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦أ ، والقسم الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشره الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤م .

٢ ــ الاحاطة فى أخبار غرناطة ، الجزء الأول نشر محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣م .

١٠ ــ ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) .

ــ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤هـ .

١١ ــ خليفة بن خياط :

ــ تاريخ خليفة بن خياط ، نشر أكرم العمرى ، بغداد ١٩٦٨م .

١٢ ـــ الدباغ : عبد الرحمن الانصارى :

ـــ معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، تونس ١٩٠١م •

١٣ ـــ ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى :

ـــ المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس ، تونس ١٢٨٦هـ •

١٤ ـــ الرقيق القيروانى : (من رجال القرن الخامس الهجرى/١١م) :

ـــ تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٧ •

١٥ ـــ ابن أبى زرع : أبو العباس أحمد : (كان حيا ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) :

ـــ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر Carolus Johannes Tornberg أوبسالا ١٨٤٣م •

١٦ ـــ أبو زكريا : يحيى بن أبى بكر (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م) •

ـــ كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق اسماعيل العربى ، الجزائر ١٩٧٩م •

١٧ ـــ السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) •

ـــ الاستقصا لأخبار دول المغـــرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ •

١٨ ـــ ابن صالح : عبيد الله :

ـــ نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره ليفى بروفنسال وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٤ •

١٩ ــ ابن الصغير : من رجال القرن الثالث الهجرى/٩ م :
ــ أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق وتعليق الدكتور محمد ناصر وابراهيم بحاز ، منشورات دار الغرب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٦ •

٢٠ ــ ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) •
ــ كتاب فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ١٩٢٠م •

٢١ ــ ابن عذارى المراكشى : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢هـ/١٣١٢م) •
ــ البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب :
١ ــ الأجزاء : الأول والثانى والثالث تحقيق ومراجعة ج• س• كولان وليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٨٠م •
٢ ــ الجزء الرابع : تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٨٠م •
٣ ــ القسم الخاص بعصر الموحدين تحقيق محمد ابراهيم الكتانى وآخرون ، الدار البيضاء ١٩٨٥م •

٢٢ ــ عبد الله بن بلكين (الأمير) :
ــ مذكرات الأمير عبد الله المسماه بكتاب التبيان ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥م •

٢٣ ــ عياض ، القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتى (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) •
ــ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ثمانية أجزاء ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى وآخرون ، المحمدية ١٩٨٣م •

٢٤ ــ ابن القطان : أبو الحسن على بن محمد الكتـامى (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) •
ــ نظم الجماعة فى أخبار الزمان ، نشر وتحقيـق الدكتور محمود على مكى ، الرباط ١٩٦٤ •

٢٥ ــ ابن القفطى :
ــ أخبار العلماء بأخبار الحكماء •

٢٦ ــ ابن القنفذ القسنطينى : أبو العباس أحمد بن حسين بن على ابن الخطيب (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م) •
ــ الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ، تونس ١٩٦٨ •

٢٧ - ليون الأفريقى : الحسن بن محمد الوزان الزياتى (ت ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م) •
ــ وصف افريقيا ، ترجمه عن الفرنسية الدكتور عبد الرحمن حميدة ، منشورات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض ، ١٣٩٩هـ •

٢٨ ــ المالكى : أبو بكـر عبد الله بن أبى عبد الله (القرن الخامس الهجرى/١١م) •
ــ رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ •

٢٩ ــ المراكشى : عبد الواحد (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) :
ــ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ •

٣٠ ــ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :
ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٦م .

٣١ ــ مؤلف مغربى مجهول (من القرن السادس الهجرى/١٢م) :
ــ كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، جامعة الاسكندرية ١٩٥٨م .

٣٢ ــ مؤلف أندلسى مجهول : (من أهل القرن الثامن الهجرى/١٤م):
ــ كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق الدكتور سهيل زكار والاستاذ عبد القادر زمامه ، الدار البيضاء ١٩٧٩م .

٣٣ ــ مؤلف مجهول :
ــ ذكر مشاهير أعيان فاس ، تحقيق عبد القادر زمامه ، مجلة البحث العلمى ، الرباط ، العدد ٣ .

٣٤ ــ الونشريسى :
ــ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب ، فاس (طبعة حجرية) ١٣١٤ ــ ١٣١٥هـ .

٣٥ ــ اليعقوبى : أبو العباس أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) :
ــ كتاب البلدان ، طبعة دار صادر ، بيروت ، جزآن .

ب — المراجع العربية والمعربة :

١ — أمارى (ميشيل) :

— المكتبة الصقلية ، ليبسك ، ١٨٧٥م .

٢ — أحمد (عزيز) :

— تاريخ صقلية الاسلامية ، طرابلس الغرب ، ١٩٨٠م .

٣ — البارودى (دكتور رضوان محمد رضوان) :

— جبل الأوراس منذ الفتح العربى حتى الغزوة الهلالية . الاسكندرية ١٩٨٥م .

٤ — برنشفيك (روبرت) :

— تاريخ افريقية فى العهد الحفصى ، ترجمة وتعليق حمادى الساحلى ، منشورات دار الغرب الاسلامى، بيروت ١٩٨٨م.

٥ — بينز (نورمان) :

— الأفكار السياسية للقديس أوغسطين عن مدينة الله ، ترجمة وتعليق الدكتور اسامة زكى زيد ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد ٢٩ عام ١٩٨١م .

٦ — جوليان (شارل أندريه) :

— تاريخ افريقية الشمالية ، ترجمة محمد مزالى والبشير ابن سلامة ، تونس ١٩٧٨م .

٧ — حسين (دكتور حمدى عبد المنعم) :

— تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين ، الاسكندرية ١٩٨٦م .

٨ ـ سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) :

ـ المغرب الكبير ، العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٦م.

ـ فى تاريخ وحضارة الأندلس ، الاسكندرية ١٩٨٥م .

٩ ـ الشيخ (الدكتور محمد محمد مرسى) :

ـ تاريخ أروبا فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٩٠م.

١٠ ـ عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) :

ـ أروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨١م .

ـ الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٧٥م .

١١ ـ العبادى (الدكتور أحمد مختار) :

ـ تاريخ البحرية الاسلامية بالاشتراك مع الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ١٩٧٢م .

ـ دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨م .

١٢ ـ عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) :

ـ تاريخ المغرب العربى ، الاسكندرية ١٩٧٩ .

١٣ ـ عبد الوهاب (الاستاذ حسن حسنى) :

ـ ورقات عن الحضارة العربية بافريقية ، تونس ١٩٦٥م .

١٤ ـ العدوى (الدكتور ابراهيم أحمد) :

ـ المجتمع المغربى : مقوماته الاسلامية والعربية ، القاهرة ١٩٧٠م .

١٥ ـ الطالبى (الدكتور محمد) .

ـ تراجم أغلبية مستخرجة من كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض ، تونس ١٩٦٨م .

١٦ — الكنانى (الدكتور مصطفى حسن) :

— حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ، الاسكندرية ١٩٨٥م •

١٧ — المطوى (الاستاذ محمد العروسى) :

— السلطة الحفصية ، منشورات دار الغرب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٦م •

١٨ — مكى (الدكتور محمود على) :

— وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد السابع ، العددان ١ ، ٢ عام ١٩٥٩م •

١٩ — مؤنس (الدكتور حسين) :

— فجر الاندلس ، الطبعة الثانية ، جده ١٩٨٥م •
— نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٥م •

٢٠ — موسى (الدكتور عز الدين) :

— النشاط الاقتصادى فى بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجرى ، القاهرة ١٩٨٣م •

٢١ — موسى (الدكتور لقبال) :

— الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب ، الجزائر ١٩٧١م •

٢٢ ـ هوبكنز (ج٠ ف٠ ب) :
ـ النظم الاسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ، ترجمة محمد أمين الطيبى ، ليبيا ١٩٧٧م ٠

ج ـ المراجع الأجنبية :

1 — Ateya (Aziz Sorial) :

— The crusade in the Later Middle Ages, London 1938.

2 - Bleye (Aguado) :

— Manual de historia de Espana, 2 Tomos, Madrid, 1947

3 — Cenival (Pierre de) :

— L'Eglise Chrétienne de Marrakeck au XIIIe Siècle, Revue Hespéris, Tome VII Année 1927, 1er Trimestre,

4 — Dozy (R.) :

— Recherches Sur L'histoire et la Litterature de l'Espagne, Amsterdam, 1965.

— Supplément aux Dictionnaires Arabes, Beyrouth, 1968.

5 — Dufourcq (Charles-Emmanuel) :

— L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe Siècles, Paris, 1966.

8 — Marçais (Georges) :

— La Berbérie Musulmane et L'Orient au Moyen Age, Paris 1946.

— Les Villes de la Cote algerienne et la Piraterie au Moyen Age, daus A. I.E.O. (Annale de Institut d'Etudes Orientales, Alger, t. 13, 1955.

9 — Mas (Latrie) :

— Traités et Documents divers, Concernant les relations des Chrétiens et des Arabes au Moyen Age, Pares, 1889.

11 — Provençal (Levi) :

— Documente inedits d'histoire Almohade, Paris 1928.

6 — Einhard and Notker :

— The stammerer two life of Charlemagne, frans. With an Introudction by : Lewis Thorpe, London, 1974.

7 — Gautier (E.F.) :

— Le Passé L'Afrique du Nord : Le Siécles obscurs du Maghreb, Paris, Payot, 1927.

10 — Speight (R. Marston) :

— The Place of the christians in ninth Century in north Africa according to Muslim Sources. Revue : Islamo-Christiana, Roma, 1978.

المبحث الرابع

التاريخ السياسي لمدينة سبتة
منذ القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن
السابع الهجري (١٠ — ١٣ م)

التاريخ السياسى لمدينة سبتة
منذ القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري
(١٠ ـ ١٣م)

مقدمة تاريخية عن مدينة سبتة منذ الفتح الاسـلامى حتى بداية القرن الرابع الهجرى :

تحتل مدينة سبتة[١] Ceuta (بفتح السين وسكون الباء) مكانة

---

(١) هناك عدة تفسيرات لاسم مدينة سـبتة ، فهناك من يذكر ان الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيبتاس أو سيفتاس وانها كانت عاصمة لولاية موريتانيا الطنجية . Mauretania Tingana

(راجع الحسن الوزان المعروف بليون الافريقى : وصف افريقيا ، ترجمه من الفرنسية د. عبد الرحمن حميدة . منشورات جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية . الرياض ١٣٩٩هـ ، ص٣١٨) . ولكن ليون الافريقى لم يذكر السبب فى اطلاق هذا الاسم عليها . ومن المرجح ان يكون هـذا الاسم (سيبتاس) مشتق من الكلمة اللاتينية « سـيتوم او سـبتوم » Septum بمعنى « سبعة » ، لأن سبتة ـ كما يذكر الادريسى ـ عبـارة عن سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة (راجع : الشريف الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ جـ٢ ص٥٢٨) . ولكن

مهمة فى تاريخ المغرب والأندلس فى العصر الوسيط ، وذلك لما تتسم به ن موقع استراتيجى ، إذ تقع فى أقصى شمال المغرب الأقصى ، كما أنها تطل على منطقة جبل طارق وتتحكم فى الناحية الجنوبية لهذا المضيق، وفضلا عن ذلك ، فانها تتمتع بحصانة طبيعية جعلتها من أمنع مدن المغرب ، « وهى مدينة حصينة لأنها ضاربة فى البحر داخلة كدخول كف على زند »[2] ، وتطل سبتة على البحر المتوسط الذى يحيط بها شرقا وجنوبا وشمالا ، وليس لها طريق للبر الا من الناحية الغربية[3]، كما يحيط بها من الشرق جبل كبير يسمى جبل الميناء .

ومن هنا نرى أن المدينة محصنة تحصينا طبيعيا ضد من يروم الاستيلاء عليها . وقد أشاد أحد القادة المغاربة وهو القائد موسى بن أبى العافية بحصانة هذه المدينة فى رسالة بعث بها للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر فقال « ان سبتة قد كفيت مؤته من يقصدها فلا

الادريسى — ومعه البكرى — يعطينا تفسيرا آخر لمعنى هذا الاسم (سبتة) فيقول لن مدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة متقطعة والبحر يطيف بها من جميع جهاتها الا من ناحية الغرب ، والبحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ولا يبقى بينهما الا اقل من رمية سهم . (راجع : الادريسى : المصدر السابق ونفس الصفحة ، ابو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر البارون دى سلان الجزائر ١٩١١ ص١٠٣) ويفهم من نص الادريسى ان اسم المدينة مشتق من الفعل سبت بمعنى « قطع » فيقال سبت الشئ اى قطعه ، وذلك على اعتبار ان مدينة سبتة جزيرة منقطعة فى البحر . اما ابن سعيد فيذكر انها سميت سبتة نسبة الى سبت بن تافث ابن نوح (راجع المقرى : نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب نشر د. احسان عباس . بيروت ١٩٦٨ ج١ ص١٢٥) والراجح انها سميت كذلك كما ذكر ليون الامريقى اشتقاقا من الكلمة اللاتينية سبتايس .

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان . طبع بيروت : مادة سبتة ج٣ ص١٨٢ .

(٣) الادريسى : نزهة المشتاق : ج٢ ص٥٢٨ — مؤلف مغربى مجهول : الاستبصار فى عجائب الامصار . تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد . الاسكندرية ١٩٥٨ ص١٣٧ .

يصل اليها عدو ، لأن البحر أحاط بها ، والوعر حولها قد تكتفها ، فالأموال تنفق عليها لغير فائدة » (٤) . وقد أطلق على سبتة فى المصادر التاريخية اسم « فرضة المجاز من بلاد العدوة » (٥) ، وتقل المدونين ، ولعل ذلك راجع الى أن المسافة التى تفصلها عن الشاطىء الأندلسى بسيطة جدا ، وهذا ما يؤكده الجغرافى الأندلسى العذرى اذ يقول : « والمسافة بين جبل طارق ومدينة سبتة قريبة جدا يرى الناس سورها ودورها ، ويرون بياض ثياب القصارين بها ، وتتحرك السفن من مرسى الجزيرة الخضراء عند بزوغ الشمس فلا تتفع قدر رمحين الا وقد رسيت بمدينة سبتة » (٦) .

ويمكن القول أن قرب مدينة سبتة من الشاطىء الأندلسى قد جعل تاريخها فى مختلف العصور يرتبط بتاريخ بلاد الأندلس وخاصة فى العصر الاسلامى ، حيث كانت سبتة معبرا لانتشار الحضارة الأندلسية الى بلاد المغرب ، ولذلك امتازت سبتة بطابع أندلسى فى مظهرها وثقافتها بل وأحيانا فى وضعها السياسى .

واذا حاولنا أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ سبتة منذ خضوعها للمسلمين حتى بداية القرن الرابع الهجرى (١٠م) نقول أن المسلمين قد حاولوا فتح سبتة أثناء حملة عقبة بن نافع الفهرى الكبرى على بلاد المغرب خلال ولايته الثانية على المغرب (٦٢ — ٦٤ هـ / ٦٨٢ — ٦٨٤م) ولكنهم لم يتمكنوا ن ذلك نظرا لحصانة المدينة ومناعتها . ولم يعاود المسلمون مهاجمتها الا فى أيام ولاية موسى بن نصير للمغرب

(٤) ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس . الجزء الخامس نشر بدرو شالميتا وآخرون ، نشر المعهد الاسبانى العربى للثقافة — مدريد ١٩٧٩ ص ٣٧٢ .

(٥) ابن حيان : نفس المصدر ص٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٦) العذرى : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى الممالك ، نشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى . صحيفة معهد الدراسات الاسلامية . مدريد ١٩٦٥ .

(٨٦ — ٩٦هـ / ٧٠٥ — ٧١٤ م) • وكان موسى بن نصير قد تمكن من اخضاع المغرب الأوسط لحكم المسلمين ، وعمل على استكمال الفتوحات الاسلامية فى ولاية طنجة التى تشمل مدن مضيق جبل طارق على العدوة المغربية (سبتة وطنجة) بالاضافة الى بلاد السوس الأدنى التى تقع خلف مدينة طنجة • وقد تمكن موسى من اخضاع السوس الأدنى ومدينة طنجة حيث أقام بها حامية عسكرية مع ولده مروان ثم استبدله بقائده طارق بن زياد ، ولم يبق خارجا عن سلطان المسلمين فى هذه المنطقة سوى مدينة سبتة التى كان يحكمها القائد بوليان[٧] • وقد ساعد تالظروف المسلمين فى ضم مدينة سبتة الى دائرة نفوذهم والانطلاق منها لغزو بلاد الأندلس[٨] • وقد أصبحت سبتة احدى

---

(٧) اختلفت الآراء حول شخصية هذا القائد الذى تذكر المصادر انه كان السبب وراء دخول العرب اسبانيا ، فالبعض يذكر انه من القوط الغربيين ، فى حين يرى البعض الآخر انه رومى أى بيزنطى . وهناك من يقول انه بربرى من قبيلة غمارة ، وفريق رابع يذهب الى انه فارسى ، ونظرا لشدة الاختلاف حول اصل هذا القائد انكر فريق من الباحثين وجود هذه الشخصية وذكر انها من صنع خيال العرب . ولكن يبدو أن يوليان هذا كان واليا بيزنطيا على اقليم موريتانيا الطنجية التى كانت تشكل جزءا من ولاية طنجة البيزنطية . راجع : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق ابراهيم الابيارى : القاهرة ١٩٨٢ ص٣٣ — ٣٤ ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ج. س. كولان وليفى بروفنسال . بيروت ١٩٨٠ ج٢ ص٥٥ ، ابن خلدون : العبر (طبعة بولاق ١٢٨٤هـ) ج٤ ص١٨٥ . ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ١٩٦٦ : ترجمة ٢٧٠ ص٨٦ . انظر كذلك : حسين مؤنس : فجر الأندلس : القاهرة ١٩٥٩ ص٥٣ ، احمد الطوخى : ابناء غيطشة ويليان فى الأندلس. الاسكندرية ١٩٨٩ ص٣٣ — ٣٥ .

(٨) عن الظروف التى ادت الى انضمام يوليان الى المسلمين وغزو بلاد الأندلس راجع : مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الأندلس . نشر اميليو لافونتى اليكانترا . مدريد ١٨٦٧م ص٥ — ٧ ، ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص٢٩ — ٣٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ — ٨ . كذلك انظر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . الاسكندرية . بدون تاريخ ص٦٦ — ٨١ .

المدن التابعة لولاية المغرب ويتولى حكمها عامل أموى يتبع والى المغرب المقيم بالقيروان • ولكن سبتة لم تلبث أن وقعت تحت سيطرة ميسرة المطغرى زعيم الخوارج الصفرية بطنجة وذلك فى نهاية عصر الدولة الأموية • وقد ثار ميسرة ضد السيادة الأموية وذلك عام ١٢٢هـ/ ٧٤٠م ، وقد شاركته قبيلة غمارة البربرية فى الاستيلاء على سبتة ، وفى نفس الوقت وفدت على سبتة جالية أندلسية كبيرة من أهل قلساتة[٩] هاجروا اليها أيام الجدب الذى حل ببلاد الأندلس واستمر من عام ١٣١ /٧٤٨هـ حتى ١٣٦/٧٥٣م[١٠] • وقد خضعت سبتة فى أعقاب انتهاء ثورة ميسرة المطغرى لسيطرة قبيلة غمارة وزعيمها ما حكس (أو ما جكن) ، فقد ذكرت المصادر أن ماحكس كان مشركا وأنه دخل سبتة بعد خرابها على يد بربر طنجة ، وقد أسلم ماحكس بعد أن دخل سبتة وأخذ فى تعميرها هو وجال قبيلته وأنه بقى بها دهرا ، وعلى الرغم من أن المصادر التى بين أيدينا لم تحدد تاريخا لذلك ، الا أننا نرجح أن ذلك حدث فى منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبا • ومن المحتمل أيضا أن يكون ماحكس هو الذى بايع الأدارسة واعترف بسلطانهم ، فقد ذكر ابن أبى زرع أن قبيلة غمارة كانت من القبائل المغربية التى بايعت الامام ادريس الثانى امام الأدرسة فى فلس عام ١٨١هـ / ٨٠٤م • كما كانت سبتة من المدن التى ولاها الامام محمد بن ادريس الثانى لأخيه القاسم باشارة من جدته كنزة عقب وفاة

---

(٩) تلشانة او (قلسانه) Calsena : احدى مدن كورة شذونة جنوب غرب اسبانيا وهى مدينة سهلية تقع على وادى لكه . ويذكر الحميرى انه يعمل بها ثياب تعرف بالقلشانية مخترعة الصنعة قريبة العمل . راجع : عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الاقطار . تحقيق د. احسان عباس . بيروت ١٩٧٥ ص٤٦٦ .

(١٠) البكرى : المغرب ص١٠٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ .

والده الامام ادريس الثانى عام ٢١٣هـ / ٨٢٨م[١١] • وقد ظل ماحكس حاكما على سبتة فترة طويلة — برغم تبعيه بلاده للادارسة — فلما توفى خلفه ابنه عصام الذى تنسب اليه دولة بنى عصام بسبتة ، وعقب وفاة عصام تولى ابنه مجبر أمر المدينة ، ولم يزل واليا عليها حتى مات فوليها أخوه الراضى الذى أشادت المصادر بحكمته وعدله ، وهـذا ما ألمح اليه ابن عـذارى بقـوله أنه كان يحـكم المدينة برأى فقهاء الأندلس[١٢] • ولم يزل الراضى حاكما على سبتة حتى استولى عليها أمويو الأندلس عام ٣١٩هـ/٩٣١م[١٣] • والواقع أن تاريخ سبتة خلال القرن الثالث الهجرى يكتنفه من الغموض ، لأن المصادر لا تمدنا بأية تفصيلات عن دولة بنى عصام باستثناء القول بأنهم من غمارة وأنهم حكموا سبتة خلال هذه الفترة ، وأنهم كانوا يدينون بنوع من التبعية للادارسة ملوك فاس •

سبتة كمنطقة صراع بين الأمويين والفاطميين :

تمكن الفاطميون فى نهاية القرن الثالث الهجرى (٩م) من اقامة امامه أو خلافة لهم فى منطقة المغرب الأدنى (افريقية) عقب القضاء على دولة الأغالبة ، كما سيطروا على أجزاء واسعة من المغربين الأوسط والأقصى عقب تغلبهم على دولتى الخوارج ببلاد المغرب : الرستميين فى تاهرت وبنى مدرار فى سلجماسة ، ثم تطلع الفاطميون الى بلاد الأندلس بغية الاستيلاء عليها ، وقد ارتأى الفاطميون أن ضـم بـلاد

---

(١١) تولى القاسم حكم سبتة وطنجة وتطوان • انظر • ابن أبى زرع : الأنيس المطـرب بروض القرطاس ، نشر تورنبرج • أوبسـالا ١٨٤٣ • ص٢٨ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبـر : طبعة بولاق ١٨٢٤هـ • جـ٤ ص١٤ •

(١٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٠٣ •

(١٣) ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص٢١١ •

الأندلس الى دائرة نفوذهم من شانه أن يجعل المغرب الاسلامي كله خاضعا لهم ، وبذا ينقسم العالم الاسلامي الى قسمين : قسم شرقي تابع للخلافة العباسية السنية ، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية الشيعية[١٤] . ولقد مهد الفاطميون لمشروعهم الخاص بغزو بلاد الأندلس بارسال عدد من الجواسيس لبيان حالها ، ولعل أشهر من أرسلهم الفاطميون الرحالة للجغرافى ابن حوقل النصيبى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) وأبا اليسر الرياضى وابن هارون البغدادى[١٥] . غير أن هذه التحركات الفاطمية لم تكن خافية على أمويى الأندلس ، ولذلك بادر الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ — ٣٥٠هـ / ٩١٢ — ٩٦١م) باتخاذ عدد من الاجراءات لدفع الخطر الفاطمى عن بلاده ، ومن هذه الاجراءات العمل على تحصين السواحل والثغور الأندلسية الجنوبية خاصة المطلة على مضيق جبل طارق ، كما عمل على احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق ، وكانت مدينة سبتة من أهم الثغور ، وقد فطن كل من ابن خلدون والمقرى الى الغرض الذى كان الناصر الأموى يرمى اليه من وراء احتلال مدن العدوة المغربية ، ويتمثل فى مواجهة خطر الشيعة الفاطميين ، فابن خلدون يقول : « ثم سما الناصر عبد الرحمن الى ملك العدوة ومدافعة الشيعة »[١٦] . أما المقرى فيقول « ... وكانت سبتة مطمح هم ملوك العدوتين وكان للناصر المروانى صاحب الأندلس عناية واهتمام بدخولها فى ايالته ؛ حتى حصل له ذلك ، ومنها ملك

---

(١٤) راجع : أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى. بيروت ١٩٧١ ص٢٣٥ ، كذلك انظر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . الاسكندرية ص٢٨٦ — ٢٨٧ .

(١٥) حول المحاولات الفاطمية لنشر مذهبهم الشيعى فى بلاد الاندلس، راجع مقال الدكتور محمود علي مكي الذى نشره بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد . المجلد الثانى عام ١٩٥٤ تحت عنوان « التشيع فى الأندلس » ص١١٢ — ١١٥ .

(١٦) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢١٧ .

المغرب ... وبها اشتد سلطانه وملك البحر بعدويته وصار المجاز فى يده »[17] .

وعلى الرغم من أن المصادر تجمع على أن الناصر لدين الله قد استولى على سبتة عام ٣١٩هـ ، الا أنها تختلف فى تحديد الكيفية الذى استولى بها على المدينة ، فابن حيان يذكر أن أهل سبتة أرسلوا وفدا منهم برئاسة القاضى حسين بن فتح الى الأندلس لمقابلة الخليفة الناصر حيث أعلن هذا الوفد دخول سبتة فى طاعة الأمويين نكاية بالأدارسة أصحاب البلاد الحقيقيين ، وقد أكرم الناصر أهل سبتة « ورفع منازلهم وقضى حوائجهم وأقر قاضيهم حسين بن فتح على القضاء فيهم »[18] . ثم أرسل الناصر أسطوله الى سبتة حيث استولى عليها وعين أمية بن اسحاق القرشى عامل الأمويين على الجزيرة الخضراء واليا على سبتة. أما ابن أبى زرع — ويؤيده لسان الدين ابن الخطيب — فيذكر أن أبا العيش أحمد بن القاسم بن كنون الحسنى كان قد خطب للناصر على جميع منابر عمله ومن ضمنها سـبتة وطنجة ، ولما طلب منه الناصر أن يسلمه المدينتين السالفتين كى يتمكن من احكام السيطرة على منطقـة المضيق ، رفض أبو العيش ذلك ، فاضطر الناصر الى انفاذ أساطيله للمضيق واستولى على سبتة عنوة وذلك عام ٣١٩هـ[19] . وهناك رواية ثالثة يوردها ابن خلدون تشير الى أن الأدارسة تنازلوا للناصر عن مدينة سبتة ، وأنهم أشـاروا عليه بأخذها من بنى عصـام ، فقام الراضى ابن عصـام بتسـليم المدينة لقـواد الناصر وبذلك خضعت المدينة

---

(١٧) المقرى : ازهـار الرياض فى اخبار القاضى عياض . تحقيق عبد الحفيظ شلبى وآخرون . القاهرة ١٩٣٩ جـ٢ ص٢٥٧ .

(١٨) ابن حيان : المقتبس (تحقيق بدرو شالميتا) ص٢٨٩ — ٢٩٠.

(١٩) ابن أبى زرع : الانيس المطـرب ص٥٤ — ابن الخطيب : اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . نشر الدكتور احمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى . الدار البيضاء ١٩٦٤ ص٢١٩ .

للأمويين[٢٠]

وكيفما كان الأمر ، فمن الثابت أن الناصر استولى على سبتة عنوة حيث أرسل أساطيله تحت قيادة فرج بن عفير الذى تمكن من اقتحام المدينة واقامة الدعوة الأموية بها ، وذلك لثلاث خلون من ربيع الأول عام ٣١٩هـ[٢١] ، وقد عمد الناصر على تحصين تلك المدينة « فشكها بالرجال واتقنها بالبنيان وبنى سورها بالكذان »[٢٢] ، وألزم فيها من رضية من قواده وأجناده ، وصارت مفتاحا للغرب والعدوه من الأندلس وبابا اليها كما هى الجزيرة الخضراء وطريف مفتاح الأندلس من العدوة ، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون من ربيع الأول من العام المؤرخ »[٢٣] .

هذا ما كان من شأن الأمويين ، الا أن الأمور لم تصف لهم حيث أن الأدارسة لم يرق لهم استيلاء الأمويين على واحدة من أهم مدنهم ، ولذا بادر الأمير ابراهيم بن محمد الحسنى بجمع أنصاره ومواليه

---

(٢٠) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢١١ ، ص٢١٧ .

(٢١) ابن حيان : المقتبس (شالميتا) ص٢٩٩ — راجع ايضا ابن خلدون : المصدر السابق جـ٦ ص٢١١ حيث يذكر أن القائد الأموى الذى استولى على سبتة يدعى نجاح بن عفير وليس فرج بن عفير كما ذكر غالبية المؤرخين .

(٢٢) الكذان : Pierre du Tuf نوع من الحجارة البيضاء تستعمل فى بناء الجدران وتبليط الأرض ونحت درجات السلالم ، وقد استخدمه الأمويون فى أبنية مدينة الزهراء بجوار مدينة قرطبة . راجع

R. Dozy : Supplement aux dictionaires arabes, Beyrout, 1968, VOL 2, pp. 458 - 459 .

انظر كذلك : عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الاسلامية ، بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٣ .

(٢٣) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ٢ ص٢٠٤ ، اندرية جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية جـ٢ ص٨٠ .

من قبائل البربر وزحف بهم الى سبتة حيث حاصرها فى محاولة لطرد القائد الأموى اميه بن اسحاق القرشى ومن معه من الجند الأندلسيين ، بيد أن ابراهيم لم يظفر بطائل من وراء محاولته تلك ، واضطر الى الانسحاب من أمام سبتة ، وكتب للناصر يعلن له دخوله فى طاعته وبذلك استقامت سبتة للأمويين[34] ، وقد قام الناصر بعد ذلك بالاستيلاء على ثغر طنجة المجاور لسبتة ليحكم بذلك قبضته على منطقة المضيق ويتدخل فى سياسة المغرب لاثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمى[35]. وهكذا صارت سبتة الى الأمويين ، فماذا كان من شأن الفاطميين ؟

لم يقف الفاطميون مكتوفى الأيدى أمام سياسة عبد الرحمن الناصر فى منطقة المضيق خاصة بعد أن تمكن الناصر من بسط نفوذه على سبتة وطنجة ، وهذا ما دفع الخليفة الفاطمى المهدى عبيد الله (٢٩٧ — ٣٢٢هـ / ٩٠٩ — ٩٣٤م) الى ارسال جيش كبير تحت قيادة حميد بن يصلتين أمير مكناسة وعامله على تاهرت فى محاولة للاستيلاء على سبتة وطرد الأمويين منها وذلك عام ٣٢١هـ . وقد بادر الناصر بارسال أسطوله الى سبتة لحمايتها من أية هجمات منتظرة من جانب الفاطميين ، كما سير القائد قاسم بن طملس مع الجند ، فوصلوا الى سبتة ، وبدأ ابن طملس يستعد للدفاع عنها ، بيد أن الجيش الفاطمى الذى سيره المهدى لم يصل الى سبتة لأن موسى بن أبى العافية حليف الأمويين بالمغرب تمكن من رد الفاطميين والحاق الهزيمة بعساكر حميد بن يصلتين[36] . وقد عاود الفاطميون الهجوم على سبتة عام ٣٤٧هـ /

---

(٣٤) ابن حيان : المقتبس (نشر شالميتا) ص٢٩٠ — ٢٩١ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٤١ .

(٣٥) مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى . بيروت ١٩٧١ ص ٣٦٩ .

(٣٦) ابن خلدون : جـ٤ ص١٤١ .

بمهم على يد قائدهم الشهير جوهر الصقلى أو الصقلبى[٢٧] . ولكن جوهر لم يتمكن هو الاخر من الاستيلاء عليها نظرا لحصانتها ، فتركها وعاد الى افريقية[٢٨] . وهكذا تمكن الناصر من الاحتفاظ بمدينة سبته فى قبضته .

ثم خلف الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦هـ / ٩٦١ — ٩٧٦م) اباه عبد الرحمن الناصر وسار على نفس السياسة التى تهدف الى مواجهة الخطر الفاطمى عن طريق الاحتفاظ بمنطقة المضيق واحتلال القواعد المغربية المطلة عليه مثل سبتة وطنجة ، الا أن هذه السياسة اصطدمت بمصالح الأدارسة الذين كانوا يرغبون فى استعادة نفوذهم القديم فى هذه المناطق ، ولذلك فقد قاموا بثورة عنيفة عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م تحت زعامة الحسن بن كنون الذى استولى على طنجة وتطوان وأصيلا ، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على سبتة . وبالطبع فقد رأى الخليفة الأموى الحكم ضرورة الاسراع بارسال جيوشه وأساطيله الى منطقة المضيق للمحافظة على النفوذ الأموى هناك ، ولذلك بعث وزيره وقائده محمد بن القاسم بن طملس الى سبتة فى شوال عام ٣٦١هـ / أغسطس ٩٧٢م ، كما أرسل أسطوله بقيادة عبد الرحمن بن رماحس الذى نزل بسبتة أولا ومنها انطلق الى طنجة لحصارها من ناحية البحر ، فى حين حاصرها القائد محمد بن القاسم من ناحية البر ، وبذلك تمكن الأمويون من استعادة طنجة ، بيد أن الحسن بن كنون لم يقلع بذلك ، وتمكن من جمع شمله وتوحيد صفوفه من جديد ، وشن هجوما ناجحا على الجيش الأموى فى فحص مهران باحدى ضواحى طنجة من قتل القائد ابن طملس وذلك فى ربيع الأول عام ٣٦٢هـ / ديسمبر

---

(٢٧) حول اصل هذا القائد وهل هو صقلى أم صقلبى راجع : مختار العبادى قيام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام . بيروت ١٩٦٩ : ص ٦٠ — ٦١ .

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب : جا ص٢٢٢ .

٩٧٣م ، وهربت فلول الجيش الأموى الى سبتة وكتبوا للحكم المستنصر يستصرخونه ويصفون له ما لحق بهم من هزيمة وقتل[٢٩] .

وقد استاء الحكم المستنصر استياء كبيرا لهزيمة قواته فى منطقة المضيق ، ولذلك استدعى وزيره غالب بن عبد الرحمن المعروف بالناصرى[٣٠] وأمره بالمسير الى العدوة المغربية واعادة النفوذ الأموى هناك والقضاء على الأدارسة ، وقال له : « يا غالب سر مسير من لا اذن له فى الرجوع الا حيا منصورا أو ميتا معذورا ، ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس »[٣١] . وقد تمكن الوزير غالب بفضل تلك الامدادات الهائلة التى أمده بها الخليفة الحكم من استعادة النفوذ الأموى فى منطقة المضيق والقضاء على نفوذ الأدارسة[٣٢] .

وفى أيام الخليفة الأموى هشام المؤيد بن الحكم (٣٦٦ — ٣٩٩هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٨م) وحاجبه المنصور ابن أبى عامر ، استمرت سياسة الأمويين تجاه سبتة ومنطقة المضيق على ما كانت عليه أيام أبيه

---

(٢٩) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٤ ص ٨ — ٩ ، ابن حيان : المقتبس ، القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر . نشر عبد الرحمن حجى . بيروت ١٩٦٥ ، ص٩٦ ، ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص٥٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص٢٤٦ .

(٣٠) عن غالب الناصرى راجع : ابن حيان : المصدر السابق فى عدة مواضع ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام نشر بروفنسال ص٦٢—٦٥ ، ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٧٨ — ٢٧٩ ، انظر ايضا : حمدى عبد المنعم حسين : فارس الاندلس غالب الناصرى ودوره فى حوادث المغرب الأندلس . مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية . المجلد ٣٧ عام ١٩٨٩ .

(٣١) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص٥٧ .

(٣٢) ابن حيان : المصدر السابق ص١٠٨ — ١٠٩ ، مؤلف مجهول ، مفاخر البربر ص٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٣٤٧ . راجع ايضا : مختار العبادى دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ١٩٦٨ — ٢٨١

وجده ، وقد أوضح صاحب كتاب مفاخر البربر تلك السياسة بقوله « واقتصر محمد بن أبى عامر لأول قيامه على ضبط مدينة سبتة وما ولاها بجند السلطان الأندلسى ، وقلدها كبار رجاله من أصحاب السيوف والأقلام على حسب تغيير طبقاتهم[٣٣] . وقد تولى أمر سبتة فى هذه الفترة القائد جعفر بن على بن حمدون الأندلسى[٣٤] ؛ ولكنه لم يستمر طويلاً فى ولايتها حيث استدعاه المنصور بن أبى عامر هو

---

(٣٣) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص١٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص٨٤ .

(٣٤) هذا القائد ينسب الى اسرة بنى حمدون الأندلسيين الذين عملوا فى خدمة الفاطميين فى بداية الأمر حيث كان لعلى بن حمدون اياد بيضاء على الدولة الفاطمية بالمغرب ، فقد انضم الى الدعوة الفاطمية منذ أيام الداعى أبى عبد الله الشيعى ، واستمر فى خدمة الخليفة الفاطمى المهدى عبيد الله وابنه الخليفة القائم ، وقد لقى على بن حمدون مصرعه دفاعا عن الدولة الفاطمية على يد اثائر ابى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ، وقد خلفه ابنه جعفر الذى عقد له المنصور الفاطمى على المسيلة والزاب . ومما يؤثر عن جعفر انه كان موضع مديح الشعراء وخاصة الشاعر الأندلسى الشهير ابن هانىء الذى مدحه بالأبيات الشهيرة :

المدنفان من البرية كلها ... جسمى وطرف بابلى احور

والمشرقات النيرات ثلاثة ... الشمس والقمر المنير وجعفر

على ان جعفر بن علي لم يستمر طويلا فى خدمة الفاطميين بالمغرب ، لأن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عرض على جعفر أمر ولاية المغرب لأنه قد قرر الرحيل الى مصر عقب فتحها باسم الفاطميين على يد القائد جوهر ، ولكن جعفر اشترط على المعز شروطا تجعله شبه مستقل عن الخلافة بمصر ، فرفض المعز ذلك واسند أمر بلاد المغرب الى زيرى بن مناد الصهاجى ، وقد أدى ذلك الى غضب جعفر بن على وفراره الى قبيلة مغراوه وبنى برزال الزناتيين حلفاء الأمويين بالاندلس ، ودعا للحكم المستنصر واشتبك فى قتال عنيف مع انصار الفاطميين بالمغرب وتمكن من القضاء على زيرى بن مناد الصنهاجى وذلك عام ٣٦٠هـ/٩٧١م .

راجع : ابن هانىء الأندلسى : ديوان ابن هانىء . تحقيق كرم البستانى . بيروت ١٩٨٠ . ص١٦٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص٢٤٢ ، ٢٤٣ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة بولاق ١٢٧٠ ج ١ ص٣٥٢ ، ٣٥٣ .

وجنوده من البربر الى الأندلسى ليشترك معه فى القضاء على منافسه فى السلطة الوزير غالب بن عبد الرحمن الناصرى[35]. وعلى الرغم من رحيل جعفر عن سبتة الا أن المنصور بن أبى عامر لم يهمل أمرها بل اهتم بها اهتماما كبيرا ، وقد أوضح ابن خلدون ذلك فى معرض حديثه عن سياسة المنصور تجاه مدينة سبتة واهتمامه بها دون بقية بلاد المغرب الأخرى الخاضعة لنفوذ الأمويين فيقول : « ... وعاد جعفر بن على الى مكانه من الحضرة وساهمه المنصور فى حمل الرياسة، وبقى المغرب غفلا من الولاية واقتصر المنصور على ضبط سبتة ووكل الى ملوك زناتة دفاع صنهاجة وسائر أولياء الشيعة[36]. وقد أثبتت الأحداث أن اهتمام ابن أبى عامر بسبتة كان له ما يبرره ، فقد تعرضت المدينة لهجوم كبير شنه الأمير بلكين بن زيرى الصنهاجى أمير الزيريين الذى خلف أباه فى حكم بلاد المغرب باسم الفاطميين ، وقد حاول بلكين بسط السيادة الفاطمية على بلاد المغرب الأقصى واستولى فى سبيل ذلك على مدن فاس وسجلماسة وبلاد الهبط[37] ، وطرد عماله بنى أمية من هذه المناطق ، وقد تجمعت فلول القوات الأموية فى مدينة سبتة وبعثوا للمنصور بن أبى عامر يعلمونه بأمر هجوم بلكين على المغرب الأقصى وحصاره لمدينة سبتة ، وعلى الفور جهز المنصور أعدادا كبيرة من الجند المغاربة والأندلسيين ، وعهد لجعفر بن على بن حمدون بـ[illegible] قيادة هذه الجيوش . وقد اجتمعت جيوش الأمويين بظاهر سبتة ، فلما وصل بلكين الى أعالى الجبال المطلة على سبتة « فرأى ما هاله واستيقن امتناعهم ، ويقال أنه لما عاين سبتة من سنيبرمة (؟) ورأى اتصال المدد

(٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣٦) ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٢٩ .

(٣٧) بلاد الهبط هى المنطقة التى تقع فى شمال غرباوه والقصر الكبير وشمال المغرب الأقصى .

من العدوة الى معسكرهم بها قال : هذه أفعى فغرت فاها الينا ، وكر راجعا على عقبه »[٣٨] .

وعلى الرغم من الفشل المتكرر الذى أصاب حملات الفاطميين على مدينة سبتة ، الا أن أنظارهم ظلت متطلعة اليها ، وظل الأمل يراودهم في ضمها مع مدن المضيق الأخرى الى دائرة نفوذهم لحرمان الأمويين من هذا الموقع الاستراتيجي المهم ، وهذا ما جعل الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦م) ووزيره يعقوب بن كلس يرسلان الحسن بن كنون بجيش كبير الى المغرب ، محاولين ضرب النفوذ الأموى هناك[٣٩] ، فسار الحسن الى المغرب بعد أن أمده العزيز بالأموال اللازمة ، كما أرسل بلكين بن زيرى ثلاثة آلاف فارس انضموا لجيش ابن كنون . وتمكن الحسن بفضل هذه الامدادات من فرض الحصار على مدينة سبتة . ولا شك أن هذه التحركات الفاطمية أثارت الخليفة هشام وحاجبه المنصور بن أبى عامر ، فقد بادر المنصور بانقاذ ابن عمه القائد أبى الحكم عمرو بن عبد الله بن أبى عامر الملقب

---

(٣٨) ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٥٦ . وقد أورد صاحب كتاب مفاخر البربر نصا مشابها لنص ابن خلدون مع اختلاف بسيط فى بعض العبارات ، حيث قال على لسان بلكين لما شاهد كثرة اعداد الجند الامويين المتجمعين بظاهر سبتة « انما سبتة حية ولت ذنبها حذاءنا وفغرت فاها نحونا » . راجع : مفاخر البربر ص١٧ .

(٣٩) كان الحسن بن كنون قد طلب الأمان من القائد غالب الناصرى عقب نجاح الأخير فى القضاء على نفوذ الأدارسة فى منطقة المضيق وبلاد المغرب الأقصى كما سبق أن أشرنا . وقد اصطحب القائد غالب الحسن ابن كنون معه الى قرطبة حيث عاش فترة من الوقت هناك ، حتى قرر الوزير جعفر بن عثمان المصحفى وزير الحكم المستنصر اخراجه من الأندلس ومن معه من الأدارسة الى المشرق ، واشترط عليهم بالا ينزلوا بأية أرض مغربية . وقد وصل هؤلاء الأدارسة الى مصر حيث رحب العزيز بالله الفاطمى بهم ليستخدمهم كسلاح ضد أعدائه الأمويين فى المغرب . راجع : مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص١٥ — ابن خلدون : العبر ج ٦ ص٢١٩ ، ج ٧ ص٢٩ .

بعسكلاجة فى جيش كثيف جاز البحر الى سبتة التى تجمعت بها القوات المغربية والأندلسية ، وتمكن عسكلاجة من التصدى لجيش الحسن بن كنون وهزيمته وأسره فى نهاية الأمر ، وأرسله الى قرطبة حيث قتله المنصور بن أبى عامر وذلك عام ٣٧٢هـ / ٩٨٥م .

ولكن سبتة لم تلبث أن تعرضت لهجوم آخر حينما قام زيرى بن عطية المغراوى بشق عصا الطاعة على المنصور بن ابى عامر وذلك عام ٣٨٦هـ / ٩٩٦م . وكان زيرى بن عطية أحد حلفاء الاموبين فى المغرب وشارك فى القضاء على نفوذ الأدارسة . ولكنه لم يلبث أن انقلب على الأمويين عقب عودته من زيارة قام بها للأندلس[٤٠] ، اذ يروى المؤرخون أن زيرى بن عطية لما عبر المضيق عائدا الى وطنه وأستوت قدمه على أرض مدينة طنجة ، تعمم وخاطب بلاده مرحبا « الآن علمت أنك لى »[٤١] . وهذه العبارة تدل على عزمه على الاستقلال ببلاد المغرب . وقد تمكن زيرى بن عطية من هزيمة الجيوش الأموية التى سيرها ابن أبى عامر لقتاله بقيادة واضح الفتى وذلك عام ٣٨٧ هـ / ٩٧٧م . كما قام زيرى بطرد جميع عمال بنى أمية من المغرب وألجأهم الى سبتة حيث تحصنوا بها وبعثوا الى ابن أبى عامر يخبرونه بما حدث[٤٢] . ولم يجد المنصور بدا من حشد جميع جيوش الأندلس ، وخرج بهم الى الجزيرة الخضراء حيث أجازهم جميعا الى سبتة تحت قيادة ولده المظفر عبد الملك ، الذى تمكن من احراز النصر على زيرى ابن عطية وحلفائه بأحواز طنجة[٤٣] .

---

(٤٠) عن اسباب النزاع بين زيرى بن عطية والمنصور بن ابى عامر راجع : ابن أبى زرع : المصدر السابق ص٦٤ — ٦٥ ؛ ابن خلدون : العبر جـ٧ ص٢٩ ، ٣٠ .

(٤١) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٢٢ .

(٤٢) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص٦٦ .

(٤٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

ومن خلال تلك الأحداث المتعاقبة يتضح لنا أن مدينة سبتة كانت محور صراع دائم بين القوى المتناحرة فى منطقة مضيق جبل طارق . فكل طرف يسعى للاستيلاء عليها نظرا لأهميتها الحربية وحصانتها وتحكمها فى منطقة المضيق ، ولهذا استمات الأمويون فى الدفاع عن سبتة وحرصوا أشد الحرص على ألا تقع هذه المدينة فى أيدى أعدائهم، وقد نجحوا فى ذلك تماما — وتمكنوا بفضل احتفاظهم بسبتة وطنجة من دفع الخطر الفاطمى عن بلاد الأندلس • ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب اذا ما قلنا أن عدم استطاعة الفاطميين الاستيلاء على سبتة وطنجة كان من ضمن الأسباب التى جعلتهم يصرفون النظر عن فكرة توحيد القسم الغربى من العالم الاسلامى والتعجيل برحيلهم الى المشرق[٤٤] •

سبتة والحموديون :

الحموديون فرع من الأدارسة من ولد عمر بن ادريس الثانى . كانوا قد رحلوا الى الأندلس عقب فشل زعيمهم الحسن بن كنون فى استعادة ملكهم بعد أن قضى عليه كل من الفاطميين والأمويين ، وقد شارك الحموديون فى احداث الفتنة التى حلت بالأندلس فى نهاية القرن الرابع لهجرى (١٠م) وبداية القرن الخامس (١١م) والتى عرفت فى المصادر التاريخية باسم الفتنة البربرية[٤٥] ، لأن القبائل البربرية فى الأندلس كان لها دور كبير فى احداثها • وقد انضم اثنان من هؤلاء

---

(٤٤) لا شك أن عوامل رحيل الفاطميين من المغرب الى مصر والمشرق عديدة ولا يتسع المقام هنا للحديث عنها ، ولكن يمكن الرجوع الى كتاب : فى التاريخ العباسى والفاطمى للدكتور مختار العبادى ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، لمعرفة المزيد عن هذه العوامل .

(٤٥) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٢١ — المقرى : نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب . تحقيق احسان عباس • بيروت ١٩٦٨ جـ ١ ص ٤٨٢ •

الادارسه وهما : على بن حمود واخوه القاسم الى جانب سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فى صراعه ضد الخليفه الاموى هشام المؤيد ، ونذكر المصادر ان سليمان لما تم له الامر ودخل قرطبة فى ٢٦ شوال عام ٤٠٣هـ / ٩ مايو ١٠١٣م كافأ زعماء البربر[٤٦] الذين ناصروه بأن ولاهم الولايات ، فأعطى على ابن حمود ولاية سبتة والقاسم بن حمود ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء[٤٧] وقد أثار هذا العمل دهشة قواد سليمان المستعين ، لأنه يعنى أن يتحكم الحموديون فى منطقة المضيق ويصبح من السهل عليهم تهديد الدولة الاموية فى قرطبة . وقد عبر أحد قادة سليمان المستعين — وهو القائد عبيد الله البرزالى — عن تخوفه من تحكم الحموديين فى منطقة المضيق فقال للخليفة سليمان : « يا أمير المؤمنين بلغنى أنك وليت بنى حمود على المغرب . قال : نعم . قال : أليس العلويون طالبيين ؟ قال : نعم . قال : تأتى الى خشاش وتردهم ثعابين قال : نفذ الأمر فى ذلك[٤٨] . وعلى الرغم من أن المصادر تأخذ على سليمان المستعين أنه عين على بن حمود واليا على سبتة ، وتصف ما قام به بأنه نوع من الغفلة وسوء التدبير ، الا أنه يبدو أن سليمان كان يدرك أن

---

(٤٦) من المعلوم ان الادارسة من العرب اصلا ، ولكن نظرا لاستقرارهم فى بلاد المغرب فترة طويلة ومخالطتهم للبربر ان صاروا مثلهم حتى أنهم كانوا يتكلمون باللغة البربرية ، ومما يروى فى هذا المجال ان على بن حمود حينما قتل الخليفة الأموى سليمان المستعين قال بلسانه البربرى : لا يقتل الزلطان الا الزلطان (أى السلطان) . راجع : ابن الخطيب : اعمال الأعلام . القسم الثانى (بروفنسال) ص١٢١ .

(٤٧) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . تحقيق احسان عباس . ليبيا ١٩٧٥ القسم الاول . الجزء الأول ص٣٨ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان : القاهرة ١٩٦٣ ص٩٠ — ابن الخطيب : المصدر السابق ص١١٩ .

(٤٨) ابن عذارى : البيان المغرب ص١١٤ ، ابن الخطيب : نفس المصدر ص١٢٨ — ١٢٩ .

عليا يتطلع الى الخلافة فأراد أن يبعده عن الأندلس الى سبتة حتى يأمن شره[٤٩] .

على أية حال ، فقد بدأ على بن حمود فور وصوله الى سبتة اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالقضاء على النفوذ الأموى فى منطقة المضيق ، فبدأ بأعوان الخليفة سليمان المستعين المنتشرين فى المدينة ، وقام بالقاء القبض على اثنين من كبار رجال سبتة المناصرين للحكم الأموى وهما : قاضى سبتة محمد بن عيسى بن زوبع[٥٠] ، والفقيه ابن يربوع ، فقد اتهم على بن حمود القضى ابن زوبع بأنه يحرض العامة ضده وأنه على صلة برجال الخليفة المستعين ولذلك عاقبه بالقتل ، كما لقى الفقيه ابن يربوع نفس المصير[٥١] . ثم أعلن ابن حمود من مقره بمدينة سبتة خروجه عن طاعة سليمان المستعين ، وتختلف المصادر فيما بينها حول تحديد الكيفية التى أعلن بها ابن حمود خروجه عن الطاعة ، فابن الخطيب يذكر أن بعض الموالى العامريين قد استاءوا من تصرفات

---

(49) Joaquin Vallvé : Suqut Albargawati : Rey de Ceuta, Revista Alandalus, Vol. XXVIII. Fasc. I, 1963, p. 173.

(٥٠) ابن زوبع : هو قاضى سبتة ابو بكر محمد بن عيسى ، ولد بالبصرة ، ولكنه عاش فى سبتة حيث ولى منصب صاحب الشرطة العليا ثم قضاء سبتة وطنجة وأصيلا ، وكان الذى رشحه لمنصب القضاء الفقيه ابن ذكوان قاضى قرطبة . ويذكر القاضى عياض فى كتابه « ترتيب المدارك » نقلا عن ابن حيان — رواية تقول ان القاضى ابن زوبع لم يكن من المحبذين فكرة انفصال سبتة عن الدولة الأموية ، ولذلك اصطدم بعلى بن حمود الذى اثار العامة على القاضى فقتلوه ، بيد أن القاضى عياض (وهو من أهل سبتة) ينفى أن تكون العامة قد مست ابن زوبع بأى أذى نظرا لحبهم الشديد له ، ويشير القاضى عياض الى أن ابن زوبع انما قتل على يد رجال على بن حمود وذلك عام ٤٠٤هـ / ١٠٤١م . راجع : القاضى عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . تحقيق محمد سعيد غراب وآخرون ، المحمدية ١٩٨٢ جـ٧ ص١١٢ — ١١٣ . انظر كذلك : ابن بشكوال : كتاب الصلة . القاهرة : ١٩٦٦ جـ٢ ص٥٩٤ .

(٥١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص١١٥ — ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثانى ص١٢١ .

الخليفة سليمان بسبب اعتماده كليا على البربر المغاربة ، فدبروا مؤامرة للتخلص منه بأن كاتبوا على بن حمود وأرسلوا له عهدا منسوبا الى الخليفة الأموى هشام المؤيد بخطه يعهد فيه بالأمر الى على بن حمود من بعده(٥٢) . أما ابن بسام فيذكر نقلا عن ابن حيان — أن الخليفة هشام المؤيد لما رأى ضعف حاله وقيام الثوار عليه من أهل بيته ، بعث الى على بن حمود بولاية عهده وأوصى له بالخلافة وراسله بذلك(٥٣) . فى حين أن المراكشى يشير الى أن ابن حمود لما أراد الخروج على طاعة المستعين راسل المنضمين الى جيش سليمان المستعين ، وادعى أن الخليفة هشام بن الحكم قد عهد اليه بولاية العهد من بعده(٥٤) . والرأى الأخير هو الأقرب الى الصحة لأن سليمان المستعين تخلص من هشام المؤيد عقب دخوله قصر قرطبة مباشرة فى ٢٧ شوال ٤٠٣هـ / ١١ مايو ١٠١٢م ، كما أن سليمان لم يقم على بن حمود على سبتة الا بعد أن استقر له الأمر وانتهى من أمر هشام المؤيد ، ويغلب على الظن أن على بن حمود كان ينوى الخروج على سليمان عندما وصل الى سبتة ، وأنه كان يعد العدة لذلك ، فقام أولا بتصفية أنصار الأمويين بسبتة — كما ذكرنا — ثم خاطب أخاه القاسم بن حمود وطلب منه احتلال الجزيرة الخضراء ليتحكم فى منطقة المضيق ، ثم تعلل بعد ذلك بقصة ولاية العهد من قبل الخليفة هشام المؤيد مستغلا قصة اختفاء الخليفة هشام(٥٥) .

وكيفما كان الأمر ، فقد عبر على بن حمود المضيق من سبتة الى

---

(٥٢) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٥٣) ابن بسام : الذخيرة . القسم الاول ، الجزء الأول ص٣٨ ، ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص١١٥ .

(٥٤) المراكشى : المعجب ص٩١ .

(٥٥) راجع : عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس الاسكندرية ص٣٥٦ .

مالقه بعد أن ترك ابنه وولى عهده يحيى حاكما على سـبتة[٥٦] . ثم واصل زحفه الى قرطبة حيث تمكن من دخولها وقتل سليمان واعتلى دست الخلافة وتلقب بالناصر وذلك فى المحرم عام ٤٠٧ هـ / يونيو ١٠١٦م[٥٧] . بيد أن على بن حمود لم يستمر طويلا فى خلافة قرطبة حيث اغتاله بعض فتيانه الصقالبة وذلك فى ذى القعدة عام ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م ، فقام أخـوه القاسم بارسل جثته الى سـبتة ليدفن هناك[٥٨] ، أما هو فقد أعلن خلافته على قرطبة .

تولى يحيى بن على بن حمود ولاية سبتة عقب مصرع أبيه لمدة ثلاث سنوات ، ثم انتهز فرصة اضطراب أمور عمه القاسم ، واستعان بالفتيان العامريين وتمكن من الاستيلاء على طنجة عام ٤١٢ هـ ، وأرسل الى أخيه ادريس حاكم مالقه ، وطلب منه أن يتنازل له عنها عـلى أن يوليه حكم سبتة ويعينه وليا لعهده فى حالة نجاحه فى القضاء عـلى عمهما القاسم[٥٩] . وقد تمكن يحيى من دخول قرطبة ففر عمه الى اشبيلية . وقد استقر ادريس بن على بن حمود حاكما على سبتة فترة طويلة بلغت خمسة عشر عاما ، ولم تذكر المصادر لنا شـيئا عنه كل هـذه الفتر اللهم خـلافه مع قاضى سـبتة يوسف بن حمود وعزله عن

---

(٥٦) نلاحظ أن مدينة سبتة صارت مقرا دائما للأمراء الحموديين الذين تولوا العهد ، ويبدو ذلك واضحا من خلال دراسة العملات التى سكت فى سبتة خلال فترة حكم الحموديين .

راجع :

Prieto Y Vives : Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926, pp. 163 - 164.

(57) Louis Seco de Lucena : Los Hammudies, Senores de malaga Y Algeciras, Revista Alandalus, Vol XIX, 1954, pp. 11 - 12.

(٥٨) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول الجزء الأول ص١٠١ — ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص١٢٣ .

(٥٩) ابن الخطيب : اعمال الاعلام . القسم الثانى ص١٣١ — ١٣٢، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص١٥٣ .

منصبه[٦٠] . ولما قتل يحيى بن علي بن حمود بالأندلس عام ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م ، فاذا بأبي جعفر احمد بن موسى المعروف بابن بقنه ونجا الخادم الصقلبى – وهما مدبرا أمر الحموديين بالأندلس – يستدعيان ادريس بن علي من سبتة الى مالقه ليتولى الخلافة ، واشترطا عليه أن يعين ابن أخيه الحسن بن يحيى حاكما على سبتة ووليا لعهده ، فقبل ذلك ثم عبر المضيق الى الاندلس حيث أعلن خلافته وتلقب بالمتأيد بالله . أما الحسن بن يحيى فقد وصل الى سبتة فى رفقة الخادم نجا الصقلبى[٦١] . ولكن الحسن بن يحيى لم يمكث بسبتة الا ثلاثة أعوام غادر بعدها المدينة الى الأندلس ، ويذكر المراكشى أن الخادم نجا الصقلبى لما علم بوفاة ادريس المتأيد بالله ركب البحر مصطحبا معه الحسن بن يحيى الى ما لقه بعد أن استخلف على سبتة من يثق به من الصقالبة[٦٢] ، وبويع للحسن بن يحيى بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله[٦٣] ، أما نجا الصقلبى فقد عاد الى سبتة لضبطها ويحفظ ثغرها ، وقد اصطحب معه أحد أبناء الحسن بن يحيى يسمى حبيبا .

وقبل أن نستطرد فى سرد أحداث سبتة السياسية فى ظل الحموديين ، يجب أن نشير هنا الى ملاحظتين مهمتين : الأولى : وتتعلق

---

(٦٠) الضبى : بغية الملتمس ص٤٧٣ — ٤٧٤ ، ابن بشكوال : الصلة جـ٢ ص٦٨٣ ، انظر ايضا :
Vallvé ; op. cit.. pp. 174 - 175.

(٦١) مؤلف مجهول : الاستبصار ص١٩٧ ، المراكشى : المعجب ص١١٣ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٥٤ . كذلك راجع :
Prieto Y Vives : Los Reyes de Tai Fas : p. 27.

(٦٢) المراكشي : المصدر السابق ص١١٥ . انظر أيضا :
Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 27 .

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص١٩٢ . فى حين يذكر المراكشى انه لقب بالمستعلى ، ولكن ما ذكره ابن عذارى هو الأصوب حيث عثر على بعض الدراهم التى ضربت بمدينة سبتة عام ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م عليها اسم الحسين بن يحيى ولقبه المستنصر : راجع :
Prieto Y Vives : op. cit., p: 171 .

بالمدينه نفسها التي أصبحت نقطة انطلاق لغالبية الأمراء الحموديين الذين تولوا الخلافه في الأندلس سواء في مالقه أو في قرطبه . والثانيه نتعلق بالصقالبة الذين سيطروا على الامراء الحموديين وصاروا يولون ويعزلون من يريدون ، وقد حرص هؤلاء الصقالبة على وضع مدينة سبتة في قبضتهم كي يتدخلوا في شئون الأندلس كيفما يرغبون. — على أية حال — استمر نجا الصقلى يدبر أمور سبتة باسم حبيب ابن الحسن بن يحيى حتى علم بنبأ اغتيال الحسن عام ٤٣٤هـ ، فغادر سبتة بعد أن ترك عليها من يثق به من صقالبته ، ونزل مالقه حيث رغب في الأمر لنفسه ، ولذلك رأى أن يستأصل شأفة الحموديين ، فاعتقل ادريس بن يحيى بن على بن حمود بمالقه ، ثم رحل الى الجزيرة الخضراء للقضاء على الحسن ومحمد ولدى القاسم بن حمود ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وفي طريق عودته اغتاله بعض عبيد القاسم ابن حمود . ولما بلغ خبر مقتله مالقه ثارت العامة بنائب نجا الصقلبى الوزير السطيفى وقتلوه وأخرجوا ادريس بن يحيى من محبسه وبايعوه بالخلافة ، وذلك يوم الخميس السادس من جمادى الثانى عام ٤٣٤هـ / ٢٠ يناير ١٠٤٣م وتلقب بالعالى . وقد ولى العالى كلا من سقوت البراغوطى ورزق الله من عبيد أبيه أمر مدينة سبتة(٦٤) .

سقوت البرغواطى وسبته :

دخلت مدينة سبتة مرحلة جديدة في تاريخها خلال فترة حكم سقوت البرغواطى لها ، فقد استقلت في هذه المرحلة عن سيطرة الحموديين ولم يعد يحكمها أحد من هؤلاء الأمراء . وما مرت به سبتة خلال تلك الفترة لا يختلف كثيرا عما كان سائدا في بلاد المغرب والأندلس من تمزق وفوضى سياسية وظهور دول الطوائف . فهذه الفترة المضطربة في تاريخ الأندلس ، ألقت بظلالها على المغرب وخاصة منطقة

---

(٦٤) المراكشي : المعجب ص١١٦ ، ص١١٩ ، ابن عذارى : البيان ج٢ ص٢٩٠ — ٢٩١ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١١٥ .

المضيق[٦٥] ٠ وقد انتهز سقوت البرغواطى فرصة تردى أوضاع الحموديين وأعلن استقلاله بسبتة مكونا دولة من دول الطوائف العديدة التى ظهرت فى بلاد المغرب والأندلس فى هذه الفترة ٠

اما عن سقوت البرغواطى وكيف قدر له ان يظهر فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ سبتة ، فالمصادر تذكر أنه كان من سبى قبيلة برغواطة المارقة[٦٦] ، حيث أسر وهو فى سن السابعة أو الثامنة تقريبا عندما سير المنصور بن أبى عامر ٣٨٩هـ / ٩٩٩م حملة قوية ضد هذه القبيلة بقيادة واضح الفتى[٦٧] ٠ وقد اشتراه حداد من أهل سبتة فى بداية الأمر ، ثم اقتناه على بن حمود أثناء ولايته لسبته[٦٨] ٠ وقد أظهر سقوت اخلاصا وولاء لعلى بن حمود ، ورقى فى خدمته الى أن أعتقه ، وعقب مصرع على بن حمود انتقل ولاء سقوت ليحيى بن على الذى ولى أمور سبتة كما سبق أن ذكرنا ٠ وبعد رحيل يحيى بن على الأندلس ظل سقوت ومولى آخر من موالى سبتة يدعى رزق الله ويكنى بأبى العطاف يدبران أمر سبتة طيلة فترة وجود ادريس بن على بن حمود بها ٠ واستمر الحال كذلك حتى بعد رحل ادريس الى الأندلس

---

(٦٥) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥ ٤٠

(٦٦) عن قبيلة برغواطة وديانتها المارقة راجع : البكرى : المغرب ص١٣٤ — ١٤١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٢٣ ، ابن خلدون : العبر : جـ٦ ص٢٠٧ — ٢١٠ ، كذلك انظر المقال الذى كتبه روجيه لاتورنو Rogé La Tournou فى دائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان « برغواطة » ومقال الدكتور مختار العبادى « الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين » مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد ٢٠ عام ١٩٦٦ ٠

(٦٧) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٣٥ — ٣٧ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٠٩ ٠

(٦٨) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ص٦٥٧ ، مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٢٥٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٢٥٠ وان كان ابن عذارى يذكر أن يحيى بن على بن حمود هو الذى اشترى سقوت وليس ابيه على ٠

وتركه ابن أخيه الحسن بن يحيى حاكما على سبتة ، ولكن سقوت كان كان أكثر نفوذا ومكانة من رزق الله ، لذلك انتهز فرصة ضعف أمر الحموديين ، ومصرع نجا الخادم ، وعزم على الاستقلال بسبتة ، وبدأ بتصفية أفراد الأسرة الحموديه ، وهناك دلائل متعددة تؤكد ذلك ، فحينما لجأ اليه ادريس بن يحيى بن على بن حمود الملقب بالعالى عقب اقصائه عن الخلافة بمالقه عام ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م على يد ابن عمه محمد ابن ادريس قبض عليه سقوت وحبسه حتى توفى عام ٤٤٤هـ/١٠٥٣م . ثمة دليل ثان فقد قام سقوت بقتل يحيى بن ادريس بن على بن حمود الملقب بالسامى حينما فر من مالقه الى سبتة متخفيا فى زى تاجر ، حيث نزل بريف غماره فقبض عليه وأحضر لسقوت فقتله . ثمة دليل ثالث على توجهات سقوت العدوانية تجاه الأسرة الحمودية ، فعندما أراد المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية الاستيلاء على الجزيرة الخضراء Algeceras من يد حاكمها القاسم بن حمود ، بعث أسطوله لحصارها ، وقد استنجد القاسم بسقوت البرغواطى ليعينه على قتال ابن عباد ، ولكن سقوت رفض الاستجابة لطلب القاسم وترك الجزيرة الخضراء تواجه مصيرها المحتوم وسقطت فى يد ابن عباد عام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٥م . وقد رحل القاسم وأهل بيته الى سبتة ، بيد أن سقوت رفض استقبالهم وأجبرهم على العودة الى الشاطىء الأندلسى حيث استقروا فى ألمرية(٦٩) .

والواقع أن سقوت لم يكن بعيد النظر حينما رفض مساعدة القاسم ، لأن رفضه هذا أتاح لابن عباد فرصة الاستيلاء على الجزيرة الخضراء ، وبالتالى صار يهدد سبتة تهديدا مباشرا ، وهكذا استبدل سقوت جارا ضعيفا بآخر قوى ، كذلك أخطأ سقوت حينما رفض استقبال الأمراء الحموديين وايوائهم لديه ، لأنه كان بامكانه الاستفادة

---

(٦٩) ابن عذارى : البيان : جـ٣ ص٢١٣ ، ص٢٣١ ، ص٢٤٢ .

من وجودهم بسبتة لاضفاء نوع من الشرعية على حكمه خاصة فى مواجهة القوى السياسية الأخرى المحيطة به والتى تستند الى أسس قوية مثل المرابطين فى مراكش وابن عباد صاحب اشبيلية .

وبعد أن انتهى سقوت من أمر الحموديين عمل على التخلص من شريكه رزق الله ، ويذكر ابن بسام أن سقوت تخلص منه بحيلة خفية[٧٠] وذلك عام ٤٥٣هـ / ١٠٦١م ، ثم اتخذ من الألقاب السلطانية لقب المنصور المعان ، وأخيرا أقام الدعوة فى بلاده للعباسيين لاضفاء نوع من الشرعية على حكمه ، فقد أورد Prieto Y Vives فى كتابه « ملوك الطوائف » وصفا لدرهم ضرب فى سبتة أيام سقوت البرغواطى عام ٤٦٤هـ / ١٠٧٢م وعليه النقش التالى :

الوجه : المنصور المعان سقوت
الدرهم بمدينة سبتة
سنة أربع وستين

الظهر : الحاجب الامام عبد الله
أمير المؤمنين
بهاء الدولة المعز[٧١]

ونلاحظ من هذه النقوش المثبتة على الدرهم وجود اسم الحاجب سقوت وابنه المعز بهاء الدولة ، كما نلاحظ اسم « أمير المؤمنين » ، ولكن لم يحدد اسم الخليفة العباسى[٧٢] واكتفى فقط بعبارة « الامام

---

(٧٠) ابن بسام : الذخيرة . القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٥٨ وللأسف لم يحدد لنا ابن بسام كيف تخلص سقوت من رزق الله ، ولكنه اكتفى بالاشارة الى ان ذلك كان فى خبر طويل تركه تخفيفا للتثقيل .

(71) Prieto Y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 178.

(٧٢) الخليفة العباسى المعاصر لسقوت هو القائم بأمر الله (٤٤٢هـ — ٤٦٧هـ / ١٣٠١ — ١٠٧٥م) .

عبد الله أمير المؤمنين » • ويبدو أن عدم تحديد الاسم المجرد للخليفة العباسي أو لقبه الخلافي على السكة التي ضربها سقوت يرجع اما الى عدم معرفته لهذا الاسم أو اللقب نظرا لبعد المسافة بين المغرب الأقصى وبغداد ، ولذلك اكتفى بذكر اسم « عبد الله » باعتباره اسما عاما كان يخلع دائما على من يجهل اسمه المجرد ، أو لأن الخلفاء العباسيين كانوا يكنون عن أنفسهم بلفظ « عبد الله » في النقوش والنقود خصوصا في عهد المأمون والمقتدر ، كما أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضي بعدم ذكر الأسماء المجردة والاكتفاء بالألقاب والكنى ، ولذلك تجنب سقوت أن ينقش اسم الخليفة المجرد على السكة واكتفى باسم « عبد الله » وهو كنية من الممكن أن تخلع على أي خليفة عباسي ، كما أضاف لقب أمير المؤمنين وهو لقب لا يلقب به الا الخلفاء • ونلاحظ أن هذه الظاهرة تكررت أيام المرابطين حينما أقاموا الدعوة للعباسيين ببلاد المغرب[٧٣] •

سقوت البرغواطي والصراع مع بني عباد حكام اشبيلية :

لم ينظر المعتضد بن عباد بعين الارتياح لتلك التطورات التي حدثت في سبتة ومنطقة المضيق والتي تمخضت عن استقلال سقوت البرغواطي بأمر سبتة ، خاصة وأن المعتضد كان يرغب هو الآخر — شأنه شأن الأمويين من قبل — التحكم في مضيق جبل طارق لدفع أي خطر قد يهدد الأندلس من ناحية المغرب • ويذكر ابن خلدون أن المعتضد طلب من سقوت أن يعلن طاعته له ، فرفض سقوت ذلك[٧٤] • ولذلك اشتعلت الحرب بين الرجلين ، وحدث في عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م أن اعتقل ابن عباد أحد تجار مدينة سبتة ، فاستاء سقوت من هذا التصرف

---

(٧٣) راجع د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٥٧ ص٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٧٤) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٥٥ .

ورد عليه باعقال عدد من تجار اشبيلية كانوا قد وصلوا الى سبتة فى تجارة لهم ، كما صادر سفينتهم وبضائعهم . وهكذا تبادل الطرفان أعمال المصادرة والاعتداء على رعايا وتجار الطرف الآخر . ولذلك دارت عدة معارك بحرية بين أسطولى سبتة واشبيلية ، وفى البداية أظهر أسطول ابن عباد تفوقا ملحوظا واستطاع انزال خسائر فادحة بالأسطول السبتى ، ويصور لنا ابن حيان هذه المعارك بقوله : « الى أن أكمل ابن عباد من أسطول أنشأه نحوا من ثمانين قطعة ، فأخرجها الى سبتة ، فخرج عليها أسطول لسقوت ، فكان الظهور لابن عباد ثم افترقت الأساطيل بعد حروب وسفك دماء »[٧٥] . بيد أن أسطول سبتة تمكن بعد ذلك من ابعاد خطر الاشبليين عن مياه المضيق وأصبحت هذه المنطقة تحت سيطرة سقوت البرغواطى خاصة بعد أن بسط سيطرته على مدينة طنجة .

وقد استغل سقوت هذا الوضع الجديد ، وقام بأعمال القرصنة البحرية ضد السفن التجارية بمنطقة المضيق ، فعاثت أساطيله فسادا وأضر بمصالح البلاد والعباد فى العدوتين المغربية والأندلسية ، حتى ضج الناس بالشكوى ومنه ومن أساطيله ، ويعبر ابن بسام فى الذخيرة عن ذلك بقوله « ثم غلظ أمر سقوت حتى أخاف القريب والنازح واقتاد الحرون والجامح ، وأنبثت سراياه فى البحر والبر فادرك المطلوب والطالب وتصيد الطافى والراسب »[٧٦] .

هذه الأعمال العدوانية ، وهذا الفساد الذى أحدثه سقوت وأسطوله فى مياه المضيق قد دفع البعض[٧٧] الى القول بأن ثمة علاقة بين دولة

---

(٧٥) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٥٩ — ٦٦٠ .

(٧٦) نفس المصدر السابق ص٦٦٠ .

(٧٧) د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والاندلسى ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

سقوط البرغواطي في سبتة وطنجة وبين دولة برغواطة المارقة في منطقة تامسنا[٧٨] على أساس أن هناك بعض النصوص القليلة التي يمكن أن تؤكد هذا الظن ، فعلى سبيل المثال — يقو لصاحب كتاب مفاخر البربر « وكان ظهور برغواطة سنة ١٢٧هـ /٧٤٤م في خلافة هشام بن عبد الملك ، واستقر ملكهم آخرا بتامسنا وهم في الأصل من زناته ، ولم يزل الملك فيهم الى أول ظهور دولة الملثمين وخروجهم من الصحراء مع عبد الله بن ياسين ، وآخر ملوك برغواطة هو الحاجب البرغواطي ضياء الدولة (ابن سقوت) صاحب سبتة وطنجة »[٧٩] ، كذلك أشار ابن خلدون الى اتصال مواطن غمارة (منطقة سبتة وطنجة) بمواطن قبيلة برغواطة من شعوب المصامدة على ساحل البحر الغربي وهو المحيط[٨٠] . ولكن على الرغم من هذا الاتصال بين سقوت ودولة برغواطة ، الا أن سقوت لم يتبع ديانة برغواطة المارقة ولم يؤثر عنه أنه خرج عن حدود الشرع الحنيف .

— على أية حال — ، فقد استمرت حالة العداء بين سقوت والمعتضد ابن عباد ، وفي عام٤٦٣هـ/١٠٧١م ، استولى المعتضد على رندة Ronda وأركش Arcos La Frontera وطرد البربر منهما ، فعبر هؤلاء المضيق الى سبتة ، ولكن سقوت صاحب سبتة رفض استقبالهم فهاموا على وجوههم في سائر أنحاء المغرب حيث لقى قسم كبير منهم حتفه نتيجة للمجاعة التي اجتاحت المغرب في ذلك الوقت[٨١] .

---

(٧٨) تامسنا : Tamasna كلمة بربرية من لهجة زناتة معناها البسيط الخالي . وقد اطلقت على الأراضي الممتدة على ساحل المحيط من الرباط الى نضاله والدار البيضاء وتنتهي عند أزمور عند مصب وادي أم الربيع .

(٧٩) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٤٧ .

(٨٠) ابن خلدون : العبر جـ٢ ص٢١٠ — ٢١١ .

(٨١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٥٧ .
Vallvé : op. cit., p. 178.

سقوط البرغواطي والصراع مع المرابطين :

لم يكن صراع سقوت البرغواطي مع المعتضد بن عباد نهاية المطاف، ولم يكن للأمور أن تهدأ وتستقر حيث كان هناك خصم مجاور لسقوت هم المرابطون الذين كان لهم شأن فى المغرب الأقصى وكان لهم صولات وجولات معه • ومن المعلوم أن دولة المرابطين دولة اسلامية مجاهدة قامت على أساس دعوة دينية اصلاحية فى جنوب المغرب الأقصى (منطقة موريتانيا حاليا) على يد عبد الله بن ياسين[٨٢] • وقد اتخذ المرابطون من الجهاد هدفا أساسيا لهم ومبررا شرعيا لقيام دولتهم ، ولذلك بدأوا بجهاد القبائل المارقة والخارجة عن الدين فى بلاد المغرب مثل قبيلة برغواطة ، ثم تقدموا شمالا حتى وصلت جيوشهم الى بلاد غمارة الواقعة تحت سيطرة سقوت البرغواطي • وقد تنبه سقوت الى خطورة هؤلاء المرابطين على ملكه وعلى بلاد الأندلس ، فأرسل الى المعتضد بن عباد — برغم حالة العداء بينهما — يخبره بتحركات المرابطين العسكرية فى المغرب الأقصى ، ويحذره من أن هؤلاء المرابطين لن يقفوا عند حدود المغرب ، بل سيعملون على عبور المضيق الى الأندلس • وكان لهذا التحذير أثره الواضح على المعتضد بن عباد ، فقد أمر عماله على الجزيرة الخضراء بتحصين جبل طارق وتقوية الاستحكامات الدفاعية فى منطقة المضيق[٨٣] • وفى نفس الوقت تحالف سقوت مع تميم بن معنصر المغراوى حاكم فاس ضد المرابطين • وتذكر

---

(٨٢) عن قيام دولة المرابطين راجع : حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين . صفحة مشرقة فى تاريخ المغرب فى العصور الوسطى . ١٩٥٧ — مختار العبادى : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين . مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد العشرون ١٩٦٩م .

(٨٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثانى المجلد الاول ص ٤٠ — ٤١ ، السلاوى : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى . الدار البيضاء ١٩٥٤ جـ٢ ص٢٦ ،

Vallvé : op. cit., p. 179:

المصادر أن تميم بن معنصر تمكن من قتل المهدى بن يوسف الكزنى (أو الجزنانى) صاحب مكناسة وحليف المرابطين ، وأرسل برأسه الى سقوت سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م(٨٤) ، مما آثار المرابطين علـى سقوت وتميم .

وعندما اشتد الضغط المسيحى على ممالك الطوائف بالأندلس ، أرسل المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م سـفارة الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يسأله النصرة والتدخل لوقف الزحف المسيحى على بلاد الأندلس ، وقد اعتذر يوسـف بن تاشفين عن تقديم المساعدة نظرا لأن الثغور المغربية المطلة على المضيق (سبتة وطنجة) ليست فى حوزته ، ولـكى يثبت للأندلسيين أنه راغب فى الجهاد ضد العدو النصرانى فى الأندلس ، أرسل الى سقوت صاحب سبتة وطنجة يعلمه برغبته تلك ، وتشـوقه لنصرة أهل الاسـلام فى الأندلس « وسأله أن يخلى الجيوش تجوز فى المجاز ، فتعذر عليه ، فشكاه يوسف الى الفقهاء فأفتوا جميعا بما لا يسر صاحب سبتة »(٨٥)

وفى عام ٤٧١هـ / ١٠٧٩م نشب قتال عنيف بن المرابطين وسقوت البرغواطى ، لأن يوسف ابن تاشفين كان يطارد بعض فلول زنـاته الخارجين عليه ، وقد تحصنوا بموضع يعرف بالدمنة بالقرب من مدينة طنجة ، وقد رغب سقوت — الذى كان مقيما بطنجة — أن يؤازر ابن تاشفين فى صراعه ضد الزناتين دفعا لخطـر المرابطين عن ملكه من ناحية ، والتخلص من هؤلاء الزناتين من ناحية أخرى . ولكن الحاجب العز بن سقوت أثنى أباه عن عزمه وذمم له فكرة الانضمام الى جانب المرابطين ، ويعلق ابن بسام على تصرف الحاجب المعز بقوله « وثناه

(٨٤) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص٩٠ ، ابن خلدون : العبـر ج٦ ص١٨٥ .
(٨٥) الحميرى : الروض المعطار ص٢٨٩ .

ابنه الفائل الرأى ، فقد كان هذا الفتى على بعد مرامية ولوذعية — زعموا — كنت فيه ، يذهب مذهب الجبابرة من ملوك الطوائف عندنا من الاعراض عن العواقب ، وأخذ الشاهد عيارا على الغائب أين ما هو فيه ، لا يحفل بشىء يذره ولا يأتيه »[86] . ولما تمكن المرابطون من القضاء على زناتة فى الدمنة ، وجهوا جيوشهم الى طنجة تحت قيادة صالح بن عمران فى اثنى عشر ألف فارس من المرابطين ، وعشرين ألف من سائر قبائل المغرب ، وعندما اقتربت الجيوش المرابطية من طنجة ، خرج اليهم سقوت البرغواطى وأقسم ألا يسمع أحد من رعيته هدير طبـول المرابطين[87] . والتقى سـقوت وجيشه مع المرابطين بوادى « منا » من أحـواز طنجة فى قتال عنيف اسـتمر لمدة يومين ، انتهى بانتصار المرابطين ومصرع سـقوت الذى كان قد قارب التسعين من عمره . ودخلت القوات المرابطة طنجة وذلك فى الثامن والعشرين من ذى الحجة عام ٤٧١هـ / ١ يوليو ١٠٧٩م[88] .

عقب مصرع سقوت ، تولى ابنه الحاجب العز حكم سبتة ، ولم يكن العز أقل قسوة وبطشا من أبيه . فقد سار على نهجه فى احكام السيطرة على منطقة المضيق عن طريق أعمال القرصنة مستغلا أسطوله القوى ، حتى ضج الناس بالشكوى من كثرة الأذى الذى يتعرضون لـه .

ويشـير ابن بسـام الى ذلك فيقول « من رجل استعان بالشر (يقصـد الحـاجب العز) وتهاون بالأمر ، لا يجبى الا من غلول ،

---

(٨٦) ابن بسام : الذخيرة : القسم الثانى . المجلد الثانى ص ٦٦٠ — ٦٦١ .

(٨٧) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص٩٢ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٨٥ — ٢٢٢ .

(٨٨) ابن بسام : المصدر السابق ص٦٦١ ، مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٥ — اما ابن ابى زرع فيجعل تاريخ المعركة ٤٧٦هـ وهو خطأ . راجع : الانيس المطرب ص٩٢ .

ولا يجيش الا الى ابن سبيل ، لا سيما البحر فانه اضطر لجيه نارا ، ولقى ريحه اعصارا . أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف الى كل رعب رعبا ، فضجت منه الأرض والسماء والتقت الشكوى عليه والدعاء »[٨٩] . وهكذا خلف سقوت خلفا مشابها له — الحاجب العز فى خصاله وفعاله ومن شابه أباه فما ظلم — كما يقولون — .

أدرك يوسف بن تاشفين أنه من الضرورى القضاء على الحاجب العز بن سقوت وضم سبتة الى دائرة نفوذ المرابطين اذا ما أراد العبور الى الاندلس للجهاد ، ولذلك فقد انتهز فرصة وصول وفد من رجال الأندلس أرسلهم المعتمد بن عباد لطلب المساعدة من المرابطين وانقاذ الاندلس من عدوان آنفونسو السادس ملك قشتاله ، وقام بتجديد فتوى الفقهاء الخاصة بضرورة القضاء على العز بن سقوت ، كما طلب من المعتمد بن عباد مساعدته بأسطوله لاحكام الحصار على سبتة برا وبحرا ، وبدأ يوسف حصاره لسبتة فى شهر صفر عام ٤٧٦ هـ / يوليو ١٠٨٣م . أما ابن عباد فقد بعث بأسطوله الى مياه سبتة ، وهذا ما يؤكده صاحب كتاب مفاخر البربر حيث ذكر أن المعتمد أنشأ سفينة « ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها شدة أسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناء على الماء صرحا ممردا وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا ، ووجهها الى مدينة طنجة لتمتار ، وقد أنجد أمر الله وأغار ، ولما رأى أمير المسلمين وناصر الدين — رحمه الله — تلك السفينة خاطب المعتمد فى ذلك ، فشحنت على سبتة موتا ذريعا ، وأقيمت بازاء أسوارها حصنا منيعا »[٩٠] . وبالاضافة الى أسطول اشبيلية ، شارك أسطول المرابطين فى الهجوم من ناحية البحر على سبتة . وازاء تطور الأحداث على هذا النحو ، بادر العز بن سقوت

---

(٨٩) ابن بسام : المصدر السابق ص٦٦٢ ، مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٦ .

(٩٠) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٦ .

بالخروج على رأس أسطوله واشتبك مع الأسطول المرابطي في معركة عنيفة انتهت بهزيمة المرابطين ، واستولى العز بن سقوت على واحدة من أفضل قطع الأسطول المرابطي ، مما أثار الفزع والرعب في معسكر قوات المرابطين أمام سبتة[٩١] ، واضطر العز بن يوسف بن تاشفين قائد جيش المرابطين الى الانسحاب من أمام سبتة بعد أن حطم بعض محلاته حتى لا تقع في أيدى الحاجب العز بن سقوت . ولكن الموقف سرعان ما تغير لصالح المرابطين عندما شدد أسطول اشبيلية الحصار على سبتة ، واضطر العز بن سقوت الى محاولة الفرار عن طريق البحر ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، فرجع الى سبتة حيث اختفى في دار أحد العامة تعرف بدار تنوير ، « وبدرت جماعة من المرابطين فاقتحموا عليه بعد مرام وقتال شديد حتى ضاق اضطرابه ، وفرغنة أصحابه ، ولما أحس بالشر ، دفع ذخائر كانت عنده الى بعض أصحابه ، فبلغني أنه عثر عليها فوجدوا فيها جوهرا كبيرا ، ونشبا من نشب الملك خطيرا ، ووجد في جملتها خاتم يحيى بن على بن حمود الأندلسي ، وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر ، فلقيه المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منه المال فقال له : الخازن أبيك كنا نجمع المال ؟ فجلله بالحسام وحكم فيه الجمام تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبيد آلاؤه[٩٢] . وتم قتل المعز بهاء الدولة عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م ، وبذلك استولى المرابطن على سبتة[٩٣] .

وقبل أن ننتقل الى الحديث عن سبتة في عصر المرابطين ، نرى أنه لابد أن نقف قليلا أمام فترة حكم سقوت البرغواطي وابنه العز ، فقد كان كلاالرجلين موضع هجوم من قبل المؤرخين ، فقد وصف سقوت

---

(٩١) ابن بسام : الذخيرة : القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٦٢ ، ابن خلدون ج٦ ص٢٢ ٢ .
(٩٢) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٥٦ — ٥٧ .
(٩٣) ابن بسام : الذخيرة . القسم الثانى . المجلد الثانى ص٦٦٢ .

بأنه أفعى جارية وشعلة وارية ، كما وصف ابنه الحاجب العز بأنه كان من أشد ملوك الطوائف أيدا وأمتنهم كيدا ، وأنه جاهر بالخلاف سماعا وعيانا [٩٤] . نقول ، برغم ذلك فقد شهدت مدينة سبتة فى عهدها ازدهارا سياسيا وحضاريا لم تعهده من قبل ، فقد أصبحت مركزه لدولة مستقلة اشتملت على القسم الشمالى من المغرب الأقصى ، كما شهدت سبتة فى عهدهما رواجا ونشاطا اقتصاديا كبيرا ، هذا بالاضفة الى نهضة أدبية وفنية واضحة ، فقد كان سقوت البرغواطى محبا للعلم والعلماء ، ومما يروى فى هذا الصدد أن أبا الوليد بن جهور أمير قرطبة وردت عليه عدة رسائل فى يوم واحد : احداها من ابن صمادح صاحب المرية يطلب منه جارية عواده ، وأخرى من ابن عباد صاحب اشبيلية يطلب جارية زامرة ، وثالثة من سقوت صاحب سبتة يطلب قارئا للقرآن ، فوجه ابن جهور من طلبه قرطبة رجلا يعرف بعون الله بن نوح الى سبتة ليقرأ القرآن بها . وقد أبدى ابن جهور تعجبه من ذلك وقال : جاهل يطلب قارئا وعلماء يطلبون أباطيل[٩٥] .

أما الحاجب العز بن سقوت فقد وصف ابن بسام اهتمامه بالأدب والأدباء بقوله : « ... وأفضت الدولة البرغواطية الى الحاجب العز ابنه شهاب أفلاكها ، وخيرة أملاكها ، هب للأدباء ريحا ونفحت دولته فى أهله روحا ، أعرض به الشعراء وأطالوا ، ووجدوا السبيل الى المقال فقالوا .. وكان سهل الجانب للقصاد ، طلق اليد بالمواهب والأعراض »[٩٦] .

ويكفى سبتة فخرا أنه كان بها فى هذه الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ثلاثة أدباء تمنى المعتمد بن عباد أن يكونوا فى بلاطه :

---

(٩٤) نفس المصدر السابق ص٦٥٦ — ٦٥٧ .
(٩٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص٥٠ ٢ .
(٩٦) ابن بسام : المصدر السابق ص٦٦٢ .

فقد ذكر ياقوت الحموى أن المعتمد قال ذات مرة « ... اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نفر ، ابن غازى الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانه القاضى »[97] . كما اشتمل بلاط سقوت وابنه العز على نفر من الأدباء نذكر منهم الشاعر أبو الحسن بن عبد الغنى الكفيف المعروف بالحصرى القيروانى[98] ، والشاعر أبو محمد عبد الله بن القابلة السبتى[99] .

سبتة فى عصر المرابطين :

يذكر المؤرخون أن المعز بن يوسف بن تاشفين بعد أن تمكن من دخول سبتة والاستيلاء عليها ، بعث الى والده — الذى كان مقيما بفاس — يخبره بانتصاره على العز بن سقوت ودخول سبتة فى طاعة المرابطين ، وقد أحدث نبأ دخول سبتة فى طاعة المرابطين أثرا طيبا لدى يوسف بن تاشفين فخرج اليها من فوره « فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود ، وأتاه من بلاد الصحراء والقبلة والزاب والمغرب القبائل والحشود »[100] ، كذلك حدث نفس الأثر لدى المعتمد بن عباد لأنه أدرك أنه لم يعد هناك ما يحول بين المرابطين وعبور المضيق لانقاذ الأندلس من العدو

---

(٩٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان . طبعة بيروت جـ٣ ص١٨٢ .

(٩٨) راجع ترجمة الحصرى القيروانى فى : ابن بسام : الذخيرة : القسم الرابع المجلد الاول ص٢٤٥ ، وما بعدها ، ابن بشكوال : كتاب الصلة . القاهرة ١٩٦٦ . القسم الثانى ص٤٣٢ ، ٤٣٣ ، الحميدى : جذوة المقتبس القاهرة ١٩٦٦ ص٣١٤ ، ٣١٥ .

(٩٩) راجع ترجمة ابن القابلة السبتى فى ابن سعيد المغربى : رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى . القاهرة ١٩٧٣ ص١٣٥ كذلك انظر ابن بسام : المصدر السابق القسم الرابع المجلد الأول ص٣٨٠ — ٣٨٢ .

(١٠٠) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ، ص٩٣ .

المسيحى • وقد بادر المعتمد بعبور مضيق جبل طارق الى العدو المغربية لمقابلة يوسف بن تاشفين • وقد تقابل العاهلان فى موضع يسمى بليطه على بعد ثلاث مراحل من سبتة[١٠١] • وقد طلب يوسف بن تاشفين من المعتمد بن عباد تسليمه ثغر الجزيرة الخضراء كى يستطيع التحكم فى مضيق جبل طارق ويضمن سلامة قواته وخطوط مواصلاته بين العدوتين ذهابا وايابا ، وقد استجاب المعتمد لذلك وأمر ابنه الراضى يزيد باخلاء هذه المنطقة الجنوبية وتسليمها ليوسف بن تاشفين[١٠٢] • وفى ربيع الأول عام ٤٧٩هـ/يونيو١٠٨٦م[١٠٢] عبرت الجيوش المرابطية من سبتة الى الجزيرة الخضراء ، ومنها انطلقت شمالا بغرب الى الزلاقه (شمال بطليوس) حيث أحرز المرابطون انتصارهم الرائع على قوى النصرانية بزعامة ألفونسو السادس ملك قشتالة وقد حدث ذلك كله فى نفس العام (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) •

هذا وقد اكتسبت سبتة أهمية استراتيجية — لما حفلت به — فى هذا الوقت ، اذ أصبحت الميناء الرئيسى الذى تعبر منه الجيوش المرابطية المتجهة الى الأندلس ، حيث عبر يوسف بن تاشفين منها الى الأندلس أربع مرات ، كما انطلق القائد المرابطى ابن الحاج من سبتة لجهاد نصارى شرق الأندلس عام ٤٩٥هـ /١٠٩٦م[١٠٣] • أيضا عبر على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين مضيق جبل طارق الى الأندلس عن طريق ميناء سبتة عندما قام بحملتى عام ٥٠٠هـ / ١١٠٧م وعام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م • ونتيجة لذلك اهتم المرابطون بأمر سبتة اهتماما شديدا ، فقد أمر يوسف بن تاشفين ببناء سور الميناء السفلى على

---

(١٠١) نفس المصدر والصفحة ، السلاوى : الاستقصا : جـ ٢ ص٣٤ .

(١٠٢) مؤلف مجهول :الحلل الموشية . تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٩٧٩ ص٥١ ، كذلك انظر : د. مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص٣٢٠ .

(١٠٣) ابن خلدون : العبر : جـ٦ ص١٨٧ .

يد القاضى ابراهيم بن أحمد البصرى[١٠٤] كما رمم على بن يوسف بن تاشفين سور مدينة سبتة بعد أن أنفق ألفى دينار على هذا الترميم[١٠٥]
أما أهم منشآت المرابطين الحربية فى مدينة سبتة : المرسى والطالع العظيم الذى بنوه ليشرف على كل حركة فى المضيق . وقد أوضح أبو القاسم السبتى الأنصارى أهمية هذا الحصن بقوله « وهنار الطالع الكبير ، الفذ النظير ، طالع سبتة الذى بأعلى جبل هيناتها المعروف عند الناس بالناظور ، ابتناه المرابطون هنالك للناظر الراتب ، به حصنا وبه قلهرة[١٠٦] كبيرة ، وبداخل القلهرة مسجد ، وكان ذلك على يد القاضى أبى الفضل عياض رحمة الله عليهم أجمعين . وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونة يكشف البرين ويشرف على العلاوتين الى بادس من بلاد الريف والى طرف القسيس شرقا من مالقة والى ما وراء طريف غربا الى طرف سنار من بر الأندلس ، فلا يخفى عليه من الزقاق شى لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة ، وفى حكم أهلها اذ تقع فتنة أو يحصل حصار »[١٠٧] .

كما أشاد الوزير والأديب الغرناطى الشهير لسان الدين بن الخطيب بمنار سبتة الذى بناه المرابطون وذلك عند زيارته لمدينة سبتة فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، فيقول فى وصفه « والمنارة منارة

---

(١٠٤) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ٤ ص٥٨ .

(١٠٥) ابن القطان : نظم الجمان : ص١١٣ .

(١٠٦) القلهرة : (وجمعها قلهرات) Calahorra قلعة أوبرج أمامى ، وكانت هذه القلعة تستخدم احيانا لخزن المواد الغذائية لتوزيعها على الأهالى عند الحاجة او عند الحصار راجع :
Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes, Vol. 2, p: 409 .

(١٠٧) السبتى الانصارى : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الاثار . نشر وتحقيق محمد بن تاويت . مجلة تطوان . العدد ٣ — ٤ عامى ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ص٨٣ ، ٨٤ .

شوارها ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتخيم بين أنجادها وأغوارها »[108] .

وفضلا عن المنشآت الحربية ، فقد حرص المرابطون على تعيين ولاة أكفاء لمدينة سبتة كانوا من كبار القادة والأمراء . فعلى سبيل المثال وليها الأمير على بن يوسف بن تاشفين وبويع له بولاية العهد وهو مقيم بسبتة[109] ، كما وليه القائد ابراهيم بن تعيشت فترة من الزمن ، وهذا القائد هو الذى أهدى اليه الفتح بن خاقان كتابة قلائد العقيان »[110] .

ومن أهم الأحداث التى وقعت بسبتة خلال فترة حكم المرابطين نذكر الاضطراب الذى حل بها نتيجة لقيام رجل مشعوذ بريف سبتة فى منطقة كركال ادعى أنه الخضر ، وأن مجمع البحرين الوارد فى قصة سيدنا موسى انما هو مضيق جبل طارق ، وقد اتبعه عدد كبير من عامة الناس ، واضطر والى سبتة الى القاء القبض عليه فى رمضان عام ٥٣٠هـ / سبتمبر ١١٣٦م حيث سيره الى مراكش فقتل وصلب هناك[111] .

كما تعرضت سبتة فى نهاية عصر المرابطين لهجوم بحرى كبير

---

(١٠٤) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . مجموعة من رسائله جمعها ونشرها الدكتور احمد مختار العبادى . الاسكندرية ١٩٥٨ ص١٠١ .

(١٠٩) ابن ابى زرع : الأنيس المطرب ص١٠١ . ومن المعلوم ان الأمير على بن يوسف بن تاشفين ولد بمدينة سبتة عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م .

(١١٠) ابن القطان : نظم الجمان . ص٨٢ والهامش رقم ٥

(١١١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٤ ص٧٤ — ٧٥ .

قام به غزاة الشمال أو الفايكنج[112] اذ يذكر ابن عذارى أنه فى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م « وصلت قراقر[113] المجوس[114] فى مائة وخمسين مركب بين كبار وصغار الى سبتة ، فخرجت أجفانها فتقاتلوا فقتل من الفريقين خلق كثير »[115] . وقد تولى القائد المرابطى أبو عبد الله محمد بن ميمون (من أسرة بنى ميمون الشهيرة) قيادة أسطول سبتة والدفاع عن المدينة . وعلى الرغم من أن ابن عذارى لم يوضح لنا نتيجة هذه الغارة البحرية ، الا أنه يبدو أن هؤلاء الغزاة لم يتمكنوا من النزول بسبتة نظرا للمقاومة الشديدة التى واجهتهم من قبل أسطول سبتة ، ويبدو أن هؤلاء الغزاة اضطروا الى العودة الى بلادهم بعد فشل غارتهم على مدينة سبتة .

سبتة فى عصر الموحدين :

لم تخلد سبتة فى يد المرابطين ، اذ ظهر منافس قوى لهم وهو الموحدون الذين استطاعوا أن يخلفوا المرابطين فى حكم بلاد المغرب

---

(١١٢) النايكنج أو غزاة الشمال : Vikings هم مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة اسكنديناوه وهم شعب تيوتونى أو جرمانى ينقسمون الى ثلاث مجموعات : السويديون ، النرويجيون الدانمركيون ، والمجموعة الأخيرة هى التى هاجمت سبتة ، كما سبق أن هاجمت بلاد الأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الاوسط (٢٠٦ — ٢٣٨هـ / ٨٢٢ — ٨٥٢م) . راجع : محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . الاسكندرية ١٩٩٠. ص٢٩٣ .

(١١٣) قراقر : جمع قرقورة وهى سفينة عظيمة تحمل الزاد والكراع ، وقيل أن اسمها مشتق من الكلمة الاسبانية Carraca راجع : درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، الاسكندرية ١٩٧٤ ص ١٢٠ .

(١١٤) اطلق العرب اسم المجوس على هؤلاء الغزاة لأنهم كانوا يشعلون النار فى كل مكان يحلون فيه ، بل كانوا يحرقون جثث موتاهم بسفنهم ، فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزرداشتية أو المجوس . راجع : د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ص٣٤٨ .

(١١٥) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ٤ ص١٠٣ .

والأندلس . ومن المعلوم أن دولة الموحدين قامت على أساس دعوة دينيه اصلاحيه طابعها التجديد والمعظمة وهدفها تحقيق وحدة اسلامية شاملة[116] ، ولهذا حرص الموحدون على ضم المناطق التى كانت تحت سيطرة المرابطين سواء فى المغرب أو الأندلس ، وكانت مدينة سبتة من أهم المناطق التى حرصوا على الاستيلاء عليها باعتبارها معبرا ومجازا لجيوشهم الى الأندلس . وقد حاول عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين الاستيلاء عليها أثناء صراعه مع المرابطين عام ٥٣٦هـ/١١٤١م ، فقد وصلت الجيوش الموحدية الى ريف سبتة ولكنها لم تتمكن من اقتحامها[117] . ثم حاول الموحدون مرة أخرى اقتحام سبتة حيث حاصرها عبد المؤمن فامتنعت عليه « وتولى كبر دفاعه عنها القاضى عياض الشهير الذكر كان رئيسها يومذ بدينه وأبوته ومنصبه »[118]. ولكن سبتة لم تصمد طويلا ، لأن مصرع تاشفين بن على بن يوسف أمير المرابطين وسقوط دولتهم على يد الموحدين دفع أهل سبتة الى اعلان طاعتهم للموحدين ، فقد أوفد أهل سبتة قاضيهم أبا الفضل عياض الى عبد المؤمن بن على ليعلن له دخول سبتة فى طاته ومبايعة أهلها له ، حيث التقى به بالقرب من سلا وذلك عام ٥٤٠ هـ /١١٤٥م . وقد قبل عبدالمؤمن بيعتهم وبعث معهم يوسف بن مخلوف التينمللى من مشيخة هنتاتة واليا عليهم[119] . ولكن لم يلبث أهل سبتة أن خلعوا طاعة الموحدين فى العام التالى (٥٤١ هـ) ، فقد انتهزوا فرصة انشغال عبد المؤمن بن على باخماد ثورة الداعى محمد بن عبد الله بن هود

---

(١١٦) د. مختار العبادى : دراسات ص١٠٤ ، ومن المعروف ان آن مؤسس هذه الدعوة هو الفقيه محمد بن تومرت .

(١١٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج٤ ص٩٩ .

(١١٨) ابن خلدون : العبر ج٦ ص٢٣٠ .

(١١٩) ابن عذارى : المصدر السابق . قسم الموحدين . نشر محمد ابن تاويت وآخرون . الدار البيضاء ١٩٨٥ . ص٢٤ ، ص٢٦ ، المقرى : آزهار الرياض فى أخبار عياض . نشر عبد الحفيظ شلبى وآخرون : القاهرة ١٩٤٢ ج١ ص٢٣ ، ٢٤ .

الملسى[١٢٠] (نسبة الى رباط ماسة فى ساحل المحيط بالقرب من سلا) واعلنوا خلعهم لطاعه الموحدين . ويذكر ابن عذارى أن سبب تلك الثورة هو ما اشيع ان والى المدينة الموحدى يوسف بن مخلوف قرر قتل قاضى المدينه ابى الفضل عياض[١٢١] الذى يبدو انه لم يكن مخلصا للدعوه الموحدية . وقد بدأت أحداث هذه الثورة عندما قام أهل سبتة بالقاء القبض على من كان بقصبة المدينة من الموحدين ، وأشعلوا النيران فى البرج الذى تحصن فيه بقية الجنود الموحدين ثم صلبوهم . وقام القاضى عياض بعبور المضـــيق الى الأندلس حيث التقى مع يحيى بن على بن غانية المسوفى فى الجزيرة الخضراء وطلب منه أن يرسل واليا من قبله الى سبتة ، فبعث معه يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين الملقب بالصحراوى أو ابن الصحراوية[١٢٢] . وازاء هذه التطورات ، أرسل الخليفة الموحدى عبد المؤمن الى قائد البحر أبى الحسن عـــلى ابن عيسى بن ميمون[١٢٣] بأمره بحصار سبتة بحرا والقضاء على ابن

---

(١٢٠) عن ثورة ابن هود الماسى السلاوى ، راجع مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٩٧٩ ص١٤٦ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٣٣ .

(١٢١) ابن عذارى : االبيان المغرب . قسم الموجدين ص٣٢ .

(١٢٢) ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ص٣٢ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٣٣ ، وقد برر السلاوى خلع القاضى عياض طاعة الموحدين والدعوة لابن غانية بالقول بأن القاضى عياض عاد الى طاعة المرابطين لأن لهم الحق فى الامامة بطريق الأصالة ، هذا مع ما كان ينقل عن المهـــدى من أنه غلبت عليه نزعة خارجية وانه يقول بعصمة الامام وذلك بدعـــة ، فتكون امامته وامامة أتباعه مقدوحا فيها من هـــذه الحيثية ، ولكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجب الطاعة . راجع : السلاوى : الاستقصـــا جـ٢ ص١١٤ ، ١١٥ .

(١٢٣) هو القائد أبو الحسن على بن عيسى بن ميمون ، ينتمى الى اسرة بنى ميمون الشهيرة فى قيادة البحر وأصلهم من الأندلس ، وان اختلف المؤرخون فى تحديد المدينة التى نشأوا فيها فالبعض يذكر انهم من المرية ، والبعض الآخر يرى أنهم من دانية ، وهناك من يرى انهم من قـــادس .

الصحراوية واعادة سبتة الى طاعة الموحدين • وقد حاصر ابن ميمون سبتة حصارا شديدا ، فخرج اليه ابن الصحراوية وقال له : أريد أن يكون توحيدى على يديك يا أبا الحسن ، فقال له : نعم ، أحملك الى الخليفة • ولما أنس له هبط على بن عيسى من الغراب وأراد الجنوس معه ، فرأى فى وجهه الغضب ، فأراد أن يرجع الى الغراب فرمى عليه يحيى حصانة وضربه بالنصل فوصل بين الكتفين حتى نفذه وأخذه غلام الصحراوى فجرد الى سبتة ثم صلبه فى برج المدينة(١٢٤) • ولم يكتف ابن الصحراوية باغتيال قائد البحر على بن عيسى بن ميمون ، بل عمد الى التحالف مع أعداء الموحدين وخاصة قبائل برغواطة ودكاله التى لم تكن قد خضعت للموحدين حتى ذلك الوقت ، كذلك انضمت اليه قبائل رجراجة وحاحة • ولذلك بعث الخليفة الموحدى عبد المؤمن جيوشه للقضاء على تلك الفتن ، وتمكن فى نهاية الأمر من اخضاع كل هؤلاء الثائرين والخارجين عليه ، كما طلب ابن الصحراوية الأمان من الخليفة الموحدى فأمنه ودخل فى طاعة الموحددين • أما أهل سبتة فقد اضطروا الى اعادة الدعوة للموحدين خاصة بعد أن حاصر الجيش الموحدى تحت قيادة يصلاسن بن المعز الهرغى مدينتهم ، وقد كتب أهل سبتة الى عبد المؤمن بن على مرة أخرى يعلنون له توبتهم ودخولهم فى طاعته ، « فعفا عنهم وعن القاضى عياض وأمره بسكنى مراكش وأمر بهدم سور مدينة سبتة فهدم »(١٢٥) • وقد عين عبد المؤمن القائد أبا محمد عبد الله بن سليمان التينمللى واليا على سبتة وأرسل معه

ويذكر الدكتور مختار العبادى اننا لو انصفنا هذه الأسرة المجاهدة لجعلنا البحر وطنا لهم . راجع : مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص٣٢١ ، ٣٢٢ .

(١٢٤) راجع : البيذق : كتاب اخبار المهدى بن تومرت . تحقيق عبد الحميد حاجيات . الجزائر ١٩٧٤ ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٢٥) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص١٢٤ .

مجموعة من الطلبة الحفاظ[١٢٦] وذلك عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م .

بعد أن استقرت الأمور للموحدين فى سبتة ، أصبحت من أهم ولاياتهم فى المغرب ، ومما يدل على ذلك ان الخليفة عبد المؤمن زارها فى نفس العام الذى عادت فيه لطاعة الموحدين (٥٤٣ هـ) ليكون قريبا من الأندلس ويتعرف على أحوالها . كما زارها مرة آخرى عام ٥٤٦هـ بعد أن أشاع أنه يريد العبور الى الأندلس للجهاد فى حين أنه كان يريد التوجه الى المغرب الأوســط لاخضاع الثائرين هناك[١٢٧] . ومن مظاهر اهتمام الموحدين بمدينة سبتة أن والى المدينة كان شخصية بارزة فى المجتمع الموحدى ، فقد وليها السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على عام ٥٤٩هـ بأمر من والده[١٢٨] ، الذى أضاف اليه بعد ذلك ولاية غرناطة حينما خضــعت للموحدين عــام ٥٥٢هـ/١١٥٧م ، بحيث أصبح والى سبتة يتولى أيضا أمور غرناطة[١٢٩] . ومع أن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، الا أنه يدل على مدى أهمية سبتة عند الموحدين.

---

(١٢٦) البيذق : اخبار المهدى بن تومرت ص١٢٦ — ابن القطان : نظم الجمان ص١٤٨ والهامش رقم ٥ .

(١٢٧) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٣٥ .

(١٢٨) ابن القطان : المصدر السابق ص١٧١ ، ابن أبى زرع : المصدر السابق : ص١٢٦ .

(١٢٩) ابن عذارى : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص٥٥ ، ومن المعلوم أن الموحدين قسموا البلاد الخاضعة لهم فى المغرب والاندلس الى ولايات يتولى حكمها أبناء الخلفاء (السادة) ، وكانت هذه الولايات أو الامارات تقسم الى دوائر لكل دائرة حاكمها أو قاضيها الخاص . وكانت ولاية غرناطة تشتمل على دوائر المرية ووادى آش والمنكب . أما ولايــة سبتة فتشمل على مدينة سبتة وطنجة وسائر بلاد غمارة . وكما ذكرنا فى المتن لم تستمر عملية الجمع بين ولايتى سبتة وغرناطة للسيد أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن فترة طويلة حيث اقتصر حكم الســيد أبى سعيد على ولاية غرناطة ودوائرها فقط . راجع : يوسف أشباخ : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، القاهرة ١٩٤١ جـ٢ ص٢٤٨ ، ٢٤٩ . (ترجمة محمد عبد الله عنان) .

وفضلا عن ذلك فقد تحولت مدينة فى عهد الموحدين من مجرد معبر الى الأندلس الى ميناء تجاري كبير ، وأضحى من يريد التوجه الى المشرق من أهل الأندلس يهرع الى سبتة ليركب السفن منها(١٣٠) . كما أن غالبية التجار الأوربيين الذين يتجارون فى السواحل المغربية كان لابد لهم من النزول أولا بميناء سبتة(١٣١) . كذلك فقد أصبحت سبتة قاعدة من قواعد الأسطول الموحدى ومركزا من مراكز صناعة السفن فى العصر الموحدى ، وقد أشار ابن أبى زرع الى أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على أمر فى عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م بانشاء عدة قطع للاسطول الموحدى فى مختلف دور الصناعة فأنتجت دار صناعة سبتة وبادس ومراسى الريف مائة قطعة(١٣٢) . كما أمر الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٦٠ هـ / ١١٦٣ — ١١٨٤ م) بأن يجلب لسبتة الماء العذب من قرية بليونش التى تبعد عن سبتة ستة أميال فقط ، وشرع فى حفر قناة تحت الأرض لهذا الغرض ولكن بعض الصعاب الفنية — فيما يبدو — حالت دون اتمام المشروع فأهمل(١٣٣).

كما شارك أسطول سبتة فى المعارك البحرية التى دارت بين الأسطول الموحدى وأسطول مملكة البرتغال ، فقد ولى الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف أمير البحر غانم بن مردنيش قيادة أسطول سبتة ، فأغار على مدينة لشبونة عاصمة البرتغاليين وتغلب على قطعتين من قطع الأسطول البرتغالى كانت راسية هناك ، ثم عاد

---

(١٣٠) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادى فى بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجرى . القاهرة ١٩٨٣ ص٣٢٠ .

(131) H.C. Krueger : Genoese trade Wtih north Africa in the twelfth Century. Revue : Speculum, 1933, Vol. VII, No. 3, p. 381.

(١٣٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ص١٣١ .

(١٣٣) الحميرى : الروض المعطار : ص١٠٣ . وعن قرية بليونش راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار ص١٣٨ وكذلك ،

L.T. Balbas : Las ruinas de Belyùnes O Bullones, Revista Tamuda, ano IV, Tetuan, 1957. p. 277 Y Sig.

بهما الى سبتة وذلك عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م[١٣٤] • وفى العام التالى (٥٧٦هـ) خرج أسطول سبتة بقيادة غانم بن مردنيس وأخوه أبو العلا وهاجم السواحل البرتغالية ، بيد أن أمير البحر البرتغالى فواس روبينهو Fouas Roupinho تمكن من الحاق الهزيمة بأسطول سبتة وقتل عددا كبيرا من أفراده ، فى حين أسر القائد غانم وأخوه أبو العلاء كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بمن عليها من الموحدين وانصرفوا الى لشبونة[١٣٥] • ونتيجة لهذا الانتصار الذى أحرزه أسطول البرتغاليين ، شن القائد البرتغالى فواس روبينهو هجوما عنيفا على السواحل المغربية ومن ضمنها سبتة • وقد رد الموحدون على هذا الهجوم بشن هجوم مضاد عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م حينما خرج القائد عبد الله بن جامع قائد أسطل سبتة (كان قد تولى أمر قيادة أسطول سبتة عقب أسر غانم بن مردنيش) مع القائد أبى العباس الصقلى قائد أسطول اشبيليه وتجمعوا بجزيرة قادس ثم شنوا هجوما عنيفا على الأسطول البرتغالى عدد مدينة شلب Silves فى منتصف المحرم عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م • وقد أحرز المسلمون نصرا مبينا واستولوا على عدد من قطع الاسطول البرتغالى عادوا بها الى سبتة ، وتشير المصادر البرتغالية الى أن أمير البحر البرتغالى روبينهو قد لقى مصرعه فى هذه المعركة[١٣٦] •

وقد ظلت سبتة منذ النصف الثانى من القرن السادس الهجرى

---

(١٣٤) ابن عذارى : البيان المغرب قسم الموحدين ص.١٤ ، السلاوى الاستقصا جـ٢ ص١٥٢ .

(١٣٥) نفس المصدر السابق ص١٤٣ ، كذلك انظر :

A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade, Tetuan, 1957, pp. 279 - 281.

(١٣٦) ابن عذارى : المصدر السابق ص١٤٥ .
Huici Miranda : op. cit. p. 280.
كذلك انظر : مختار العبادى : دراسات ص٥٣٥ .

وحتى نهايته تؤدى دورها كمعبر ومجاز للجيوش الموحدية المتجهة للاندلس للجهاد ، وقاعدة بحرية تنطلق منها الأساطيل الموحدية للاغارة على أساطيل وموانىء الاعداء . ولم تخرج عن طاعة الموحدين الا فترة بسيطة عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م عندما تمكن محمد بن على بن يحيى المسوفى المعروف بابن غانية من الاستيلاء ليها ودعا فيها للخليفة العباسى الناصر (١٣٧) (٥٧٥ — ٦٢٢هـ / ١١٧٩ — ١٢٢٥م) . بيد أن الموحدين سرعان ما استردوا سبتة من يد ابن غانية ، وظلت تحت سيطرتهم حتى ثار واليها السيد أبوعمران موسى بن المنصور على أخيه أبى العلاء ادريس الملقب بالمأمون وذلك عام ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م . وقد حاصر المأمون سبتة ولكنه لم يظفر منها بطائل ، واضطر الى ترك حصارها عندما علم أن ابن أخيه يحيى بن الناصر هاجم مدينة مراكش — عاصمة الموحدين — يريد الاستيلاء عليها وخلع عمه من الخلافة (١٣٨) .

ولم يجد أبو عمران موسى وسيلة للتخلص من الضغط الموحدي الا العبور الى الاندلس حيث عرض على أبي عبد الله محمد بن هود الجذامي صاحب مرسية وشرق الأندلس (والثائر هو لاخير على الموحدين) الدخول فى طاعته ، وتنازل له عن مدينة سبتة ، وفى المقابل ولاه ابن هود مدينة المرية ، وهكذا دخلت سبتة فى طاعة ابن هود (١٣٩) .

---

(١٣٧) ابن خلدون : العبر : جـ٦ ص٢٤٨ .

(١٣٨) ابن عذارى : البيان — قسم الموحدين ص٢٩٨ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص١٦٩ .

(١٣٩) ابن خلدون : جـ٤ ص٢٦٩ ، جـ٦ ص٢٥٤ ، السلاوى : الاستقصا : جـ٢ ص٢٤٠ .

سبتة فى ظل قيادات جديدة :

ولى ابن هود على سبتة شخصية طريفة مغامرة هى شخصية المقدم الغشتى ، وهذا الرجل — كما وصفه ابن عذارى — كان فى الأصل صعلوكا حرامسا (أى قاطع طريق) وتحت يديه جماعة كبيرة من أرادل الناس ، وقد عاون ابن هود فى كثير من غزواته ، فكافأة بأن ولاه قيادة أسطول الأندلس وأسطول سبتة بالاضافة الى تعيينه واليا على مدينة سبتة « فلما علا سعده وكمل ، قام عليه أهل سبتة وأرادوا قتلة ، ففر أمامهم وخفى أثره الى أن تحقق بعد ذلك خبره ، فقيل أنه دخل فى زورق صغير ليعبر بخفية الى الأندلس أمام أهل سبتة فحمل فى يد العدو أسيرا فحمل الى جهة غرب الاندلس »[١٤٠] .

وعقب فرار المقدم الغشتى من سبتة ، ولى أهل سبتة على أنفسهم أحد كبار تجار المدينة وذوى المروءة واليسار بها وهو الحاج أبا العباس أحمد بن محمد اليانشتى[١٤١] وذلك عام ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م ، فأحكم قبضته على سبتة ، ودعى بالموفق بالله[١٤٢] . وقد أشاد المؤرخون بحزمه وحكمته ودفاعه عن المدينة ، فابن عذارى[١٤٣] يذكر أنه قام بأمر سبتة خير قيام ، أما الحميرى[١٤٤] فيقول عنه « وما زال أمره

(١٤٠) ابن عذارى : البيان المغرب . قسم الموحدين ص٢٧٧ — ٢٧٨ . وقد قضى المقدم الغشتى فى الأسر اعواما كثيرة ، ثم ترك الإندلس فى شيخوخته ومات برباط آسفى على ساحل المحيط الأطلسى بالمغرب . راجع ايضا : ابن الخطيب اعمال الاعلام (نشر بروفنسال) ص ٢٧٩ ، العبادى : دراسات ص٣٧١ ، ٣٧٢ .

(١٤١) نسبة الى حصن ينشتة Iniesta على بعد مرحلتين من جنجالة شمال مرسية . راجع : الحميرى : الروض المعطار ص٦٢٣ .

(١٤٢) ابن عذارى : المصدر السابق ص٢٩٤ ، ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص١٨٢ ، المقرى : نفح الطيب جـ٣ ص٣٠٩ .

(١٤٣) البيان المغرب : ص٣٤٤ (قسم الموحدين) .

(١٤٤) الروض المعطار : ص٦٢٢ .

مستقيما برا وبحرا يخاف ويرجى ويقصد وتخاطبه الملوك من البلاد »٠
على أن أهم الاحداث التى وقعت خلال الفترة التى استقل فيها اليانشتى بأمر سبتة ، تعرض المدينة لهجوم كبيرشنة الجنويون بغية فصل المغرب عن الأندلس والتحكم فى منطقة مضيق جبل طارق ، على أساس أن من يملك ثغر سبتة يتحكم فى منطقة المضيق ٠ وبدأ هجوم الجنوية عام ٦٣٣هـ/١٣٤م بوصول أعداد كبيرة من سفنهم الى ميناء المدينة ، فنزلوا الى الشاطىء وادعوا أنهم حضرو للتجارة[١٤٥] ٠ وقد تـولى قيادة هذه الحملة الجنوية اثنان من كبار قادة البحر الجنوبيين وهما : القائد فيليلمودى نجرونى Vilielmo di Negrone وبلدوينو اسبينو Bolduino Spiono ، وتشير الحوليات الجنوية الى أن الجنويين قـد حملوا معهم أعدادا كبيرة من الصلبان مما يوحى بصبغة صليبية لهـذه الحملة[١٤٦] ٠ وقد قام الجنويون بضرب أسـوار المدينة بالمنجنيقات فأحدثوا بها أضرارا شديدة ٠ ولمواجهة هذا الموقف أسرع الحاج أبـو العباس اليانشتى بالاستنجاد بالقبائل لمجاورة لسبتة ، واتفق معهم على شن هجوم مباغث على القوات الجنوية ٠ وقد أخفى الحاج اليانشتى توقيت هذا الهجوم حتى يتحقق عنصر المفاجأة ٠ وفى اليوم المحـدد للهجوم الاسلامى خرج أبو الحسن بن الحاج لليانشتى من المدينـة واشتبك مع الجنويين فى قتال عنيف حتى كاد أن يستولى الجنوية على باب المدينة وينفذون اليها ٠ ولكن وصول القبائل البربرية التى استنجد بها الياشنتى قد قلب الموازين لصالح أهل سبتة ، وتمكن المسلمون من

---

(١٤٥) ابن عذارى : المصدر السـابق ص٣٥٠ ، ابن ابى زرع : الإنيس المطرب ص١٨٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص٢٤٤ ٠

(146) Maestre Bartolomeo : CF. Annali Genovesi di Caffaro e dei Suoi continualori, Genova, 1928, Vol. IV, p. 121.

ولا يفوتنى هنا أن أقدم شكرى وامتنانى للزميل الدكتور / مصطفى حسن الكنانى الذى تفضل باعارتى الجزء الرابع من الحوليات الجنوية ، كما عاونني فى ترجمة النص من اللغة الإيطالية الى العربية ٠

قتل عدد كبير من الجنوية « فقتل النصارى فى ذلك اليوم قتلا ذريعا وقطعوا تقطيعا ، وتحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونجر ، ومن سلم من القتل رمى بنفسه عائما الى الأجفان فى البحر[١٤٧] ، وتضيف الحوليات الجنوية أن أسطول سبتة هاجم الأسطول الجنوى وتمكن من تدمير احدى قطعه[١٤٨] ، واضطر الجنويون الى الفرار بعد أن ذبح معظمهم ونهبت أموالهم وفنادقهم التى بالمدينة .

لكن الجنوية عاودوا الهجوم مرة أخرى على المدينة فى العام التالى أى عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٤م [١٤٩] بأسطول قوى بلغ حوالى مائة مركب كما يذكر ابن عذارى[١٥٠] .أما الحوليات الجنوية فتشير الى أن حاكم جنوة أرسل أسطولا تكون من اثنين وعشرين تحت قيادة أمير البحر انيونى دى بونيفتشودي لافولتا Ingone di Bonfacio dell volta وأربع شوانى تحت قيادة لان فرانكوا اسبينولا Lan Franco Spionola بالاضافة الى عشر شوانى أخرى تحت قيادة أوتو بونودى كاميلا Otto Bono di Camilla وتولى القيادة العامة لهذا الأسطول القائد انيونى[١٥١] . وقد حاصر هذا الأسطول سبتة وضربها بالمنجنيقات

---

(١٤٧) ابن عذارى : المصدر السابق ص٣٥٠ .

Maestre Bartolomeo : op. cit., p. 121.

(١٤٩) اشار ابن عذارى أن هجوم الجنوية تم عام ٦٣٣ هـ ، ثم عاد وقال انه فى عام ٦٣٦هـ . وقد ذكر الدكتور مختار العبادي أن الرأى الغالب كتاريخ لهذه الحملة هو عام ٦٣٦هـ . بيد أن التاريخ الذى حدده ابن عذارى أولا وهو عام ٦٣٣ هو الأصح من وجهة نظرنا . ودليلنا على ذلك أن هذا التاريخ (٦٣٣هـ) ورد عند ابن أبى زرع (الأنيس المطرب ص ١٨٣) والسلاوى الاستقصا جـ٢ ص٢٤٤ ، كما أن الحوليات الجنوية ذكرت أن هجوم الأسطول الجنوى على سبتة تم عام ١٢٣٤ وهذا التاريخ يقابل عامى ٦٣٢ ، ٦٣٣هـ . راجع : مختار العبادى : دراسات ص٣٧٤ والهامش رقم ٢ .

(١٥٠) ابن عذارى : المصدر السابق ص٣٥٠ .

(151) Maestre Bartoloneo : op. cit., p. 122.

وآلات الحجار ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام المدينة ، واضطر الجنوية فى نهاية الأمر إلى الرحيل عن المدينة بعد أن دفع لهم اليانشتى أربعمائة ألف دينار تعويضا لهم عن بعض خسائرهم(١٥٢) .

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذى بذله الحاج اليانشتى فى الدفاع عن سبتة ، الا أنه لم يستمر حاكما عليها أكثر من عامين عقب غزوة الجنوية ، فقد دس الموحدون أحد عملائهم ويسمى ابراهيم ابن مسعود الكومى على الحاج اليانشتى ، وتظاهر هذا الرجل بالزهد وأخذ يتقرب الى اليانشتى حتى ملك لبه . وفى نفس الوقت كان ابن مسعود يتصل سرا بأعداء اليانشتى فى المدينة ويخطط معهم لاعادة السيادة الموحدية على سبتة . وبالفعل نجح هذا الرجل فى مسعاه حيث أتى الى سبتة ومعه جيش كبير من قبل الخليفة الرشيد الموحدى وهاجم المدينة ، فخرج اليه الحاج اليانشتى مع عدد قليل من الجند الموالين له وعامة أهل سبتة « فحمل عليهم الجيش المراكشى حملة فقد فيها من اسبتيين نحو ستمائة وتخاذل الباقون فملك عليهم البلد »(١٥٣) ، وقد خشى أهل سبتة من انتقام الرشيد الموحدى فانتهزوا فرصة وصول بنى حجاج اللخميين الى سبتة ، قادمين اليها من الأندلس ومتجهين الى مراكش لاعلان بيعتهم للرشيد الموحدى ، وبعثوا معهم وفدا من وجوه المدينة وأعيانها برئاسة الشيخ البطرنى وذلك عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧(١٥٤) . أما الحاج اليانشتى فقد قبض عليه

---

(١٥٢) ابن عذارى : المصدر السابق ونفس الصفحة ، ابن ابى زرع : الأنيس المطرب ص١٨٣ ،

Maestre Bartolomeo : op. cit., p. 123.

كذلك انظر : مختارى العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية جـ٢ ص٢٨٦ .

(١٥٣) الحميرى : الروض المعطار ص٦٢٢ .

(١٥٤) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص١٧١ ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٥٦ .

هو وأحد أولاده[155] وجماعة من أهل سبتة ممن يخشى بأسهم وأرسلوا جميعا الى مراكش حيث توفوا هناك نتيجة للوباء الذى اجتاح مراكش فى ذلك الوقت[156] . وقد ولى الرشيد على سبتة القائد أبا على بن خلاص البلنسى[157] ، وعلى دار صناعتها أبا زكريا بن مزاحم الكومى وذلك عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م .

استمرت سبتة تابعة للموحدين حتى توفى الرشيد الموحدى عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، فانتهز واليها أبو على بن خلاص الفرصة وأعلن عدم اعترافه بالخليفة الموحدى الجديد السعيد بن المأمون ، ولكى يأمن بطش الموحـــدين بعث بيعته الى الأمير الحفصى أبى زكريا يحيى (٦٢٧ — ٦٤٧هـ / ١٢٣٠ — ١٢٤٩م) وذلك عام ٦٤٠هـ . ثم جدد البيعة عـــام ٦٤٣هـ وبعث بهدية الى الحفصيين مع ولده على متن غراب جديد أنشأه لهذا الغرض . ولكن هذه الهدية لم تصل للأمير الحفصى أبى زكريا حيث تعرض الغراب للغرق عند اقلاعه من مرسى سبتة . وهكذا صارت سبتة تابعة للحفصيين ، ولكى يؤكد أبو زكريا الحفصى سلطته عليها ، بعث عددا من الأجفان التونسية الى ميناء سبتة وتم عـــزل ابن خـــلاص البلنسى[158] وتولى أمرها أحد القادة الحفصيين وهو القائد أبو زكريا

---

(١٥٥) كان للحاج اليانشتى ولدان : الاكبر وهو محمد تمكن من الفرار فى البحر الى بجاية حيث حبس بها فترة ثم سار الى الاسكندرية ومنها رحل الى اليمن . أما الاصغر فهو الذى سار مع ابيه أسيرا الى مراكش .

(١٥٦) ابن عذارى : البيان المغرب . قسم الموحدين . ص٣٤٥ — الحميرى : الروض المعطار ص٦٢٢ .

(١٥٧) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٢٥٦ .

(١٥٨) يذكر ابن خلدون ان ابا على بن خلاص قد غادر ســـبتة فى طريقه الى تونس ، ولكنه توفى ببجاية عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، العبر جـ٧ ص ١٨٦ .

يحيى ابن أبى بكر بن الشـــهيد الهنتاتى[159] ، فى حين تـــولى خطـــة الأشغال[160] بها ابن أبى خالد ، أما أسطول سبتة فأســـندت قيادته للقائد أبى العباس الرانداحى[161] .

ولكن لم تستمر الدعوة الحفصية فى سبتة فترة طويلة ، فقـــد أساء كل من ابن الشهيد الهنتاتى والى المدينة وابن أبى خالد صاحب الأشغال السيرة مع أهل سبتة ووجوهها وأعيانها ، فاتفق قائد البحـــر أبو العباس الرنداحى مع الفقيه أبى القاسم العزفى على الثورة ضد السيادة الحفصية . ويمدنا ابن عذارى بتفصيلات هامة عن هذه الثورة فيقول « ... وضاق أهل سبتة غاية التضييق من جور ابن أبى خـــالد وتغلفل ابن الشهيد ، فاجتمع القـــائد الرنداحى مع الفقيه المعظم أبى العباس فحرضه على القيام بأمر بلده وأن يعينه على ذلك بعدده وعدده والتزم له أن يقوم بالأمر حتى يخلصه فوافقه على ذلك »[162] وكانت

---

(١٥٩) هو أحد أبناء أبى يحيى أبى بكر بن أبى حفص عمر الهنتاتى ، وقد سمى أبناؤه بأبناء الشهيد لأن أبا يحيى استشـــهد فى معركة الارك الشـــهيرة Alarcos عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥م .

(١٦٠) صاحب الأشغال : (أو كاتب الأشغال) هـــو الذى يتولى الأمور المالية فى الدولة من حســـابات العطاء والخراج ، كما يتولى ديوان الجيش ويشرف على احصاء الجنود بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم . وهو شبه وزير المالية حاليا . ومن الطريف أن وزير المالية فى اسبانيا حتى الآن يسمى Ministerio de Haciendo اى وزير الأشغال . راجع : ابن خلدون : المقدمة . طبع بيروت ١٩٠٠ ص٢٤٥ .

(١٦١) ينتسب هـــذا القائد الى بيت بنى الرنداحى فى المرية الذين اشتهروا كقادة مهرة تولوا قيادة الأساطيل الأندلسية والمغربية . وقـــد استمرت هذه القيادة فيهم منذ أواخر أيام الموحدين حتى منتصف القـــرن الثامن الهجرى ، حيث عملوا عند كل من بنى نصر (أو بنى الأحمر) سلاطين غرناطة وعند بنى مرين حكام فاس . راجع : مختارى العبادى : دراسات : ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(١٦٢) ابن عذارى : البيان المغرب . قسم الموحدين ص٣٩٧ — ٣٩٨ .

الخطة تقضى بأن يقوم أبو العباس الرنداحى بعمل وليمة فاخرة فى داره يدعو اليها جميع قادة أسطول سبتة والرماه والغزاه ، وفى نفس الوقت بعث القائد الرنداحى رجاله الى القادة والأجناد الأندلسيين الذين سبق أن نزلوا الى سبتة ، فقتلوهم جميعا • ثم أذاع الخبر على أهل سبتة فخرجوا من ديارهم وتجمعوا مطالبين برأس أبى خالد لشدة جورة عليهم •وبالفعل قتل ابن أبى خالد وقطعت رأسه وعلقت على سور المدينة •

أما ابن الشهيد والى سبتة فقد نفى الى الأندلس ، حيث رحل منها بعد ذلك الى تونس • وتم تعيين أبى القاسم العزفى حاكما علا سبتة، وفى البداية خطب العزفى للخليفة الموحدى عمر المرتضى ، ثم استقل بأمر سبتة فترة من الوقت حتى خضعت سبتة لطاعة بنى مرين(١٦٣) •

---

(١٦٣) ابن خلدون : جـ٦ ص٢٨٠ •

المبحث الخامس

بني يفـرن الزناتيون
في بلاد المغرب والأندلس

تمهيـــد

قسم المؤرخون البربر سكان المغرب الى قسمين كبيرين : بربر البتر وبربر البرانس ، كل منهما يضم عددا كبيرا من القبائل تنقسم بدورها الى أفخاذ وبطون توزعت منازلهم على جميـــع أنحاء بلاد المغرب • وبنو يفرن — موضوع هذا البحث — من أهم فروع قبيلة زناتة البترية[1] ، فقد ذكر ابن حزم الأندلسى أن بنى يفرن ينتسبون الى يفرن بن يصلتين بن مصرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديديت بن شانا[2] (وهو جانا أوزانا الذى تنتسب اليه قبيلة زناتة) • وينقسم

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج.س.كولان ، ليفى بروفنسـال . بيروت ١٩٨٠ ج١ ص٦٦ . ومن المعلوم أن قبائل البتر الكبرى هى : ضريسة ونفوسة واداسة وبنو لوا الاكبر ، وتنقسم ضريسـة الى فخذين كبيرين : مكناسة وزناتة . انظر : ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر . طابعة بولاق ١٢٨٤هـ . ج٦ ص٩١ .

(٢) ابن حزم : جمهرة انسـاب العرب . تحقيق عبد السلام هارون. الطبعة الرابعة . دار المعارف . ١٩٧٧ ص٤٩٨ ، ويضيف ابن حزم أن بنى

بنو يفرن بدورهم الى عدة بطون وأفخاذ من أشهرها بنــو واركوا ومرنجيصة[٣] . وقد استقر بنو يفرن فى مناطق متعددة من بلاد المغرب، فنزل قسم منهم فى المنطقة الممتدة من غرب طرابلس حتى افريقية ، وتعرف فى المصادر العربية « بوطن زناتة »[٤] . وهذه المنطقة يغلب عليها الطابع الجبلى ، حيث توجد جبال دمر ونفوسة وغريان ، كما تكثر الكهوف والمغاور فى هذه الجبال[٥] . ويشير ابن خلدون الى منازلهم فى هذه المنطقة بقولة « وأما افريقية كلها الى طرابلس فبسائط فتح ، كانت ديارا لنفراوة وبنى يفرن ونفوسة ومن لا يحصى من قبائل البربر »[٦] .

يفرن ومغراوة وبنى واسين اخوة ابوهم يصلتين بن مصرا ، فى حين يضم ابن خلدون اليهم بنى يرنيان بحيث يصبح عدد أبناء يصلتين بن مصرا اربعة، وذلك اعتمادا على ما ذكره نسابة البربر أمثال سابق بن سليمان المطماطى وهانىء بن يصدور الكومى وكهلان بن ابى لوا . راجع : ابن خلدون : المصدر السابق ج٧ ص ٥ ، كذلك انظر :

Encyclopedia of Islam, Art. Banù Ifran, by: T.Lewicki: (Leiden-London), 1971. Vol. III, P. 1039.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٠٣ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ليدن ١٩٢٠ ، ص٢٢٤ — ابن خلدون : العبر : ج٧ ص٢ .

(٥) يذهب بعض الباحثين فى الدراسات الأنثروبولوجية الى أن اسم افرن أو يفرن الذى أطلق على تلك القبيلة مشتق من كلمة افرى البربرية ، وتعنى كهف أو مغارة ، وأنهم سموا كذلك لسكناهم فى كهوف هذه المناطق الجبلية . راجع : **E.I. art: Banu Ifran, Vol. III, P. 1039-1040.**

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص١٠٣ .

واستقر بنو واركوا ومرنجيصة من بنى يفرن فى بلاد الجريد بقسطيلية وجبال الأوراس • كما استقرت طائفة من بنى يفرن فى منطقة الزاب، وتوطنوا بها حتى أجلاهم العرب الهلالية عنها فى القرن الخامس الهجرى (١١م) ، فرحلوا الى الصحراء الجنوبية ، ونزلوا بواحة ورقلة[٧] (أو ورجله أو ورجلان) •

أما القسم الأعظم من بنى يفرن فقد استقروا جنبا الى جنب مع بقية قبائل زناته فى جنوبى وهران وتلمسان حتى جبل بنى راشد من بلاد المغرب الأوسط ، وجاوروا قبائل مغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وكلها من زناته[٨] • وبالاضافة الى ذلك فقد استوطن قسم منهم فى المغرب الأقصى وخاصة فى منطقتى سلا على المحيط الأطلسى وتادلا وذلك فى القرن الرابع الهجرى[٩] •

---

(٧) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث . الجزائر ١٩٦٣ ج٢ ص١٧٤ •

(٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر البارون دى سلان . الجزائر ١٩١١ ص١٤٢ ، ابن خلدون : المصدر السابق ج٧ ص٨ ، الميلى : المرجع السابق ج٢ ص٨٧ .

(٨) يوجد فى المغرب الاقصى مركز حديث للسياحة يعرف باسم ايفرن ، يقع على ارتفاع ١٧٠٠ متر وسط غابات الارز الشهيرة بالمغرب تحيط به العيون المتدفقة وتتساقط به خلال فصل الشتاء ثلوج غزيرة تجعله مركزا عالميا لرياضة الانزلاق على الجليد ، ويقع على بعد ٢١ ك.م من الحاجب و ٧١ ك.م من فاس و٧٣ك.م من مكناس ، ولعل تسمية هذا الموقع باسم بنى يفرن لم يأت من فراغ ، ويرجع الى اصول تاريخية وجغرافية نتيجة لاستقرارهم فيه . راجع : الصديق بن العربى : كتاب المغرب . بدون تاريخ. الرباط ص٢٢ .

١ ـ بنو يفرن منذ الفتح العربى حتى سقوط الدولة الأموية :

لعب بنو يفرن دورا بارزا فى أحداث الفتح العربى للمغرب ، فقد انضووا مع غيرهم من قبائل البربر البتر تحت لواء الكاهنة ملكة جبل الأوراس[١] ، والتى أخذت على عاتقها مهمة مقاومة الفتح العربى لبلاد المغرب عقب مصرع كسيلة بن لمزم زعيم قبيلة أوربة البرانسية على يد زهير بن قيس البلوى عام ٦٩هـ/٦٨٨م . فقد اشترك اليفرنيون مع الكاهنة فى التصدى للفاتحين العرب بقيادة حسان بن النعمان ،

---

(١) ذكر ابن عذارى أن يفرن جد اليفرنيين هو فى نفس الوقت والد الكاهنة ، وهو قول غريب بعض الشىء ، لأن غالبية المؤرخين يذكرون أن الكاهنة كانت زعيمة لقبيلة جراوة البترية . ومن المحتمل ان يكون ما ذكره ابن عذارى صحيحا ، اذا اعتبرنا أن زعامة قبيلة جراوة انتقلت الى الكاهنة عقب وفاة زوجها ، ولا نستبعد أن تكون هذه المراة كانت تنتسب الى بنى يفرن قبل أن تتزوج من زعيم قبيلة جراوة ، بدليل أن أحد ولديهـــا اللذين استأمنا لحسان بن النعمان عقب مصرعها ، كان يسمى يفرن ، فاذا صح ما ذكره ابن عذارى ، فان يفرن ابن الكاهنة قد تسمى على اسم جده لأمه. راجع : ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٢١٦ . ليفى بروفنسـال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب . ترجمه الى العربية وعلق عليه د. حسين مؤنس . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية . مدريد ١٩٥٤ . العدد ١ ــ ٢ المجلد الثانى ص٢١١ ، ص٢٢٣ .

وتمكنوا من التغلب عليهم فى معركة وادى مسكيانة[٢] عام ٧٤هـ/٦٩٣م. بيد أن حسانا لم يلبث أن عاود الكرة على الكاهنة وحلفائها البربر — ومن بينهم بنى يفرن — وانتصر عليهم فى معركة بئر العطر عام ٨٢هـ/٧٠١م، ثم اقتحم جبل الأوراس ، وقتل عددا كبيرا من البربر ، فلما تم له استرداد المغربين الأدنى والأوسط ، قلد ولدى الكاهنة أمر جراوة التى ينتسبان اليها ، بالاضافة الى من انضوى اليهم بجبل الأوراس[٣] .

ويغلب على الظن أن بنى يفرن دخلوا فى الاسلام شأنهم فى ذلك شأن بقية القبائل البربرية ، وأنهم بدأوا يتعربون ويتفهمون قواعد الدين الجديد نتيجة لجهود التى بذلها حسان بن النعمان ومن خلفه من الولاة المصلحين فى سبيل نشر الاسلام بين البربر .

---

(٢) هناك عدة تسميات لهـذه المعركة ، فابن عبد الحكـم والرقيق القيروانى يطلقان عليها معركة وادى او نهر البلاء (ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ٢٠٠ ، الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى . تونس ١٩٦٧ . ص٥٦ — ٥٧) ، ثم يضيف الرقيق اسما آخر لهذه المعركة حيث يسميها معركة وادى العذارى نظرا لكثرة من قتل بها من زهرة شباب العرب . أما ابن الأثير فيطلق عليها معركة نهر نينى (الكامل فى التاريخ . طبعة بيروت ج٤ ص ١٨٠ حوادث عام ٧٤هـ) ، فى حين يذكر عبيد الله بن صالح أن اسمها معركة ترضى (ليفى بروفنسال : المرجع السابق ص٢٢٢) ، ولكن يبدو أن الاسم الذى أطلقه عليها ابن عذارى (وادى مسكيانه) هو الأصح (البيان المغرب ج١ ص٣٦) ، فقد ذكر البكرى (المغرب ص ٥٠) أن قرية مسكيانه تقع على نهر قريب من باغاية القريبة من جبل الأوراس . انظر كذلك د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى. الاسكندرية ١٩٧٩ ج١ ص٢٨٨ — عبد العزيز سالم : المغرب الكبيـر . الاسكندرية ١٩٦٦ ص٢٤٤ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج٧ ص٩ .

غير أن عددا من عمال بنى أمية أساء الى البربر واصطنعوا معهم سياسة تقوم على العنف ، واستباحوا ديارهم ، وسبوا نساءهم ، وقد ساعد ذلك على تقبل البربر لمبادىء الخوارج الداعية الى المساواة بين المسلمين ، والثورة على الظلم ، وهى مبادىء تسربت الى المغرب عن طريق بعض الدعاة المشارقة الذين وجدوا فى بلاد المغرب فى هذه الفترة أرضا صالحة لتقبل تلك الأفكار ، فالسياسة العنيفة التى اصطنعها ولاة الأمويين فى المغرب أثارت فى نفوس البربر الرغبة فى الثورة ضد العرب وممارساتهم القمعية . وقد اعتنق بنو يفرن المذهب الخارجى الصفرى، وضربوا فيه بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه[٤] . وبرز أبو قرة بن دوناس اليفرنى[٥] كأحد قادة البربر الذين شاركوا فى ثورات البربر ضد العرب. وقد تولى أبو قرة أمر بنى يفرن منذ عام ١١١هـ/٧٢٩م[٦] . ومن المرجح أن اليفرنيين شاركوا اخوانهم صفرية المغرب الأقصى فى ثوراتهم ضد السيادة الأموية ، واشتركوا معهم فى معركتى الاشراف (١٢٣هـ/٧٤٠م)

---

(٤) ابن خلدون : نفس المصدر ج٧ ص١١ .

(٥) ذكر ابن خلدون (ج٧ ص١٢) أن هناك اختلافا بين المؤرخين حول شخصية هذا القائد ، فالبعض ينسبه الى قبيلة مغيلة — احدى قبائل زناته — ، والبعض الآخر ينسبه الى يفرن . وقد ذكر الدكتور محمود اسماعيل ان سبب هذا الاختلاف حول أصل أبى قرة انما يرجع الى العرف الشائع عند البربر من انخراط القبائل تحت زعامة اكثرها قوة ونفوذا ، ولما كانت يفرن اشد قوة وجمعا من مغيلة — وفقا لرواية ابن خلدون — كما أن القبلتين كانتا متجاورتين فى الموطن، فقد حدث اللبس حول أصل ابى قرة. راجع : محمود اسماعيل : الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . القاهرة ١٩٨٦م . ص٧٧ .

(٦) E.I. art: Banu Ifran, Vol. III, P. 1039-1040.

وبقدورة (١٢٤هـ/٧٤١م) ۰ وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر صراحة الى اشتراك بنى يفرن فى هاتين المعركتين ، الا أن منطق الأحداث يدعونا الى الاعتقاد بانضمامهم الى جانب صفرية المغرب الأقصى حيث عملوا تحت قيادة خالد بن حميد الزناتى (قائد الخوارج الصفرية فى المعركتين السابقتين) ، كما أن أبا قرة اليفرنى هو الذى تولى رئاسة صفرية زناته عقب وفاة خالد بن حميد ۰

كذلك شارك اليفرنيون فى حصار مدينـــة القيروان عام ١٢٥هـ/ ٤٢ — ٧٤٣م ، وذلك حينما انضم أبو قرة اليفرنى الى جانب عبد الواحد بن يزيد الهوارى ، وأسندت اليه قيادة جيشه فى معركة الأصنام التى أوقع فيها حنظلة بن صفوان والى المغرب بالبربر الصفرية وهزمهم هزيمة شنعاء ، فر على أثرها مع فلول أصحابه الى تلمسان حيث أقام انتظارا لفرصة مواتية يشن فيها هجوما على العرب ۰ ومما لاشك فيه أن وقعتى الأصنام والقرن حسمتا الموقف لصالح العرب وحالتا دون سقوط افريقية فى أيدى الخوارج الصفرية ، ومع ذلك فقد بدا واضحا أن هؤلاء الصفرية يشكلون خطرا كبيرا على السيادة العربية فى المغرب، ولهذا السبب حرص كل من تقلد ولاية افريقية على محاربتهم ۰ بيد أن الظروف السياسية المضطربة التى مرت بها بلاد المغرب ابان الفترة الأخيرة من حكم الأمويين ، وبداية عصر العباسيين ، هيـــأت المجال للبربر لمواصلة شن هجماتهم على العرب ۰ فقد انتهز أبو قرة اليفرنى فرصة استيلاء عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهرى) على القيروان عام ١٢٩هـ/٧٤٦م ، واقدامه على طرد حنظلة بن صفوان والى افريقية الشرعى ، وثار هو وجموع اليفرنيين بتلمسان ، ولم يتمكن عبد الرحمن بن حبيب من القضاء على هذه الثورة الا عام

١٣٥هـ/٧٥٢م عندما ألحق هزيمة ساحقة بأبى قرة وجموع اليفرنيين[٧] •
ولكن هذه الهزيمة لم تحل دون استمرار اليفرنيين فى ثوراتهم ضد العرب ، فتحالف عبد الملك بن أبى الجعد اليفرنى — أحد زعماء بنى يفرن — مع عاصم بن جميل زعيم قبيلة ورفجومة الصفرية ، واشتركا سويا فى مهاجمة القيروان عام ١٣٩هـ/٧٥٦م ، وتمكنا من الاستيلاء عليها ، ولما اضطر عاصم بن جميل الى الخروج بقواته لتتبع حبيب بن عبد الرحمن الفهرى[٨] بنواحى قابس وجبل الأوراس ، استخلف على القيروان حليفه عبد الملك اليفرنى • ثم تولى عبد الملك بن أبى الجعد اليفرنى زعامة صفرية افريقية عقب مصرع عاصم بن جميل ، وفى فترة رئاسته للصفرية ، ارتكب هؤلاء العديد من الجرائم والفظائع ضد أهل القيروان ، الأمر الذى أثار سخط الخوارج الاباضية بطرابلس ، فعقدوا العزم على تخليص القيروان من عبد الملك اليفرنى وأتباعه الصفرية •
وفى شهر صفر عام ١٤١هـ/يونيو — يوليو ٧٥٨م ، دارت معركة ضارية على مقربة من القيروان ، لقى فيها عبد الملك مصرعه ، وانتهت بانتصار

---

(٧) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق أكرم العمرى . بغداد ١٩٦٧ ج٢ ص٤١١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٦١ •

(٨) حبيب بن عبد الرحمن الفهرى هو احد ابناء عبد الرحمن بن حبيب الفهرى مؤسس امارة الفهريين فى افريقية ، والتى دام سلطانها من عام ١٢٩هـ حتى ١٤٠هـ • ولمزيد من التفاصيل حول هذه الامارة الفهرية راجع : الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب ص١٢٣ وما بعدها ، ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص١١٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص ٦٠ وما بعدها . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ج١ ص٣١٣ — ٣٣٩ . رضوان البارودى : الفهريون فى المغرب والاندلس ودورهم السياسى والحضارى . الاسكندرية ١٩٨٦ ص ١٠ — ١٧ •

ساحق أحرزه الاباضية على الصفرية وقتل عدد كبير منهم(٩) .

٢ — تأسيس أول أمارة يفرنية مستقلة فى تلمسان فى بداية العصر العباسى :

نتيجة للهزيمة التى لحقت ببنى يفرن والصفرية ، اضطر أبو قرة اليفرنى الى الاستقرار فى موضع يقع قريبا من مدينة تلمسان الحالية(١٠) أخذ فى تمصيره وتعميره وحاطه بسور منيع(١١) ، واتخذ من هذا الموضع قاعدة لامارة صفرية مستقلة فى تلمسان اتسع نطاقها مع مضى الزمن ، اذ تمكن من ضم صفرية المغرب الأدنى الى جانبه بالاضافة الى قبيلة مغيلة وكذلك الشريط الساحلى الغربى الممتد من المغرب الأوسط حتى المنطقة التى تلى تامسنا بالمغرب الأقصى(١٢) . وأثار قيام امارة صفرية

---

(٩) ابو زكريا : كتاب سير الائمة واخبارهم . تحقيق اسماعيل العربى. الجزائر ١٩٧٩ ، ص٣٩ — ٤١ — ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص ٧٠ — ٧١ ، ابن خلدون : العبر ج٦ ص١١٢ .

(١٠) تلمسان Tlemcen : مدينة بغرب القطر الجزائرى ، وصفها الجغرافيون بانها قاعدة المغرب الأوسط ، وهى دار مملكة زناته حيث يسكن حولها قبائل كثيرة من زناتة وغيرهم من البربر ، وكانت كثيرة الخصب والرخاء ، وأصبحت فى القرن السابع الهجرى عاصمة لدولة بنى زيان . انظر : البكرى : المغرب ص٧٦ — الحميرى : الروض المعطار ص ١٣٥ .

(١١) ذكر البكرى ان لمدينة تلمسان خمسة ابواب وان أحد ابوابها (وهو الباب الغربى) كان يسمى باب ابى قرة نسبة الى ابى قرة اليفرنى. ص٧٦ — ٧٧ .

(١٢) مؤلف مجهول : مفاخر البربر نشر ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٤ ، ص٤٩ كذلك انظر : محمود اسماعيل : المرجع السابق ص٧٧ .

بالمغرب الأوسط قلق الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٤٥هـ/٧٥٣ — ٧٦٢م) الذى كان يدرك تماما أن هؤلاء الصفرية يتأهبون لجولة تالية مع عرب افريقية ، ولما كان المنصور حريصا على بسط نفوذ الخلافة العباسية على افريقية ، فانه لم يتردد فى تسيير قواته من الاسكندرية الى افريقية ، فأرسل جيشا عدته أربعون ألف مقاتل وثمانية وعشرين قائدا يتقدمهم محمد بن الأشعث الخزاعى واليه على مصر وذلك عام ١٤٤هـ/٧٦١م . الذى أسند اليه المنصور مهمة القضاء على ثورات الخوارج سواء من الصفرية أو الأباضية . وعلى الرغم من النجاح الذى حققه ابن الأشعث الخزاعى فى هذا المجال ، الا أنه لم يمكث طويلا بافريقية . اذ ثار عليه بعض قواد جيشه وأرغم فى نهاية الأمر على اعتزال الولاية وذلك عام ١٤٨هـ/٧٦٥م[١٣] .

استغل بنو يفرن فرصة اضطراب أحوال جند العباسيين بافريقية وانقسامهم . وبايعوا أبا قرة اليفرنى اماما عليهم (عام ١٤٨هـ) ، ثم خرجوا فى حشود هائلة نحو القيروان فى عام ١٥٠هـ/٧٦٧م بغية القضاء على الحكم العباسى . وآثر الأغلب بن سالم التميمى والى افريقية الجديد أن يخرج بقواته لمواجهة هذا الخطر . وزحف بهذه القوات الى الزاب . فاضطر أبو قرة الى الانسحاب غربا الى تلمسان . اما لأنه خشى أن يتمكن الأغلب التغلب عليه لتفوق قواته فى العدد وقربها من القيروان — قاعدتها فى افريقية — . أو لأنه أراد أن يستدرج الأغلب بن سالم الى معاقل الخوارج الصفرية فى العمق المغربى سواء فى المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى وهناك يصبح فى امكانه سحق القوات

---

(١٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج١ ص٧٣ .

العباسية[١٤] • وكيفما كان الأمر . فن الأغلب أراد الاندفاع وراء أبى قرة اليفرنى بغية القضاء على الصفرية فى عقر دارهم سواء فى تلمسان أو فى طنجة[١٥] ، ولكن قادة جيشه اعترضوا على ذلك وقالوا له « قد هرب أبو قرة الذى خرجنا اليه » . وأخذوا يتسللون من معسكره عائدين الى القيروان ، ولم يبق مع الأغلب الا نفر يسير ، فعاد أدراجه الى القيروان ، حيث لقى مصرعه فى نفس العام (١٥٠هـ)[١٦] • أما أبو قرة فقد أقام بحشوده فى تلمسان يعد العدة لجولة تالية •

خلف الأغلب على افريقية قائد عرف بشجاعته المفرطة هو عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة (أخى المهلب بن أبى صفرة) ولقب بهزار مرد (ومعناها بالفارسية ألف رجل) لشدة بأسه وشجاعته النادرة ، اختاره المنصور بالذات لقدراته العالية فى قمع الحركات الثورية وتجاربه الموفقة مع الخوارج الأزارقة فى المشرق ، وحرصه على نشر الأمن فى كل أنحاء المغرب[١٧] • ومن الجدير بالملاحظة أن فرقتى الاباضية والصفرية فى المغرب تضامنتا لاعلان الثورة على العباسيين فى المغرب ، فقد ثار من الاباضية كل من أبى حاتم يعقوب بن حبيب بن مدين (امام الاباضية عقب وفاة امامهم عبد الأعلى) بنواحى طرابلس[١٨] ، وعاصم السدراتى

---

(١٤) محمود اسماعيل : المرجع السابق ص ١٠٠ — ١٠١ .

(١٥) ابن خلدون : ج٦ ص١١٢ .

(١٦) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص٥٨٦ — ابن الابار : الحلة السيراء: نشر حسين مؤنس . القاهرة ١٩٨٥ ج١ ص ٧٠ — ٧١ .

(١٧) نلاحظ أن عمر بن حفص من أسرة المهلب بن أبى صفرة التى اشتهرت بحروبها ضد الخوارج الأزارقة فى بلاد المشرق اثناء عصر الدولة الاموية .

(١٨) ابن خلدون : ج٦ ص١١٢ .

الاباضى فى ستة آلاف رجل[19] ، وعبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألف رجل[20] ، والمسور بن هانىء الزناتى فى عشرة آلاف من الاباضية، ومن الصفرية كل من عبد الملك بن سكرديد الصنهاجى فى ألفين ، وجرير بن مسعود وأتباعه من قبيلة مديونة ، وأبى قرة اليفرنى فى أربعين ألفا من قومه وغيرهم . وقد اتجه هؤلاء الثوار جميعا الى مدينة طبنه[21] — عاصمة الزاب — وحاصروا عمر بن حفص ، الذى اتفق وجوده بها فى هذه الآونة للاشراف على تحصينها وتفقد مصالحها وتعهدها بالعناية بناء على أوامر تلقاها من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى أراد أن يجعل من هذه المدينة وما حولها من حصون سدا منيعا أمام أى عدوان يوجه اليها من المغرب الأوسط . ولما كانت مدينة طبنة تقع على الطريق الرئيسى المؤدى الى تلمسان مقر امارة بنى يفرن الصفرية، فقد اعتبر اليفرنيون ما يقوم به عمر بن حفص عملا عدائيا موجهـا ضدهم ، ولذلك قرر أبو قرة أن يتحد مع الاباضية لمواجهة عدوهما

---

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص ٧٥ .

(٢٠) هذا الرقم ذكره كل من ابن الأثير (الكامل ج ٥ ص٥٩٩) ، وابن عذارى (ج١ ص ٧٥) ، أما ابن خلدون (نفس المصدر والصفحة) فقد ذكر ان عدد جند عبد الرحمن بن رستم بلغ ستة آلاف فقط .

(٢١) طبنه Tobna (بضم الطاء وسكون الباء وفتح النون) : عاصمة بلاد الزاب ومقر الولاة ، وتقع فى وسط الزاب الممتد من جنوب قسنطينة فى الجزائر ، وصفها الادريسى بأنها مدينة حسنة كثيرة الماء والبساتين الزروع، وعليها سور من تراب ، وبها صنائع وتجارة ، ويعمل اهلها كذلك بالتجارة ، ويجنون من ورائها اموالا طائلة . الادريسى : نزهه المشتاق ج١ ص٢٦٣ ، البكرى : المغرب ص ٥٠ — الاستبصار لمؤلف مجهول نشر سعد زغلول عبد الحميد . الاسكندرية ١٩٥٨ ص١٧٢ — الحميرى : الروض المعطار ص٣٨٧ .

المشترك[٢٢] ، واستغل الخوارج تفوقهم العددى على قوات عمر بن حفص التى لم تكن تتجاوز خمسة عشر ألفا لتوجيه ضربتهم . وعندما أدرك عمر بن حفص أنه لا قبل له بكل هذه الحشود ، قرر أن يستخدم سلاح المال للخروج من هذا المأزق الصعب الذى وجد نفسه فيه ، لاسيما فى هذه الظروف السياسية الحرجة التى سادت المغربين الأدنى والأوسط منذ سقوط الخلافة الأموية ، هذا الاضطراب السياسى انعكست آثاره على الناحية الاقتصادية فى المغرب ، فقد كثرت المجاعات ، وعم القحط فى البلاد ، وعانى البربر كثيرا من ضروب البؤس والفقر[٢٣] . ويذكر المؤرخون أن عمـــر بن حفص بعث مع رجل من قبيلة مكناسة يدعى اسماعيل بن يعقوب أربعين ألف درهم وكسى كثيرة[٢٤] الى أبى قرة اليفرنى نظرا لكثرة أصحابه وخطورتهم ، على شريطة أن ينسحب هو وقومه ومن انضم اليه من الخوارج الصفرية والاباضية من مواقعهم أمام طبنة ، ولكن أبا قرة اعتبر هذا العرض السخى رشوة ، رفض

(٢٢) عوض خليفات : نشأة الحـــركة الاباضية . عمان ١٩٧٨ . ص ١٦٠ .

(٢٣) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٣٥٢ .

(٢٤) اختلف المؤرخون حول مقدار الرشوة التى عرضها عمر بن حفص على ابى قرة اليفرنى ، فالرقم المذكور فى المتن ذكره كل من ابن خلـــدون (العبر ج٧ ص١٢) والنويرى (نهـــاية الأرب . القسم الخاص بالمغرب والأندلس ، نشره د. مصطفى أبو ضيف . الدار البيضاء . ١٩٨٤ ص٢٤٣) أما ابن الأثير (الكامل ج ٥ ص٥٩٩) فذكر أن مقدارها كان ستين الفا ، فى حين ان ابن عذارى لم يحدد مبلغا معينا ، واكتفى بالقول بأن عمر بن حفص وجه الى أبى قرة مالا كثيرا وكسى على أن ينصرف عنه . (البيان المغرب ج١ ص٧٦) .

قبولها وقال لاسماعيل المكناسى : « بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا ؟ لا حاجة لى به »[٢٥] . وازاء رفض أبى قرة قبول الأموال ، عرض اسماعيل المكناسى أربعة آلاف درهم فقط على ابنه (وقيل أخيه) نظير انسحابه من موقعه أمام طبنة هو ومن معه من بنى يفرن ، ولم يتردد ابن أبى قرة فى الاستجابة لذلك، وشرع من ليلته فى اقناع زعماء بنى يفرن بالانسحاب ، « فلم يعلم أبو قرة حتى انصرف عنه أكثر أهل العسكر فلم يجد بدا من اتباعهم »[٣٦] .

أدى انسحاب اليفرنيين من مواقعهم أمام طبنة الى انقسام الخوارج وتفككهم وتفرق كلمتهم ، وتمكن عمر بن حفص من الخروج من طبنة بعد أن ترك عليها أحد قادته وهو المهنا بن المخارق بن غفار

---

(٢٥) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والصفحة — ابن عذارى : المصدر السابق والصفحة .

(٢٦) الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب ص١٤٣ — ابن عذارى : نفس المصدر والصفحة . النويرى : نفس المصدر ص٢٣٤ . هذا ويشكك الدكتور محمود اسماعيل (الخوارج ص٧٩ — ٨٠) فى مسألة الرشوة التى عرضها عمر بن حفص على زعيم بنى يفرن ، ويبرر انسحاب أبى قرة من أمام طبنه بأن خلافا قد وقع بين اليفرنيين والاباضية ، لأن تعاونهما فى بلاد المغرب — على حد قوله — ليس مألوفا ، وأن الفرقتين الخارجيتين كانتا على خصومة وعداء كثيرا ما وصل الى درجة الصراع والتناحر . بيد اننا نرى انه ليس هناك ما يمنع من عرض عمر بن حفص الأموال سواء على أبى قرة نفسه أو على ابنه، طالما سيؤدى ذلك الى رفع الحصار عن طبنه ، كما أن مسألة الخلاف بين الاباضية والصفرية ليس مبررا لعدم تعاونهما ضد عدوهما المشترك ، والا بماذا نفسر اشتراك أبى قرة وبنى يفرن فى حصار طبنة ، ثم اشتراكهم مع الاباضية بعد ذلك فى حصار القيروان ؟ .

الطائى . بيد أن أبا قرة لم يلبث أن عاود حصار طبنة من جديد بعد أن رحل عنها أبو حفص لمحاربة أبى حاتم الاباضى وأصحابه . ويشير الرقيق القيروانى الى أن المهنا بن المخارق توسل بنفس الوسيلة التى اتبعها عمر بن حفص مع أبى قرة ، وهى اغراء أبى قرة بقدر كبير من المال ، فأرسل اليه يطلب منه الانصراف عنه ، فرد عليه أبو قرة بقوله « نصيبى منك ومن قبيلك أحرار ، ولكن لا سبيل الى ترك غنيمة المسلمين »[٣٧] . واضطر المهنا بن المخارق الى خوض معركة عنيفة مع اليفرنيين انتهت بانتصاره عليهم فى عام ١٥٤هـ/٧٧١م .

ولم تحل هزيمة اليفرنيين أمام طبنة عن مشاركتهم لخوارج الاباضية والصفرية فى حصار عمر بن حفص بالقيروان[٣٨] ، فقد خرج أبو قرة اليفرنى على رأس أربعين ألف من بنى يفرن متجها نحو القيروان ، حيث انضم الى جيوش الخوارج الأخرى ، وأحكم الجميع

---

(٢٧) الرقيق القيروانى : المصدر السابق ص١٤٣ .

(٢٨) اختلف المؤرخون حول أعداد الخوارج الذين حاصروا عمر بن حفص فى القيروان ، فالرقيق القيروانى (ص١٤٤) وابن عذارى (البيان المغرب ج١ ص٧٦) ذكرا أولا أن عددهم بلغ مائة وثلاثين الفا ، وهو رقم يبدو معقولا، ولكنهما عادا وذكرا ان عددهم بلغ ثلاثمائة وخمسين الفا (الرقيق ص ١٤٥ ، ابن عذارى : ج١ ص٧٧) . وقد ذكر نفس الرقم الأخير (٣٥٠ الف) كل من الطبرى (تاريخ الأمم والملوك ج٨ ص٤٢) وابن خلدون (العبر ج٧ ص١٢) والنويرى (نهاية الأرب ص٢٣٦) . كذلك وقع الاختلاف بينهم حول تقدير عدد الفرسان فى هذا الجيش ، فالمقل منهم ذكر خمسة وثلاثين الفا (ابن عذارى : نفس المصدر والصفحة — النويرى : نفس المصدر والصفحة ، أما المكثر فذكر خمسة وثمانين الفا (الطبرى : نفسه — الرقيق القيروانى : ص ١٤٥ — ابن خلدون : نفس المصدر والصفحة) ويبدو لنا أن رقم ٣٥ الفا مقبولا .

الحصار عليها وانتهى هذا الحصار بمصرع عمر بن حفص فى منتصف ذى الحجة عام ١٥٤هـ/نوفمبر ٧٧١م ، وسقوط القيروان فى يد أبى الخطاب الاباضى • ولكن سيطرة الخوارج على القيروان لم تستمر طويلا ، فقد تمكن يزيد بن حاتم المهلبى والى افريقية الجديد من الحاق الهزيمة بهم فى معركة شرسة قتل فيها أبو حاتم امام الاباضية ، ويذكر ابن خلدون أن أبا قرة اضطر الى العودة الى موطنه بتلمسان بعد أن لقى هزيمة منكرة على أيدى جيوش يزيد بن حاتم « ولم يكن لبنى يفرن من بعدها انتقاض »[٢٩] •

٣ ــ العلاقات بين بنى يفرن ودول المغرب منذ منتصف القرن الثانى الهجرى :

أ ــ مع بنى رستم أصحاب تاهرت :

لاشك أن الضربات العنيفة التى وجهها يزيد بن حاتم لبنى يفرن دفعتهم الى التزام الهدوء والجنوح الى السلم ، كما أدت الظروف الجديدة التى طرأت على بلاد المغرب الى تغير كبير فى سياسة بنى يفرن، فقد استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يؤسس دولة اباضية فى المغرب الأوسط ، واتخذ من مدينة تاهرت عاصمة لدولته ، وبذلك أصبح مجاورا لامارة بنى يفرن فى تلمسان • ويبدو أن سياسة حسن الجوار هى التى حكمت العلاقة بين اليفرنيين والرستميين ، وتشير المصادر الى أن عبد الرحمن بن رستم تزوج من امرأة يفرنية أنجبت له ولده عبد الوهاب[٣٠] • ويذكر بعض مؤرخى الاباضية أن عبد الرحمن بن

---

(٢٩) ابن خلدون : ج٧ ص١٢ •

(٣٠) أشار T. Lewicki الى ان هذا الزواج قد تم حوالى عام ١٤٨هـ استنادا الى أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عند وفاة ابيه فى عام

رستم عندما أحس بدنو أجله ، حذا حذو عمر بن الخطاب ، فاختار ستة نفر من أصحابه أضاف اليهم ولده عبد الوهاب ليختار الاباضية منهم خلفا له[31] ، ومن بين هؤلاء الستة أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني الذى لعب دورا كبيرا فى ترشيح عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لامامة الرستميين ، فقد انحصر هذا المنصب فى شخصين اثنين : عبد الوهاب ومسعود الأندلسى . ويذكر أبو زكريا[32] أن أبا قدامة يزيد بن فندين لما تعذر له ترشيح نفسه للامامة ، عمل على تولية عبد الوهاب وقال « هو أقرب منا رحما من غيره ، ولعل ذلك أن يعطفه علينا ، لأن أم عبد الوهاب يفرنية ، فرجوا فيه أن يؤثرهم فى الأمور لأنه ابن أختهم ، فقام أبو قدامة فى نفر من أصحابه فأبوا الا مبايعة عبد الوهاب للمناسبة التى بينهم ، فطمعوا أن يؤثرهم على غيرهم » . ومن الواضح أنه كان للعصبية القبلية دورها فى مسألة اختيار امام الرستميين الجديد[33] ، وأن يزيد بن فندين كان يطمع أن يحظى بقدر

١٧٦هـ/٧٨٥م كان شابا يافعا ، واحد سبعة أفراد رشحهم عبد الرحمن بن رستم لخلافته . E.I. art Banu Ifran.

(٣١) هؤلاء الستة هم : أبو قدامه يزيد بن فندين اليفرانى ، عمران بن مروان الأندلسى ، أبو الموفق ، سعدوس بن عطية ، بكر بن صالح الكتامى ، مصعب بن سدمان . ونلاحظ ان من بين هؤلاء الستة اثنان أندلسيان ، ولعل هذا يفسر لنا سياسة الولاء لبنى أمية فى الأندلس التى سار عليها الرستميون منذ بداية دولتهم . راجع : أبو زكريا : المصدر السابق ص٥٤ — ٥٥ .

(٣٢) سير الأئمة ص٥٦ — الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب : تحقيق ابراهيم كلاى . قسنطينة . ١٩٧٤ ج١ ص٤٧ .

(٣٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣١٢ .

كبير من النفوذ فى الدولة ، ولكن عبد الوهاب جمع كل السلطات فى يديه ، مما أثار ضيق ابن فندين ومن معه من بنى يفرن ، وحملهم ذلك على اثارة المشاكل فى وجه عبد الوهاب(٣٤) ، وانتهى الأمر باعلان ابن فندين الثورة على الامام ، وحدث ما تسميه كتب الاباضية بالانشقاق أو الافتراق الأول ، وظهور فرقة النكارية الذين أنكروا امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم • ويشبه هذا الافتراق ما يعرف عند الشيعة بالانقسام المذهبى الى فرقتين كالنزارية والمستعلية • وتجمع أنصار ابن فندين من بنى يفرن بالاضافة الى بعض العناصر الاباضية فى كدية تقع خارج تاهرت تعرف بكدية النكار(٣٥) ، وبعد عدة مناوشات بسيطة اتفق الطرفان على عرض مسألة الخلاف بينهما على اخوانهم من علماء المذهب بالمشرق وخاصة مصر ومكة • وتشير المصادر الاباضية الى أن شعيبا بن المعرف المصرى أيد وجهة نظر ابن فندين اليفرنى ، بل واشترك معه فى ثورته التى أعلنها ضد الامام عبد الوهاب ، منتهزين فرصة خروجه من تاهرت لبعض شئونه، ولكن الأمير أفلح بن عبد الوهاب تمكن من اخماد ثورة النكارية من بنى يفرن بعد أن قتل عددا كبيرا منهم بلغ حوالى اثنى عشر ألفا من بينهم ابن فندين نفسه وذلك عام ١٨٨هـ/٨٠٣م(٣٦) •

---

(٣٤) اثار ابن فندين مسألة استبداد الامام بالسلطة ، واشترط ضرورة الا يقطع الامام أمرا دون مشورة كما كان الحال فى عهد عبد الرحمن ، ولكن غالبية فقهاء الاباضية انكروا هذا الشرط . أبو زكريا : ص٥٨ — ٥٩ •

(٣٥) ابن الصغير : اخبار الائمة الرستميين . تحقيق محمد ناصر وابراهيم بحاز . بيروت ١٩٨٩ ص ٥٠ •

(٣٦) ابو زكريا : المصدر السابق ص٦٣ — الدرجينى : المصدر السابق: ج١ ص٥٤ — ولمزيد من التفاصيل حول ثورة ابن فندين راجع : محمـــود

ب — مع الأدارسة :

يذكر المؤرخون أن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فر من مكة بعد أن هزم العباسيون الحسنيين فى موقعة فخ عام ١٦٩هـ/٧٨٦م الى المغرب الأقصى ، وهناك تمكن من تأسيس دولة علوية فى منطقة السوس الأدنى بعد أن بايعته قبيلة أوربة البرانسية بزعامة عبد الحميد الأوربى ، واتخذ الامام ادريس من مدينة وليلى Volubilis مقرا له وذلك عام ١٧٢هـ/٧٨٨م . وبعد أن تمكن ادريس من بسط سلطانه على القبائل المحيطة بمنطقة السوس الأدنى ، عمل على اخضاع منطقة تامسنا ، فدخل فى صراع عنيف مع بنى طريف ملوك برغواطة المقيمين فى هذه المنطقة ، وتمكن بعد حروب عنيفة من السيطرة على بلاد تامسنا بالاضافة الى اقليم تادلا(٣٧) . واتجهت أنظاره بعد ذلك الى المغرب الأوسط وخاصة منطقة تلمسان حيث قبائل بنى يفرن ومغراوة . والواقع أن الأمارة التى كونها أبو قرة اليفرنى فيما يقرب من منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) كانت قد تفككت منذ سنوات ، وفقد اليفرنيون سيطرتهم على تلمسان بعد أن تغلب بنو خزر المغراويون عليهم فى عام ١٧٣هـ/٧٨٩م . وعندما اتجه الامام ادريس الى تلمسان عام ١٧٣هـ ، بادر محمد بن خزر بن صولات المغراوى الى بذل طاعته وطاعة القبائل الزناتية التابعة له — ومن بينهم بنى يفرن — للامام ادريس ، فأمنهم ودخل مدينة تلمسان صلحا عام

= اسماعيل : المرجع السابق ص١٥٦ — ١٥٨ — سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ج٢ ص٣١٣ — ٣٢٣ .

(٣٧) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس . نشر تورنبرج . اوبسالا . ١٨٤٣م ص٧ — ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢ .

١٧٤هـ/٧٩٠م[٣٨] • ولم يسكت الامام عبد الوهاب بن رستم على ذلك، فحاول استعادة نفوذه فى منطقة تلمسان ، ولكنه عجز عن تحقيق ذلك، فاكتفى بتحريض أصهاره اليفرنيين ضد الأدارسة ، ولم تؤد ثورات اليفرنيين الى أية نتيجة ، بل على العكس من ذلك ، كانت حافزا لادريس الثانى لغزو بلاد المغرب الأوسط وتلمسان وذلك عام ١٩٨هـ/٨١٤م حيث تمكن من اخضاع بنى يفرن ، فدانوا له بالطاعة وأخلصوا له ونبـذوا مبادىء الخوارج[٣٩] • وبلغ من شدة تعلق بنى يفرن بالأدارسة أنهم حاولوا مع قبيلة مغراوة اقناع الرستميين بالدخول فى طاعة الأدراسة، وكان طبيعيا ألا يستجيب الرستميون لذلك[٤٠] ، وشنوا عدة هجمات على اليفرنيين والمغـراويين • ولم توضح لنـا المصادر نتائج هذه الاشتباكات الحربية ، ولكن يبدو أنها لم تسفر عن شىء ، واقتصر رد فعل الرستميين على مجرد غارات محدودة الأثر والنتائج قام بها أفراد من قبيلة نفوسة الموالية للرستميين ضد بنى يفرن[٤١] •

جـ ـ مع الفاطميين :

نجح الفاطميون فى اقامة امامة شيعية اسماعيلية لهم بافريقية عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م بفضل المساعدات القيمة التى قدمتها كتلة القبائل البرانسية (كتامة ثم صنهاجة) ، وتمكن الفواطم بفضل هذه المساعدات من القضاء على دول المغـرب التى كانت قائمة آنذاك مثـل الأغالبة والرستميين والمدراريين بسلجماسة • وعلى الرغم من قوة الفاطميين

---

(٣٨) البكرى : المغرب ص١١٨ ـ ابن ابى زرع : نفس المصدر ص٨ ـ ابن خلدون : ج٤ ص١٣ •

(٣٩) الجزنائى : زهرة الآس . نشر الفرد بل . الجزائر ١٩٢٢ ص٢٢.

(٤٠) ابن خلدون : ج٦ ص١٢١ ـ ١٢٢ ـ محمود اسماعيل: الخوارج: ص١٥٦ •

(٤١) الشماخى : السير ص١٩٧ ـ ١٩٨ •

العسكرية ، الا أن بلاد المغرب لم تصف لهم، فقد واجهتهم قبيلة زناتة البترية — ومن بينهم بنو يفرن — والواقع أن وقوف بني يفرن الزناتيين في وجه الفاطميين كان له ما يبرره ، نظرا للاختلاف المذهبي بينهما ، فبني يفرن كانوا خوارج ، والخوارج في نظر الفقهاء كانوا من السنة[٤٢]، وعلى الرغم من أن اليفرنيين قد نبذوا المذهب الخارجي في وقت سابق، وانضموا الى الأدارسة ، الا أن العصبيات القبلية كان لها دورها في ترسيخ هذا العداء ، لأن اعتماد الفاطميين على قبائل البرانس من كتامة وصنهاجة ، كان من شأنه أن يثير قبائل البتر وعلى رأسها زناتة بحكم الصراع المستحكم بين البتر والبرانس . ولذلك فقد انضم بنو يفرن مع غيرهم من القبائل المناوئة للفاطميين الى جانب الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠هـ/٩١٢ — ٩٦١م) الذي كان يسعى هو الآخر الى مواجهة الخطر الشيعي في بلاد المغرب[٤٣] . ويشير المؤرخ الأندلسي ابن حيان الى أن موسى بن أبي العافية المكناسي — الذي خلع طاعة الفاطميين وانضم الى الأمويين — استمال عددا كبيرا من قبائل المغرب ومن بينهم بني يفرن الى طاعة الأمويين[٤٤] .

كذلك أشعل أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي (من بني

---

(٤٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٩٨ .

(٤٣) انظر مقالنا : التاريخ السياسي لمدينة سبتة منذ القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري . المجلة التاريخية المصرية . المجلد ٣٦ عام ١٩٨٩م ص ٤٠ وما بعدها . كذلك انظر :

Levi Provençal, La Politica africana de Abd al-Rahman III, Revista Alandalus, 1946, Fasc-2-Madrid. P. 359.

(٤٤) راجع نص الرسالة التي بعث بها موسى بن ابي العافية الى الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٣هـ/٩٣٤م والتي ذكر فيها اسماء القبائل المغربية التي انضمت للأمويين ، ابن حيان : المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، الجزء الخامس ، نشر بدور شالميتا وآخرون . مدريد ١٩٧٩ ص ٣٧٠ .

واركوا أخوة مرنجيصة وهم من بطون بنى يفرن) نيران ثورة كبرى عصفت بالدولة الفاطمية وكادت تطيــح بها[٤٥] ، وقد لقى بنو يفرن مصاعب جمة من الفاطميين نتيجة لتأييدهم لثورة أبى يزيد مخلد ، وانضمام قسم منهم الى صفوف جيشه ، كما سهلوا له مهمة الاتصال بعبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس • وعندما تمكن المنصور الفاطمى من القضاء على هذه الثورة عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، تتبع قبائل بنى يفرن وأثخن فيهم وأهلك الكثير منهم[٤٦] •

كما تعرض محمد بن صالح أمير بنى يفرن لمؤامرة دبرها محمد بن خزر المغراوى وابنه الخير بالاشتراك مع عبد الله بن بكار اليفرنى[٤٧] ، وكان ابن خزر المغراوى يخشى من بطش المنصور الفاطمى ، فانضم اليه هو وقبيلته • ويبدو أن المنصور أوعز اليه بمهمة القضاء على محمد بن صــالح أمير اليفرنيين ، باعتبــارهم من أكثر العناصر معارضـة

---

(٤٥) لن نخوض فى تفصيلات ثورة ابى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى نظرا لكثرة ما كتب عنها سواء من المؤرخين القدماء او الحديثين ، ولكن يمكن الرجوع الى : ابن حماد : ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص١٨ — ٣٠ — ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٢١٦ — ٢٢٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا . تحقيق د. جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٦٧ ج١ ص ٧٥ وما بعدها — ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٤٠ — ٤٤ ، ج٧ ص١٣ — ١٦ ومن المراجع الحديثة راجع : د. عبد العزيز سالم : المغرب الكبير : ص٦٢١ — ٦٣١ — د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى . بيروت ١٩٧١ ص٢٤١ — ٢٤٢ •

(٤٦) ابن خلدون : ج٧ ص١٧ •

(٤٧) كان عبد الله بن بكار اليفرنى قد انضم الى جانب المنصور الفاطمى، واقدم على قتل ايوب بن ابى يزيد مخلد بن كيداد الذى واصل الثورة ضد الفاطميين عقب مصرع ابيه . راجع : ابن حماد ، ملوك بنى عبيد . ص٣٩ •

للفاطميين • وبالفعل تمكن ابن خزر من اغتيال محمد بن صالح ، فخلفه ابنه يعلى بن محمد[48] •

يعلى بن محمد أمير اليفرنيين :

يعتبر الأمير يعلى بن محمد من أكثر آمراء بنى يفرن قوة ونفوذا، وفى عهده بلغ اليفرنيون شأوا عظيما فى بلاد المغرب • وبدأ الأمير يعلى عهده بمهاجمة مدينة تاهرت بالاشتراك مع الخير بن محمد بن خزر المغراوى — الذى كان قد خلع طاعة الفاطميين — ، وتمكنت القبائل الزناتية من ايقاع الهزيمة بميسور الفتى والى تاهرت الفاطمى وقتله عام ٣٣٨هـ/٩٤٩م[49] • وقد ألقى الخير بن محمد بن خزر القبض على عبد الله بن بكار اليفرنى ، وبعث به الى الأمير يعلى بن محمد ليثأر منه، ولكن يعلى احتقر شأن ابن بكار « ولا رآه كفؤا لعبده فكيف لوالده ، ودفعه المذكور الى رجل من البربر كان قد قتل ابنه فقتله به »[50] •

عقب استيلاء بنى يفرن على تاهرت ، قام يعلى بن محمد بانشاء مدينة افكان[51] لتكون حاضرة لامارته . كما قام بالدعوة للامويين فى

---

(٤٨) ابن خلدون: ج٧ ص١٧ .

(٤٩) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص٢١٦ — ابن خلدون : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٥٠) ابن عذارى : نفس المصدر والصفحة — ابن خلدون : نفسه .

(٥١) افكان : مدينة تقع بين تلمسان وتنس ، كانت سوقا قديمة من أسواق زناته ، ولما شرع يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى فى تعميرها عام ٣٣٨هـ ، رحل اليها نفر كبير من أهل تاهرت ووهران ، وكثرت فيها المساجد والفنادق ، واشتهرت افكان بكثرة أرحائها وحماماتها . وكان عليها سور من الطوب ولكنه تهدم . راجع : ابن حوقل : صورة الارض : بريل ١٩٣٨ ص ٩٠ — البكرى : المغرب ص٧٩ — الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . القاهرة : بدون تاريخ ج١ ص٢٥١ — الحميرى : الروض المعطار ص٥١ .

الأندلس نكاية فى الفاطميين . وقد كافأه الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر بأن أسند اليه ولاية المغرب وأعماله فى عام ٣٤٠هـ/٩٥١م ، فكانت ولايته تمتد ما بين تاهرت وطنجة ، ويذكر ابن الخطيب أن ملك يعلى بن محمد اتسع وشمل كل من تاهرت والمسيلة وتلمسان ومدينة البصرة[٥٢] بالاضافة الى افكان[٥٣] . كما طلب يعلى بن محمد من الناصر الأموى أن يولى أهل بيته على أمصار المغرب ، فولى الناصر محمد بن الخير بن محمد بن عشيرة على مدينة فاس ، ولكن محمدا هذا اعتزل الولاية ورحل الى الأندلس للرباط والجهاد ، فتولى أمر فاس ابن عمه أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن عثمان ، وهو الذى بنى صومعة جامع القرويين فى عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م[٥٤] .

كما قام الأمير يعلى بن محمد بمهاجمة مدينة وهران[٥٥] ، فانتزعها من يد واليها محمد بن أبى عون ، وتشير المصادر الى أن يعلى دخل

---

(٥٢) البصرة : مدينة اثرية دارسة أسسها الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى (٩م) بين طنجة وفاس ، واشتهرت بكثرة عمرانها حتى القرن الرابع الهجرى ، وتعرف ايضا ببصرة الكتان لأن اهلها كانوا يشتغلون بتجارته ، كما تعرف ايضا بالحمراء لان تربتها حمراء اللون . راجع : البكرى : المصدر السابق ص ١١٠ .

(٥٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . تحقيق د. مختار العبادى وابراهيم الكتانى . الدار البيضاء ١٩٦١ ص١٦٤ .

(٥٤) ابن خلدون : العبر ج٧ ص١٧ ، وعن هذه الصومعة انظر : د. عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ص ٤٢٠ ، ص٦٦٩ — ٦٧١ .

(٥٥) وهران : Oran مدينة ساحلية تقع فى غرب القطر الجزائرى، وتعتبر المنفذ البحرى لمدينة تلمسان . وكانت فى القديم مجرد قرية بربرية

مدينة وهران عنوة يوم السبت منتصف جمـــادى عام ثلاث وأربعين وثلاثمائة (٩٥٤م) • وفى ذى القعدة من العام نفسه ، نقل أهلها الى مدينة افكان ، وقام بحرق وهران وتخريبها ، واستمرت وهران خرابا يبابا طيلة عامين كاملين حتى بدأ الناس فى العودة اليها[٥٦] .

ويبدو أن يعلى بن محمد استشعر الخطر من ناحيـــة الفاطميين خاصة بعد أن تولى المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ — ٣٦٥هـ/٩٥٢ — ٧٥م) الخلافة ، ولذلك عمل يعلى على مداراتهم ، ولا يستبعد أن يكون قد أعلن الدخول فى طاعتهم ، برغم أن فى عنقه بيعة للامويين ، ونستدل على ذلك من أن اسم يعلى بن محمد اليفرنى كان يرد كأحد ولاة المعز لدين الله على تاهرت وافكان ، يقول ابن خلدون : « واتسعت ايالته (يقصد المعز لدين الله) وكانت أعماله من افكان خلف تاهرت بثلاثة مراحل الى زناتة التى دون مصر ، وعلى تاهرت وافكان يعلى بن محمد وعلى أشير وأعمالها زيرى بن مناد الصنهاجى ••• »[٥٧] .

خاملة الذكر اسمها افرى (بمعنى كهف) ، ولكن حدث فى اواخر القرن الثالث الهجرى (٩م) أن نزلها جماعة من البحريين الاندلسيين ، فعمروها واسسوا بها مدينة وهران . وقد أشار البكرى الى أن محمد بن ابى عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الاندلسيين اسسوها بالاتفاق مع قبيلتى نفزه وبنى مسفن من ازداجة وذلك عام ٢٩٠هـ/٩٠٣م . راجع : ابن حوقل : صورة الأرض ص٧٧ — ٧٨ — البكرى : المغرب ص ٧٠ — ٧١ .

(٥٦) البكرى : نفس المصدر والصفحة — الميـــلى : تاريخ الجزائر ج٢ ص١١٩ .

(٥٧) ابن خلدون : ج٤ ص٤٦ . انظر كذلك : القـــاضى النعمان : المجالس والمسايرات . تحقيق ابراهيم شبوح وآخرون . تونس ١٩٧٨ ص٢١٧ حيث يفهم مما أورده القاضى النعمان أن يعلى بن محمد اليفرنى كان من ضمن الولاة الفاطميين .

بيد أن الوفاق بين اليفرنيين والفاطميين لم يطل أمده ، فقد عاد يعلى بن محمد الى بذل الطاعة للأمويين بالأندلس ، ورأى المعز لدين الله أن نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب أصبح معرضا للضياع خاصة بعد أن أعلن الشاكر بالله المدرارى صاحب سجلماسة الثورة ضد الفاطميين، ولذلك سير فى عام ٣٤٧هـ/٩٥٨م قائده الشهير جوهر على رأس جيش كبير الى المغرب لاعادة النفوذ الفاطمى هناك ، وخرج مع جوهر كل من زيرى بن مناد الصنهاجى أمير أشير وجعفر بن على أمير المسيلة .
وتختلف المصادر فيما بينها حول تفصيلات الصراع بين يعلى بن محمد اليفرنى وجيوش الفاطميين ، فابن الأثير يذكر أن جوهرا سار الى تاهرت « فحضر عنده يعلى بن محمد الزناتى ، فأكرمه وأحسن اليه ، ثم خالف على جوهر ، وثار أصحابه ، وقتلهم جوهر ، فانهزموا وتبعهم جوهر الى مدينة افكان ، فدخلها بالسيف ونهبها ، ونهب قصور يعلى وأخذ ولده وكان صبيا ، وأمر بهدم افكان واحراقها بالنار وكان ذلك فى جمادى الآخر »[٥٨] (٣٤٧هـ) . أما ابن خلدون فيذكر أن جوهرا لما فصل بالجنود من المهدية بادر يعلى بن محمد أمير زناتة بالمغرب الى لقائه « والاذعان لطاعته والانحياش اليه ونبذ عهد البيعة عن قومه بنى يفرن وزناتة ، فتقبلها جوهر ، وأضمر الفتك به ، وتخير لذلك يوم فصوله من بلده ، وأسر الى بعض مستخلصيه من الأتباع ، فأوقعوا نفرة فى أعقاب العسكر طار اليها الزعماء من كتامة وصنهاجة وزناتة ، وتقبض على يعلى فهلك فى وطيس تلك الهيعة ، فغص بالرماح على أيدى رجالات كتامة وصنهاجة وذهب دمه هدرا فى القبائل وخرب جوهر مدينة افكان »[٥٩] . ويضيف ابن خلدون أن جوهرا ألقى القبض على يدو بن يعلى وأخذه أسيرا . ويفهم مما أورده ابن خلدون أن يعلى أراد مداراة

---

(٥٨) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٥٢٤ .

جوهر لأنه أدرك أنه لا قبل له بجيوش الفاطميين ، ولكن جوهرا الذى كانت لديه تعليمات — فيما يبدو — من المعز لدين الله بالقضاء على معارضيه ، دبر مؤامرة لاغتيال يعلى وتفريق دمه على القبائل . ويؤيد ابن عذارى نفس الرواية فيقول « وفى جمادى الآخرة منها (٣٤٧هـ) ورد كتاب قائد الأسطول « قائد الأسطول الأموى » أحمد بن يعلى من مدينة آسلان من عمل تلمسان ، يذكر أن جوهرا قائد معد بن اسماعيل صاحب افريقية قتل يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى صاحب مدينة افكان غدرا »[٦٠] . أما ابن أبى زرع — ويتفق معه صاحب كتاب مفاخر البربر — فيذكر أن يعلى بن محمد جمع جيوشا عظيما من قبائل زناتة، واشتبك مع الجيش الفاطمى على مقربة من مدينة تاهرت « فاقتحم الحرب بين الفريقين ، فأخرج القائد جوهر الأموال وبذلها لقواد كتامة فضمنوا له قتل أمير زناتة يعلى بن محمد اليفرنى ، فلما اشتد القتال صممت عصابة من أنجد قواد كتامة وأنجادها ، وقصدوا الى يعلى بن محمد أمير بنى يفرن فقتلوه وأخذوا رأسه وأتوا به الى جوهر فأعطاهم أموالا جليلة بشرة عليه ، وبعث بالرأس الى مولاه معد بن اسماعيل فطوفه بالقيروان ... »[٦١] . كما يتفق القاضى النعمان مع ابن أبى زرع فى مسألة ارسال رأس يعلى بن محمد الى الخليفة المعز لدين الله ، ولكنه يضيف أن جوهرا أرسل كذلك رأس أخى يعلى الذى قتل هو الآخر فى المعركة[٦٣] .

---

(٥٩) ابن خلدون : ج٧ ص١٨ .

(٦٠) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص٢٢٢ .

(٦١) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص٥٥ — مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص ٥ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام (نشر د. العبادى) ص ٢٢٠ .

(٦٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص ٢٧٥ .

(٦٣) ذكر القاضى النعمان (المصدر السابق ج٢١٧) أن بعض أهل

وكيفما كان الأمر ، فقد أدى مصرع يعلى بن محمد الى تفرق شمل اليفرنيين ، فقد رحل قسم منهم الى بلاد الأندلس[٦٣] عقب هذه الهزيمة ، فى حين بقى القسم الآخر فى بلاد المغرب وتولى أمرهم يدو بن يعلى •

يدو بن يعلى : زعيم جديد لبنى يفرن :

لاشك أن هزيمة اليفرنيين السالفة ، ومصرع أعداد كبيرة منهم ، بالاضافة الى تخريب مدينتهم افكان على يد القائد جوهر ، قد فت فى عضد زناتة عامة وبنى يفرن بوجه خاص[٦٤] • وكان بنو يفرن — وفقا لرواية كل من ابن الخطيب وابن خلدون — قد ولوا يدو بن يعلى أميرا عليهم خلفا لأبيه[٦٥] ، أو ابن عم للأمير يعلى وفقا لرواية ابن عذارى[٦٦] • ومن الممكن التوفيق بين الروايتين لأن يدو بن يعلى — وفقا لرواية ابن خلدون — وقع أسيرا فى يد جوهر ، فاعتقله مدة

---

(٦٣) ذكر القاضى النعمان (المصدر السابق ص٢١٧) ان بعض أهل يعلى بن محمد نزلوا بساحل المرية بالأندلس عقب مصرع عميدهم يعلى بن محمد ، انظر كذلك . ابن عذارى : المصدر السابق ج٢ ص٢٢٢ •

(٦٤) ذكر الدكتور حسن محمود ان حملة القائد الفاطمى جوهر عام ٣٤٧هـ على بلاد المغرب نكلت بالزناتيين ، وأصابت جبهتهم بتصدع كبير ، فتقلص نفوذهم فى المغرب الأوسط واضطروا الى الانسحاب تدريجيا الى بلاد المغرب الاقصى لائذين بمن غضب الفاطميين وبطشهم . قيام دولة المرابطين ص ٧٩ •

(٦٥) ابن خلدون : ج٧ ص١٨ — ابن الخطيب : اعمال الأعلام (نشر العبادى) ص١٦٤ •

(٦٦) البيان المغرب ج٢ ص٢٢٢ •

الى أن فر من معتقله بعد فترة من الوقت واجتمع عليه قومه[٦٧] ، كذلك يذكر صاحب كتاب مفاخر البربر أن بنى محمد بن صالح اليفرنى عقب هزيمتهم على يد جوهر لم يتفقوا على ابنه يدو الا بعـد فترة من الوقت[٦٨] . وبناء على ذلك يمكن القول أن الفترة ما بين مصرع يعلى بن محمد وتولية ابنه يدو الامارة — وهى فترة لا نعلم سنيها — هى التى تولى فيها ابن عم الأمير يعلى أمر اليفرنيين .

وأيما كان الأمر فان يدو بعد توليـه الامارة آثر التجـوء الى الصحراء لفترة زمنية تكفى لتنظيم جيشه بسبب الضغط الشديد الذى تعرضت له سائر القبائل الزناتية من قبل جيوش الدولة الفاطمية ومن أنصارها قبيلة صنهاجة البرانسية ، فقد شن زيرى بن مناد الصنهاجى هجوما كاسحا على بلاد المغرب عام ٣٦٠هـ/٩٧٠م ، تمكن خلاله من كسر شوكة الزناتيين ، كما قام ابنه بلكين بشن هجوم آخر فى العام التالى (٣٦١هـ) « فأوغل فى ديار زناتة وقتل منهم فى مواطن كثيرة خلقا لا يحصيهم الا الله ، واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغاى وبجاية وبسكرة وجميع مدن المغرب حتى لم يبق لزناتة فى شىء منها أمر ... »[٦٩] . ولاشك أن هذه الحملات الصنهاجية المتكررة دفعت العشائر الزناتية الى اللجوء الى المغرب الأقصى حتى تكون بمنأى عن هجمات الفاطميين والصنهاجة حلفائهم .

ولم يلبث بنو يفرن أن عادوا الظهور على مسرح الأحداث عندما

---

(٦٧) ابن خلدون : ج٤ ص٤٦ ، ج٧ ص١٨ .

(٦٨) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص ٥ — ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ٥٥ .

(٦٩) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٨ .

انضم زعيمهم يدو بن يعلى الى جانب القائد جعفر بن على بن حمدون الأندلسى[٧٠] ، الذى عهد اليه الخليفة الأموى الحكم المستنصر عام ٣٦٥هـ/٩٧٥م بمهمة اعادة الأمن الى بلاد المغرب ، وقد أخلص يدو للأمويين فى الأندلس ، وكان من أكثر زعماء زناتة الذين انضموا الى جانب الأمويين قوة وأحسنهم طاعة[٧١] . كذلك تصدى يدو بن يعلى مع غيره من أمراء زناتة لبلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى فى حملته الشهيرة على بلاد المغرب (أوائل عام ٣٦٩هـ/٩٧٩م) . بيد أن الزناتيين — ومن بينهم بنى يفرن — لم يصمدوا كثيرا فى وجه بلكين ، وتحصنوا داخل أسوار سبته وبعثوا الى المنصور بن أبى عامر يستنجدون به[٧٢] .

ولم تطل الفترة التى دان خلالها يدو بن يعلى وقومه بنى يفرن بالطاعة للأمويين فى الأندلس ، فقد شقوا عصا الطاعة بعد وفاة الخليفة الأندلسى الحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ/٩٧٦م) وبداية عهد ولده وخليفته هشام المؤيد ، وكان الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر قد استأثر بالسلطة والنفوذ فى الأندلس دون هشام ، وذلك بعد أن أزاح من طريقه كبار القادة ورجال الدولة أمثال الوزير الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى والقائد غالب الناصرى وجعفر بن على بن حمدون[٧٣] . ومع ذلك فقد واصل المنصور تطبيق السياسة الأموية تجاه بلاد المغرب على نحو ما كانت عليه فى عهد كل من عبد الرحمن الناصر ثم الحكم المستنصر ، تلك السياسة التى تهدف أساسا الى مواجهة الخطر الفاطمى فى بلاد

(٧٠) كان هذا القائد من رجال الدولة الفاطمية ، ولكنه انقلب عليهم وانضم الى جانب الأمويين أصحاب الأندلس .

(٧١) مفاخر البربر ص١٤ — ابن خلدون : ج٧ ص١٩ .

(٧٢) نفس المصدر السابق ص١٧ — ابن عذارى : ج١ ص٢٣١ — ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٥٦ — انظر كذلك د. عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٥٠٧ .

(٧٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص٢٦٨ — ٢٦٩ .

المغرب عن طريق التدخل العسكرى من ناحية ، والاعتماد على تأييد القبائل المغربية من ناحية أخرى . وكانت قبيلة زناتة ببطونها وعشائرها المختلفة من أكثر قبائل المغرب ولاء للامويين . وسبق أن ذكرنا كيف تعرض بنو يفرن للقتل والتشريد والفرار من المغـــرب الأوسط الى الصحراء من جراء تأييدهم للامويين . وعلى الرغم من ذلك كله ، فانهم لم يجدوا عند ابن أبى عامر ما كانوا يرجونه من نفوذ وسلطان ، كما أن المنصور اتبع فى علاقاته مع قبائل البربر سياسة تقوم على مبدأ توازن القوى بين هذه القبائل ، فكان يضرب فريقا بفريق كى يظل الجميع فى حاجة الى تأييد الأمويين .وعلى هذا النحو ، ساد نوع من التوتر فى العلاقات بين المنصور بن أبى عامر وبنى يفرن ، خاصة وأن المنصور انحاز الى جانب المغراويين وزعيمهم زيرى بن عطية ، مستغلا حالة التنافس القـــديم بين مغراوة وبنى يفرن . وقد تنبه المؤرخ ابن خلدون الى هذه السياسة التى انتهجها ابن أبى عامر تجاه مغراوة وبنى يفرن فقال « ... وكان يدو بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة ، وكان المنصور بن أبى عامر يضرب بينه وبين قرينه زيرى بن عطية ويقـــرن كل منهما بمناغاة صاحبه فى الاستقامة ، وكان الى زيرى أميل وبطاعته أوثق لخلوصه وصدق طويته وانحياشه »[٧٤] .

ولاشك أن سياسة المنصور لم تكن خافية على يدو بن يعلى ، ولذلك انتهز فرصة قدوم الأمير الادريسى الحسن بن كنون (أو جنون) من مصر الى بلاد المغرب رافعا راية العصيان فى وجه الأمويين بتحريض من الفاطميين ، وبادر بالانضمام هو وأخوه زيرى بن يعلى بالاضافة

---

(٧٤) ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٢٠ — مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص ٢٢ .

الى ابن لأبى بداس بن دوناس اليفرنى الى الحسن بن كنون[٧٥] .
ولكن المنصور بن أبى عامر واجه هذه الثورة بكل حزم ، وسير الجيوش من الأندلس الى المغرب ، كما استعان بزيرى ومقاتل ابنا عطية بن عبد الله بن خزر المغراوى وقبيلتهما مغراوة ، وأمكنه بذلك القضاء على هذه الثورة[٧٦] وذلك عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م. وكافأ المنصور بن أبى عامر حليفه المغراوى بأن دعاه لزيارة قرطبة ، حيث استقبله استقبالا حافلا وخلع عليه لقب الوزارة ، كما أغراه بيدو بن يعلى واليفرنيين ، فبادر الى اجابته[٧٧] . وتختلف المصادر فيما بينها اختلافا شديدا حول تاريخ زيارة زيرى بن عطية لقرطبة ، فابن خلدون يذكر أنها تمت فى عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م ، ويعود فيذكر عام ٣٨١هـ كتاريخ لهذه الزيارة ، ثم يشير فى موضع آخر الى أنها تمت عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م[٧٨] . أما صاحب كتاب مفاخر البربر فلم يحدد تاريخا معينا لهذه الزيارة واكتفى بالقول بأنها تمت قبل عام الثمانين وثلاثمائة[٧٩] ، أما ابن عذارى فيذكر — نقلا عن ابن حمادة — أنها حدثت عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م[٨٠] ، فى حين أن كلا من ابن أبى زرع وابن الخطيب اشارا الى أنها تمت عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م[٨١] .

---

(٧٥) انظر الجدول الخاص بنسب بنى يفرن فى نهاية البحث .

(٧٦) ابن خلدون : ج٧ ص٢٩ — السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الدار البيضاء . ١٩٥٤ ج١ ص٢٠٣ — ٢٠٤ — انظر كذلك: د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى . ص٤٤٦ .

(٧٧) ابن خلدون : ج٧ ص٢٩ .

(٧٨) نفس المصدر السابق ص ٢ ، ٣١ .

(٧٩) مفاخر البربر ص ٢٢ .

(٨٠) البيان المغرب ج١ ص٢٥٢ .

(٨١) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص٦٤ — ابن الخطيب : أعمال الأعلام (نشر العبادى) ص١٥٧ .

وتتمثل أهمية هذه الزيارة بالنسبة لموضوعنا فى أن يدو بن يعلى انتهز فرصة رحيل زيرى بن عطية الى قرطبة ، وأقدم على مهاجمة عدوة الأندلسيين من مدينة فاس واستولى عليها ، ومن ثم اشتعلت الحرب بين بنى يفرن والمغراويين[٨٢] . ولذلك فمن الأهمية بمكان أن نحاول تحديد العام الذى تمت فيه هذه الزيارة ، وبادىء ذى بدء نقول أنه يبدو أن هناك عدة زيارات قام بها زيرى بن عطية المغراوى لقرطبة ، وهذا ما سبب الارتباك بين المؤرخين حول تحديد تاريخ هذه الزيارة ، وليس من المستبعد أن يكون زيرى بن عطية قد قام بزيارة لقرطبة عام ٣٧٧هـ كما ذكر ابن خلدون ، ثم عاود زيارتها مرة أخرى عام ٣٨١هـ — وهو التاريخ الذى يبدو لنا مقبولا لهذه الزيارة لأنه يتفق مع تسلسل الأحداث التالية — . وفى هذه الزيارة قدم زيرى بن عطية المغراوى هدية أبى المنصور بن أبى عامر الذى أحسن استقبال حليفه المغراوى « فاستقبله بالجيوش والعدة ، واحتفل للقائه ، وأوسع نزله وجرايته ونوه بأسمه فى الوزارة ، وأقطعه رزقها وأثبت رجاله فى الديوان ، ووصله بقيمة هديته وأسنى فيها وأعظم جائزته وجائزة وفده وعجل تسريحه الى عمله »[٨٣] . ولاشك أن هذه الحفاوة التى قوبل بها زيرى بن عطية فى قرطبة ما هى الا دليل على استمرار السياسة الأموية تجاه المغرب ، هذه السياسة التى تعمل على اصطناع رؤساء القبائل البربرية لمواجهة الأخطار التى تهدد النفوذ الأموى هناك . ولكن زيرى بن عطية

---

(٨٢) نلاحظ ان مدينة فاس فى ذلك الوقت كانت منطقة صراع بين اليفرنيين والمغراودين « فكان اذا غلب يدو دخل الى مدينة فاس ، واذا غلب زيرى أخرجه عنها » . « وكانت بينهما سجال » . راجع : ابن الخطيب : المصدر السابق ص١٦٥ — ابن أبى زرع : نفس المصدر السابق ص ٦٥ .

(٨٣) ابن خلدون : ج٧ ص ٣٠ .

ـ فيما يبدو ـ لم يلق من المنصور بن أبى عامر ما كان يرجوه من النفوذ والسلطة ، كما أنه اغتر كثيرا بقوته ، واعتقد أن بامكانه الانفصال عن سيادة قرطبة ، ولذلك غادر الأندلس ساخطا على المنصور ، وبمجرد أن وطئت قدماه مدينة طنجة على الساحل المغربى حتى بادر بخلع طاعة المنصور والثورة عليه[٨٤] . وحاول المنصور بن أبى عامر أن يقضى على تمرد زيرى عن طريق الحيلة والدهاء ، فأظهر عدم اكتراثه بما قاله وفعله زيرى بن عطية ، بل زاد فى اصطناعه[٨٥] ، وفى نفس الوقت أراد أن يستغل حالة العداء القائمة بين المغراويين وبنى يفرن لكسر شوكة زيرى بن عطية ، وكما سبق القول كان يدو بن يعلى قد انتهز فرصة رحيل زيرى الى قرطبة ، واستولى على فاس عاصمة المغراويين . ولذلك بعث المنصور بن أبى عامر الى يدو بن يعلى يرغبه فى التقرب اليه ، ويدعوه هو الآخر لزيارة قرطبة ، بيد أن يدو رفض هذا العرض تماما ، وقال لرسل ابن أبى عامر « .. متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبياطرة »[٨٦] . ثم أخذ فى افســاد السابلة والاجلاب على الأحياء والعيث فى العمالة[٨٧] . ولم يجد المنصور بدا من الانحياز كلية الى جانب زيرى بن عطية فأمده بالمال والجند اللازمين لقتال بنى يفرن ، كما كتب الى عامله على المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى يأمره بتقديم يد المساعدة لزيرى بن عطية ، وفى يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من المحرم عام ٣٨١هـ/٧ أبريل ٩٩١م ، اشتبك اليفرنيون بزعامة يدو بن يعلى مع زيرى بن عطيــة والحسن بن

---

(٨٤) مفاخر البربر لمؤلف مجهول : ص٢٢ .

(٨٥) ابن خلدون : ج٧ ص ٣٠ .

(٨٦) مفاخر البربر ص٢٣ ـ ابن خلدون : نفس المصدر والصفحة .

(٨٧) ابن خلدون : نفس المصدر والصفحة .

عبد الودود وجموعهما من المغراويين وجند الأندلس وتمكن يدو بن يعلى من احراز انتصار باهر على أعدائه ، بعد أن أثخن فيهم وقتل عددا كبيرا منهم ، كما أصيب القائد الحسن بن عبد الودود بجراح قاتلة توفى على اثرها ، كمـــا أصيب زيري بن يعـــلى شقيق يدو ببعض الجروح[٨٨] .

وأثار نبأ الانتصار الذى أحرزه بنو يفرن ثائرة المنصور محمد بن أبى عامر ، ولذلك بادر بالكتابة الى زيرى بن عطية المغراوى يشد من أزره ، وولاه بلاد المغرب عوضا عن الوزير الحسن بن عبد الودود ، كما طلب من أبى البهار زيرى بن مناد الصنهاجى[٨٩] مؤازرة زيرى بن عطية فى صراعه ضد بنى يفرن ، وتمكن زيرى بفضل تلك المساعدات من الثأر لهزيمته السابقة فى موقعة عنيفة انتهت بهزيمة يدو بن يعلى وقتل ثلاثة آلاف من رجاله ، واستأمن عدد آخر لزيرى . كذلك استولى زيرى بن عطية على قيطون[٩٠] يدو واستحوذ على كثير من أمواله ، بالاضافة الى وقوع أم يدو وأخته وكثير من حرمه أسرى فى يد زيرى

---

(٨٨) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص٢٣ ، ابن خلدون : ج٧ ص ٢٠ ، ص ٣٠ .

(٨٩) هو عم منصور بن بلكين بن زيرى الصنهاجى أمير القيروان ونائب الفاطميين بافريقية ، وقد انضم ابو البهار الى أمويى الأندلس عندما حدث خلاف بينه وبين ابن أخيه . ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٢٤٤ — ص٢٤٥ — ابن خلدون : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٩٠) ذكر دوزى فى معجمه ان كلمة «قيطون» تعنى حجرة صغيرة فى اللهجة العامية المصرية، كما تعنى ايضا حجرة النوم chembre à coucher ، وتعنى عند أهل المغرب «خيمة» Tente . وهو ما يتفق مع سياق الرواية . راجع :

Dozy: Supplément aux dixctionnairs Arabes, Beyrouth. 1968, Vol. 2. P. 386.

بن عطية . وتتفق معظم المصادر على أن هذه المعركة دارت عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م[٩١] ، ولكنها تختلف حول مصير يدو بن يعلى ، فصاحب كتاب مفاخر البربر ذكر أنه فر الى الصحراء لائذا بها ثم هلك بعد ذلك[٩٢]، أما ابن أبى زرع فيشير الى أن زيرى بن عطية اقتحم مدينة فاس عنوة وانتزعها من يد يدو بن يعلى وقتله ومثل به ، ثم بعث برأسه الى المنصور بن أبى عامر بقرطبة[٩٣] . ويؤيد كل من ابن الخطيب وابن خلدون رواية ابن أبى زرع[٩٤] ، وان كان ابن خلدون يذكر فى موضع آخر أن أبا يداس بن دوناس ابن عم الأمير يعلى هو الذى اغتاله عندما فر يدو الى الصحراء[٩٥] .

على أية حال ، فقد تولى أمر بنى يفرن حبوس بن زيرى بن يعلى، ولكنه لم يستمر طويلا ، اذ وثب عليه ابن عمه أبو يداس بن دوناس فقتله ، بيد أن بنى يفرن لم يرتضوا امارته ، فاضطر الى مغادرة المغرب

---

(٩١) ابن خلدون : ج٧ ص٢١ ، ص٣١ . ولم يحدد صاحب مفاخر البربر (ص٢٦) تاريخا لهذه المعركة ، وان كان يفهم من حديثه أنها تمت قبل عام ٣٨٢هـ ، فى حين ان ابن الخطيب حدد عام ٣٨١هـ تاريخا لها (ص١٦٥). ولكننا نلاحظ هنا التناقض الذى وقع فيه ابن الخطيب ، لأنه سبق ان ذكر ان زيرى بن عطيه قد عاد من قرطبة الى المغرب عام ٣٨٢هـ ، وانه بلغه عندما نزل بطنجة ان يدو بن يعلى اليفرنى تغلب على فاس فأسرع نحوه .

(٩٢) مفاخر البربر ص ٢٥ — ٢٦ .

(٩٣) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٦٥ .

(٩٤) ابن خلدون : ج٧ ص٢١ — ابن الخطيب : اعمال الأعلام (نشر د. العبادى) ، ص ١٦٥ ، كذلك د. عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٠ .

(٩٥) ابن خلدون : ج٧ ص٣١ .

مع جمع عظيم من قومه الى الأندلس ، حيث دخلوا فى خدمة المنصور بن أبى عامر[٩٦] .

امارة جديدة لبنى يفرن فى سلا[٩٧] :

عقب رحيل أبى يداس بن دوناس اليفرنى الى بلاد الأندلس ، أسند بنو يفرن رئاستهم للأمير حمامة بن زيرى بن يعلى ، وفى عهده

---

(٩٦) مفاخر البربر ص٢٦ — ابن خلدون : ج٧ ص٢١ . أما ابن عذارى فقد ذكر أن بنى يفرن اجتمع رايهم على تولية محمد بن يدو اميرا عليهم ، فحسده على ذلك ابن عمه يداس ، فقتله وتأمر مكانه ، فاختلف اليفرنيون عليه (البيان المغرب ج٣ ص ٢٧٠) . ولكننا نرى أن ما ذكره صاحب مفاخر البربر وابن خلدون هو الأصوب، لأن أبا يداس ليس ابن عم لمحمد بن يدو — كما يذكر ابن عذارى — ولكنه ابن عم ابيه. (راجع سلسلة نسب بنى يفرن) .

(٩٧) سلا Salé مدينة رومانية قديمة على ساحل المحيط الأطلنطى ، لابتعد كثيرا عن مدينة الرباط الحالية (حوالى ٥ كم) ، ويفصلها عنها وادى بورقراق ، ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أن بنى عشرة هم الذين قاموا ببنائها ، ثم اتخذها اليفرنيون قاعدة لهم . كما اهتم الموحدون — فيما بعد — ببناء أسوارها وأنشأوا فيها دارا لصناعة السفن ، ولكن الوزير والأديب الغرناطى لسان الدين بن الخطيب تحامل على هذه المدينة تحاملا شديدا عندما قارن بينها وبين مدينة مالقة الاسلامية . راجع : البكرى : المغرب ص٨٧، ص١١١ ، ص١٧٢ ، ص١٩٢ . مؤلف مجهول: الاستبصار ص١٤١ — ابن الخطيب . مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، مجموعة من رسائله جمعها الدكتور مختار العبادى . الاسكندرية ١٩٨٣ ، (رسالة مفاخرة مالقة وسلا (ص٥٧ — ٦٦ . انظر أيضا عبد العزيز بن عبد الله : معلمة المدن والقبائل ، ملحق ٢ ، المحمدية ١٩٧٧ ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

اضطر بنو يفرن الى الانسحاب غربا حتى وصلوا الى ناحية شاله[98]، فاستولوا عليها مع بقية اقليم تادلا ، الذى كان خاضعا لحكم زيرى بن عطية المغراوى . واتخذ اليفرنيون من مدينة سلا عاصمة لهم ، فاهتموا بتمصيرها وزودوها بكثير من منشآتهم واستمرت حالة العداء بين بنى يفرن ومغراوة قائمة ، ولجأ الأمير حمامة بن زيرى اليفرنى الى افريقية التماسا لتأييد بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين ، ومن المعروف أن الزيريين كانوا فى صراع متواصل مع زيرى بن عطية المغراوى باعتباره أقوى زعماء زناتة . ويشير ابن خلدون الى أن الأمير حمامة بن زيرى اليفرنى بعث بهدية الى أبى مناد باديس بن أبى الفتوح منصور أثناء حصار هذا الأخير لعمه حماد بن يوسف بن بلكين بن زيرى بالقلعة عام ٤٠٦هـ/١٠١٥م صحبة أخيه زاوى بن زيرى بن يعلى ، فاحتفل أبو مناد

---

(٩٨) شالة (او شله) : Chella : مدينة اثرية قديمة بالقرب من مدينة رباط الفتح (الرباط حاليا) ، يفصلها من مدينة سلا وادى بورقراق، وقيل ان كلمة شاله كلمة بربرية قديمة معناها «كثير» . وقد استولى عليها البرغواطيون فى العصر الاسلامى ، ثم انتزعها منهم المولى ادريس الاول ، وظلت تابعة للادارسة حتى استولى عليها موسى بن ابى العافيه المكناسى ثم انتزعها زيرى بن عطية المغراوى ، واخيرا استولى عليها بنو يفرن وذلك فى مطلع القرن الخامس الهجرى/١١م . وقد اشتهرت مدينة شاله فيما بعد بانها الجبانة الملكية لحكام بنى مرين الذين حكموا المغرب الاقصى طيلة النصف الثانى من القرن السابع الهجرى والقرنين الثامن والتاسع الهجريين . راجع: ابن الخطيب : اعمال الاعلام (نشر د. العبادى) ص١٨٤ ج١ ، عبد العزيز بن عبد الله : معلمة المدن والقبائل ص٢٨١ — ٢٨٤ ، H. Basset et - Levi-Provençal: Chella: Une nécropole mérinide, Rev. Hesperis, peris, 1922 (1 et 2 trim), PP. 1-22 et (3e trim) PP. 255-316.

باستقباله استقبالا حافلا بالطبول والبنود[٩٩] .

وعلى أية حال ، لم تحدد لنا المصادر الفترة التى قضاها حمامة بن زيرى أميرا على بنى يفرن ، كما لم تحدد تاريخا لوفاته ، واكتفت تلك المصادر بالقول بأن أخاه الأمير أبا الكمال تميم هو الذى خلفه أميرا على بنى يفرن[١٠٠] .

أبو الكمال تميم والجهاد ضد برغواطة :

أشاد المؤرخون بالأمير تميم اليفرنى ، وذكروا أنه كان مستقيما فى دينه ، مولعا بجهاد قبيلة برغواطة المارقة ، حتى أنه كان يغزوها مرتين فى العام[١٠١] . والواقع أن قيام امارة بنى يفرن فى منطقة سلا، ومجاورتهم لقبيلة برغواطة الذين استولوا على منطقة تامسنا ، فرض عليهم حربهم وجهادهم . فمن المعروف أن البرغواطيين كانوا قد اتخذوا من مدينة شالة عاصمة لهم قبل أن تخضع لحكم المغراويين ثم اليفرنيين[١٠٢] ، كذلك نجد فى كتاب أتحاف أعلام الناس بجمال أخبار

---

(٩٩) ابن خلدون : ج٧ ص٢١ وان كان ابن خلدون قد اخطأ فى قوله بأن الأمير حمامة اليفرنى أرسل هديته الى المنصور الزيرى ، لان المنصور أبا الفتوح بن يوسف بن بلكين قد توفى عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م ، وان أبا مناد باديس هو الذى كان معاصرا للأمير حمامة اليفرنى . انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٢٤٧ — النويرى : نهاية الأرب (القسم الخاص بالمغرب) ص٣١٧ .

(١٠٠) ابن الخطيب : أعمال الأعلام (نشر د. العبادى) ص ١٦٥ .

(١٠١) ابن خلدون : ج٧ ص٢١ — ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص٦٩ الذى اتهم الأمير تميم بالجهل .

(١٠٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام . (نشر د. العبادى) ص١٨٤ .

حاضرة مكناس للمولى عبد الرحمن بن زيدان ، ما يفيد بأن أمراء برغواطة قد امتد نفوذهم الى شمال الرباط الحالية وأنهم استولوا على مدينة المعمورة (المهدية حاليا)[١٠٣] من أيدى بنى يفرن الزناتيين حكام سلا ، وأنهم خربوها فيما خربوه من المدن[١٠٤] . ولذلك شدد اليفرنيون هجومهم على البرغواطيين ، وكان رباط مدينة سلا مركزا لتجمع المجاهدين من بنى يفرن وغيرهم ، يخرجون منه لقتال هراطقة برغواطة. ومن المعلوم أن هذا الرباط (رباط سلا) كان مقاما قبل قدوم اليفرنيين الى هذه المنطقة ، وسبق أن وصفه الجغرافى والرحالة ابن حوقل النصيبى (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) بقوله « وبسله (سلا) رباط يرابط فيه المسلمون ، وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلة القديمة وقد خربت ، والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها ، وربما اجتمع فى هذا المكان من المرابطين مائة ألف انسان يزيدون فى وقت وينقصون لوقت ، ورباطهم برغواطة قبيل من قبائل البربر على البحر المحيط »[١٠٥] . ومن المعروف أيضا أن هذه القبيلة المارقة لم تسلم من جهاد الدول الاسلامية المتعاقبة فى بلاد المغرب ، فقد سبق أن غزاها الأدارسة والفاطميون والمنصور

---

(١٠٣) مدينة المهدية الحالية بالمغرب الاقصى كانت تعرف قديما بحلق الوادى (وادى سبو) أو المعمورة ، ثم سميت بالمهدية أيام المولى اسماعيل عام ١١٠٢هـ/١٦٨١م عندما ضيق على الجيش الاسبانى المرابط فيها ، فخرج اليه قائد الجيش مستسلما وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان فأمنه وقبل هديته ، ثم دخل المدينة وسماها المهدية . والمدينة تقع على ساحل المحيط عند مصب وادى سبو بالمغرب من القنيطرة . ومن الجدير بالاشارة الى انها غير مدينة المهدية التى انشاها الخليفة المهدى عبيد الله الفاطمى بالقطر التونسى . راجع : د. مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية . بدون تاريخ . ص٣٠٧ ح٤ .

(١٠٤) نفس المرجع والصفحة.

(١٠٥) ابن حوقل : صورة الأرض . ص٨٢ .

محمد بن أبى عامر ، ولكن بنى يفرن كانوا أشد وطأة على برغواطة من أية قوة أخرى[١٠٦] . ويذكر ابن خلدون أن أبا الكمال تميم اليفرنى هادن المغراويين وسالمهم ليتفرغ لقتال برغواطة[١٠٧] ، اذ كان يعتبر حربه ضدهم جهادا فى سبيل الله ، ويسوق ابن أبى زرع رواية طريفة تدل على ولع الأمير تميم بجهاد هذه القبيلة المارقة فيقول أن الأمير تميم ظل يقاتل برغواطة مرتين كل عام حتى وفاته عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م ، وأن بنى يفرن لما قرروا دفن ولده الذى قتل فى عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م أثناء صراعه مع المرابطين بجانب قبر أبيه ، سمعوا من داخل قبر والده تكبيرا عظيما وتشهدا ، فنبشوا القبر فوجدوه سليما لم يتغير منه شىء ، فرآه بعض قرابته فى النوم فى تلك الليلة . فقال له : « ما ذلك التكبير والتسبيح والتشهد الذى سمعناه من قبرك ؟ فرد أبو الكمال تميم بأن هؤلاء ملائكة وكلهم الله تعالى بقبره يكبرون ويهللون ويسبحون ، وأن أجر ذلك له الى يوم القيامة ، ولما سأله الرجل عن السر فى ذلك قال : بجهادى فى الكفرة برغواطة وفعلى فيهم فى كل سنة[١٠٨] . وعلى الرغم من الطابع القصصى لهذه الرواية الا أنها توضح لنا المكانة العالية التى تمتع بها الأمير تميم اليفرنى عند أهل المغرب .

---

(١٠٦) د. سحر سالم : من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب فى العصر الاسلامى . بحث القى فى مؤتمر الحركات الهدامة فى التاريخ الاسلامى قديما وحديثا . عقد بكلية الآداب جامعة الزقازيق فى الفترة من ٢٠ — ٢٢ نوفمبر ١٩٩٠م .

(١٠٧) ابن خلدون : ج٧ ص٢١ .

(١٠٨) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص٦٩ وكذلك (مختار العبادى: الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٧ .

ويبالغ الجغرافى الأندلسى البكرى فى تقدير النتائج التى ترتبت على الحرب التى شنها أبو الكمال تميم اليفرنى ضد برغواطة ، فيذكر أن أبا الكمال حاربهم بعد سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م « فغلبهم على بلادهم وسباهم وجلا من بقى منهم ، واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا آثارهم ولم يبق لضلالتهم باقية ولا من أواصر كفرهم أصرة »(١٠٩). ومن المعروف — على الرغم مما ذكره البكـرى — أن برغواطة ظلت تمارس هرطقتها حتى غزاهم المرابطون وأثخنـوا فيهم الى حد أن عبد الله بن ياسين أمير المرابطين استشهد عام ٤٥٠هـ/١٠٥٧م وهو يقاتلهم(١١٠) . ولكن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تميما اليفرنى قد أذرع فيهم قتلا وغلبهم على تامسنا وقلد عليهم واليا من قبله(١١١) .

ولم تقتصر أعمال الأمير تميم على جهاد برغواطة فحسب ، بل أنه عاود قتال المغراويين عقب هدنة لم تستمر طويلا ، ففى عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م زحف الأمير تميم مع جموع اليفرنيين وهاجم مدينة فاس — مقر مملكة حمامة بن المعز بن زيرى بن عطية — وتمكن من اقتحامها والاستيلاء عليها وذلك فى شهر جمادى الآخر من نفس العام (يونيو ١٠٣٣م) . واضطر الأمير حمامة المغراوى الى الفرار الى مدينة وجدة ومنها رحل الى تلمسان . وقد أقدم الأمير تميم اليفرنى عقب دخوله مدينة فاس على قتل عدد كبير من اليهود قدرت المصادر عددهم بما

---

(١٠٩) البكرى : المغرب ص١٤١ .

(١١٠) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغـرب العربى ج٢ ص٤٣٢ — ٤٣٣ ، مختار العبادى : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية سنة ١٩٦٧ .

(١١١) ابن خلدون : ج٦ ص٢٠٩ .

يزيد على ستة آلاف ، كما نهب أموالهم وسبى نساءهم(١١٢) . ولم توضح لنا المصادر السبب فى نكبة اليهود على يد الأمير تميم ، هل لأنهم كانوا يناصرون خصمه حمامة المغراوى ويمدونه بالأموال ؟ أم أن هناك ثمة صلة بينهم وبين قبيلة برغواطة المارقة ؟ لقد ذهب بعض المؤرخين الحديثين أمثال نحوم سلوتش ودفردان الى القول بأن دولة برغواطة كانت يهودية فى أساسها واتجاهها ، ويستندون فى ذلك الى المؤثرات اليهودية التى يمكن أن نلحظها فى ديانة هذه القبيلة ، كما أن مؤسس هذه الدولة يهودى الأصل من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحاق(١١٣) .

وكيفما كان الأمر ، فان فترة بقاء الأمير تميم بفاس لم تطل أكثر من خمس سنوات ، حيث تمكن حمامة بن المعز المغراوى من حشد أعداد غفيرة من قبائل زناتة ومغراوة ، وهاجم مدينة فاس عام ٤٢٩هـ/

---

(١١٢) ابن أبى زرع : ص٦٩ — ابن الخطيب : اعمال الاعلام (نشر د. العبادى) ص ١٦٥ — ١٦٦ — ابن خلدون ج٧ ص٢١ .

(١١٣) ابن أبى زرع : ص٨٣ — وقد استبعد الدكتور مختار العبادى أن تكون ديانة هذه القبيلة هى اليهودية ، وان لم ينكر وجود تأثيرات يهودية واضحة فى ديانة برغواطة ، وذكر أن التأثيرات الاسلامية اقوى واوضح بحيث يمكن القول انها تقليد مشوه للاسلام فى اسلوب وطابع محلى بربرى . راجع: فى التاريخ العباسى والاندلسى ص٤٩٢ ، كذلك انظر : د. سحر سالم : من جديد حول برغواطة ، حيث اخذت بنفس راى الدكتور العبادى . أما الدكتور محمود اسماعيل فيجزم بالأصل الاسلامى لعقيدة برغواطة ، ويرى أنها صورة متطورة متطرفة من صور المذهب الخارجى الصفرى . راجع : د. محمود اسماعيل : مغربيات ، دراسات جديدة ، المحمدية — المغرب ١٩٧٧ ص٤٣ .

١٠٣٧م[114] وتمكن من اقتحامها ، ففر الأمير تميم اليفرنى منها وعاد بجيوشه الى عاصمته سلا[115] . واستمر تميم أميرا على بنى يفرن حتى توفى عام ٤٤٦هـ وفقا لرواية ابن خلدون ، فى حين يذكر ابن أبى زرع وابن الخطيب أنه توفى عام ٤٤٨هـ/١٠٥٥م . على أية حال فقد أثنى المؤرخون — كما سبق أن أشرنا — على هذا الأمير بسبب جهاده المتواصل لقبيلة برغواطة ، كما عرف عنه ايثاره للعدل وتطبيقه للشريعة واقامة الحدود حتى على أقرب الناس اليه ، فقد روى عنه أنه قتل أحد أبنائه لأنه اغتصب جارية من التجار بوادى سلا[116] .

نهاية امارة بنى يفرن بسلا :

خلف الأمير تميم ابنه حماد ، ولكنه لم يستمر فى الامارة أكثر من ثلاث سنوات حيث توفى عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، ثم خلفه ابنه يوسف ، وفى عهده بدأ الاحتكاك الحربى بين المرابطين وبنى يفرن . وكان المرابطون قد تركوا مواطنهم فى جنوب المغرب الأقصى وتقدموا صوب الشمال للقضاء على قوة غمارة المارقة فى جبال الريف ، وأسسوا لهذا الغرض قلعة أمرجو قبالتهم ، وفى أثناء تقدمهم اضطروا الى محاربة بنى يفرن ومغراوة ، فقد استولوا على مدينة اغمات عام ٤٤٩هـ ، ففر أميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى الى تادلا الخاضعة لحكم بنى

---

(١١٤) هذا التاريخ ذكره ابن خلدون (العبر ج٧ ص٢١) ، أما ابن الخطيب فذكر أن هذا الهجوم تم عام ٤٣١هـ (أعمال الأعلام . نشر د. العبادى ص١٦١) فى حين ذكر ابن أبى زرع كلا التاريخين وأشار الى وجود خلاف بين الروايات (الأنيس المطرب ص٦٩ — ٧٠) .

(١١٥) يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد. تحقيق عبد الحميد حاجيات . الجزائر ١٩٨٠ ج١ ص١٦٩ .

(١١٦) البكرى : المغرب ص١٤١ .

يفرن واستجار بهم ، فتوجهت جيوش المرابطين الى تادلا حيث اشتبكت مع اليفرنيين عام ٤٥٠هـ ، وتمكن المرابطون من دخول تادلا وقتلوا من بها من بنى يفرن ، كما قتلوا لقوط المغراوى أيضا(١١٧) . ثم واصل المرابطون تقدمهم شمالا للقضاء على القبائل البترية التى فرت فى اتجاه سلا وفاس . بيد أن مصرع أمير المرابطين عبد الله بن ياسين أثناء قتاله مع برغواطة قد جعلتهم يتريثون قليلا . ومما يدل على تصميم المرابطين على الاتجاه شمالا ، أن الأمير أبا بكر بن عمر اللمتونى عندما عزم على التوجه الى الصحراء للجهاد ، عقد لابن عمه يوسف بن تاشفين رئاسة المرابطين ، وأمره بالرجوع لقتال قبائل المغرب وخاصـــة بنى يفرن ومغـــراوة(١١٨) . وقد اشتبك يوسف بن تاشفين مع هاتين القبيلتين الزناتيتين وأنزل بهما هزائم شنيعة ، وفى أثناء ذلك توفى الأمير يوسف بن حماد اليفرنى عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م ، وخلفه عمه محمد بن تميم الذى اضطر أمام ضغط القوات المرابطية الى ترك عاصمته سلا ورحل هو وبنى يفرن الى مدينة فاس محتميا بالمغراويين . وقد يبدو ذلك غريبا نظرا لشدة العداء بين بنى يفرن ومغراوة ، لكن الخطر الذى تعرض له كل منهما من قبل صنهاجة اللثام (المرابطين) دفعهم الى الاتحاد لمواجهة عدوهما المشترك . ولذلك انضم محمد بن تميم اليفرنى الى جانب المغراويين فى قتالهم ضد المرابطين، بيد أن الهزيمة حلت بالزناتيين وقتل نحو ثلاثة آلاف من اليفرنيين والمغراويين ، بالاضافة الى مصرع

---

(١١٧) مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء . ١٩٧٩ ص٢٣ — السلاوى: الاستقصا : ج٢ ص ١٥ ، عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص٦٩٧ .

(١١٨) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص٨٦ — السلاوى : المصدر السابق ج٢ ص٢٣ .

الأمير محمد بن تميم اليفرني ، ودخل المرابطون مدينة فاس عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م ، وبذلك قضى على دولة بني يفرن في المغرب الأقصى[١١٩] . أما من بقي منهـم فقد تفرق في البـلاد ، ونزل قسم كبـير منهم بتلمسان[١٢٠] .

بقى أن نشير الى أن أيام بنى يفرن في المغرب لم تكن كلها حربا وقتالا ، بل نعم المغرب فيها — رغم ما صاحبها من اضطرابات وتقلبات — بفترات هدوء واستقرار طويلة ، انصرف فيها الأمراء للبناء والتشييد والتعمير ، وتنشيط الاقتصاد المغربى . فقد أنشأ الأمير يعلى بن محمد مدينة افكان ، كما قام ابن عمه أحمد بن أبى بكر والى فاس ببناء صومعة جامع القرويين عام ٣٤٤هـ . كما كثر الاتصال والتنقل ما بين المغرب والأندلس ، وكثر الاختلاط والاندماج بين قبائل المغرب الأقصى وقبائل المغرب الأوسط ، وعلى يد اليفرنيين ضعفت الى حد كبير نحلة برغواطة. ولكن في أواخر أيامهم ، فسدت الحالة لما جاروا على الرعية ، وأخذوا الأموال وسفكوا الدماء بغير حق ، فانقطعت الموارد وكثر الخوف واتصل الجوع والغلاء فآذن ذلك بزوال ملكهم[١٢١] .

٤ — بنو يفرن في الأندلس :

أ — بنو يفرن في خدمة الدولة الأموية :

ترجع صلة بنى يفرن ببلاد الأندلس الى بداية القرن الرابـع

---

(١١٩) ابن ابى زرع : ص٩١ ، ابن الخطيب : المصدر السابق ص ١٦٥ ، ابن خلدون ج٦ ص ١٨٥ .

(١٢٠) السلاوى : الاستقصا : ج٢ ص ٢٩ .

(١٢١) د . عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب . المطبعة الملكية . الرباط . ١٩٦٨ ج١ ، ص١٢٢ — ١٢٣ .

الهجرى (١٠م) حينما ناصروا الأمويين فى صراعهم ضد الشيعة الفاطميين ، ودخلوا فى طاعتهم ، ولكن شوكة بنى يفرن وغيرهم من قبائل زناتة انكسرت فى أعقاب الحملة التى قام بها القائد الفاطمى جوهر على بلاد المغرب فى عام ٣٤٧هـ ، واضطروا الى مغادرة المغرب الأوسط والاتجاه غربا اما الى المغرب الأقصى أو الى بلاد الأندلس لائذين بحماية الأمويين(١٢٢) . ويذكر ابن عذارى أن أحد أبناء أبى قرة بن دوناس بن محمد — الذى سبق أن تولى مر اليفرنيين عقب مصرع يعلى بن محمد — رحل الى الأندلس ، حيث أستقبله الخليفة الناصر استقبالا حافلا وبالغ فى اكرامه(١٢٣) . وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦هـ/٩٦١ — ٩٧٦م) وفد الى قرطبة قياطن بن يعلى بن محمد فى آخر رجب عام ٣٦٣هـ/أبريل ٩٧٤م لاعلان دخوله فى طاعة الأمويين « فاستقبل ورحب به وأكرم منزله ووسع عليه »(١٢٤) . ولم يتوقف تيار هجرة اليفرنيين من المغرب الى الأندلس فى عهد الخليفة هشام المؤيد وحاجبه المنصور محمد بن أبى عامر ، على الرغم من توتر العلاقات بين يدو بن يعلى — أمير بنى يفرن بالمغرب — والمنصور بن أبى عامر(١٢٥) . وشجع اليفرنيين على ذلك سياسة الدولة الأموية التى عملت على ضم العناصر البربرية الى صفوف جيشها ، هذه السياسة التى بدأ فى تطبيقها منذ أواخر أيام الخليفة الحكم المستنصر ، ثم ازداد

---

(١٢٢) مفاخر البربر ص ٤٥ — ابن خلدون : ج٧ ص١٨ .

(١٢٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص٢٢٢ .

(١٢٤) ابن حيان : المقتبس (نشر د. عبد الرحمن حجى) ص ١٥٥ .

(١٢٥) نلاحظ ان اليفرنيين الذين رحلوا الى الاندلس كانوا فى غالبيتهم من ابناء واحفاد دوناس بن محمد بن صالح اليفرنى ، فى حين أن ابناء واحفاد يعلى بن محمد هم الذين استقروا ببلاد المغرب .

عند الدولة على هذه العنصر البربرية خاصة أيام المنصور بن أبى عامر الذى أراد أن يزيل العصبية من صفوف الجيش الأموى بضم عنصر جديد يحفظ التوازن داخل جيشه[126] . ولم تكن هذه الحقيقة خافية على أحد ، فالأمير عبد الله الزيرى — آخر ملوك بنى زيرى أصحاب غرناطة فى عصر دول الطوائف بالأندلس — أشار الى هذه السياسة بقوله « وتوقع (المنصور) من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته، اذ كانوا صنفا واحدا ، وتألبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ، فنظر فى ذلك بعين اليقظة ، وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة : ان هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ضربها بسائر الفئات »[127] . كما أوضح ابن خلدون الخطوات التى اتخذها ابن أبى عامر فى هذا المجال فقال « فاستدعى (المنصور) أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة ، فرتب منهم جندا ، واصطنع أولياء عرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبنى يفرن وبنى برزال ومكناسة وغيرهم »[128] .

وبالنسبة لبنى يفرن ، تشير المصادر الى أن أبا يداس بن دوناس

---

(١٢٦) د. عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس . الاسكندرية ١٩٨١ ج١ ص٨٣ — ٨٤ : ويطلق الاستاذ ليفى بروفنسال على هذه السياسة لفظ تبربر القوات الخلافية **Berberisation** . راجع :
Levi-Provençal: Histoire de L'Espagne musulmane, Leiden, Leiden, 1950-1954-Tom. 3. P. 38.

(١٢٧) الأمير عبد الله الزيرى : مذكرات الأمير عبد الله او كتاب التبيان، تحقيق ليفى بروفنسال . القاهرة ١٩٥٥ ص١٦ .

(١٢٨) ابن خلدون : ج٤ ص١٤٧ — ١٤٨ — ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص٢٧٤ ، ص٢٧٩ — المقرى : نفح الطيب ج١ ص٣٩٧ .

ابن يعلى اليفرنى ، حينما فشل فى تولى رئاسة اليفرنيين بالمغرب عقب مصرع الأمير يحو بن يعلى ، فكر فى الرحيل الى الأندلس والدخول فى طاعة المنصور محمد بن أبى عامر ، فتوسط له اخوته : أبو قرة وأبو زيد وعطاف لدى المنصور ، وكان هؤلاء الاخوة قد رحلوا الى الأندلس قبل ذلك بقليل • وبناء على هذه الوساطة وصل أبو يداس الى الأندلس صحبة جمع عظيم من قومه ، فأحسن المنصور استقبالهم « فحل كلهم من المنصور محل التكرمة والايثار ، ونظمه فى جملة الرؤساء والأمراء ، وأسنى له الجراية والاقطاع ، وأثبت رجاله فى الديوان ، ومن أجاز من قومه ، فبعد صيته وعلا فى الدولة كعبه »[١٢٩] •

ونتيجة لذلك أصبح اليفرنيون من أكثر العناصر البربرية اخلاصا للدولة الأموية ولبيت ابن أبى عامر ، فشاركوا فى حروب المنصور العديدة التى خاضها سواء فى الأندلس ضد نصارى الشمال أو فى المغرب[١٣٠] • فقد انضم أبو بخت بن عبد الله بن بكار اليفرنى الى القوات الأندلسية التى توجهت الى المغرب بقيادة واضح الفتى لتأديب زيرى بن عطية المغراوى عندما شــق عصا الطاعة على ابن أبى عامر عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م[١٣١] • كما كان بنو يفرن من بين القبائل التى شاركت فى الغزوة التى أزمع فيها عبد الرحمن بن المنصور (الملقب بشنجول) غزو مملكة ليون وجليقية عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م • وعندما قفل عبد الرحمن عائدا من غزوته تلك — التى لم يحقق فيها أية نتائج تذكر — ووصل الى طليطلة ،

---

(١٢٩) ابن خلدون : العبر ج٧ ص٢٢ — كذلك : مفاخر البربر ص٢٦.

(١٣٠)

F. Guille Robles: Malaga musulmana, sucesos, antiguedades. Ciencias Y Letras Malaguenas durant La edad media, Malaga, 1957, P.41.

(١٣١) مفاخر البربر ص٢٨ .

وافته الأنباء بقيام ثورة فى قرطبة ضد العامريين ، وأن هذه الثورة تزعمها أحد الأمراء الأمويين وهو الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر وتلقب بالمهدى ، وحاول شنجول الوصول الى قرطبة للقضاء على هذه الثورة ، وعندما وصل الى منزل هانىء بالقرب من الحاضرة ، أدرك أن أهلها يميلون الى محمد بن هشام الذى أقدم على خلع الخليفة الشرعى هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ، وتولى هو الخلافة بدلا منه وتلقب بالمهدى • كذلك أدرك زعماء البربر المنضمين لجيش شنجول بأن نجم بنى عامر قد أفل وأن دولتهم قد دالت ، لذلك سارعوا بالانضمام للخليفة الجديد ، وكان أبو زيد بن دوناس وعبد الرحمن بن عطاف وأبو نور بن أبى قرة زعماء بنى يفرن من بين قادة البربر الذين أعلنوا بيعتهم للمهدى[١٣٢] •

ب — دور بنى يفرن فى حوادث الفتنة البربرية :

شارك بنو يفرن — شأنهم شأن بقية العناصر البربرية الأخرى فى الأندلس — فى حوادث الفتنة التى اشتعلت نارها مع نهاية القرن الرابع الهجرى وبداية الخامس الهجرى ، فقد انضموا أولا الى جانب الخليفة المهدى ، بيد أن هذا الأخير كان يشك فى اخلاصهم له، كما أن أهل قرطبة وأمراء البيت الأموى كانوا ينحون باللائمة عليهم لمؤازرتهم العامريين[١٣٣] • وعمل الخليفة المهدى على النيل من هؤلاء البربر ، فأمر ألا يركبوا خيلا ولا يحملوا سلاحا ، كما أساء معاملتهم ، وسمح للعامة بنهب دورهم فى الرصافة ، وعندما أفضى زعماء البربر الى المهدى بما وقع بهم ، اعتذر اليهم ووعدهم برد ما نهب منهم • ولكن البربر

---

(١٣٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص٧١ — ابن خلدون : ج٤ ص ١٥٠ •
(١٣٣) المقرى : نفح الطيب • ج١ ص٤٢٧ •

أدركوا عقم انضوائهم الى المهدى ، فرحلوا عن قرطبة ، وانضموا الى منافس للمهدى من البيت الأموى هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين ، وتمكن البربر بعد عدة اشتباكات مع المهدى وأعوانه من دخول قرطبة واعلان خلافة المستعين وتم ذلك فى شهر ربيع الأول عام ٤٠٠هـ(أكتوبر ١٠٠٩م) ، فى حين فر المهدى الى طليطلة(١٣٤) . ولكن الصراع بين الرجلين لم ينته عند هذا الحد ، فقد استعان المهدى بالكونت ريموند بوريل Raimond Borrell أمير برشلونة وأخيه الكونت أرمنجول Armengol de Urgel (وتسميه المصادر العربية أرمقند) لمناصرته ضد المستعين . وبالفعل تمكن المهدى ومعاونوه من النصارى من دخول قرطبة ، واضطر سليمان المستعين الى الفرار منها هو وأعوانه البربر . وهكذا تبادل الرجلان عملية الاستيلاء على قرطبة والفرار منها . وقد صمم المهدى عقب دخوله قرطبة على القضاء على البربر المناصرين للمستعين ، وكان هؤلاء البربر قد تجمعوا عند وادى آره(١٣٥) (أو وادى يارو) Guadiaro متجهين

---

(١٣٤) حول الصراع بين البربر والمهدى وهزيمة الأخير فى معركة قنطيش . راجع : ابن بسام : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة . القسم الأول . المجلد الأول ص٤٣ وما بعدها — المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة ١٩٦٣ ص٨٨—٨٩ — ابن الأبار : الحلة السيراء ج٢ ص٦ — ٧ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام (نشر ليفى بروفنسال) بيروت ١٩٥٦ ص١١٣ . — د. عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ج١ ص٨٦ — ٨٨ .

(١٣٥) يقع وادى آرة بالقرب من مدينة مربلة Marbella على الساحل الجنوبى الشرقى للأندلس ويعرف بوادى الساقتين . ابن الخطيب : اعمال الأعلام (نشر بروفنسال) ص ١١٥ .

الى الجزيرة الخضراء كى يكونوا على مقربة من ديارهم بالمغرب اذا ما ألجأتهم الظروف الى ترك الأندلس • وفى يوم الخميس لست خلون من ذى القعدة عام ٤٠٠هـ/٢٣ يونيو ١٠١٠م دارت معركة عنيفة بين الجانبين ، ويذكر ابن خلدون أن الزعيم اليفرنى أبا يداس بن دوناس ومن معه من بنى يفرن أبلوا بلاء حسنا فى هذه المعـركة ، وأصيب أبو يداس بجراح قاتلة ، توفى على اثرها ودفن فى ساحة المعركة ، ويقال أن سبعة عشر فارسا فقط من بنى يفرن وبنى برزال ممن كانوا فى جيش سليمان المستعين لقوا مصرعهم فى هذه المعركة(١٣٦) •

وهكذا كان للبربر عامة وبنى يفـرن خاصـة الفضل فى انتصار

---

(١٣٦) حول هذه المعركة راجع : المراكشى : المعجب ص٨٩ — ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص٩٨ — ابن الخطيب : المصـدر السابق ص١١٥ — ١١٦ — ابن خلدون : العبر ج٧ ص٢٢ • ومن الطريف أن نذكر هنـا أن البربر المنضمين الى جيش سليمان المستعين قد اكتسبوا شهرة واسعة بفضل قوة ضربات سيوفهم فى يوم وادى آره ، فقد وصف ابن حيان قوة ضرباتهم بقوله : « وكان من عجائب الضراب يوم آره ، المتحدث عنه فى الآفاق الى اليوم : ثلاث ضربات ما سمع بمثلها فى الدهر مضاء سيوف وقوة سواعد ، منها ضربة أبى زوليت البيضة التى حملت الى مدينة برشلونة والتى وضعتها الافرنجة فى الكنيسة هناك اعتبارا ومعذرة . وضربة حباسة بن ماكسن الصنهاجى فارسا آخر منهم بدرع حصينة ثقيلة فهتكت الزرد وقدته وقدت جنب لابسه فجدلته ، وضربة بهلول بن تمايت الحمرى لخطم فرس علج منهم ففصلت حديدتى اللجام ولحيى الفرس جميعا ، ورمت بخطمه وما تكنفه من الحديد ناحية ، وخر الفـرس لفيه ، فصارت هذه الضربات أعجوبة عند الناس » . راجع : د. مختار العبادى : صور لحياة الحرب والجهاد فى المغرب والأندلس ، مقال بمجلة البينة . الرباط . السنة الأولى . العدد التاسع (يناير ١٩٦٣م) ص ٩٠ والنص نقلا مفاخر البربر لمؤلف مجهول (النسخة الخطية لوحة ١٥٨) .

سليمان المستعين هذه المرة ، ودخوله مدينة قرطبة ، ولكن المستعين أدرك فى نفس الوقت خطورة هذه العناصر البربرية على دولته ، فهو لم يرتق الى سدة الخلافة الا بفضل سيوفهم ورماحهم ، وقد اتخذوا من ذلك صنيعا يطوقون به عنقه ، كما أن المستعين كان يعلم تماما مدى كراهية أهل قرطبة لهؤلاء البربر • وكنا قد أشرنا الى المعاملة السيئة التى عامل بها القرطبيون البربر • ولذلك خشى المستعين أن يعمل البربر عقب دخولهم قرطبة على الثأر لأنفسهم من أهلها ، فأقدم على خطوة كان لها تأثير بالغ فيما بعد على الأوضاع السياسية فى الأندلس • فقد قرر المستعين ابعاد البربر عن قرطبة وتفريقهم على الثغور والكور ، فكان نصيب بنى يفرن كورة جيان Jean بالاشتراك مع بنى برزال ، فى حين أعطى كورة البيرة Elvira لصنهاجة والجوف لمغراوة وشذونة وموورو لبنى دمر وازداجه، وطنجة وأصيلا وسبته للقاسم على ابنى حمود[١٣٧]• ولاشك أن هذا الاجراء الذى اتخذه سليمان المستعين قد رسخ فكرة انقسام الأندلس الى دويلات صغيرة يحكمها أمراء مستقلون أطلق عليهم ملوك الطوائف • وقد استمرت ظاهرة دويلات الطوائف قائمة بالأندلس منذ بداية القرن الخامس الهجرى (١١م) حتى قضى عليها يوسف بن تاشفين أمير المرابطين قرب نهاية هذا القرن وأعاد للأندلس وحدتها •

نعود الى بنى يفرن فنقول أن قسما منهم فيما يبدو استقر فترة من الزمن فى جيان ، ولا تزودنا المصادر العربية بأى تفاصيل عنهم أكثر مما ذكره ابن عذارى من أن محمد بن عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر قد ثار بجيان عام ٤١٣هـ/١٠٢١م على بنى يفرن ، ولم يوضح ابن عذارى — الذى أورد هذا الخبر — نتيجة هذه الثورة ، وكل

(١٣٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص١١٣ — ١١٤ — ابن الخطيب : المصدر السابق ص١١٩ •

ما ذكره أن محمدا هذا استمر بجيان حتى توفى عام ٤١٩هـ/١٠٢٨م(١٣٨).

كذلك انضم قسم من بنى يفرن الى جانب الحموديين وعملوا فى خدمتهم، فقد ذكر ابن بسام — نقلا عن ابن حيان — أن محمد بن زيرى بن دوناس اليفرنى كان من رجال الخليفة الحمودى القاسم بن حمود ، وكان ابنه المسمى الحسن بن القاسم بن حمود مصاهرا لليفرنيين ، اذ تزوج من بنت أبى قرة بن دوناس ، وعلى الرغم من ذلك فقد غدر محمد بن زيرى اليفرنى بخليفته الحمودى عندما طرده أهل قرطبة من مدينتهم فى عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م ، فحاول دخول اشبيلية ليتخذها مقرا لدولته ، حيث ترك بها أهله وأولاده كما ترك بها أيضا محمد بن زيرى نائبا عنه . ولكن محمد بن زيرى اتفق مع القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد على منع القاسم من دخول اشبيلية وأخرجوا له أولاده . وكان محمد بن زيرى اليفرنى يطمع فى تولى أمور اشبيلية ، ولكن ذلك لم يتحقق له ، اذ سرعان ما غدر به القاضى ابن عباد وطرده هو ومن معه من اليفرنيين والبربر خارج مدينتهم(١٣٩) .

من شخصيات بنى يفرن البارزة ممن عملوا فى خدمة الحموديين نذكر الوزير عبد الرحمن بن عطاف بن دوناس اليفرنى ، الذى انحاز الى جانب الخليفة الحمودى على بن يحيى بن على بن حمود الملقب بالمعتلى ، ونجح ابن عطاف فى كسف ثقة المعتلى ، حتى أنه ولاه نائبا عنه لحكم قرطبة وذلك حينما خلع أهلها طاعة الخليفة الأموى المستكفى، ونادوا بخلافة المعتلى مرة ثانية فى رمضان عام ٤١٦هـ/أكتوبر — نوفمبر

---

(١٣٨) ابن عذارى : نفس المصدر السابق، ج٣ ص١٣٣ .

(١٣٩) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول . المجلد الأول . ص٣٨٥ — ابن عذارى : ج٣ ص١٣٤ — ١٣٥ .

١٠٢٥م . بيد أن ابن عطاف لم يستمر فى منصبه بقرطبة طويلا اذ نقض أهلها طاعة المعتلى ، وصرفوا ابن عطاف عن مدينتهم ، فلحق بخليفته الحمودى وذلك عام ٤١٧هـ/١٠٢٦م[١٤٠] .

ومن الجدير بالذكر أن قسما آخر من بنى يفرن لم يغادر قرطبة طوال فترة الفتنة البربرية فقد ذكر ابن حيان أن أبا الحزم جهور بن محمد حينما تولى أمر قرطبة عقب خلع الخليفة الأموى هشام المعتد بالله عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م اتخذ عددا من الاجراءات لنشر الأمن بقرطبة من بينها طرد البربر منها باستثناء بنى يفرن الذين أبقى عليهم لثقته بهم، يقول ابن حيان « واقتصر (أبو الحزم جهور) من الجند على أعيانهم ، وسد باب البرابر جملة ، الا من قد صار فى البلد من بنى يفرن الموثوق بهم ، وأقصى من سواهم من فرق البرابرة من غير ايحاش »[١٤١] .

ج — دولة بنى يفرن فى رندة :

انتهزت العناصر البربرية فرصة سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، واقتطع زعماؤهم عدة مناطق أنشأوا بها دويلات مستقلة وخاصة فى منطقة جنوب الأندلس . فقد استقل بنو زيرى الصنهاجيون بغرناطة ، وبنو برزال بقرمونة وبنو دمر الاباضيون بمورور وبنو أبى قرة برندة وتاكرنا[١٤٢] . والواقع أن تجمع هذه الممالك البربرية فى هذه المنطقة من بلاد الأندلس يرجع الى قرب هذه المنطقة من بلاد المغرب — الموطن

---

(١٤٠) المراكشى: المعجب ص١٠٢ — ابن خلدون: العبر ج٤ ص١٥٤— المقرى : نفح الطيب ج١ ص٤٣٢ — Guillen Robles: Op. Cit. P. 59.

(١٤١) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول . المجلد الأول ص٦٠٢ .

(١٤٢) د. عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ج١ ص١٢٦ .

الأصلى لهذه القبائل — ، وبالتالى يصبح فى امكانها أن تغادر الأندلس الى بلادها ، اذا ما أحست بأى خطر يهدد بقاءها فى الأندلس ، كما أن هذه القبائل يمكنها بكل يسر أن تتلقى المدد من بلاد المغرب كلما دعت الحاجة لذلك(١٤٣) .

وبالنسبة لبنى يفرن فقد أقاموا مملكتهم فى اقليـم تاكرنا(١٤٤) (أو تاكرونا) ، واتخذوا من مدينة رندة(١٤٥) عاصمة لهم . ويشير ابن خلدون الى أن أبا نور هلال بن أبى قرة بن دوناس اليفرنى — أحد

---

(٢٤٣) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامهـا حتى الفتح المرابطى . ص١٤٦ .

(١٤٤) تاكرنا Takurnna : احد اقاليم جنوب الأندلس ، يتاخم اقليمى استجه والجزيرة الخضراء ، ويشتهر هذا الاقليم بجباله العالية المنحدرة التى يطلق عليها الزهرى اسم « جبال الصوف » كما يشتهر هذا الاقليم ايضا بوفرة مياهه وتنوع منتجاته الزراعية . الزهرى : كتاب الجغرافية . تحقيق محمد حاج صادق . القاهرة . بدون تاريخ ص ٩٠ ، ص٩٣ . انظر كذلك :
Caridad Ruiz Almodovar Sel: Notas Para un estudio de la tafia beréber de Ronda: Los Banu Ifran, Granada, 1983, PP. 95-97.

(١٤٥) رنده Ronda : عاصمة كورة تاكرنا ، مدينة قديمة من ايام الرومان كانت تسمى Arunda وهى من القواعد العسكرية الهامة بجنوب الاندلس نظرا لحصانتها وارتفاع موقعها . وقد اشاد الرحالة والجغرافيون بحصانتها تلك ، وكانت قلعة ببشتر Bobastro الواقعة بين قمم جبالها مركزا لثورة خطيرة اشعل نارها عمر بن حفصون كادت تعصف بالدولة الأموية بالاندلس. راجع: ابن غالب: فرحة الانفس، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس . تحقيق لطفى عبد البديع . مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الاول . الجزء الثانى . نوفمبر ١٩٥٥ ص٢٦ — ياقوت الحموى : معجم البلدان . طبع بيروت . بدون تاريخ . ج٣ ص٧٣ — ٧٤ — ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . ج١ ص٣٣٤ . د. أحمـد مختار العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص ٩٥ — ٩٦ .

زعماء بنى يفرن — انتزع مدينة رندة من يد عاملها عامر بن فتوح الفائقى[146] ، الذى كان يحكم مدينة مالقة والمناطق المحيطة بها ومن بينها رندة وذلك عام ٤٠٥هـ/١٠١٤[147] • وقد وصف ابن الخطيب أبا نور هلال بعدة صفات متناقضة ، فهو جسور مقدام ، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله وحصانة قلاعه ، ولكنه فى نفس الوقت جشعا ، عطلا من كل خلة تدل على فضيلة ، شارعا فى لذاته ، لا ينفق درهما واحدا[148] • وعلى الرغم من ذلك فقد كان أبو نور هلال واحدا من أبرز زعماء البربر ذوى البأس ، فقد خطب وده كل من الحموديين وبنى عباد باشبيلية •

وقد عمل أبو نور هلال على توطيد صلاته بالحموديين ، ولذلك تميزت تلك العلاقات بالود والتعاون ، وتشير المصادر الى أن أبا نور هلال دخل فى طاعة الحمودى ادريس بن يحيى بن على بن حمود الملقب بالعالى (تولى امامة الحموديين بمالقة من عام ٤٣٤هـ حتى عام ٤٣٨هـ/

---

(١٤٦) عامر بن فتوح : احد موالى فائق الصقلبى صاحب البرد والطراز ايام الحكم المستنصر ، وقد ظل عامر بن فتوح يحكم مالقة وما حولها حتى انتزعها منه على بن حمود بالخديعة راجع : ابن سعيد : المغرب ج١ ص٤٢٥ — المراكشى : المعجب ص٩١ — اما ابن عذارى (البيان ج٣ ص١١٦) فقد ذكر ان عليا قتل صاحب مالقة واستولى عليها .

(١٤٧) ابن خلدون : العبر ج٧ ص٢٣ فى حين ان ابن عذارى ذكر أن أبا نور هلال اليفرنى بويع له بتاكرنا عام ٤٠٦هـ عقب موت ادريس بن على بن حمود ، وهذا خطأ لأن ادريس توفى ٤٣١هـ/١٠٣٩م (البيان المغرب ج٣ ص٣١٢ — ٣١٣) والتاريخ الذى اثبتناه بالمتن هو الأصوب ، وان كان ابن خلدون قد ذكر فى موضع آخر (ج٤ ص١٥٧) أن أبا نور استبد بأمر رنده عام خمسين وأربعمائة وهو تحريف ظاهر .

(١٤٨) ابن الخطيب : اعمال الأعلام (نشر بروفنسال) ص٢٣٨ .

١٠٤٢م — ١٠٤٦م ، ومن ٤٤٤هـ حتى ٤٤٦هـ/١٠٥٢م — ١٠٥٤م) ودعا له(١٤٩) . كما ارتبط الرجلان برباط المصاهرة ، فقد تزوج الحسن بن القاسم من بنت أبى نور هلال وأنجب منها ولدين هما : هاشم وعقيل(١٥٠) . واستغل أبو نور هلال صلاته الطيبة بالعالى وطلب منه عددا من الحصون التابعة له فسلمها له(١٥١) ، وبذلك اتسع ملك أبى نور وأصبح يشتمل المنطقة الممتدة من الجزيرة الخضراء الى تاكرنا(١٥٢). وحينما خلع العالى من الخلافة ، ورحل الى سبتة ، ظل اليفرنيون وزعيمهم أبو نور هلال متمسكين بدعوته ، كما أن العالى لم يتردد عقب عودته الى الأندلس فى عام ٤٤٤هـ فى الاقامة بعض الوقت برندة فى ضيافة أبى نور الى أن عاد الى مالقة(١٥٣) . وظلت العلاقات الطيبة تسود بين بنى يفرن والحموديين حتى بعد وفاة العالى ، عندما بايع أبو نور هلال محمد بن ادريس بن يحيى الذى تلقب بالمستعلى ، وظل اليفرنيون على ولائهم للحموديين الى أن استولى باديس بن حبوس

---

(١٤٩) ابن عذارى : البيان المغرب : ج٣ ص٢١٧ — ابن خلدون : ج٤ ص ١٥٥ — المقرى : نفح الطيب ج١ ص٤٣٢ .

(١٥٠) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٥١ .

(١٥١) اشتهر هذا الخليفة الحمودى بأنه كان قليل الحرص على الاحتفاظ بملكه ، ويذكر المراكشى ان العالى كان لينا مع البربر ، وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بنى يفرن أعطاه اياه . المعجب ص١١٧ .

(١٥٢) نفس المصدر السابق ص١٢١ .

(١٥٣) نفس المصدر السابق والصفحة — ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص٢١٧ — اسماعيل العربى : دولة الادارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة . بيروت ١٩٨٣ ص٢٧٣ .

الصنهاجى صاحب غرناطة على ملكهم عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧[١٥٤] .

أما عن علاقات بنى يفرن فى رندة مع غيرهم من دويلات الطوائف الأخرى ، فالمعلومات المتوفرة لدينا فى المصادر شحيحة للغاية ، وهناك بعض الأخبار المتناثرة ، ولكنها تزودنا بتفاصيل توضح نوع هذه العلاقات . فعلى سبيل المثال ذكر ابن حيان أن اليفرنيين بزعامة أبى نور هلال اشتركوا مع بنى برزال أصحاب قرمونة وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ومحمد بن جهور صاحب قرطبة فى مهاجمة أحد حصون بنى دمر ، حيث تمكنوا من اقتحام هذا الحصن عنوة « فقتلوا رجاله عن آخرهم ، وهتكوا الأستار وفتكوا بالأبكار »[١٥٥] . ولم يحدد لنا ابن حيان — الذى أورد هذا الخبر — تاريخا لهذه الغزوة ، كما أنه لم يذكر الأسباب التى دعت اليها .

كذلك شارك بنو يفرن فى استعادة قلعة بربشتر[١٥٦] التى كانت قد تعرضت لمحنة دامية عندما استولى عليها الصليبيون عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م . وقد انتهز المقتدر أحمد بن سليمان بن هود حاكم سرقسطة فرصة اشتعال الصراع بين مملكتى أراجون وقشتالة ، وبعث الى المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية يطلب منه المساعدة لاستعادة هذه

---

(١٥٤) ابن خلدون : ج٤ ص ١٥٥ .

(١٥٥) ابن عذارى : ج٣ ص٢٦٩ .

(١٥٦) بربشتر Barbastro مدينة حصينة بشمال اسبانيا فى مقاطعة وشقه Huescò تقع على بعد ستين كيلو مترا شمالى سرقسطه ، وتقع على احد فروع نهر الابرو بين مدينتى لارده وسرقسطة . راجع : ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط . تحقيق د. احمد مختار العبادى . مدريد ١٩٧١ ص٧٢ حاشية ٦ . وهى غير ببشتر Bobastro السالفة الذكر التى تقع جنوبا بنواحى رندة فى جنوب اسبانيا والتى كانت مقر للثائر ابن حفصون .

القلعة ، فأرسل اليه أحد قادته ويدعى معاذ بن أبى قرة[157] فى قوة عدتها خمسمائة فارس من أشداء البربر ، وتمكن ابن هود بفضل هذه المساعدات من استرداد بربشتر وذلك فى الرابع من جمادى الأول عام ٤٥٧هـ/٣ أبريل ١٠٦٥م[158] .

د ــ بنو يفرن والعباديون أصحاب اشبيلية :

حرص القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد صاحب اشبيلية (تولى حكمها من ٤١٤هـحتى ٤٣٣هـ/١٠٢٣م ــ ١٠٤١م) على خطب ود أمراء الممالك البربرية فى جنوب الأندلس المتاخمة لدولته اتقاء لشرهم ، حيث تشكل هؤلاء البربر قوة عسكرية كبرى يخشى بأسها . وقد انتهج ابنه

---

(١٥٧) ذكر الدكتور مختار العبادى أن معاذ بن أبى قرة هذا ، ربما يكون أحد قرابة الأمير أبى نور هلال بن أبى قرة اليفرنى صاحب رنده أو هو احد ابنائه (ابن الكردبوس : المصدر السابق ص٧٣ ح٤) ، واذا صح ما ذكره الدكتور العبادى ، يكون القائد معاذ أخا لأبى نور هلال . ولمعاذ بن ابى قرة حكاية طريفة مع المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية ، فقد ذكر النويرى ان المعتقد ذهب يوما الى قرمونة بعد ان شرب الخمر مع رجاله ، ولم يكن معه فى رحلته الى قرمونة سوى عبد واحد من جملة عبيده ، وأراد قادة البربر فى قرمونة انتهاز هذه الفرصة للتخلص من ابن عباد اقوى ملوك الطوائف ، بيد أن معاذا تدخل بينهم واقنعهم بعدم تنفيذ ذلك ، ويضيف النويرى أن المعتضد سمع نقاش زعماء البربر بشأنه ، وعلم أن معاذ بن ابى قرة هو الذى اقنع الآخرين بالا يخفروا ذمته ، ولذلك حفظ المعتضد هذا الجميل لمعاذ ، وابقاه معه فى اشبيلية ، واستمر معاذ بها حتى بعد وفاة المعتضد وتولى ابنه المعتمد أمورها ، بل أنه ظل مقيما بهــا حتى دخول المرابطين اشبيلية عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م . النويرى : نهاية الأرب (القسم الخاص بالمغرب) ص١٥٤ ــ ١٥٥ .

(١٥٨) ابن الكردبوس : المصدر السابق ص٧٢ ــ ٧٣ . ابن بسام: الذخيرة . القسم الثالث . المجلد الأول ص ١٩٠ .

عباد محمد الملقب بالمعتضد (٤٣٣ — ٤٦١هـ/١٠٤١ — ١٠٦٨م) نهجه، وعمل على استمالة هذه الدويلات البربرية — وخاصة بنى يفرن — الى جانبه ، فتحالف مع اليفرنيين ، ووصل الجميع بأجزل الصلات سياسة لهم وطمعا فى استئصالهم[١٥٩] . ويشير ابن خلدون الى أن المعتضد أقر أبا نور هلال بن أبى قرة على ولاية تاكرنا ورندة وأعمالها ، وكتب له سجلا بذلك عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م[١٦٠] . بيد أن المعتضد لم يلبث أن انقلب على هؤلاء البربر ، وأراد القضاء على ممالكهم الصغيرة وضمها الى دولته . ولما كان المعتضد لا يملك القوة العسكرية اللازمة التى تمكنه من الدخول فى حرب سافرة مع هذه الممالك ، فانه لجأ الى سـلاح الخديعة والمكر ، ولذلك دبر مؤامرة للتخلص من زعماء البربر بالأندلس، ففى رجب عام٤٤٥هـ/أكتوبر١٠٥٣م،دعا المعتضدكل من محمدبن نوح الدمرىصاحب مورور[١٦١]وعبدون بن خزرون أميربنىيرنيان وصاحب شذونةوأركش[١٦٢]وأبى نو هلال بن أبىقرة صاحب رندة الىاشبيلية لحضورحفل أعذارأولاده«فأتوهفىأحسن زىوأبهىملبس وأفخم عدة..

---

(١٥٩) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص ٢٧٠ .

(١٦٠) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٥٧ ، ج٧ ص٢٣ .

(١٦١) مورور Moron : احدى كور الأندلس الجنوبية ، تقع جنوبى الوادى الكبير على سفح جبل Sierra Moron وهى تتاخم كل من قرمونة وشذونة . ياقوت الحموى : معجم البـلدان ج ٥ ص٢٢٢ — الحميرى : الروض المعطار ص٥٦٤ .

(١٦٢) أركش Arcos de la Frontera : احدى مدن كورة شريش Jerez وتقع على بعد خمسين كيلو متر شمال شرقى مدينـة قادس . الحميرى : المصدر السابق ص٢٧ — ٢٨ ، ابن الآبار : الحلة السيراء : ج٢ ص٢٤٢ ح١ .

فجاؤوا اليه يباهون عليه فى نحو مائتى فارس من رؤساء قبائلهم »[١٦٣].
وقد أحسن المعتضد استقبالهم فى بداية الأمر ، ولكنه لم يلبث أن غدر بهم وقبض عليهم . وتجمع الروايات على أن المعتضد دعاهم لدخول حمام كان قد أخلاه لهم يعرف بحمام الرقاقين ، فلما دخلوه كبلهم وسجنهم فيه ، وأخذ بغالهم وأخبيتهم وعددهم ، ثم أمر بالبناء على أبواب الحمـــام ، كما أمر السخان أن يكثر من الوقود حتى اشتدت الحرارة داخل الحمام ، فلما أرادوا الخروج وجدوا الأبواب قد سدت بالبناء ، ولم يتمكنوا من الخروج فهلكوا جميعا باستثناء أبا نور هلال الذى أطلق المعتضد سراحه لليد التى كانت له عنده فى مثلها[١٦٤] .

ويبدو أن أبا نور هلال قضى فترة من الوقت باشبيلية معتقلا لدى ابن عباد ، ولذلك قام بنو يفرن فى رندة حينما علمــوا بنبأ اعتقال أميرهم ، باختيار ابنه باديس حاكما عليهم ، ولكن باديس هذا كان فاسقا مجرما « فسام الناس الخسف وامتحنهم فى أموالهم بالنهب وفى نسائهم وبناتهم بالعهر »[١٦٥] . ولم يطل حكم باديس لرندة ، اذ قتل على يد أبيه عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، وتشير المصادر الى أن المعتضد أراد التخلص من أبى نور هلال وابنه باديس ، فكاد له بأن سعى الى ابلاغ أبى نور بأن ولده باديس قد زنى بامرأته وعمته ، ثم سمح المعتضد لأبى نور هلال بالرحيل من اشبيلية الى رندة ، فلما وصلها قبض على

---

(١٦٣) ابن عذارى : ج٣ ص ٢٧٠ — ابن الخطيب : أعمال الأعلام (نشر بروفنسال) ص٢٣٩ .

(١٦٤) نفس المصدر السابق ج٣ ص٢٧١ ، ص ٢٩٥ ، مفاخر البربر ص ٤٥ — ابن الخطيب : أعمال الأعلام (نشر بروفنسال) ص٢٣٩ — ابن خلدون : العبر ح٤ ص١٥٧ .

(١٦٥) ابن عذارى : ج٣ ص٣١٢ .

ولده وضرب عنقه ، كما قتل أخته (أخت أبى نور) أيضا[١٦٦] . ولم يعش أبو نور طويلا ، اذ توفى بعد ذلك بقليل .

هـ — نهاية دولة بنى يفرن فى رندة :

تولى أبو الفتوح نصر بن أبى نور هلال اليفرنى امارة بنى يفرن فى رندة وذلك أواخر عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، وبايعته بلاد رية ، وخطب له على منابر مالقة وسائر كورة تاكرنا . وكان أبو الفتوح نصر حاكما عادلا حسن السيرة ، ولكن يؤخذ عليه انهماكه فى الشراب وميله الى الراحة واللذة . وقد انتهز المعتضد بن عباد تطور الأمور فى رندة على هذا النحو ، وعمـل على ضمها الى دائرة نفـوذه ، فاتفق مع أحد سمار[١٦٧] قصبة رندة ، ويسمى ابن يعقوب على الفتك بأبى نصر ، فثار ابن يعقوب وأصحابه ، ودخلوا قصر أبى نصر وصاحوا بشعار ابن عباد، فلما أراد أبو نصر الفرار ، وثب من احدى شرفات القصر ، فهوى الى أسفل ووقع على صخرة فلقى حتفه . ومن العجيب — كما يذكر ابن عذارى — أن أحدا من أهل رندة لم يرفع يدا لابن يعقوب ، بل سد كل فرد بابه وطلب العافية ، وتم ذلك فى ٤٥٧هـ/١٠٦٥م[١٦٨] . وهكذا

---

(١٦٦) هذه الرواية ذكرها كل من ابن عذارى (نفس المصدر السابق والصفحة) وابن حزم (جمهرة أنساب العرب ص٥١) ، أما ابن خلدون فيشير الى أن أبا نور ادرك فيما بعد المكيدة التى دبرها المعتضد له ولابنه ، وكيف انه تسرع فى قتل ولده ، فشعر بالأسى والأسف ومات حزنا على ولده، العبر ج٧ ص٢٣ .

(١٦٧) السمار : هم الحراس الليليون الذين يقومون بحراسة القلاع أو القصاب او الأربطة والابلاغ عن تحركات العدو لانهم اول من يرونه راجع : د. مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . ص٣٠١ ، Dozy: Supp. Vol. 1. P. 682.

(١٦٨) ابن بسام : الذخيرة . القسم الثانى المجلد الأول ص٣٩ — ٤٠ — ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص٣١٤ — ابن خلدون : ج٤ ص١٥٧ ، ج٧ ص٢٣ .

سقطت رندة فى يد المعتضد بن عباد ، وقضى على دولة بنى يفرن فى الأندلس . وقد أبدى المعتضد سرورا بالغا بسقوط رندة فى قبضته ، وتغنى هو والشعراء بهذه المناسبة[(١٦٩)] .

ولاشك أن استيلاء المعتضد على رندة وأحوازها ، بالاضافة الى استيلائه على مورور عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م ، وقرمونة عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م ، وأركش عام ٤٦١هـ/١٠٦٨م ، قد أضعف كثيرا من شوكة البربر فى الأندلس ، ولم يعد باقيا من ممالكهم سوى دولة بنى زيرى بغرناطة ، وخشى باديس بن حبوس الصنهاجى على نفسه من غدر المعتضد ، ويصور لنا ابن حيان الحالة السيئة التى كان عليها باديس بن حبوس عندما علم بنبأ مصرع أبى الفتوح نصر بن أبى نور هلال اليفرنى ، واستيلاء ابن عباد على رندة بقوله « وأن أميرها باديس قام للحادثة وقعد ، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن ، وشق أثوابه ، وأغلق أعواله ، وهجر شرابه الذى لا صبر له عنه ، وجفا ملاذه ، وأوهمته نفسه الخبيثة تمالؤ رعيته من أهل الأندلس على الذى دهى أبا نصر ، فسولت له نفسه على حمل السيف على أهل حضرته جميعا »[(١٧٠)] . بيد أن ابن

---

(١٦٩) من ذلك قول المعتضد :

لقد حصلت يا رندة ... فصرت لملكنا عقده
أفادتنــاك أرمــاح ... وأسياف لهــا حدة
ولجنــاد اشــداء ... اليهم تنتهى الشــدة

كما أشار الشاعر الاشبيلى أبو الحسن على بن حصن الى استيلاء المعتضد على دويلات البربر فى جنوب الأندلس بقوله :

به دمر الرحمن دمر وانطــوى ... بنو يفرن أعدى الأعادى وأمرق
ومن آل يرنيــان انكث أمــة ... لعهــد وميثاق وأغوى وأفسق

ابن بسام : المصدر السابق . القسم الثانى . المجلد الأول ص٣٢ — ابن الأبار : الحلة السيراء ج٢ ص٤٩ — ٥٠ .

(١٧٠) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٩٧٣ . ج١ ص٤٤٤ — ٤٤٥ — ابن خلدون : ج٤ ص١٥٧ .

حبوس الصنهاجى لم يجرؤ على الفتك برعيته ـ كما ذكر ابن حيان ـ، ولكنه خرج بجيوشه لقتال ابن عباد ، ولما لم يظفر منه بطائل ، عاد الى عاصمته غرناطة .

أما بنو يفرن ، فقد تفرقوا فى البلاد ، فاجتاز قسم منهم مضيق جبل طارق ونزلوا بسبتة ، ولكنهم اضطروا الى الرحيل عنها عندما طردهم سقوت البرغواطى صاحب سبتة ، فتعرضوا لمجاعة شديدة أهلكت الكثير منهم(١٧١) ، أما القسم الآخر الذى بقى فى بلاد الأندلس فلم تشر المصادر الى مصيرهم .

---

(١٧١) ابن خلدون : ج٤ ص١٥٧ .

مصـــادر ومراجـــع البحث

أ ــ المصــادر :

١ ــ ابن الأبار : محمــد بن عبد الله بن أبى بكــر القضاعى البلنسى (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) :

ــ الحلة السيراء • تحقيق د• حسين مؤنس • الطبعة الثانية • القاهرة ١٩٨٥ •

٢ ــ ابن الأثير : أبو الحسن على بن محمد الجــزرى (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :

ــ الكامل فى التاريخ • طبعة دار صادر • بيروت •

٣ ــ الأدريسى : أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥٤م) :

ــ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق • تحقيق مجموعة من العلماء• نشر مكتبة الثقافة الدينية • القاهرة • بدون تاريخ •

٤ ــ ابن بسام : أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) :

ــ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة • تحقيق د• احسان عباس، ليبيا ــ تونس ١٩٧٥ •

٥ ــ البكرى : أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) :

ـــ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب • نشر البارون دى سلان• الجزائر ١٩١١ •

٦ ـــ الجزنائى : أبو الحسن على :
ـــ زهرة الآس فى بناء مدينة فاس • نشر ألفرد بل • الجزائر ١٩٢٢ •

٧ ـــ ابن حزم الأندلسى : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) :
ـــ جمهرة أنساب العرب • تحقيق عبد السلام هارون • الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ •

٨ ـــ ابن حماد : أبو عبد الله محمد بن على (ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م) :
ـــ أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم • نشر فوندر هايدن • الجزائر ١٣٤٦هـ •

٩ ـــ الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى/١٥م) :
ـــ الروض المعطار فى خبر الأقطار • تحقيق د• احسان عباس • بيروت ١٩٧٥ •

١٠ ـــ ابن حوقل : أبو القاسم محمد البغدادى (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) :
ـــ صورة الأرض • نشر J.H. Kramers ليدن ١٩٣٨ •

١١ ـــ ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبى (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م) :
ـــ المقتبس فى أخبار بلد الأندلس •
قطعة خاصة بالثلاثين سنة الأولى من حكم الخليفة عبد الرحمن

الناصر ، نشر بدرو شالميتا وفدريكو كورنيطى ومحمود صبح ، مدريد ١٩٧٩ .

— وقطعة أخرى تتناول قسما من عصر الحكم المستنصر ، نشرها عبد الرحمن حجى ، بيروت ١٩٦٥ .

١٢ — ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) :

— أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . القسم الخاص بالأندلس ، نشره ليفى بروفنسال . بيروت ١٩٥٦ ، والقسم الخاص ببلاد المغرب وصقلية نشر د. أحمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى . الدار البيضاء ١٩٦٤ .

— مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . مجموعة من رسائله . نشرها د. أحمد مختار العبادى . الاسكندرية ١٩٨٣ .

— الاحاطة فى أخبار غرناطة . الجزء الأول . نشر محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٩٧٣ .

١٣ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨/١٤٠٥م) :

— كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . بولاق ١٢٨٤هـ .

١٤ — ابن خلدون : أبو زكريا يحيى (ت ٧٨٠هـ/١٣٧٨م) :

- بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد . الجزء الأول . تحقيق عبد الحميد حاجيات . الجزائر ١٩٨٠ .

١٥ — ابن خياط : أبو عمرو خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ تقريبا/٨٥٤م):

— تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق أكرم العمرى . بغداد ١٩٦٧ .

١٦ ــ الدرجينى . أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٦٧٠هـ/١٢٧١م) :
ــ طبقات المشايخ بالمغرب المعروف بطبقات الاباضية • تحقيق ابراهيم طلاى • قسنطينة ١٩٧٤ •

١٧ ــ الرقيق القيروانى : أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم (ت بعد ٤١٨هـ/١٠٢٧م) :
ــ تاريخ افريقية والمغرب • قطعة نشرها المنجى الكعبى • تونس، ١٩٦٧ •

١٨ ــ ابن أبى زرع : أبو العباس أحمد (كان حيا ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) :
ــ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر كارلوس يوحنا تورنبرج • أوبسالا ١٨٤٣م•

١٩ ــ أبو زكريا يحيى بن أبى بكر السدراتى الورجلانى (ت ٤١٧هـ/١٠٧٨م) :
ــ كتاب سير الأئمة وأخبارهم • تحقيــق اسماعيل العربى • الجزائر ١٩٧٩م •

٢٠ ــ ابن سعيد المغــربى : أبو الحسن على بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) :
ــ المغرب فى حلى المغرب • تحقيق شوقى ضيف • الطبعة الثانية• دار المعارف بالقاهرة • ١٩٦٤ •

٢١ ــ السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) :
ــ الاستقصا لأخبار دول المغــرب الأقصى • الدار البيضاء • ١٩٥٤ •

٢٢ ــ الشماخى : أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٩٢٨/١٥٢٢م) :
ــ كتاب السير ـ طبعة حجرية ـ القاهرة ١٨٨٤م ـ

٢٣ ــ ابن الصغير المالكى : (ت أواخر القرن الثالث الهجرى / بداية العاشر الميلادى) :
ــ أخبار الأئمة الرستميين ـ تحقيق د. محمد ناصر وابراهيم بحاز ـ منشورات دار الغرب الاسلامى ـ بيروت ١٩٨٦ ـ

٢٤ ــ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) :
ــ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٩ ـ

٢٥ ــ ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) :
ــ فتوح مصر وأخبارها ـ ليدن ١٩٢٠م ـ

٢٦ ــ الأمير عبد الله الزيرى الصنهاجى
ــ مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب التبيان ـ تحقيق ليفى بروفنسال ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ

٢٧ ــ ابن عذارى المراكشى : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢هـ/١٣١٢م) :
ــ البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ـ الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق ليفى بروفنسال و ج.س.كولان ـ بيروت ١٩٨٠ـ الجزء الرابع تحقيق احسان عباس ـ بيروت ١٩٨٠ ـ

٢٨ ـ ابن غالب : محمد بن أيوب الأندلسى :
ـ فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، قطعة نشرها الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول ، ج٢ ، القاهرة ١٩٥٥ ،

٢٩ ـ ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك التوزرى (عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى/١٢م) :
ـ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق د. أحمد مختار العبادى ، مدريد ١٩٧١ ،

٣٠ ـ المراكشى : عبد الواحد (ت ٦٤٧هـ/١٣٤٩م) :
ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣ ،

٣١ ـ المقرى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) :
ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ ،

٣٢ ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :
ـ اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ،

٣٣ ـ مؤلف مجهول : (من رجال القرن السادس الهجرى/١٢م) :
ـ الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيـق د. سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ،

٣٤ — مؤلف مجهول :

— مفاخر البربر . نشر ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٤ .

٣٥ — مؤلف مجهول : (من أهل القرن الثامن الهجرى/١٤م) :

— الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٩٧٩ .

٣٦ — النعمان : القاضى أبو حنيفة بن محمد بن حيون المغربى (ت ٣٦٣هـ/٩٧٤م) :

— المجالس والمسايرات . تحقيق الحبيب الفقى وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوى . منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩ .

٣٧ — النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م):

— نهاية الأرب فى فنون الأدب . القسم الخاص ببلاد المغرب والأندلس . نشر د. مصطفى أبو ضيف . الدار البيضاء ١٩٨٥م .

٣٨ — ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م):

— معجم البلدان . طبعة بيروت .

ب — المراجع العربية والمعربة :

١ — اسماعيل : دكتور محمود :

— الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٨٦ .

— مغربيات . دراسات جديدة . المحمدية . ١٩٧٧ .

٢ — البارودى : دكتور رضوان محمد رضوان :

— الفهريون فى المغرب والأندلس ودورهم السياسى والحضارى. الاسكندرية ١٩٨٦ .

— التاريخ السياسى لمدينة سبته منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى. مقال بالمجلة التاريخية المصرية. المجلد ٣٦ عام ١٩٨٩ .

٣ — بروفنسال : ليفى :

— نص جديد عن فتح العرب للمغرب. ترجمه وعلق عليه د. حسين مؤنس . صحيفة معهد الدراسات الاسلامية . مدريد ١٩٥٤ .

٤ — خليفات : دكتور عوض محمد :

— نشأة الحركة الاباضية . عمان ١٩٧٨ .

٥ — سالم : دكتور السيد عبد العزيز :

— المغرب الكبير . الاسكندرية ١٩٦٦ .

— تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . الاسكندرية .

— قرطبة حاضرة الخلافة . جزءان . الاسكندرية . ١٩٨٤م .

٦ — سالم : دكتورة سحر :

— من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب فى العصر الاسلامى . بحث ألقى فى مؤتمر الحركات الهدامة فى التاريخ الاسلامى قديما وحديثا . كلية الآداب جامعة الزقازيق ٢٠ — ٢٢ نوفمبر ١٩٩٠ .

٧ — العبادى : دكتور أحمد مختار :

— فى التاريخ العباسى والفاطمى • بيروت ١٩٧١ •

— فى التاريخ العباسى والأندلسى • بيروت ١٩٧٢ •

— فى تاريخ المغرب والأندلس • الاسكندرية • بدون تاريخ •

— دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس • الاسكندرية ١٩٦٨م •

٨ — عبد الحميد : دكتور سعد زغلول :

— تاريخ المغرب العربى • الاسكندرية ١٩٧٩ •

٩ — عبد الله : عبد العزيز بن عبد الله :

— الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ، معلمة المدن والقبائل • المحمدية ١٩٧٧ •

١٠ — العربى : اسماعيل :

— دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة • بيروت ١٩٨٣ •

١١ — العربى : الصديق بن العربى :

— كتاب المغرب • سلسلة اعرف بلادك • العدد ٣ • الرباط •

١٢ — عنان : محمد عبد الله :

— دول الطائف منذ قيامها وحتى الفتح المرابطى • الطبعة الثالثة: القاهرة ١٩٨٨ •

١٣ — محمود : دكتور حسن أحمد :

— قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور

الوسطى • نشر دار الفكر العربى • القاهرة • بدون تاريخ •

١٤ — الميلى : محمد بن مبارك :

— تاريخ الجزائر فى القديم والحديث • الجزائر ١٩٦٣ •

جـ — المراجع الأجنبية :

1 — Basset (H.), et Levi Provençal :

Chella: Une nécropole mérinide, Rev. Hesperis, 1922 (1 et 2 trim),

2 — Dozy (R.) :

— Supplément aux Dictionnaires Arabes, Beyrouth, 1968.

3 — Encyclopedia of Islam.

4 — Provençal: (L.)

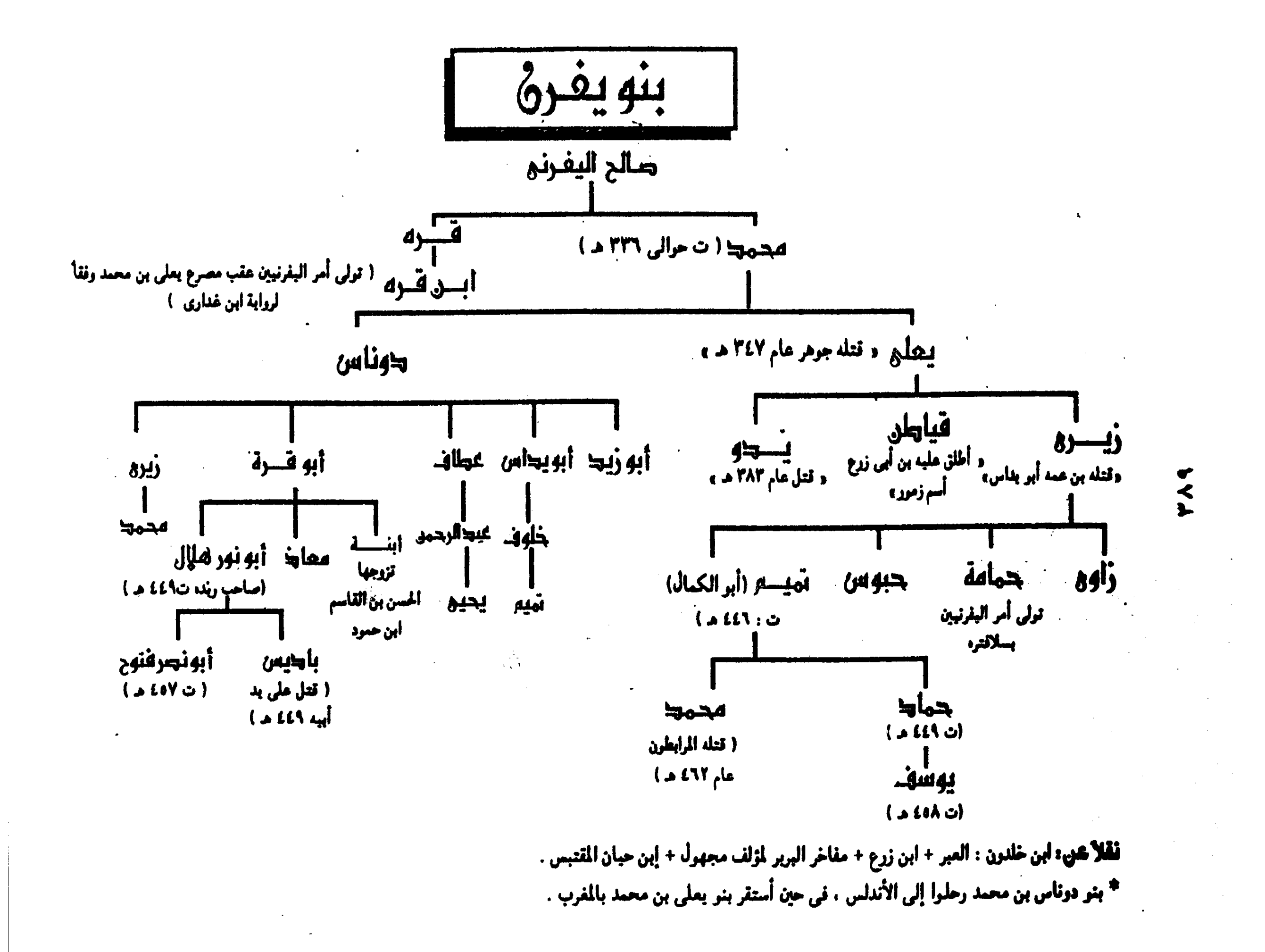
— Historie de L'Espagne Musulmane, Alger, 1944.

5 — Robles (Juilleu) :

Malaga Musulmana, Malaga 1957.

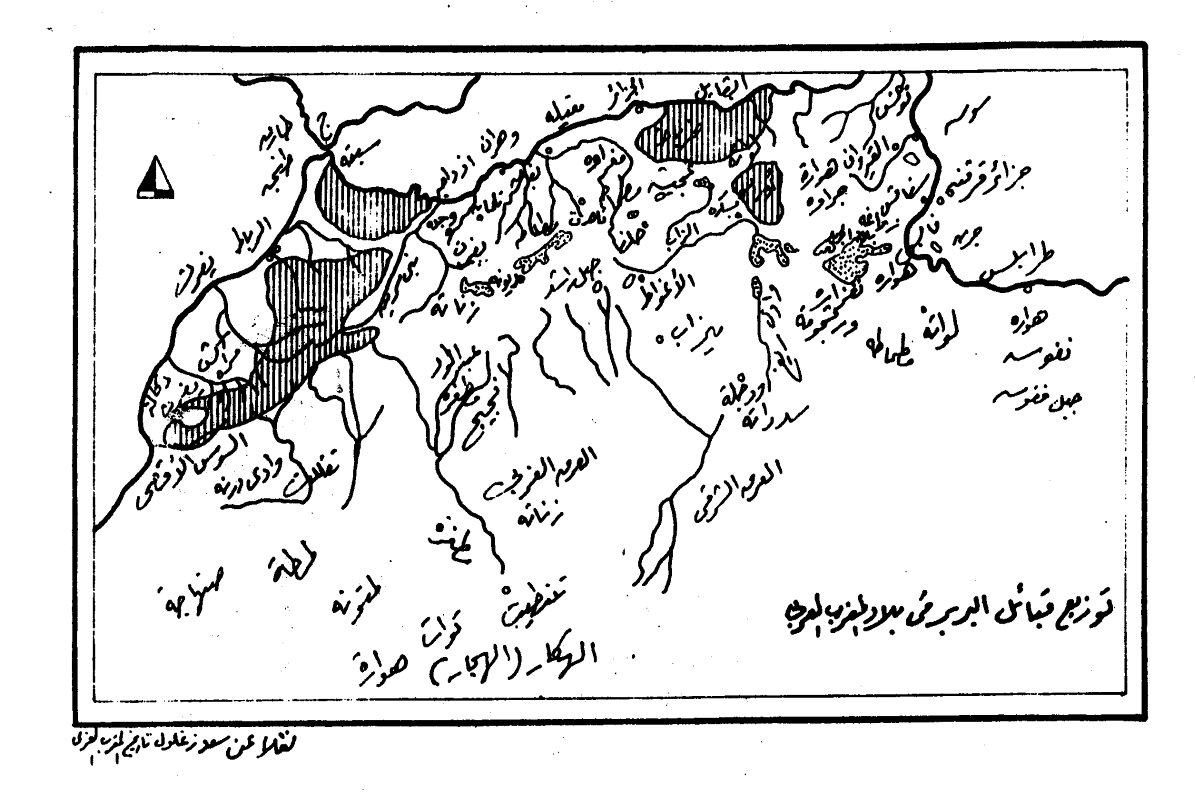
6 — Sel : Caridad Ruiz Almodovar:

Notas Para Un estudio de la taifa beréber de Ronda : Los Banu Ifran, Granada, 1983.

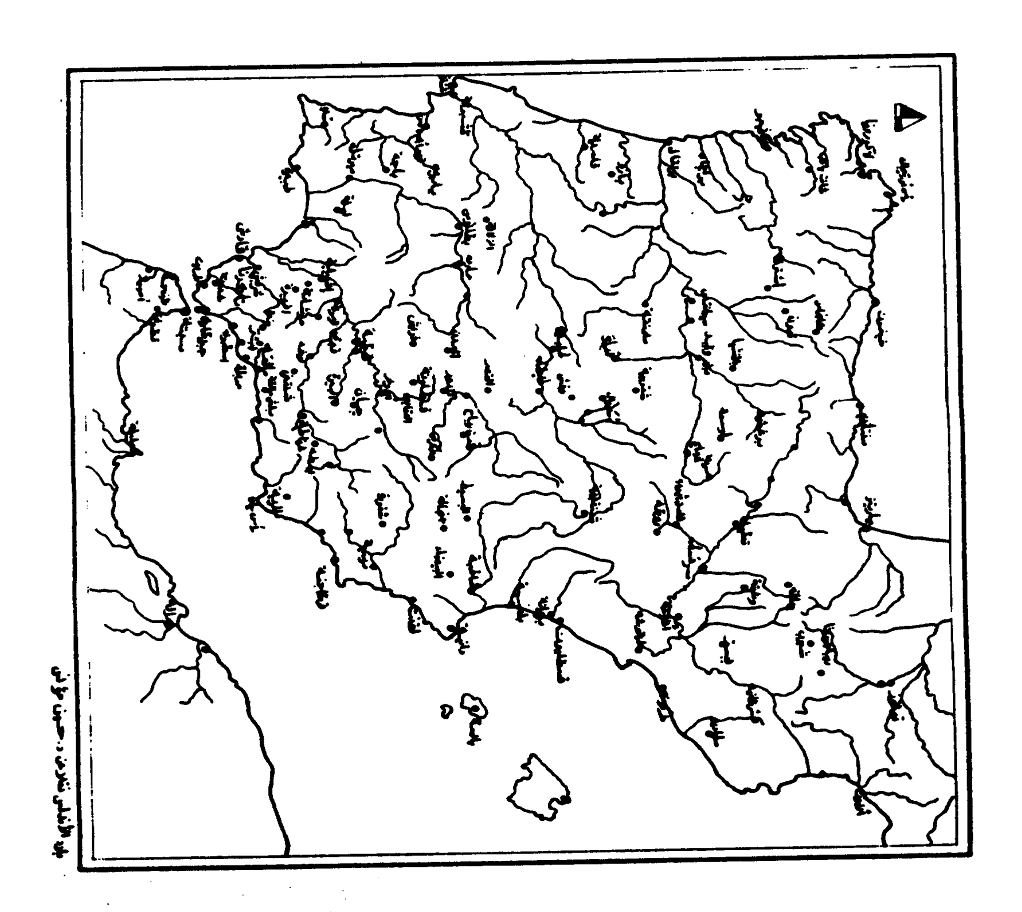


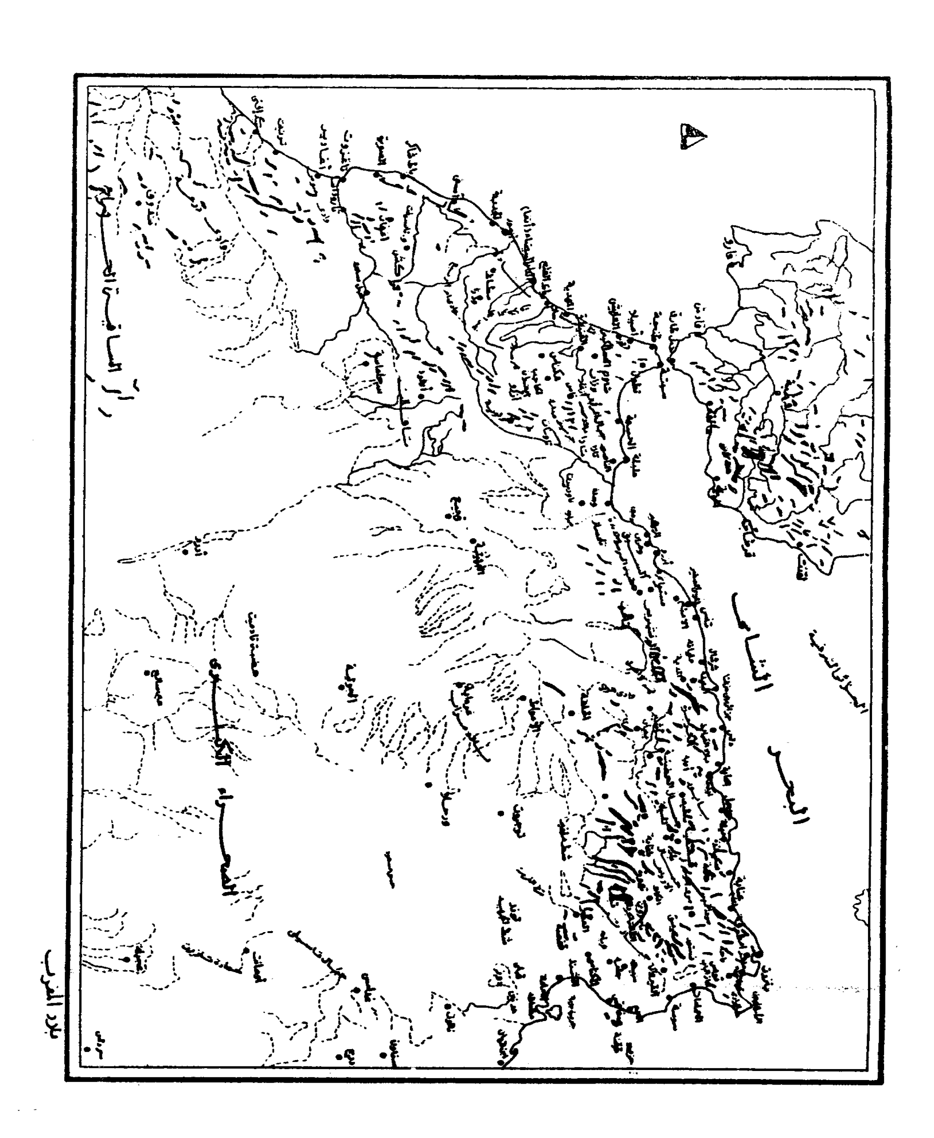
نقلا عن: ابن خلدون : العبر + ابن زرع + مفاخر البربر لمؤلف مجهول + إبن حيان المقتبس .

* بنو دوناس بن محمد رحلوا إلى الأندلس ، فى حين أستقر بنو يعلى بن محمد بالمغرب .



نقلا عن سعد زغلول تاريخ المغرب العربي





المبحث السادس

الكوارث الطبيعية في الأندلس

الكوارث الطبيعية فى الأندلس

شهدت بلاد الأندلس العديد من الكوارث الطبيعية أو النوازل التى كانت ذات أثر كبير على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بها. والمقصود بهذه النوازل تلك الظواهر الطبيعية التى لا دخل للانسان فيها ، وأدت الى حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة والأمراض ، بالاضافة الى ما كانت تتعرض له البلاد من تدمير وخراب ، مثـــال ذلك انحباس المطر أو المحل فى المناطق التى تعتمد عليه للزراعة ، أو هطول الأمطار بغزارة أكثر مما تحتاجه الأرض مما يؤدى الى تلف المحصولات الزراعية، أو السيول التى تجتاح ما يقابلها من منشآت مدنية كالسدود والقناطر ومايحدثه ذلك من خراب ودمار وبوار للاراضى الزراعية،أو هبوب الرياح الشديدة والعواصف التى تؤدى الى اقتلاع الاشجار، أو انتشار الجراد الذى يأتى على الأخضر واليابس ، أو حـــدوث الزلازل التى تصيب المناطق التى يقع فيها بالدمار . ولا شك أن كل تلك الكوارث الطبيعية تعد من أهم أسباب الأزمات الاقتصادية والمجاعات التى يتعرض لها الانسان فى كل زمان ومكان[1] ، لأنها تعصف بالمزروعات والحاصلات

---

(١) بدر الدين السباعى : مقدمة كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » ـ

وتلحق بها أكبر الضرر ، ويتبع ذلك ضعف المحصول وقلته ، وبالتالى يحدث نقص فى الغذاء بل وندرته فى أحيان كثيرة[٣] • وسوف أحاول خلال الصفحات القادمة تفصيل هـذه الظواهر الطبيعية فى الأندلس وتوضيح الآثار التى ترتبت على بعض منها :

١ ــ انحباس المطر وندرته :

تمتاز بلاد الأندلس بتوافر مياه الأمطار فى العديد من أنحائها ، وبصفة خاصة فى فصل الشتاء ، لأنها تقع فى الركن الجنوبى الغربى من القارة الأوروبية ، فهى تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى شرقا وغربا وجنوبا ، أما شمالا فهى تطل على خليج بسكاى ، أى أنها محاطة من معظم جهاتها بالبحار ، ولذلك تتعرض شبه الجزيرة الأيبيرية لتيارات بحرية باردة محملة ببخار الماء الذى يسقط عليها فى صورة أمطار غزيرة فى فصل الشتاء ، ولذلك اشتهرت بلاد الأندلس بثروتها الغابية والنباتية بالاضـافة الى تنوع محصولاتها الزراعية نتيجة لوفرة المياه اللازمة للزراعة والرى • وتعتمد الزراعة فى الأندلس على مياه الأمطار بصفة أساسية ، بالاضافة الى الأنهار والعيون والآبار • ومع ذلك فان المصادر التاريخية تتضمن ما يشير الى أن بلاد الأندلس كثيرا ما تعرضت لفترات

= لتقى الدين احمد بن على المقريزى • دار ابن الوليد للطباعة ، ص ك • وبالطبع لم تكن الكوارث الطبيعية وحدها سببا للمجاعات والشدائد ، ولكن هناك عدة أسباب من صنع الانسـان مثل احتكار القوت وتلاعب المحتكرين بالاضافة الى الاضطرابات السياسية والفتن والحروب •

(٣) حامد زيان : الأزمات الاقتصـادية والأوبئـة فى عصر سلاطين المماليك • القاهرة ، ص ١٣ •

من الجفاف والقحط بسبب انقطاع المطر ، وقد أدى ذلك فى معظم الأحيان الى حدوث مجاعات بها • وقد أشار المقرى[3] فى كتابه نفح الطيب الى تعرض الأندلس الى القحط والمجاعة حتى قبل فتح المسلمين لها ، فيقول : « ثم أخذهم الله بذنوبهم (يقصد أهل الأندلس القدامى)، فحبس المطر عنهم ، ووالى القحط عليهم ، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها ، وغارت عيونها ، وييبست أنهارها ، وبادت أشجارها فهلك أكثرهم، وفر من قدر على الفرار منهم ، فأقفرت الأندلس منهم ، وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة » •

ويعد المحل الذى تعرضت له بلاد الأندلس من عام ١٣١هـ/٧٤٨م وحتى عام ١٣٦هـ/٧٥٣م بسبب احتباس المطر ، أول الكوارث الطبيعية التى تعرض لها المسلمون فى الأندلس ، فقد نتج عن عدم نزول الأمطار تعرض البلاد لحالة من الجفاف الشديد ، وندر وجود الغذاء والحبوب لعدم زراعتها ، كما ترتب على هذا المحل مجاعة وقحط شديدين اجتاحا الأندلس ، وبلغ من شدة هذا المحل أن كثيرا من أهل الأندلس تركوا ديارهم ونزحوا الى بلاد العدوة المغربية • وقد أطلق الأندلسيون على السنوات الخمس التى استغرقها هذا المحل أسم « سنى برباط »[4] ،

---

(٣) المقرى : نفح الطيبمن غصن اندلس الرطيب • تحقيق احسان عباس • بيروت ١٩٦٨ جـ١ ص ١٣٣ •

(٤) مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكر امرائها ، نشر لافوينتى الكنترا ، مدريد • ١٨٦٧ ، ص ٦١ — ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب • تحقيق ليفى بروفنسال وكولان • بيروت ١٩٨٠، جـ٢ ص ٣٨ •

لأن الأندلسيين هاجـروا الى المغرب عن طريق وادى برباط بجنــوب الأندلس ، وقد أشار صاحب كتاب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » الى ذلك بقــوله : « واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين ، وكانت أجازتهم من وادى بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فتلك السنون تسمى سنى برباط ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العــدو ، الا أن الجوع شملهم»[٥]. أما الجغرافى الأندلسى أبو عبيد البكرى فقد ذكر أن أنواعا من أهل مدينة تلسانة (و تلشانة) قد نزحوا من مدينتهم نتيجة لهذا المحل ونزلوا بمدينة سبتة على العدوة المغربية « فاشتروا من البربر وبنوا فيها واستوطنوا»[٦]. كما أشار بعض المؤرخين المشارقة الى أخبار هذا المحل فى كتاباتهم ، فابن الأثير يقول : « ثم توالى القحط على الأندلس، وجلا أهلها عنها وتعضعضعت الى سنة ستة وثلاثين ومائة »[٧] . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكن انقطاع المطر خلال السنوات الخمس متواصلا، بل تخللها فترات سقطت فيها أمطار ، بيد أنها لم تكن كافية لعودة الحياة الزراعية بالأندلس الى ما كانت عليه ، يقول ابن عذارى : « وفى سنة ١٣١ أمحلت الأندلس ، وعم المحل وتمادى الى سنة ١٣٦ . وذلك سنة محل

---

(٥) مؤلف مجهول : اخبار مجموعة ص ٦٢ .

(٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقيــة والمغرب . نشر البارون دى سلان . الجزائر ١٩١١ ص ١٠٤ .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . طبعة دار صــــادر — بيروت ، جـ ٥ ص ٤٩٢ .

وسنة غيث ، واتصل المحل الشديد سنة أو اثنتين ثم سقى الناس سنة ١٣٣ وعادة الى بعض الصلاح »[٨] • ويبدو أن اضطراب الأحوال السياسية فى بلاد الأندلس فى ذلك الوقت قد ساهم بشكل واضح فى استمرار هذا المحل ، فقد هاجر عدد كبير من البربر من المناطق الشمالية عقب ثورتهم التى قاموا بها عام ١٢٤هـ/٧٤١م تضامنا مع اخوانهم بربر المغرب فى ثوراتهم ضد السيادة العربية ، كما أن النزاع المتواصل بين العصبيتين العربيتين القيسية واليمنية أضر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فزادت الأحوال سوءا • وبالاضافة الى ذلك ، انتهز أهل جليقية فرصة اضطراب الأحوال فى الأندلس وعدم قدرة أهلها على الحرب نتيجة للقحط والمجاعة ، وثاروا ضد المسلمين تحت قيادة زعيمهم « بلاى » الذى تمكن من اخراج المسلمين من جليقية كها واستورقة وغيرها[٩] •

وقد ترتب على محل سنى برباط انتشار الأمراض والأوبئة وكثرة الوفيات ، ويشير ابن عذارى الى ذلك بقوله « ثم أتبع الله الأندلس بعد ذلك بالوباء والموت فى السنة الثانية (١٣٢هـ) حتى كاد الخلق ينقرض منها »[١٠] • ولم ينج من هذا القحط الذى عم بلاد الأندلس سوى مدينة سرقسطة حاضرة الثغر الأعلى ، فقد كان أهل هذا الأقليم أمثل حالا

---

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٨ .

(٩) مؤلف مجهول : اخبار مجموعة ص ٦١ — ٦٢ — ابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٨ .

(١٠) ابن عذارى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٧ .

بمزارعه وخيراته الوفيرة[11] .

ويبدو أن استقرار الأحوال السياسية فى الأندلس عقب قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وتمكنه من القضاء على كافة معارضيه ومثيرى الشغب والفتن ونشر الأمن فى ربوع الأندلس ، قد ساعد على زوال اثار هذا المحل ، كما أن السماء لم تلبث أن جادت بغيثها ، فانتعشت أحوال الناس فترة من الزمن . ولكن ذلك لم يحل دون تعرض الأندلس من جديد للعديد من سنوات القحط والمجاعة بسبب توقف سقوط المطر وانحباسه . ففى عام ١٩٩هـ/٨١٤م عم الأندلس قحط ومجاعة كبرى مات على اثرها « أكثر الخلق جهدا »[12] . ويشير المقرى الى أن الحكم بن هشام المعروف بالربضى كان يكثر من مواساة أهل الحاجات أيام هذه الشدة ، ويشيد الشاعر عباس بن ناصح الجزيرى[13] بما قدمه الحكم من أفضال ومساعدات للمتضررين فى قوله :

---

(١١) مؤلف مجهول المصدر السابق ص ٦٢ — عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم فى الأندلس . الاسكندرية ، ص ١٦٥ .

(١٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ، فى حين يذكر المقرى ان هذا القحط وقع عام ١٩٧هـ اى قبل عامين من التاريخ الذى حدده ابن عذارى . (راجع : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤١) .

(١٣) شاعر أندلسى من أهل الجزيرة الخضراء رحل عدة مرات الى المشرق ، له شعر كثير فى مدح الحكم الربضى الذى ولاه قضاء الجزيرة الخضراء وشذونة . انظر ترجمته فى : ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، طبع مجريط ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . القاهرة ١٩٦٤ ج ١ ص ٣٢٤ .

نكد الزمـــان فآمنت أيامـــه

مـــن أن يـــكون بعصره عسر

طلع الزمـــان بأزمـــة فجلا لـــه

تلك الكريهـــة جـــوده الغمـــر(١٤)

وفى عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط انقطع نزول المطر فى عام ٢٠٧هـ/٨٢٢م، بالاضافة الى هجوم الجراد على الأراضى الزراعيـــة ، فادى ذلك الى حدوث مجاعة شديدة ، ومات عدد كبير من أهل الأندلس(١٥) . وحاول الأمير عبد الرحمن الأوسط التخفيف من آثار هذه المجاعة ، فأمر باطعام الضعفاء والمساكين من أهل الأندلس ، كما أمر باقامة صلاة الاستسقاء فى نفس العام(١٦) .

---

(١٤) المقرى : نفح الطيب . جـ ١ ص ٣٤١ .

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨١ .

(١٦) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلاد الأندلس . نشر محمود على مكى . بيروت ١٩٧٣ . ص ٩٣ ، وهناك خلاف حول اسم الامام الذى قام باداء هذه الصلاة ، فيفهم مما ذكره ابن حيان انه الامام الشهير يحيى بن يحيى الليثى ، ولكن ابن حيان يعود ويشير الى ان هناك خلافا فى العام الذى اقيمت فيه هذه الصـــلاة وفى الشخص الذى أم الاندلسيين فيها ، ويرجح الدكتور مكى ان يكون القاضى «ابو نجيح مسرور بن بشير المعافرى» هو الذى أم المسلمين فى صلاة الاستسقاء عام ٢٠٧هـ ، حيث أورد نصـــا لابن سعيد المغربى عن هذا القاضى يؤيد رايه السالف ، فقد ذكر ابن سعيد ان هـــذا القاضى لما امره عبد الرحمن الأوسط باقامة صلاة الاستسقاء ، استشفع بأيوب البلوطى أحـــد صلحاء قرطبة ، والح بالدعاء حتى كثر الضجيج والبكاء ، «ولم ينصرفوا الا وأحذيتهم فى أيديهم من كثرة المطر » . راجع تعليق الدكتور مكى على ص ٩٣ من المقتبس . انظر كذلك : الخشنى : قضاة قرطبة . القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٤ . ابن ســـعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

وفى أيامه أيضا تعرضت بلاد الأندلس فى عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م لقحط اخر بسبب احتباس المطر ، وقد تسبب ذلك القحط فى موت أعداد كبيرة من الماشية واحتراق اشجار الكروم[١٧] . ومما ساعد على ازدياد وحدة القحط ، هجوم الجراد على الأراضى الزراعية ، فأتى على ما بها من زروع ، وترتب على ذلك ندرة وجود الغذاء ، وارتفاع اسعاره ارتفاعا رهيبا ، اضطر أهل الأندلس الى استيراده من بلاد العدوة المغربية[١٨]. ويذكر ابن حيان هذه النائبة ويضيف اليها بأن الأمير عبد الرحمن الأوسط أمر باقامة صلاة الاستسقاء ، ولكن الفقيه العالم عبد الملك بن حبيب كتب اليه يوضح له أن نصر الخصى — أحد فتيان الأمير — منع الناس من البروز الى مصلى المصارة المتصل بقرطبة رغم أن ذلك أرفق بالناس وأحوط ، وألزمهم بأداء هذه الصلاة فى مصلى الربض[١٩] نظرا

---

(١٧) ابن حيان : المقتبس (نشر مكى) : ص ١ . ابن ابى زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس . نشر تورنبرج . لوبسالا . ١٨٤٣ ص ٥٩ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٣٥ . والمقصود باحتراق اشجار الكروم تحول سيقانها وجذورها واوراقها الى اللون الاسود نتيجة لعدم ريها بالمياه .

(١٨) ابن ابى زرع :المصدر السابق ص ٥٩ .

(١٩) المقصود بالمصلى فى المدن الاسلامية مساحة فسيحة من الارض يجتمع فيها المسلمون لاداء صلاة الاستسقاء ايام الجدب والجفاف أو صلاة العيدين ، وتسمى ايضا بالشريعة . اما مصلى الربض الوارد فى المتن فهو المصلى الواقع بجوار ربض شقنده Secunda الواقع جنوبى قرطبة . وهذا المصلى اقيم فى عهد الأمير الحكم بن هشام عقب قضائه على الثورة العارمة التي اجتاحت هذا الربض عام ٢٠٢هـ ، وقد امر الحكم بتسوية هذا الربض بالأرض ، واقيم على انقاضه جبانة واسعة عرفت باسم « جبانة الربض » ، ثم اقيم بجوارها مصلى جديد فى العراء عرف بمصلى الربض . أما مصلى المصارة فكان يقع غربى قرطبة بجوار منية الناعورة على شاطىء نهر

لقربهـــا من داره ، ونتج عن ذلك تزاحم الناس على القنطرة المؤدية للربض ، واضطر بعضهم الى التماس وسيلة أخرى للوصول الى المصلى، فاتخذوا القوارب للعبور الى الضفة الأخرى للنهر ، فغرقت هذه القوارب نظرا لكثرة ركابها[٣٠] .

ومن أشهر المجاعات التى تعرضت لها بلاد الأندلس بسبب انقطاع الأمطار مجاعة عام ٢٦٠هـ/٨٧٤م التى وقعت فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، وعرفت فى المصـــادر التاريخية باسم « مجاعة ستين » . وكانت بوادرها قد ظهرت منذ عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م حينما حل الجفـــاف بانقطاع المطر ، فاشتد القحط ويعبر ابن أبى زرع عن ذلك بقوله : « ... وفى سنة ثلاث وخمسين ومائتين كانت ببلاد العدوة والأندلس قحوط كثيرة عظيمة ، فنضبت الميـــاة »[٣١] . واستمر الحال

قرطبة ، ويعرف أيضا بالمصلى العتيق لأنه اول مصلى اتخذه المسلمون لهم عقب فتح قرطبة .

ليفى بروفنسال :الاســـلام فى المغرب والاندلس . ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ومحمـــد صـــلاح الدين حلمى . طبع دار نهضة مصر . القاهرة . ص ٨٢ ـــ ٩٠ ، عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، جـ ١ ص ٢٠٧ . انظر كذلك :

Leopoldo Torres Balbas. Ciudades Hispanomusulmanas, Madrid, Sin Fecha, Tom. 1, pp. 259-260 ولنفس المؤلف : Musalla y Saria en Las Ciudades Hispanomusulmanas, Revista Al-Andalus, Vol. XIII, 1948, pp. 167 - 180.

(٢٠)ابن حيان : المقتبس (نشر مكى) ص ٤٦ ـــ ٤٧ .

(٢١) الأنيس المطرب ص ٦٠ ـــ ابن عذارى : البيـــان المغرب جـ ٢ ص ١٠٠ .

كذلك فى العام التالى (٢٥٤هـ) واستولى المحل بقرطبة والأقاليم فاستسقى سليمان بن أسود[٢٢] قاضى الجماعة بقرطبة للزريعة فى ٢٤ من ذى الحجة الموافق ٢٣ من مارس فلم ينزل الغيث ، وتمادى القحط بقية شهر مارس وطوال شهر أبريل ، واعتمد الأهالى على مياه الآبار فى السقيا فنضب معينها ، فعمد الناس الى الوادى الكبير يستقون منه الى أن نزلت الأمطار[٢٣] . ولم يتوقف المحل فكان الجفاف يحل بين سنة وأخرى حتى بلغ ذروته عام ٢٦٠هـ « وكانت سنة لم يزرع فيها بالأندلس حبة ولا رفعت »[٢٤] . « وفيها أصاب الأندلس مجاعة شديدة أردفت الأعوام الجداعة[٢٥] التى توالت عليها فى عقدة الخمسين »[٢٦] ولا شك أن هذه السنوات المتتالية من القحط وانقطاع المطر وقلة الزراعة تركت

---

(٢٢) هو قاضى الجماعة بقرطبة ابو ايوب سليمان بن أسود بن سليمان الغافقى . ولى القضاء أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن مرتين ، وهو اخر قضاته . انظر ترجمته فى : الخشنى : قضاة قرطبة ص ٧٣ — ٨٢ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١٥١ — ١٥٢ — النباهى المالقى : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشر ليفى بروفنسال . طبعة دار الآفاق الجديدة . بيروت ١٩٨٣ ص ٥٦ — ٥٩ .

(٢٣) ابن حيان : المقتبس (نشر مكى) ص ٣٢٤ — ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ١٩٠ .

(٢٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس . نشر ابراهيم الأبيارى . القاهرة ١٩٨٣ ص ١٠٠ .

(٢٥) الجداعة من الجداع وهى السنة الشديدة التى تؤخر البنات فلا ينمو وتذل الناس او من الجدع بمعنى ساء غذاؤه ويقال اجدع الوليد أى ساء غذاؤه . انظر مادة «جدع» فى لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف .

(٢٦) ابن حيان : المصدر السابق ص ٣٤٣ .

اثارا سيئة على أهل الأندلس ، فقد ارتفعت أسعار الحبوب والمواد الغذائية ارتفاعا شديدا ، وعدمت الأقوات ، وأصاب البلاد وباء عظيم ما تبسببه فى هذا العام خلق كثير[٢٧] . ومما زاد الأمر سوء أن الأمير محمد بن عبد الرحمن لم يعمل من جانبه على تخفيف اثار هذه المجاعة على الرعية ، بل أمر بتحصيل ضريبة العشر التى تفرض على الأراضى التى تسقى بماء المطر ، بعد أن استشار وزراءه وأصحاب مشورته ، فوافقوه على ضرورة تحصيلها من الرعية حتى لو اضطروا الى أدائها مما يدخرونه من طعـــام أو يشترونه من أى مكان . ولكن الوليد بن غانم[٢٨] والى مدينة قرطبة اعترض على هذا الاجراء وقال للأمير محمد : « أيها الأمير ، الحق أحق أن يتبع ، وانما العشور على الغلات ، اذا وهبها الله وجب أداء فرضه فيها ، واذا اجتثت أصولها فلا زكاة على من حرمها ، وهذا عام لم يزدرع فيه بذر ، ولا استغل زرع ، فاقبل معذرة رعيتك وارجع الى ذخائرك وبيت مالك ، فانفق على جندك ورفه رعيتك تعنهم على العمارة فيما يستأنفون حتى أن يلحقوا الاقالة ، فانه الحق

(٢٧) ابن عذارى : البيـــان المغرب جـ ٢ ص ١٠٢ — ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ٦٠ .

(٢٨) الوليد بن عبد الرحمن بن غانم : من اسرة بنى غانم التى عمل كثير من افرادها فى خدمة الامويين فقد كان عميدهم عبد الحميد بن غانم احد موالى عبد الرحمـــن بن معـــاوية (الداخل) . وقد ولى عبد الرحمـــن بن عبد الحميد بن غانم الوزارة والحجابة ايام الحكم بن هشام ثم لابنه الامير عبد الرحمن الأوسط . اما الوليد فقد ولى عدة مناصب كبرى فى عهد الامير محمد بن عبد الرحمن وكذلك فى عهد ولديه المنذر وعبدالله ومن هذه المناصب منصب صاحب المدينة . راجع : ابن القوطيـــة : تاريخ افتتـــاح الاندلس ص ٩٨ — ١٠٨ ، مؤلف مجهول : أخبار مجموعة : ص ١٤٤ — ١٤٥ — ابن

على مثلك من ولاة العدل »[٢٩] . بيد أن الأمير محمد لم يستمع الى نصيحة صاحب مدينته ، وصمم على تحصيل الضريبة من الرعية ، وقال : لا والله ، لا تقلدت تحريك حبة واحدة منه[٣٠] . وقد رفض الوليد بن غانم تنفيذ أوامر الأمير ، وطلب اعفاءه من منصبه ، فأعفاه وولى مكانه حمدون ابن بسيل المعروف بالأشهب . وكان ابن بسيل الأشهب معروفا بشدته وقسوته ، فاشتط فى جمع العشور من الناس « حتى هتك الستور وضرب الظهور وقتل الأنفس بالتعليق »[٣١] . ولم يتخلص أهل قرطبة من ظلم ابن بسيل الا بوفاته ، ولما عرض الأمير هذا المنصب على الوليد بن غانم أبى أن يتولاه من جديد بعد أن نبذ الأمير مشورته السابقة ، فأسند الأمير محمد هذا المنصب الى شخص اخر .

على أية حال لم توضح لنا المصادر كيفية انتهاء هذه الأزمة الطاحنة ، ولكن يبدو أن الأمور تحسنت أخيرا بهطول الأمطار ، ولكن ذكرى ذلك القحط ظلت راسخة فى أذهان أهل الأندلس سنين طويلة ، لدرجة أنهم كانوا يضربون بها المثل لشدتها حتى بعد مضى سنوات طويلة على وقوعها[٣٢] .

= الأبار : الحلة السيراء . نشر حسين مؤنس . القاهرة ١٩٨٥ ، جا ص ١٤١ ، ص ١٦٢ .

(٢٩) ابن حيان : المقتبس (نشر مكى) ص ١٧٢ .

(٣٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠٠ .

(٣١) نفس المصدر السابق والصفحة — ابن حيان . نفس المصدر ص ١٧٣ .

(٣٢) انظر تعليق الدكتور مكى رقم ٥٦٤ على ص ٦٢٢ من كتاب المقتبس لابن حيان .

ولم يمض وقت طويل على ذلك القحط وتلك المجاعة ، حتى اجتاح الأندلس قحط شديد عام ٢٧٤هـ/٨٨٧م فى أيام الأمير المنذر بن محمد بسبب توقف سقوط المطر • ويشير ابن عـــذارى الى أنه برغم اقامة صلاة الاستسقاء عدة مرات ، الا أن السماء ضنت بغيثها ، ولم ينزل الا ثلج كبير الحجم وذلك فى بداية العام التالى ٢٧٥هـ/يناير ٨٨٨م لم تستفد منه الأراضى الزراعية ، فاستمر القحط والجدب طيلة شهر يناير المذكور وعدة أيام من فبراير حتى تسرب اليأس فى قلوب الناس، وبدا شبح المجاعة يلوح فى الأفق ،لولا أن من الله على أهل الأندلس بغيثه ، فأمطرت السماء وسقى الناس وارتفع البأس • ويعبر الشاعر العكى عن فرحته بنزول الغيث فى قصيدة يمدح بها الأمير المنذر نطالع فيها البيتين التاليين :

نزل الحيـــا المحيى وطابت أنفس
ان كان ســـوء الظن فيهـــا يهجس
أحيى الالاه عباده من بعـــد مـــا
كانت من القنط النفوس توسوس(٣٣)

ولم تكد تمضى عشر سنوات على هذه المحنة التى ابتلى بها أهل الأندلس حتى حل القحط من جديد فى عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م فى عهد الأمير عبدالله بن محمد ، واجتاحت الأندلس مجاعة شديدة « حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، ثم أعقب ذلك وباء مدمر وموت كثير ، هلك فيه من الناس

---

(٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

ما لا يحصى ،فكان يدفن فى القبر الواحد أعداد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم ، وكانوا يدفنون من غير غسيل ولا صلاة »[٣٤] . وقد أطلق الأندلسيون على عام ٢٨٥هـ « سنة لم أظن » .

وتجدد المحل فى عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م نتيجة لاحتباس الأمطار ، ونتج عنه مجاعة كبرى مات خلالها عدد كبير من أهل الأندلس ، كما فر عدد آخر الى بلاد المغرب . وكانت منطقة جيان من أكثر المناطق تضررا بهذه المجاعة ، حتى أنهم أطلقوا على هذا العام « سنة جوع جيان »[٣٥] .

وفى بداية عهد الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر عم الأندلس محل شديد فى عام ٣٠٢هـ/٩١٤ ، بسبب انقطاع المطر ، وساءت حالة المزارعين ، وحاول الخليفة الناصر معالجة الأمر ، فأمر باقامة صلاة الاستسقاء ، وعلى الرغم من أن الناس أدوا هذه الصلاة خمس مرات فى أيام مختلفة ، الا أن السماء لم تجد بغيثها ، مما أدى الى اختفاء القمح من الاسواق ، كما ارتفعت اسعار المواد الغذائية ارتفاعا شديدا ؛ واضطر الناصر أن يأمر الفقيه أحمد بن زياد بأن يصلى بالناس مرة أخرى للاستسقاء ، فصلى بهم يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من شوال ، فاستجاب الله لصلاتهم هذه المرة « فنزل رذاذ صالح وندى مبلك تمسك به بعض الزرع ، وذهب الأكثر باستيلاء اليبس عليه ،

---

(٣٤) ابن ابى زرع : الأنيس المطرب ص ٦٠ .

(٣٥) ابن حيان : المقتبس (نشر اسماعيل العربى) . الدار البيضاء ١٩٩٠ ص ١٦٨ .

فصرحت السنة عن ذلتهـا ، واعتدى القحط شـاملا بالأندلس كلها وثغورها ، فغلت الأسعار فى جميع جهاتها»[٣٦] واستمر القحط والجفاف والمجاعة يستشرى فى بلاد الأندلس حتى بلغ ذروته فى العام التالى (٣٠٣هـ) فشبهه أهل الأندلس بما تعرضوا له فى « مجاعة ستين » . ويصور المؤرخ الأندلسى ابن حيان القرطبى هذا القحط تصويرا محزنا فيقول : « فيها (سنة ٣٠٣هـ) كانت المجاعة بالأندلس التى شبهت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغا لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير دخل أربعين[٣٧] ، ووقع الوباء فى الناس ، فكثر الموتان فى أهل الفاقة والحاجة حتى عجز عن دفنهم »[٣٨] . ولم يقتصر أثر هذا القحط على ذلك ، فقد تعذر على الناصر تجهيز الجيوش بالمؤن والأقوات للغزو ، نظرا للضعف الذى أصاب الناس ، كذلك فقدت قرطبة عددا من فقهائها

---

(٣٦) ابن حيان : المقتبس (نشر بدور شالميتا واخرون) قطعة خاصة بعدة سنوات عن عصر الخليفة الناصر . مدريد ١٩٧٩ ص ١٠٣ — ١٠٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب : ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣٧) ناقش المستشرق الأسبانى بدور شالميتا هذه العبارة مناقشـة مستفيضة وخلص الى أن دينار قرطبة الذهبى كان يعادل فى هـذه الفترة اربعين درهما . راجع التعليق رقم ٢ ص ١٠٩ من كتاب المقتبس لابن حيان (نشر شالميتا) .

(٣٨) ابن حيـان : نفس المصدر السابق ص ١٠٩ — ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ — ابن أبى زرع : الانيس المطرب : ص ٦١ .

وعلمائها من جراء هذه الشدة . وقد حاول الخليفة الناصر معالجة هذه الأزمة الطاحنة والتخفيف من الآثار الناجمة عنها ، فأخذ يوزع الصدقات على الفقراء والمساكين ، فاقتدى كبار رجال دولته بفعله ، وأقبلوا على توزيع الأموال والمواد الغذائية على المحتاجين ، ويشير ابن حيان الى أن بدر بن أحمد حاجب الخليفة الناصر كان من أكثر الناس صدقة وأعظمهم مواساة للناس[٣٩] . كما اتخذ الخليفة الناصر اجراء آخر كان له أكبر الأثر فى الحد من تفاقم الأزمة ، فقد ضرب بشدة على أيدى المفسدين وقطاع الطرق وبعض الثائرين عليه ، لأنهم كانوا يهاجمون قوافل تجار المسلمين الذين يجلبون المواد الغذائية من خارج الأندلس لمواجهة هذه المجاعة ، ويعلق ابن حيان على هذا الاجراء بقوله : « ... ونفع الله بذلك كله الكافة »[٤٠] .

ولم يمض أحد عشر عاما على هذا القحط ، حتى أصيبت الأندلس بمحل جديد فى عام ٣١٤هـ/٩٢٦م ، حيث غلت أسعار الحبوب والميرة ، وأقيمت صلاة الاستسقاء مرارا بامامة أحمد بن يحيى صاحب الصلاة بقرطبة ، كما أرسل الناصر الكتب الى حكام الكور والولايات يدعوهم الى أداء صلاة الاستسقاء فى كورهم وولاياتهم ، وكان لذلك أثر كبير فى نزول الأمطار بقرطبة وعدة أنحاء بالأندلس . وقد تصادف نزول المطر بقرطبة

---

(٣٩) ابن حيان : نفس المصدر والصفحة — ابن عذارى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٨ .

(٤٠) ابن حيان : نفس المصدر والصفحة — ابن عذارى : نفس المصدر السابق والصفحة .

فى نفس اليوم الذى صلب فيه سليمان بن عمر بن حفصون الثائر على الخليفة الناصر على باب السدة (أحد أبواب قرطبة) ، فكان لتوافق الحدثين رنة فرح لدى أهل الأندلس ، وتغنى الشعراء بهذه المناسبة ، ومن ذلك قول أحدهم :

سحاب يمــور الغيث منها وديمه
دمـــاء العـــدى تهمى به وتمـــور
غياثان فينـــا واكفان من الحيـــا
ولكن ذا رجس وذاك طهـــور
وذاك نجيـــع ليس يقبـــله الثرى
وذا ناجـــع يسرى بـــه ويغـــور
تدنست الدنيـــا بـــه فتطهـــرت
بطون لها من رجســـة وظهور[41]

ولم يهنأ أهل الأندلس طويلا بزوال هذا القحط عنهم ، حتى دهمهم محل جديد عام ٣١٧هـ/٩٢٩م نتيجة احتباس المطر ، ففســد الزرع ، وغلت الاسعار بدرجة كبيرة ، واضطر الناصر الى دعوة الناس لاقامة صلاة الاستسقاء بجامع قرطبة عقب صلاة الجمعة ، ولما لم ينزل المطر ، اقيمت الصـــلاة مرة أخرى يـــوم الاثنين الذى يليه بمصلى الربض (٨ صفر/٢٣ مارس) ، ولما استمر انقطاع المطر وانحباسه ، وظل

(٤١) ابن حيان : نفس المصدر ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ، ص ٢٠٨ — ابن عذارى : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٩٢ .

الناس يقاســون القحط والمجاعة ، كتب الناصر الى جميع عماله بأن يأمروا الخطباء باقامة صلاة الاستسقاء عقب صــلاة الجمعة لمــدة اسبوعين ، فاذا أبطأت السقيا فعليهم البروز يوم الاثنين ، وهكذا حتى يأتى الله بغيثه[٤٢] . أما فى قرطبة فقد تعددت صلوات الاستسقاء، وكانت تقام أحيانا بمصلى الربض وأحيانا أخرى بمصلى المصارة[٤٣] . ولم ينقطع هذا المحل الا بنزول الأمطار حيث ارتوت الأرض وتمكن المزارعون من زراعتها .

ويبدو أن توالى أعوام القحط والمجاعات على بلاد الأندلس فى فترات متقاربة دفع الناصر الى اتخاذ بعض الاجراءات الكفيلة لمواجهة ما قد تتعرض له البلاد من أزمات . ومن هذه الاجراءات خزن الحبوب والمؤن فى الأهراء السلطانيــة فى السنوات التى تجــود فيها السماء بغيثها . وقد أثمرت هذه الاجراءات حينما حل المحل من جديد فى عام ٣٢٤هـ/٩٣٥م . وكان محلا لم يعهد أهل الأندلس مثيلا له من قبل ، ولم يسمعوا قط بمثله ، لاتصاله ، فقد ضنت السماء بوبلها « فلم تنض قطرة ولا بلت مدرة » . ومع ذلك فان اسعار الحبوب أو المواد الغذائية لم ترتفع ، ولم تتبدل أحوال الناس نظرا لتوفر الغذاء فى الاسواق ،

---

(٤٢) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٥٠ — ٢٥١ . ولأهمية كتاب الناصر لعماله ، رأينا أن نورده فى نهاية هذا البحث كضميمة .

(٤٣) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٥٢ — ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٩ .

ثم أزيلت الغمة بنزول الغيث فى العام التالى ، فارتوت الأرض وانتعشت أحوال الرعية ، وكانت مناسبة للشعراء أكثروا فيها من مدح الخليفة الناصر[٤٤] .

ولم يكن المحل السابق آخر ما أصاب الأندلس فى عصر الخليفة الناصر ، فقد داهم قرطبة محل آخر عام ٣٣٣هـ/٩٤٤م عندما توقف نزول الغيث ، ولم يتمكن المزارعون من زراعة أراضيهم ، واضطر قاضى الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة بها الى الاستسقاء عقب صلاة الجمعة يوم الثانى من ربيع الآخر (٧ يناير ٩٤٥م) ، ثم تكررت الصلاة فى الجمعة التالية ، ولما لم ينزل المطر ، دعا الناس الى البروز للاستسقاء، فصلى الناس ثلاث مرات بمصلى الربض[٤٥] ، وثلاث مرات أخرى بمصلى المصارة[٤٦] . وعلى الرغم من تعدد صلوات الاستسقاء بقرطبة، فلم تسقط الأمطار ، وانما سقط ثلج ، كسا الأراضى الزراعية ، واضطر

---

(٤٤) من ذلك قول الشاعر عبيد الله بن يحيى بن ادريس :

نعم الشفيع الى الرحمن فى المطر
مستنزل الغيث بالاعذار والنذر

راجع : ابن حيان : المصدر السابق ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٤٥) المرة الاولى كانت يوم الثلاثاء ٢٠ ربيع الاخر/١٢ يناير ، والثانية يوم الاثنين ٢٥ ربيع الآخر/١٧ يناير ، والثالثة يوم الخميس ٢٩ ربيع الاخر/ ٢١ يناير .

(٤٦) المرة الأولى كانت يوم السبت ٢ جمادى الاول/٢٣ يناير والثانية يوم الثلاثاء ٥ جمادى الاول ٢٦ يناير والثالثة يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الاول/ ٢ فبراير .

القاضى محمد بن عبدالله بن عيسى الى معاودة الاستسقاء حتى من الله على أهل قرطبة بالمطر فرويت الأرض ورخصت الاســعار ، وتخلص القرطبيون من هذا المحل[47] . ولكن فى العام التالى لانقضاء هذا المحل ـ وهو عام ٣٤٤هـ ـ داهم الاندلس وباء عظيم أودى بحياة العديد من سكان الاندلس ، وبلغ من قوة هذا الوباء أن بلاد العدوة المغربية تأثرت به ومات عدد كبير من سكانها[48] .

وفى أواخر أيام الناصر احتبس المطر فترة من الوقت ، فخشى الناس تكرار أيام المحل ، فاستدعى الناصر القاضى منــذر بن سعيد البلوطى[49] ، وأمر بالبروز للاستسقاء ، فاجتمع له الناس فى مصلى الربض حتى غصت بهم ساحة المصلى ، فى حين شاهد الناصر الاستسقاء من أعلى قصره ، فلم ينقض النهار الا وانهمر المطر ، فسقى الناس ، وشكروا الله[50] .

وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/٩٦١ ـ ٩٧٦م)

---

(٤٧) ابن حيان : المقتبس (نشر شالميتا) ص ٤٧٦ ـ ٤٧٨ ـ وان كان ابن عذارى يذكر ان هذا المحل كان عام ٣٣٥هـ . البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤٨) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص ٦٢ .

(٤٩) حول هذا القاضى ومواقفه من الخليفة الناصر راجع : النباهى : المرقبة العليا ص ٦٦ ـ ٧٥ ـ المقرى : نفح الطيب : جـ ١ ص ٥٧٠ ـ ٥٧٧ .

(٥٠) ابن غالب : فرحة الأنفس ص ٣٦ ـ النباهى المالقى : المصدر السابق ص ٧٠ ـ ٧١ .

تعرضت الأندلس أيضا للقحط والمجاعة بسبب قلة ما تساقط من الامطار اللازمة للرى والزراعة ، ففى عام ٣٥٣هـ/٩٦٤م حدثت مجاعة كبيرة بقرطبة ، تكفل الحكم المستنصر خالها بالانفاق على الضعفاء والمساكين من أهلها ، ويذكر ابن عذارى أن الحكم « أجرى نفقاته عليهم بكل ربض من أرباض قرطبة والزهراء ، واستمرت هذه المجاعة حتى العام التالى حينما نزل الغيث ، فرويت الأرض وطاب الحرث وسرت النفوس »[٥١] .

كذلك تعرضت الأندلس لمحل جديد فى عهد الخليفة هشام بن الحكم وحاجبه المنصور بن أبى عامر ، ويشير المؤرخون أنه كان أكثر ضررا من سابقيه ، وبدأ هذا المحل عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م حينما انقطع نزول المطر ، واستمر لمدة ثلاث سنوات . ويروى النباهى المالقى أن المنصور بن أبى عامر لما اشتد المحل أمر القاضى أبا بكر يحيى بن محمد بن بقى بن زرب[٥٢] باقامة صلاة الاستسقاء ، فصلى ابن زرب بالناس عشر مرات ولم ينزل المطر ، كما حضر المنصور الصلاة فى احدى المرات ، وأظهر من الخشوع والخضوع ما آثار انتباه القرطبيين ، ثم أمر المنصور بتوزيع الصدقات من مال وطعام على المحتاجين والمساكين عن نفسه وعن خليفته ، بيد أن القرطبيين — بما عرف عنهم من تقلب وقلق شديدين — ثاروا ضد

(٥١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٥٢) راجع ترجمة هذا القاضى فى : النباهى المالقى : المصدر السابق ص ٧٧ — ٨٠ — ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١٦١ نقلا عن ابن حيان الذى ذم هذا القاضى ذما شديدا .

القاضى ابن زرب ، وأخذوا فى ذمه لتأخر نزول المطر ، وعندما أراد القاضى الخروج لمصلى الربض للاستسقاء مرة أخرى ، هاجوا عليه وأخذوا فى سبه وسخروا منه وقالوا له : « بئس الوسيلة أنت الى الله تعالى والشفيع فى ارسال الرحمة ، اذ أصبحت امام الدين وقيم الشريعة » . وهم القرطبيون بضربه ، فهرب منهم واختفى بمقبرة الربض ، ولم ينقذه من نقمة الجماهير الثائرة الا صاحب المدينة الذى بعث بفرقة من الفرسان والشرطة حيث استطاعوا تفريق الثائرين ، وانقاذ القاضى ابن زرب . ولما برز القاضى مرة أخرى للاستسقاء ، أرسل المنصور بن أبى عامر خيلا كثيرة أحاطت بجوانب الربض ، فلم يجسر أحد من العامة على عمل شىء يمكن أن يلحق الاساءة بالقاضى المذكور[٥٣] . ولم ينته هذا المحل الا عام ٣٨١هـ/٩٩١م عندما هطلت الأمطار ، فرخصت الاسعار وعادت الأمور الى طبيعتها[٥٤] .

ولا شك ن المنصور بن أبى عامر أدرك أهمية حفظ الحبوب والمؤن لمواجهة مثل تلك الأزمات ، فكان يخرج الأموال الكثيرة لشرائها وبكميات كبيرة سواءمن داخل الأندلس أو خارجها[٥٥] . ومن المعروف أن مناطق

---

(٥٣) النباهى المالقى : المرقبة العليا ص ٧٨ — ٧٩ — ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص ٧٣ .

(٥٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام (نشر بروفنسال) ص ٩٩ . وقد ذكر ابن الخطيب إن المنصور بن أبى عامر فكر خلال سنى المحل ان يترك الأندلس ويرحل الى العدوة هربا من القحط الذى عم الأندلس .

(٥٥) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق والصفحة .

سرقسطة واشبيلية وطليطلة ولورقة وبطروش كانت تشتهر بمخازنها التى تحفظ فيها الحبوب لاستخدامها فى أوقات الحروب والمجاعات[٥٦]. ويبدو أن هذا الاجراء كان ذا أثر فعال فى عدم تعرض الأندلس للمجاعات فى السنوات التى تلت عصر المنصور بن أبى عامر .

وفى عصر ملوك الطوائف لم تشر المصادر الى حالات احتبس فيها المطر بسبب مجاعة أو جفاف ، ولكن العذرى ذكر أن الأبقار فى منطقة تدمير بشرق الأندلس أصابها مرض ، أسماه علة البقر ، وعلى الرغم من أن العذرى لم يحدد العام الذى وقع فيه هذا الوباء الا أنه من الثابت أنه حدث فى القرن الخامس الهجرى (١١م)[٥٧] .

أما فى عصر سيطرة المرابطين على الاندلس ، فلم نسمع الا عن حالات قليلة انعدم فيها المطر ، وبالتالى تعرضت البلاد للمحل وتدهور الثروة الزراعية والحيوانية ، فقد ذكر ابن عذارى أنه فى عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م « تناهى القحط فى بلاد الأندلس والعدوة حتى أيقن الناس بالهلاك »[٥٨] . كما تعرضت مدينة غرناطة عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م لحالة

---

(٥٦) Imamuddin (S.M): Som aspcts of the socio-economic and culture history of Muslim in Spain, Leiden, 1965, p. 80.
وكذلك الادريسى : نزهة المشتاق جـ٢ ص٥٨٠ — الحميرى: الروض المعطار ص ٩٣ .

(٥٧) العذرى : ترصيع الاخبار ص ٢ ، ومن المعلوم أن العذرى توفى عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م .

(٥٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٥ .

من الجفـــاف والقحط نتيجة عدم سقوط الأمطـــار[٥٩] • ولم توضح المصادر التى أوردت هذه الأخبار كيفية تغلب الأندلسيين على هــذا القحط ، ولا النتائج التى ترتبت عليه • كذلك تعرضت مدينة قرطبة فى عام٥٢٦هـ لمجاعة أعقبها وباء،وارتفعت الأسعار ووصل سعر المد من القمح خمسة عشر دينارا ، ولم يحرك والى المدينة ساكنا ممـــا زاد الأمر سوء[٦٠] ، ويبدو أن الموقف السلبى الذى وقفه الوالى تجاه هذه الأزمة كان من ضمن الأسباب التى أدت الى عزله من منصبه وسجنه فى مدينة اشبيلية •

أما فى عصر الموحدين فلم يحل القحط والجفاف بالأندلس الا مرات معدودة ، فقد انقطع نزول المطر عام ٥٦٥هـ/١١٦٩م ، وأدى ذلك الى حالة من الجفاف ، ولكن هذا الجفاف لم يستمر طويلا ، اذ نزل الغيث بعد ذلك بمدة قصيرة ، وبالتالى كان أثر هذا القحط محدودا[٦١] • وفى أعقاب الهزيمة العسكرية القاسية التى لقيها الموحدون فى معركة العقاب

---

(٥٩) ابن الزبير : صلة الصلة . نشر ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٨، ص ٢٤ ترجمة رقم ٣٢ . كمال أبو مصطفى : مصادر الثروة الاقتصادية فى الاندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٥ ، ص ٩٢ — ٩٣ •

(٦٠) ابن القطان : نظـــم الجمان . نشر محمود على مكى . الرباط ١٩٦٤ ص ١٩٧ ، ص ١٩٩ •

(٦١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين . تحقيق عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩١٤ ص ٣٩٧ •

Las Navas de Tolosa. بالأندلس عام٦٠٩هـ/١٢١٢م، ابتليت الأندلس بوباء شديد راح ضحيته عدد كبير من الناس[٦٢] • كما تعرضت الأندلس لجفاف آخر فى عام ٦١٦هـ/١٢١٩م وكان أقسى من سابقه ، فقد اشتد المحل لعدم نزول المطر منذ عام ٦١٤هـ/١٢١٧م ، وأطلق الأندلسيون على عام ٦١٦هـ أسم « عام وقليل » • وفى هذه الأعوام التى اشتد فيها المحل والقحط ، ارتفعت الاسعار بصورة واضحة ، وعجز الناس عن شراء الأقوات التى ندر وجودها فى الأسواق ، ولم يحاول ولاة الموحدين بالأندلس جلب الطعام من العدوة المغربية التى تعرضت هى الأخرى للمجاعة فى نفس الوقت • ولكن الخليفة الموحدى المنتصر (٦١٠ — ٦٢٠هـ ١٢١٣ — ١٢٢٤م) قام بفتح الأهراء المعدة لاختزان الطعام ، وأمر بتوزيع ما بها على الفقراء والمساكين بلا مقابل ، أما الأثرياء والقادرون فكانوا يدفعون ثمن ما يأخذونه • ولاشـك أن هـذا التصرف من قبل الخليفة المنتصر قد ساعد على التخفيف من آثار هذه الأزمة الطاحنة التى تعرضت لها بلاد المغرب والأندلس • وانتهت هذه الأزمة فى العام التالى (٦١٧هـ) عنـدما من الله على أهل الأندلس بالمطر الذى سقى الأرض والزرع[٦٣] • وفى عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ابتليت الأندلس بوباء مفرط اثناء خلافة أبى محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد (٦٣٠ — ٦٤٠هـ/

---

(٦٢) السلاوى : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى . الدار البيضاء ١٩٥٤ جـ ٢ ص ٢٦٢ .

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب (القسم الخاص بعصر الموحدين) نشر محمد ابراهيم الكتانى وآخرون . الدار البيضاء ، ١٩٨٥ ، ص ١٥٢ .

١٢٣٢ — ١٢٤٣م) . ولا شك أن هذه الأوبئة كانت تودى بحياة الكثيرين من الأندلسيين ، ومما ساعد على استفحالها ضعف اجراءات الوقاية الصحية فى مثل هذه الأحوال(٦٤) .

وفى عصر دولة بنى نصر (أو بنى الأحمر) فى غرناطة ، والذى يمثل آخر عهد المسلمين بالأندلس(٦٥) لم تسلم مملكة غرناطة من انتشار الأوبئة والطواعين ، ولعل اشهر هذه الطواعين ذلك الذى سرى بالأندلس اعتبارا من عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م . هذا الطاعون الذى اجتاح الأندلس انتشر فى غيرها من بلاد العالم فى ذلك الوقت ، وتوفى فيه خلق كثير ، ونظرا لشدة هذا الطاعون وفتكه بالناس أطلق عليه المؤرخون اسم الوباء الأسود أو الموت الاسود أو الطاعون الاسود . ولم تسلم منطقة فى العالم منه(٦٦) . وبالنسبة لبلاد الأندلس فقد أدى هذا الطاعون الى وفاة أعداد كبيرة من الأندلسيين من العلماء والزراع والصناع ، كما

---

(٦٤) ابن ابى زرع ، الانيس المطرب ص ١٧١ .

(٦٥) المقصود ببلاد الاندلس فى عصر دولة بنى نصر هى المساحة التى كانت تشغلها مملكة غرناطة الصغيرة وتقع فى الركن الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة الايبيرية ، بعد ان كان لفظ الاندلس يشمل كل شبه جزيرة ايبيريا ، ولكن هذا اللفظ (اندلس) اخذ يقل من مدلوله الجغرافى شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسى الذى كانت عليه الدولة الاسلامية فى شبه الجزيرة حتى صار يطلق فى نهاية الامر على مملكة غرناطة . راجع مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والاندلسى . ص ٢٢٧ .

(٦٦) من مناطق العالم الاسلامى التى اصابها هذا الطاعون : مصر والشام والعراق وبلاد المغرب ، كما انتشر هذا الطاعون فى جزر البحر المتوسط ووصل حتى غرب اوربا .

أهلك الزرع والضرع ، وانتشرت المجاعات والأوبئة . وقد انبرت اقلام الكتاب الغرناطيين المعاصرين تصف الداء والدواء ولكن دون جدوى[٦٧]. كما قام أطباء مملكة غرناطة بوضع الكثير من الرسائل المهمة حول هذا الطاعون الأسود ، ونذكر من هذه الرسائل على سبيل المثال رسـالة الطبيب والأديب الشهير ابن خاتمة الأنصارى التى أسماها « تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد»[٦٨] ، ورسالة لسان الدين بن الخطيب « مقنعة السائل عن المرض الهائل »[٦٩] ، وقد اعطانا كلاهما دراسة وافية عن هذا المرض من ناحية ظهوره وأعراضـه وانتشـاره والوقاية منه ، كما وضع ابن مشتمل الأسلمى (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) من أهل المرية كتابا أسماه « أصلاح النية فى المسألة الطاعونية »[٧٠] . ولم تقتصر هذه المؤلفات على علماء غرناطة ، بل ظهر العديد منها فى بلاد المشرق أيضا التى أصابها هـذا الطاعون الاسود ، وكل هذه المؤلفات

---

(٦٧) انظر مقدمة تحقيق كتاب « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » لابن الخطيب التى كتبها الدكتور مختار العبادى . ص ١٣ .

(٦٨) قام المستشرق الاسبانى ملتشور انطونيا **Melchor Antung** بنشر هذه الرسالة فى مقال بعنوان :

Abn Jatima de Almaria y su tratado de La peste, en relagion y cultura, oct. 1928- Madri pp; 68-90.

(٦٩) نشرها العالم الالمانى جوزيف موللر **J. Müller** مع ترجمة المانية فى مجلة اكاديمية العلوم فى بافاريا عام ١٨٦٣ .

(٧٠) راجع : ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة . تحقيق محمد عبدالله عنان القاهرة . ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٧ .

تحدثت عن هذا المرض بالتفصيل[71] أما عن أثر هذا الوباء الأسود على الاحوال فى مملكة غرناطة ، فلاشك أنه ادى الى اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية بها ،فقد حدثت عـدة انقلابات سياسية فى غرناطة فى الفترة ما بين ٧٦٠هـ ، ٧٦٣هـ/١٣٥٩م — ١٣٦٢م. وعلى الرغم أن أسباب هذه الانقلابات عديدة ومتشعبة ، الا أن أحد هذه الاسباب يرجع جذوره الى وباء الطاعون أو الموت الاسود الذى أشرنا اليه[72] . كذلك انقذ هذا الوباء الاسود مدينة جبل طارق من الوقوع فى يد ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، الذى كان قد حاصرها عـام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م عقب انتصاره الهائل على القوى الاسـلامية فى معركة طريف Rio Salado عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م وذلك لكى يتمكن من اغلاق منطقة مضيق جبل طارق فى وجه المرينين الذين يقدمون المساعدات الدائمة للمسلمين فى غرناطة . بيد أن هذا الطاعون الاسود أنتشر فى معسكر الفونسو ، ولم يلبث هو نفسه أن راح ضحية لهذا الموت الاسود فى مارس ١٣٥٠م/٧٥١هـ[73] .

---

(٧١) لا يتسع المقام هنا للحديث عن هذه المؤلفات المشرقية حول هذا المرض ولكن يمكن الرجوع الى ما أورده الدكتور حامد زيان فى كتابه : الازمات الاقتصادية والاوبئة فى مصر ص ٤٣ — ٤٧ حيث أورد ثبتا بأسماء هـذه المؤلفات .

(٧٢) حول هذه الانقلابات السياسية فى غرناطة خلال هذه الفترة راجع: مختار العبادى : فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة كما يصفها شاهد عيان . صحيفة معهد الدراسات الاسلامية . مدريد . المجلد السابع ١٩٥٩ ، العدد ١ — ٢ ص ٤٣ — ٧٣ .

(٧٣) ابن الخطيب : اعمال الاعـلام (نشر بروفنسال) ص ٣٣٥ — مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس . الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٤٧١ .

٢ ــ السيول والفيضانات :

على الرغم من أن قلة الأمطار كانت تصيب البلاد بحالة من الجفاف والقحط ، الا أن كثرتها عن الحد المعتاد كان ينتج عنه سيول تؤدى الى غرق الأراضى الزراعية والى ارتفاع منسوب المياه فى الأنهار ، وبالتالى حدوث فيضانات تسبب أضرارا عاتية . وكانت بلاد الأندلس تتميز بكثرة أنهارها التى تقع عليها العديد من المدن ، ولعل أهم أنهـار الأندلس نهر تاجه Tajo ووادى آنه Guadiana والوادى الكبير Guadalquivir ووادى لكه ووادى ابره Ebro ووادى دويره Rio Duero بالاضافة الى عدد آخر من الأنهار الصغيرة التى تتفرع من هذه الأنهار الكبيرة[٧٤] . ولذلك اهتم حكام الأندلس ببناء السدود والقناطر على هذه الوديان . ويشتهر الوادى الكبير بكثرة حركة المد فيه وخاصة بناحية اشبيلية ، حيث يذكر الرازى أنه « اذا حان حمله فى أيـام المطـر أشفت اشبيلية على الغرق وتوقـع أهلها الهلاك »[٧٥] . وكان المد بهذا النهر من القوة بحيث يهدم القناطر التى تقام فوقه . ولعل أشهر القناطر التى أقيمت على هذا النهر قنطرة قرطبة . ويشير المؤرخون الى أن المسلمين عندما فتحوا مدينة قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها سقطت حناياها ومحيت أعاليها ، ولم

---

(٧٤) يذكر الزهرى أن اربعين نهرا تشق الاندلس ، ويبدو انه يشير الى الأنهار الصغيرة التى تتفرع من الانهار الكبيرة ، او الانهار الموسمية التى تمتلىء بالمياه فى فصل الشتاء نتيجة لنزول الامطار الغزيرة ، ومن هذه الانهار نهر بلنسيه ووادى المرية ونهر شلب . راجع : كتاب الجغرافية . تحقيق محمد حاج صادق . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة ص ٨٠ .

(٧٥) المقرى : نفح الطيب : ج ١ ص ٤٨٠ .

يبق منها الا أرجلها وأسافلها بفعل المد على مر الأزمان[٧٦] • وقد اهتم المسلمون بترميم هذه القنطرة لربط مدينة قرطبة بربضها القبلى ، ويجمع المؤرخون على أن ترميم هذه القنطرة تم فى عهد والى الأندلس السمح بن مالك الخولانى بأمر من لخليفة عمر بن عبد العزيز وذلك فى عام ١٠١هـ/٧١٩م[٧٧] • وتعرضت هـذه القنطرة للهدم والتخريب بسبب السيول العنيفة والمدود العديدة لنهر الوادى الكبير • وأول السيول التى اجتاحت مدينة قرطبة فى العصر الاسلامى وأثرت فى قنطرتها ذلك السيل الذى وقع فى عام ١٦١هـ/٧٧٧م ، وبلغ من شدة هذا السيل أنه سد حنايا القنطرة وهدم بعضها وزلزلها[٧٨] ، ولم يتمكن الأمير عبد الرحمن الداخل من ترميم هذه القنطرة بسبب انشغاله بمواجهة الثائرين عليه ، ولم يتم أصلاحها الا فى أيام الأمير هشام ابن عبد الرحمن الذى أنفق أموالا عظيمة على اعادة بنائها[٧٩] •

---

(٧٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦ — المقرى : المصدر السابق ج١ ص ٤٨٠ •

(٧٧) مؤلف مجهول : اخبار مجموعة ص ٤٤ — ابن عـذارى : نفس المصدر السابق والصفحة . عبد العزيز سالم : اضواء على مشكلة تاريخ بناء اسوار اشبيلية فى العصر الاسلامى . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية . مدريد ١٩٧٤ . المجلد ١٨ ص ١٣٧ •

(٧٨) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦ ومن المعروف أن عدد اقواس قنطرة قرطبة بلغ سبعة عشر قوسا ، وارتفاع القنطرة على النهر بلغ ثلاثين ذراعا . راجع : الادريسى : نزهة المشتاق ج ٢ ص ٥٧٩ •

(٧٩) ابن عذارى : المصدر السـابق ج ٢ ص ٦٦ — ابن الخطيب :

وفى عام ١٨٢هـ/٧٩٨م اجتاح قرطبة سيل عظيم أدى الى جرف ربض القنطرة ، فلم يبق فيه دار الا هدمها ، وبلغ من قوة هذا السيل أن ربض شقندة الواقع جنوبى قرطبة تعرض لأضرار جسيمة بسبب هذا السيل[٨٠] .

ثم تعرضت بلاد الأندلس عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م لسيل عظيم اعتبر المؤرخون من أمهات السيول ، فقد هطلت الأمطار بغزارة ، مما أدى الى ارتفاع منسوب المياه بالوادى الكبير ونهر شنيل ، وتسبب عن هذا السيل تدمير قوسين من حنايا قنطرة مدينة استجه كما أبطل عددا من أرحائها . أما فى اشبيلية فقــد أغرق هذا السيل ست عشرة قرية من قراها ، وقضى على ما بهـــا من سكان وحيوانات وأمتعة . كما فاض وادى تاجه « فأذهب ثمان عشرة قرية »[٨١] . وقد أصبح هذا السيل حديث عامة الأندلس فترة طويلة نظرا لما سببه من أضرار ودمار .

وفى عام ٢٨٨هـ/٩٠١م ع وافى بنهر قرطبة سيل جارف اغتصت به حلاقيم قنطرة قرطبة وهدم بعض أرجلها[٨٢] . ثم تعرضت قرطبة

= اعمال الأعلام (نشر بروفنسال) ص ١٢٥ ، ومما يؤثر عن الامير هشام انه رفض العبور على هذه القنطرة حينما بلغه أن الناس يقولون انه اصلحها ليعبر عليها لصيده وقنصه . راجع . المقرى : نفح الطيب : جـ١ ص٣٣٨ .

(٨٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٠ .

(٨١) ابن حيان : المقتبس (نشر مكى) ص ٥ — ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٥٧ — ابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٩ .

(٨٢) ابن حيان : المقتبس (نشر اسماعيل العربى) ص ١٦١ — ابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٠ .

لسيل آخر فى عام ٢٩٦/٩٠٨م نتيجة لحركة المد بنهر قرطبة ، فأحدث أضرارا كثيرة ، كما تسبب فى تدمير القطاع القبلى لسور مدينة اشبيلية[٨٣] ، هذا السور الذى سبق أن بناه الأمير عبد الرحمن الاوسط عقب الغزوة النورماندية التى تعرضت لها اشبيلية عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م[٨٤] . وقد اعتبر الأندلسيون هذا السيل من السيول الطامية شأنه شأن سيل عام ٢٣٥هـ[٨٥] .

أما فى عصر الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر ، فقد تعرضت قرطبة وقنطرتها لمد عنيف من نهر قرطبة عام ٣٣١هـ/٩٤٢م أدى الى هدم اجزاء من قنطرتها[٨٦] . ولم يمض أكثر من ثلاثة أعوام حتى تعرضت لسيل آخر « وبلغ الماء فى البرج المعروف ببرج الأسد ، فهدم من آخر القنطرة ، وثلم الرصيف[٨٧] . وغيره[٨٨] . وقام الخليفة الناصر باصلاح ما تهدم من القنطرة نتيجة للسيل السابق ، بيد أن هذه

---

(٨٣) عبد العزيز سالم : اضواء على مشكلة تاريخ بناء سور اشبيلية ص ١٣٨ .

(٨٤) البكرى : جغرافية اوربا والاندلس من كتاب المسلك والممالك . نشر عبد الرحمن حجى . بيروت ١٩٦٨ ص ١١٢ .

(٨٥) ابن حيان : المقتبس (نشر اسماعيل العربى) ص ١٦٦ .

(٨٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢١٠ .

(٨٧) كان المسلمون يطلقون اسم الرصيف على كل الطرق المرصوفة كالطرق الرومانية ، ولقد حرص أمراء بنى أمية وخلفاؤهم على ترميم الارصفة الرومانية القديمة وخاصة فى مدينة قرطبة وبناء أرصفة أخرى جديدة مثل الرصيف الذى كان يربط بين مدينة قرطبة والزهراء وكانت أرضيته مرصوفة

القنطرة لم تلبث أن تعرضت من جديد لـــد نهر قرطبة عــام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م[٨٩] ، أى فى بداية عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ، ولم يحاول المستنصر اصلاح قنطرة قرطبة الا عام ٣٦٠هـ ، ويوضح ابن حيان كيفية اجراء هذا الترميم ، فيذكر انه فى يوم الأربعاء الخامس من ذى القعدة (٣٦٠هـ) بدىء فى عمل سد محكم الصنعة على حافة نهر قرطبة بجوار القنطرة ، كان الغرض منه تصريف مياه النهر من هذه الجهة ، كى يتمكن العمال والمهندسون من الكشف عن دعائم القنطرة التى أثرت فيها الميـــاه على مر الأزمان ، وقد استخدم عمـــال البناء بقرطبـــة الأشجار المجلوبة من الجبـــال المحيطة بقرطبة ، والصخور والرمال والطفل لعمل هذا السد . وبعد ازالة الكسوة الجصية التى كانت تكسوا أبدان الدعائم تبين للمهندسين ضعف هذه الدعائم ، وأنه من الخطورة بمكان تركها على هذا الحـــال ، ولذلك استقر رأى الخليفة المستنصر على تداركها وسرعة ترميمها[٩٠] . ولذلك شرع فى عمل سد

=

بالحجارة . والرصيف المذكور بالمتن هو الرصيف الذى كان يحف بالضفة اليمنى من نهر الوادى الكبير ويمتد من الناحية الشرقية للمدينة حتى الناحية الغربية للقصر ثم يصل الى السهل الذى يقع فيه ربض المصارة ومصلاه .
راجع : عبد العزيز سالم : قرطبة جـ ١ ص ٢٠١ — ٢٠٢ — L. T. Balbas: La via Augusta y el arrecife musulman, Revista Al-Andalus,. Vol. XXIV, P. 448;

(٨٨) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٨٩) نفس المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٩٠) ابن حيان : المقتبس (نشر حجى) ص ٥٨ .

المنعة أسفل نهر قرطبة الى الشرق منها ، كما اقتلعت حجارة قنوات الرحى الملاصقة للرصيف بغربى قرطبة كى تحول دون وصول الماء الى هذه الدعائم المذكورة ، وقد تعطلت الأرحاء عن العمل نتيجة لذلك . وتم بناء سد المنعة يوم الخامس عشر من ذى الحجة (٩ أكتوبر ٩٧١م) . وبدأ الفعلة بعد ذلك فى تحصين تلك الأرجل وتقويتها واستخدموا توابيت الخشب الضخمة وأوتاد الحديد السميكة والصخور الصلبة ، ثم غطيت تلك الدعائم بعد تقويتها بطبقة من ملاط الكلس وصنعت باتقان شديد . ويوضح ابن حيان مدى اهتمام الخليفة الحكم المستنصر الشديد بعملية ترميم قنطرة قرطبة فيقول : « وجعل الخليفة المستنصر بالله ينتاب مكانه فى الأوقات بنفسه ، وينظر اليه بعينه ، مؤكدا على المتولين النظر فيه ، الخلفاء الاكابر ، خدمه ، ومن معهم من رؤساء كتابه ، واذا لم ينزل الى المكان ارتقى الى السطح فوق باب السده من قصر قرطبة المشرف عليه ، فكان كالشاهد له لقربه منه ، فيتملى القعود هناك متأملا للعمل مشيرا فيه برأيه مؤكدا على الفعلة فى تعجيله قبل هجوم الشتاء نظرا للناس واحتبالا بمصالحهم ، فيزكو العمل وتبدو المعونة »[91] وكان الفراغ من أعمال البناء يوم الأحد السادس والعشرين من المحرم عام ٣٦١هـ/١٨ نوفمبر ٩٧١م ، فاطمئن الخليفة على سلامة البناء ، ثم أمر بجبر الخرم الذى سبق أن بثق بسد القنطرة ليتمكن العمال من بناء الدعائم ،وانتهى الفعلة من ذلك فى صفر التالى ،

---

(٩١) ابن حيان : المصدر السابق ص ٦٤ — ٦٥ .

كما عادت الرحى تعمل من جديد(٩٢) .

ولم يكد يمضى عامان على بناء هذا السد حتى تعرضت قرطبة من جديد لسيول جارفة فى شهر رجب ٣٦٣هـ/مارس — ابريل ٩٧٤م كما لرتفع منسوب المياه فى نهر قرطبة ارتفاعا كبيرا وفاضت مياهه وبلغت رصيف القصابين ، مما جعل من الصعب على السكان للتنقل داخل أرجاء المدينة ، ثم أعقب ذلك نزول أمطار غزيرة فاجأت الناس وهم فى طريقهم الى المسجد الجامع ، فتزاحموا للدخول تحت أسقف الجامع مما أدى الى الحاق كثير من الأذى والضرر بهم ، ولم يتمكن غالبيتهم من أداء الصلاة(٩٣) . وفى العام التالى استمرت السيول تهاجم مدينة قرطبة ، وفى جمادى الآخر عام ٣٦٤هـ/فبراير ٩٧٥م هطلت الأمطار بشدة عدة أيام متتالية مما أدى الى فيضان نهر الوادى الكبير، ووصلت المياه الى الرصيف الذى يلى قنطرة قرطبة والباب الجديد ، وامتنع الناس عن السير الى باب المحجة نظرا لكثرة المياه التى غمرته، ويروى ابن حيان أن قوما من أهل شبلار(٩٤) لم يتمكنوا من السير عبره لكثرة المياه التى تجمعت هناك ، كذلك لم يتمكنوا من الوصول الى الباب الجديد (وهو الباب الشرقى) كى يعبروا منه الى ربضهم ،

---

(٩٢) نفس المصدر السابق والصفحة — عبد العزيز سالم : قرطبة جا ص١٩٩ — ٢٠٠ .

(٩٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٩٤) شبلار : احد ارباض مدينة قرطبة ويقع فى القسم الشرقى منها ، وان كان ابن الخطيب قد ذكر ان اسمه فحص الناعورة. انظر ابن حيان :

واضطروا الى استئجار أحـد القوارب لنقلهم ، ولم يكد يسير بهم مسافة قصيرة حتى غشيهم موج طام قلب القارب فغرق جميع من فيه عدا الملاح(٩٥) .

كما تعرضت قرطبة لسيل شديد عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م أحدث أضرارا مهمة فى اسواقها كما أغرقت المياه مدينة الزاهرة التى سبق أن أنشأها المنصور بن أبى عامر الى الشرق من قرطبة(٩٦) .

ثم تعرضت قرطبة لسيل آخر فى عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، بالاضافة الى مد النهر الذى أدى الى اغلاق الطرق ، ونال الناس من جراء ذلك مشقة كبرى ظلوا يذكرونها فترة طويلة(٩٧) .

وفى أثنـــاء الفتنة التى اجتاحت الأندلس فى نهاية القرن الرابع الهجرى وبداية الخامس ، اجتاحت السيول الشديدة مدينة قرطبة فى عام ٤٠١هـ/١٠١٠م ، كما فاض نهر قرطبة وغمرت مياهه أرباض المدينة فهدمت نحو ألفى منزل من منازلها بالاضافة الى عدد كبير من مساجدها، ويذكر ابن عذارى أنه توفى نتيجة لهذا السيل نحو خمسة آلاف شخص

= المقتبس (نشر الحجى) ص ٢٠٩ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام (نشر بروفنسال) ص ٧٨ — عبد العزيز سالم : قرطبة جـ١ ص ١٧٩ .

(٩٥) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٩٦) ابن أبى زرع : الانيس المطرب ص ٧٣ .

(٩٧) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ص ٤٨ .

اما ردما أو غرقا ، كما ضاعت أموال الناس وأمتعتهم . وفضلا عن ذلك فقد هدم هذا السيل جزءا كبيرا من سور قرطبة وردم خندقها . واستمر هذا السيل المدمر لمدة ثلاثة أيام متوالية . ومما زاد الأمر سوء أن البربر المنضمين الى جانب الخليفة الأموى سليمان المستعين فرضوا الحصار على قرطبـــة وقطعوا عنها المؤن والأقوات ، فترتب على ذلك ارتفاع كبير فى أسعار السلع والحبوب والمؤن . ولذلك غادر أهل قرطبة مدينتهم الى السواحل والبوادى هربا من ويلات الفتنة والسيول ، أما من أقام منهم بقرطبة ولم يتمكن من مغادرتها فقد ساءت حالتهم «حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم وأكلوا الميتة ... وكان قوم فى الحبس فمات منهم رجل فأكلوه »[٩٨] . وأعقب ذلك انتشار الأوبئة

---

(٩٨) المصدر السابق ج٣ ص ١٠٦ . ومن الجدير بالذكر ان مثل هذه الاشياء قد حدثت فى مصر الاسلامية ايام الشدة العظمى فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧هـ/١٠٣٥ — ١٠٩٤) حيث اجتاحت مصر مجاعة وقحط نتيجة لقصور النيل ، وبلغ من شدة هذه المجاعة ان اكل الناس فى مصر القطط والكلاب ، بل أكلوا بعضهم بعضا ، ويوضح المؤرخ المصرى المقريزى مدى ما وصلت اليه الامور فى مصر خلال هذه الشدة فيقول أن جماعة من الناس كانوا يجلسون فوق أسطح منازلهم ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد القوها عليه ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه ، كما أن العامة من فرط جوعهم أكلوا دابة الوزير ، ومن المثير للانتباه أن بلاد الاندلس قد مدت يد المساعدة لمصر والمصريين خلال هذه الشدة برغم الاختلاف المذهبى بين حكام البلدين ، اذ تذكر المصادر أن عليا بن مجاهد العامرى صاحب دانية وجزر البليار بعث الى مصر بعدة سفن تحمل طعاما وغلالا للتخفيف من شدة هذه المجاعة. راجع . مؤلف مجهول : الحلل الموشية =

والطاعون ، واستمر الطاعون قرابة عشرين يوما مات خلاله عدد كبير من أهل قرطبة ، وذكرت كتب التراجم أن من بين من توفى فى هـذا الطاعون الفقيه أحمد بن سعيد بن الجناب بن الجسـور الأموى(٩٩) (ت ٢٦ ذو القعدة ٤٠١هـ/أول يوليو ١٠١١م) ، والفقيه المحدث عمر بن حسين بن محمد بن نايل الأموى(١٠٠) (ت ٨ ذو القعدة ٤٠١هـ/١٣ يونيو ١٠١١م) . ولا شك أن السيول وما أحدثته من خراب ودمار ، والأوبئة والطاعون وما نتج عنها من وفاة العديد من أهل قرطبة ، كان من أهم الأسباب التى دفعت الخليفة هشام المؤيد وحاجبه واضح الفتى الى طلب الصلح من منافسة على الخلافة سليمان المستعين وأنصاره من البربر .

وفى عهد دولة بنى جهور بقرطبة تعرضت المدينة لسيل جديد فى عام ٤٣٩هـ/١٠٤٧م أدى الى عطب قنطرة قرطبة ، ولم يتمكن الناس من

فى ذكر الأخبار المراكشية ص٧٦ — ٧٧ — ابن الخطيب : أعمال الاعلام (نشر بروفنسال) ص٢٢١ — ٢٢٢ — المقريزى: اغاثة الأمة ص٢٣ — ٢٥ — ابن عذارى : البيان المغرب : جـ ٣ ص ٢٢٨ — كذلك انظر : مختار العبادى: الصقالبة فى اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية صحيفة معهد الدراسـات الاسلامية . مدريد ١٩٥٣ ص ٢٦ — عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها . القاهرة ١٩٦٨ ص٣٦٥ — ٣٣٦ — أحمـد الطوخى : مصـر والاندلس ، دراسة فى العلاقات السياسية والعلمية والاقتصادية والفنية . الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٢ .

(٩٩) ابن بشكوال : الصلة : جـ ١ ص ٢٣ — ٢٤ — ترجمة ٣٩ .

(١٠٠) نفس المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٩٦ ترجمة ٨٤٩ .

العبور عليها ، حتى أن أحد علماء قرطبــة وهو الفقيه عبد الرحمن بن سعيد بن جرج توفى آخر ربيع الأول ٤٣٩هـ/سبتمبر ١٠٤٧م فصلى الناس عليه بجامع قرطبة ، ثم نقل نعشـــه بواسطة قارب الى مقبرة الربض[١٠١] . وفى عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م تعرضت مدينة بلنسية فى شرق الأندلس لسيل كبير أدى الى الحاق الضرر بها ، كما هدم أحد أبراجها والمسمى برج القنطرة[١٠٢] .

أما فى عصر المرابطين بالأندلس فلم تحدث أية سيول باستثناء ذلك السيل الذى دمر جانبا من سور اشبيلية القبلى المحاذى لانحناءة الوادى ، وقام المرابطون بترميم هذه الاسوار[١٠٣] .

بيد أن السيول ومدود الأنهار لم تكن كلها شرا لأهل الأندلس ، فقد حدث فى عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م أن خرج القشتاليون من بلادهم وعبروا الوادى الكبير وهاجموا بعض المدن الاسلامية مثل بياسه Baeza وأبدة Ubeda ووصلوا الى حصن البراجلة ، ولم ينقذ المسلمون الذين بداخله سوى هطول الأمطار بصفة مستمرة مدة عشرين يوما «فمد النهر ولم تقدر الخيل المغيرة على عبوره الى محلاتهم ، وصنعوا معادى للجـــواز ، فانقطع بعضها وغرق من كان فيها ، وتبعهم قائـــد جيان ،

---

(١٠١) نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٣٢ (ترجمة ٧٠٦) .

(١٠٢) ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس ص ٩٨ — ٩٩ — والمقصود بالقنطرة هنا تلك التى بناها المنصور بن أبى عامر . راجـــع : العذرى : ترصيع الاخبار ص ١٧ — ١٨ .

(١٠٣) عبد العزيز سالم : أضـــواء على مشكلة تاريخ بناء اســـوار اشبيلية ص ١٤٣ ، ص ١٤٥ .

فأصاب منهم فوارس[١٠٤] .

وفى عصر الموحدين تعرضت مدينة اشبيلية لسيل جارف فى عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م أدى الى تهدم جزء من سورها المواجه للوادى ، كما أغرق مساحة كبيرة من أراضيها . وقد عمل الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٨٠هـ/١١٦٣ — ١١٨٤م) على اعادة بناء سور اشبيلية من ماله الخاص « وبناه بالحصى والجيار من الأرض الى أن علاه على حاله الآن على يدى أمنائه الأخيار »[١٠٥] . كما عمل أبو يعقوب يوسف على اتقاء خطر هذه السيول مستقبلا فأمر ببناء الزلالق لأبواب اشبيلية فى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م ، يقول ابن صاحب الصلاة : « وابتنى الزلالق لأبواب اشبيلية من جهة الوادى احتياطا من السيل الخارج عليها ، وابتنى قصبتها البرانية والداخلية »[١٠٦] . كما بنى الرضفان المتدرجة بضفتى الوادى ليمنع مياه السيول والفيضانات أن تغرق المدينة[١٠٧] .

ولم يمض سبعة أعوام على ذلك حتى تعرضت اشبيلية وضاحيتها طريانة Triana لسيل كبير عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م ، ولكن يبدو أن

---

(١٠٤) ابن القطان : نظم الجمان : ص ٢٣٣ .

(١٠٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٣٤ — ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ١٧٧ .

(١٠٦) ابن صاحب الصلاة : المصدر السابق ص ٢٣٥ . انظر كذلك : عبد العزيز سالم : تحقيق اسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون . مجلة أوراق ، مدريد . العدد الثانى ١٩٧٩ ص٣٦ — L T; Balbas: Ciudades hispano-musulmanas, PP; 489-490.

(١٠٧) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥١ .

هذا السيل لم يؤد الى أضراره واضحة لأن ابن عذارى — الذى أورد نبأ هذا السيل — لم يشير الى أية نتائج ترتبت عليه[١٠٨] • وعلى الرغم من الاجراءات التى سبق أن اتخذها الخليفة أبو يعقوب يوسف لمواجهة هذه السيول المدمرة ، الا أن ذلك لم يحل دون تعرضها للدمار مرة أخرى نتيجة سيل عنيف اجتاح مدن الوادى الكبير من قرطبة الى مدينة قادس وذلك فى عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م • وكانت اشبيلية أكثر المدن الواقعة عليه تضررا منـــه ، ويصف الحميرى هـــذا السيل بأنه السيل العظيم الجارف على اشبيلية المربى على كل ســـيل[١٠٩] • اما ابن عبد الملك المراكشى فيصفه بأنه أكبر السيول وأعظمها عبرة وأشدها آثارا[١١٠] ، فى حين أن ابن عذارى يصفه بالسيل الشنيع[١١١] • وبلغ من شد هذا السيل أن الاندلسيين صاروا يؤرخون به أحداثهم ، فيروى ابن عبد الملك المراكشى فى ترجمته لمحمد بن أحمد بن عبدالله المعروف بابن سيد الناس، أن هذا الأخير ولد صدر سنة سبع وتسعين وخمسمائة قبل السيل الكبير باشبيلية بأشـــهر[١١٢] • أما ما أحدثه هذا السيل من خراب وتدمير . فقد أجمع المؤرخون على أنه بدأ يوم الاثنين التاسع عشر من جمادى

---

(١٠٨) ابن عذارى : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص ١٤٠ .
(١٠٩) الحميرى : الروض المعطار : ص ٥٩ .
(١١٠) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة . السفر الخامس . القسم الثانى . تحقيق احسان عباس بيروت ١٩٦٥ ص٦٦١ .
(١١١) ابن عذارى : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص ٢٣٩ .
(١١٢) ابن عبد الملك : المصدر السابق ص ٦٦١ .

الآخر عقب صلاة الظهر ، حيث هاجمت المياه المتدفقة سور المدينة فهدمته في المنطقة الممتدة ما بين باب طريانه وباب المؤذن وبناحية الدقاقين ، ثم أحدثت بركة كبيرة قدر طولها بحوالى أربعين باعا . ثم انتشرت المياه داخل مدينة اشبيلية وارتفع منسوبها بحيث أن أهل اشبيلية لم يتمكنوا من الانتقال من مكان لآخر الا بواسطة القوارب ، ويصف ابن عبد الملك — نقلا عن أبي العباس بن علي بن هارون — حال اشبيلية في ذلك الوقت فيقول « وعاينت في هذا السيل القوارب تعدى بباب ساباط النساء بباب العطارين ، وكان دخولها وخروجها على باب المؤذن ، ولم يكن أحد من المعدين يعدى الا في القوارب القرطبية لعظم الماء وجفائه ... وعاينت قوارب المعدين تعدى بأول درب الدباغين قرب جامع العدبس ، وبأول القصر الذي بغرب سوق باب الحديد ... وصارت اشبيلية مابين المياه كأنها جزيرة »[113] . ولم تقتصر الأضرار التي سببها هذا السيل — والذي استمر تسعة أيام متصلة — على ذلك ، بل أنه هدم وأتلف حوالى ستة آلاف دارا من دور اشبيلية ، وتسبب في وفاة وغرق عدد كبير من أهلها ، وذكر أنه عثر على جثث لسبعمائة شخص بالرمال الكبار باشبيلية كان السيل قد جرفها الى هناك[114] . ولاشك أن كثرة السيول التي تعرضت لها اشبيلية أدت الى شعور أهلها بنوع من التبرم والضيق

---

(١١٣) نفس المصدر السابق ص ٦٦٢ .

(١١٤) ابن عذارى : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص ٢٣٩ . ومن العجيب أن ابن عبد الملك المراكشى الذى أورد وصفا دقيقا لهذا السيل =

برغم حبهم لمدينتهم ، وعبر أحد شعرائها عن هذا الضيق بقوله :

لله حمص أيما بلدة
لو أننا نأمن ثعبانها
طاف بها والريح روح له
فابتلع الأرض وسكانها(١١٥)

وعلى الرغم من الأضرار الكبيرة التى لحقت بأسوار اشبيلية نتيجة لهذا السيل ، وانهيار أقسام منه الا أن الموحدين لم يشرعوا فى اصلاح ما تهدم من هذه الأسوار الا عام ٦١٨هـ/١٢٢١م عندما قام والى اشبيلية أبو العلا أدريس بتحصين المدينة نظرا لاشتداد الضغط القشتالى عليها ، فبدأ ببناء برج برانى هائل وذلك فى أضعف نقاط الدفاع عن اشبيلية،هذا البرج هو المعروف ببرج الذهب Torre del Oro والذى ما يزال قائما حتى الآن . وفى عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م جدد أبو العلاء أدريس بناء أسوار اشبيلية التى تهدمت بفعل السيول ، وأقام أمامها

= وما أحدثه من دمار وخراب لمدينة اشبيلية ، ذكر انه لم يمت فى هذه الكارثة سوى خمسة افراد فقط . راجع : ابن عبد الملك المراكشى : المصدر السابق ص ٦٦٢ .

(١١٥) ابن عذارى : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص ٢٣٩ . والمقصود بحمص الواردة فى الشطر الاول من البيت الاول مدينة اشبيلية لانه جرت عادة الاندلسيين تشبيه مدنهم بالمدن المشرقية فاطلقوا مثلا على مدينة غرناطة : دمشق ، ومالقه : الاردن ، وتدمير (مرسية) : مصر ، وجيان: قنسرين ... وهكذا . أما ثعبانها فهو نهر الوادى الكبير .

جزاما برانيا ، وحفر حولها خندقا يدور بهذه الأسوار مبالغة فى تحصين المدينة(١١٦) .

وفى عصر دولة بنى نصر (أو بنى الاحمر) فى غرناطة ، التى تمثل آخر عهود المسلمين بالاندلس ، تعرضت بلاد شرق الاندلس لسيول وأمطار غزيرة اجتاحت الأراضى الزراعية واتلفت المزوعات ، وقل وجود الغذاء . ويذكر لسان الدين بن الخطيب أن السلطان النصرى أبا الحجاج يوسف بن نصر (٧٣٣ — ٧٥٥هـ/١٣٣٣ — ١٣٥٤م) قام بجولة تفقدية لهذه المناطق — وخاصة مدينتى بسطة Baza وبرشانة Purchana لمعاينة الآثار المدمرة التى خلفتها هذه السيول(١١٧) . ووصف ابن الخطيب حالة هذه المدن فى عبارات طريفة ، مثال ذلك وصفه لدجاجة قدمها اليهم قاض مدينة برشانة ، يقول ابن الخطيب «... وأعوانه (أى أعوان القاضى) من القلعة تنحدر ، والبشير منهم بقدومها يبتدر ، يزفونها كالعروس فوق الرؤوس ، فمن قائل أمها البجابية ، وقائل أخوها الخصى الموجه الى الحضرة العليا ... قلت ياقوم ظفرتم بقرة العين ، وأبشروا

---

(١١٦) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ١٨١ — عبد العزيز سالم : اضواء على مشكلة تاريخ بناء سور اشبيلية . ص ١٤٨ — ١٤٩ ولنفس المؤلف : تحقيق أسماء قصور بنى عباد ص ٣٦ .

(١١٧) كانت هذه الزيارة التى قام بها السلطان ابى الحجاج رفقــه وزيره الاديب والمؤرخ لسان الدين بن الخطيب موضوعا لرسالة الفها هــذا الوزير بعنوان « خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف » . وكان المستشرق الالمانى جوزيف موللر قد نشرها فى كتابه « نخب من تاريخ المغرب العربى »
Beitrage Zur Geschicts der westlichen Araber, Munchen 1866.

باقتراب اللقاء فقد ذبحت لكم غراب البين »[118] . ولاشك أن هـــذه الصورة الساخرة التى يقدمها لنا ابن الخطيب توضح الى حد وصلت الأمور فى شرق الاندلس من جراء السيول الشديدة وقلة وجود الغذاء .

وفى أواخر أيام دولة بنى نصر تعرضت مدينة غرناطة لسيل عظيم فى بداية عام ٨٨٣هـ/اكتوبر ١٢٤٩م ، ويشير صاحب كتاب « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر » أن هذا السيل حدث فى يوم الثانى والعشرين من محرم (٢١ أكتوبر) . وكان السلطان الغرناطى أبو الحسن على بن سعد (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) يقوم بعمل التمييز لجيوشه ، وكان أهل غرناطة يخرجون كل يوم الى السبيكة[119] وما حول الحمراء يتنزهون ويتفرجون على هذا التمييز . وفى آخـــر أيام التمييز تلبدت السماء بالغيوم وظهرت سحابة عظيمة ، ثم بدأت السماء ترعد وتبرق وأعقب ذلك مطر غزير « ولم يزل المطر يزداد ويعظم ويكثر حتى صار كالأنهار العظيمة ، وجاءت السيول من كل ناحيـــة وعظم أمرها وعاين الناس الهلاك من عظم ما رأوه من شدة المطر وكثرة السيول من كل ناحية[120] . ومما زاد الأمر سوء أن نهر حدرة Rio Darro الذى يشق غرناطة

=
وقد اعاد الدكتور مختار العبادى نشر هذه الرسالة ضمن مجموعة من رسائل ابن الخطيب تحت عنوان « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، مجموعة من رسائله — الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ٢٥ — ٥٣ .

(١١٨) مختار العبادى : المرجع السابق : ص ٣٧ .

(١١٩) السبيكة : مكان متسع فى حمراء غرناطة يقع بالقرب من مدافن ملوك بنى نصر .

(١٢٠) مؤلف مجهود : نبذة العصر فى اخبار ملوك بنى نصر . نشر الفريد البستانى . العرائش ١٩٤٠ ص ٤ .

امتلأ عن آخره وفاضت مياهه فأتى على ما بضفتيه من الاشجار الكبيرة، ثم هاجمت المياه احياء غرناطة فأغرقت الحوانيت والدور والمساجد والفنادق ، كما اتلفت الاسواق والبضائع الموجودة بها . وبلغ من قوة هذا السيل أنه هدم القناطر التى كانت مشيدة على نهر حدرة بحيث لم يبق منهـا الا الأقواس ، كذلك هاجمت السيول قيسارية غرناطة واحياء القراقين والصاغة والحدادين . كمـا أدى تراكم السيول مع الأشجار التى جرفتهـا المياه الى اعاقة الحركة داخل غرناطة ، وبذل الغرناطيون جهودا كبيرة من أجل اصلاح ما أتلفه هذا السيل .

وكان لهذا السيل العظيم آثار سلبية على الغرناطيين وحاكمهم السلطان أبى الحسن على ، فيذكر صاحب كتاب « نبذة العصر » أنه منذ وقت السيل « بـدأ ملك الأمير أبى الحسـن فى التقهقر ، والانتكاس والانتقاص .... وثقل المغارم وكثر الضرائب فى البلدان ، ومكس الأسواق ونهب الأموال وشح بالعطاء الى غير ذلك من الأمور »[١٢١] . وهكذا تسبب هذا السيل فى احداث آثار ضارة بالناحيتين الاقتصادية والسياسية لمملكة غرناطة التى كانت تعانى من سكرات الموت ، بحيث لم يمض ١٤ عاما حتى كانت غرناطة قد استسلمت للملكين الكاثوليكين.

٣ ـــ الزلازل :

على الرغم من أن بلاد الأندلس ليست من المناطق الشهيرة بكثرة وقوع الزلازل بها ، كما أنهـا لا تقع فيما يطلق عليه حزام الزلازل ،

---

(١٢١) نفس المصدر السابق ص ٥ .

الا أنها تعرضت لعدد منها • ولا شك أن هذه الزلازل كانت تحدث أضرارا جسيمة للأندلسيين تختلف شدتها حسب قوة الزلزال أو ضعفه. ويذكر المؤرخون أن الأندلس تعرضت لزلزال شديد فى عام ٢٦٧هـ/٨٨٠م بعد العهد بمثله ، وكانت مدينة قرطبة من أكثر المدن تضررا من هـذا الزلزال الذى وقع يوم الخميس ٢٢ شوال حيث تهدمت القصور والمنازل وتساقطت سقوفها وحوائطها ، كما تساقطت الصخور من الجبـال على بعض اجزاء المدينة ، وأحدث ذلك هلعا شديدا لدى القرطبيين ، فتركوا مدينتهم وفروا الى الصحراء حتى انقضت هذه الهزة الأرضية • ويبدو أن الزلزال قد أصاب مناطق أخرى فى المغرب الاسلامى ، فقـد ذكر المؤرخون أنه عم بلاد الأندلس وبلاد العدوة المغربية من تلمسان الى طنجة سهلها وجبالها • وبرغم ذلك فقد ذكر ابن أبى زرع أن أحدا من الناس لم يصب بسوء وذلك لطفا من الله بخلقه(١٢٢) •

وفى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م تعرضت قرطبة مرة أخرى لزلزلة عظيمة يوم الأثنين لتسع خلون من ذى القعدة (٣ يوليو ٩٤٤م) عقب صلاة العشاء ، ويشير ابن عذارى الى أن هذه الهزة الأرضية دامت مدة ساعة كاملة ، ولا شك أن هذه مبالغة واضحة من ابن عذارى ، لأن الزلزال عادة لا يستغرق وقوعه اكثر من ثوان معدودة ، وربما حدثت الزلزلة فى ثوان ثم تكررت بعد ذلك عدة مرات لمدة ساعة • على أية حال أصاب

---

(١٢٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٤ ـــ ١٠٥ • ابن ابى زرع : المصدر السـابق ص ٦٠ •

القرطبيون حالة من الفزع ، فغادروا ديارهم الى المساجد يتضرعون الى الله لينقذهم منها واستمروا بالمساجد حتى انقضى هذا الزلزال[١٢٣].
ولكن لم يمض عامان على الزلزال السالف الا وتعرضت مرة أخرى في عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م لهزتين أرضيتين في أسبوع واحد : الأولى في السابع من جمادى الأولى والثانية في الحادى عشر من نفس الشهر ، ويبدو أن هاتين الهزتين كانتا من النوع الخفيف بحيث لم تحدثا أية أضرار تذكر[١٢٤] .

ويشير ابن أبى زرع الى وقوع زلزلة عظيمة بالأندلس في عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م هدت الجبال واضطربت الأرض ، ولكنه — أى ابن أبى زرع — لم يوضح النتائج التى ترتبت عليها[١٢٥] . كما يذكر العذرى أن زلزالا كبيرا قد وقع بكورة تدمير وأصاب مدينتى أوريوله[١٢٦] Orihuela ومرسية Murcia وذلك بعد عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ؛ واستمر هذا الزلزال يضرب أنحاء هاتين المدينتين عدة مرات كل يوم نحو عام متقريبا فتهدمت له الدور « ووقعت الصوامع وكل بنيان عال ، وانهدم جامع أوريوله مع صومعته ، وانشقت الأرض من كل ناحية من

---

(١٢٣) نفس المصدر السابق جـ٢ ص ٢١١ .
(١٢٤) نفس المصدر السابق ص ٢٣٠ .
(١٢٥) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ٧١ .
(١٢٦) أوريوله : احدى حصون كورة تدمير بشرق الاندلس ، وهى فى نفس الوقت قاعدة هذه الكورة ، وتقع على بعد ٢٣ كيلو متر الى الشمال الشرقى من مرسية . الحميرى : الروض المعطار ص ٦٧ .

الحومة ، وغارت أعين كثيرة وحدث فى بعضها ماله رائحة منتنة»[١٢٧] .
ولم يوضح العذرى الاجراءات التى أتخذها أبو بكر بن طاهر حاكم المدينتين لمعالجة الآثار المدمرة لهذا الزلزال .

وفى بداية شهر ربيع الأول عام ٤٧٢هـ/بداية سبتمبر ١٠٧٩م ، وقع زلزال عنيف بمدينة اشبيلية نتج عنه تهدم أعلى منار مسجد عمر بن عدبس ، فقام المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية باعادة بناء ما تهدم من المنار خلال شهر واحد . وقد ورد ذكر لهذا الزلزال وكذلك تاريخ اعادة بناء المنار مسجلين على لوحة اكتشفت فى الجـــدار القبلى بقاعـــدة المئذنة[١٢٨] .

وفى عصر الموحدين تعرضت بلاد الأندلس فى شهر جمادى الأولى ٥٦٥هـ/يناير ١١٧٠م لزلزال شديد ، أحدث بها دمارا شديدا ، وكانت مدينة أندوجر Andujar القريبة من قرطبة من اكثر المناطق التى تأثرت بهذا الزلزال ، حتى كادت الأرض أن تغوص بها ، أما فى قرطبة فتهدمت ديار كثيرة وصوامع ومساجد ، وكذلك حدث نفس الشىء فى غرناطة واشبيلية ، ويصف ابن صاحب الصلاة شدة هذه الزلازل بقوله

---

(١٢٧) العذرى : ترصيع الاخبار ص ٨ ، ولعل هذه الروائح المنتنة قد نتجت عن تصاعد بعض الأبخرة والغازات ذات الروائح النفاذة من باطن الأرض نتيجة لهذا الزلزال .

(١٢٨) عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الاندلس . الاسكندرية ١٩٨٥ ص ١٦٧ ،

Levi-Provencal: Inscriptions Arabes D'Espagne, Leyde-Paris, D'Espagne, Leyde-Paris, 1931, Tom. 1, P. 38;

« ... فكان الرائى يرى حيطان الديار تضطرب وتميـل حتى الى الأرض ، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى»[129] . وواضح أن فى هذا القول بعض المبالغة .

٤ — الرياح والعواصف والصواعق والثلوج :

كثيرا ما كانت تنتاب بلاد الأندلس تغيرات فجائية فى المناخ كهبوب الرياح الشديدة التى تصل الى حد العاصفة أحيانا ، أو تساقط الجليد الذى يؤثر على المحاصيل الزراعية ، أو الصواعق التى تصيب الزرع والناس . وعلى الرغم من أن أهل قرطبة رصدوا حركة الرياح والأنواء، وكانوا على علـم بها ، فقـد وضـع عريب بن سعد كتـابا أسماه « كتاب الأنواء » تحدث فيه عن مواعيد هذه الأنواء ، واتخذ التقويم الميلادى أساسا لهـذه المواعيد[130] ، نقول برغم ذلك ، سببت هذه الظواهر الطبيعية العديد من الدمار والخراب فى بلاد الأندلس .

ويذكر ابن عذارى — نقلا عن الرازى — أنه فى عام ٢٦٧هـ/٨٨٠م صاحب الزلزال الذى وقع فى نفس العام ظهور سحب داكنة سوداء ورعد وبرق وصاعقة أصابت أحد مساجد قرطبة ، بالاضافة الى اصابة ستة أشخاص مات منهم اثنان بعـد أن أحترق شعرّ أحدهما واسود

---

(١٢٩) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة : ص ٣٩٧ — ابن عذارى ، البيان المغرب (قسم الموحدين) ص ١١٠ .

(١٣٠) نشر المستشرق الهولندى دوزى هذا الكتاب تحت عنوان «تقويم قرطبة » لعام ٩٦١/٣٥٠هـ

Le calendrier de Cordoue de L'année 961, Ley de, 1873

وجهه وشقه الأيسر ، أما الآخر فظهر سواد بشقه الأيمن ، أما الأربعة الآخرون فأصيبوا باصابات مختلفة • كما وجد المصلون رائحة النار فى أرضية المسجد ، بيد أن هذه الصاعقة لم تحدث ضررا فى سقف المسجد وحائطه(١٣١) •

أما فى عام ٣٠٣هـ/٩١٥م فقد اجتاحت العواصف الثلجية مدينة تطيلة Tudela فأتلفت المحاصيل الزراعيـة ، ونتج عن ذلك غلاء شديد وارتفاع فى الاسعار حتى بيع القمح باثنى عشر دينار درهم فضة ، كما مات كثير من الناس جوعا ، بينما هاجـر عـدد كبير من الاندلسيين الى بـلاد المغرب(١٣٢) • وللأسـف لم توضح المصادر الاجراءات التى اتخذت من قبل الحكام للتخفيف من أثر هذه الكارثة •

كذلك هبت ريح عاصفة على مدينة قرطبة فى اليوم التالى لوقوع زلزال عام ٣٣٢هـ وتسببت هذه الريح فى اقتلاع العـديد من أشجار الزيتون والتين والنخيل ، كما أطاحت بعدد كبير من قراميد السقوف ، وتلى ذلك هطول أمطار غزيرة ، ثم بـرد غليظ ألحق أضرارا فادحة بالمواشى والطيور والزرع • وفى العام التالى أصـابت قرطبة رياح شديدة اقتلعت العديد من الاشجار ، بالاضافة الى نزول برد غليظ أتلف المحاصيل الزراعية(١٣٣) • وفى عام ٣٤٠هـ/٩٥١م هبت رياح عاتية على

---

(١٣١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ •

(١٣٢) ابن حيان : المقتبس (نشر شالميتا) ص ١٢٤ •

(١٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢١١ •

قرطبة أتبعها برق ورعد ، كما نزلت صاعقة على أحد سكان قرطبة يدعى أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ، كما قتلت أمرأة وأصابت أخرى[١٣٤] .
كما تعرضت قرطبة فى بداية جمادى الآخر عام ٣٦٢هـ/٩ مارس ٩٧٣م ولمدة عشرة أيام لريح شديدة وأنواء غليظة وبروق خاطفة ، كما نزل بقرطبة وبعض مدن الأندلس فى السابع من رجب من نفس العام (١٤ أبريل) جليد أسود أستمر نزوله ثلاث ليال ، ولهذا الجليد أثر سيء على الزراعة حيث أحرق كثيرا من اشجار الكروم والزيتون والتين[١٣٥] . وفى رجب من العام التالى (٣٦٣هـ/أبريل ٩٧٤م) هبت رياح عاصفة على قرطبة تسببت فى اقتلاع كثير من اشجار الزيتون وملخت أعضاءه ، كما اقتلعت العديد من الأشجار[١٣٦] . ولا شك أن هذه الرياح والعواصف والأنواء التى تعرضت لها الأندلس أصابت الأراضى الزراعية بالتلف ، وبالتالى قل انتاج الغذاء وأدى ذلك بدوره الى ارتفاع الاسعار مما عرض الأندلس لأزمات اقتصادية طاحنة .
ولم يقتصر تأثير العواصف والبرق والرعد على الأراضى الزراعية وانتاج الغذاء فحسب ، بل تعداه الى التأثير على حركة الجيوش فى الحرب ، فقد ذكر ابن عذارى أن المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، حينما خرج فى غزوته الثانية عام ٣٩٥هـ/١٠٠٤م لجهاد النصارى الأسبان ، وصل الى بلدة سمورة عاصمة جليقية ، ثم أراد مواصلة

---

(١٣٤) نفس المصدر السابق ص ٢١٨ .
(١٣٥) ابن حيان : المقتبس (نشر حجى) ص ١٠٠ — ١٠١ .
(١٣٦) نفس المصدر السابق ص ١٥٤ .

الغزو والاتجاه شمالا لمطاردة أعدائه ، ولكن سوء الاحوال الجوية حال دون ذلك ، فقد غيمت السماء ثم هبت رياح شديدة ، وأعقب ذلك برق ورعد وصواعق ، وأصابت هذه الصواعق ميسرة جيش المظفر عبد الملك فأحرقت بعض الدواب ورجلا من جملة الحشود كان متـواجدا فى ذلك المكان . وقد احدثت هذه الصاعقة نوعا من الفزع والهلع فى جيش المظفر ، ولم يتمكن من مواصلة السير الا بعـد أن هـدأت العاصفة وتحسنت الأحوال الجوية وزال الروع من قلوب جنوده[١٣٧] . وحدث ما يشبه ذلك فى غزوة المظفر الرابعة ضد نصارى الشمال ، حيث هطلت الأمطار بشدة ، وظهر البرق ودوى الرعد بصورة عنيفة مما أدى الى حدوث حالة من الفزع الشديد انتشرت فى عسكرء الذين أخذوا يتضرعون الى الله كى يرفع عنهم ما نزل بهم من البلاء ، ولم يواصل المظفر زحفه الا بعد عودة السماء لصفائها[١٣٨] . كما تكرر نفس الموقف مع الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف أثناء غزوته لمدينة وبذة Huete فى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م ، حيث هبت رياح شديدة على المعسكر الموحدى أدت الى تمزق العديد من الأخبية والخيام ، فقام الجند بعمل ساتر كبير يحمى قبة الخليفة من هذه الرياح ، كما صنعوا لأنفسهم مثل ذلك ، وبعد يومين عاودت الرياح هبوبها ولكن بصورة أعنف من سابقتها ، فمزقت الخيام الباقية ، ثم هطلت أمطـار غزيرة ورعد قاصف وبرق خاطف . واستمرت نفس الأحوال سائدة حتى اليوم التالي وهو اليوم

---

(١٣٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ١٢ .

(١٣٨) نفس المصدر السابق : جـ ٣ ص ١٢ — ١٣ .

الذى قرر فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف مهاجمة حصن وبذة «... ففزع الناس وتعجبوا ، ورغبوا فى التوبة من الله تعالى وانقلبوا ، ولم يبق ثوب على أحد الا رجع الماء ... وعجزوا عن القتال على كثرة العـدد والعدة »(١٣٩) . وازاء هذا الطقس السيىء اضطر الخليفة أبو يعقوب الى الانسحاب ورفـع الحصـار عن وبـذة ، وبالتالى فشلت هـذه الحملة(١٤٠) .

وفى أواخر عصر دولة بنى نصر بغرناطة ، كانت الثلوج عاملا من عوامل سقوط غرناطة فى يد الملكين الكاثوليك فرناندو وايزابيلا ، فتروى المصادر أن الملك فرناندو حاصر غرناطة حصارا شديدا ، كما أنشـد مروجهاوبنى أمامها مدينة أطلق عليها اسم الأيمان المقدس Santa Fé لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ضد غرناطة ،ولكن على الرغم من ذلك، كان الطريق بين غرناطة والبشرات Alpujarras متصلة بالمرافق والطعام يأتى للمحاصرين بغرناطة من ناحية جبل شلير Sierra Nevada

---

(١٣٩) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٩٩ — ٥٠٠ .

(١٤٠) ابن عذارى : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص ١٢٣ . وقد ذكرت المصادر المسيحية ان هذه العاصفة الشديدة والمطر الغزير حدثا يوم ١٩ يوليو الذى يوم عيد القديسة خوستا ، ولذلك اتخذ اهل وبذة القديسة خوستا حامية لمدينتهم لاعتقادهم أنها السبب وراء هطول الأمطار وهبوب العواصف التى حالت دون سقوط المدينة فى أيدى الموحدين . راجع :

Huici Miranda: Historia Politica del Imperio Almohade, Tetuan 1956, Tom. 1, P. 259;

الى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب علبرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ففر الناس الى البشرات من الجوع ، وازدادت الأحوال سوء داخل غرناطة لعدم وصول الامدادات نتيجة للثلوج التى اعاقت القوافل من الوصول لغرناطة . وكان لذلك أثر مباشر على تفكير الغرناطيين فى تسليم مدينتهم للملك فرناندو [١٤١] .

٥ — الجراد :

يعتبر الجراد من أخطر الكوارث الطبيعية التى تصيب البلاد نظرا لأنه يأتى على الأخضر واليابس ، وكثيرا ما يسبب أضرارا فادحة للثروة الزراعية سواء فى الأندلس أو غيرها . ولذلك أولى الأندلسيون عملية مكافحة الجراد فى بلادهم عناية كبرى . ويذكر عريب بن سعد أنه فى شهر مارس « يظهر دبيب الجراد فيؤمر بعقره » [١٤٢] . كما عمل الأندلسيون على تركيب شباك ضيقة المسام تستخدم كمصدات لمجموعات الجراد ، ايضا استعمل الأندلسيون طريقة اشعال بعض الأشجار لدفع خطر الجراد ، لأن الدخان المتصاعد من هذه الحرائق يساعد على طرد الجراد ، كما استخدم أهل الاندلس زبل الحمام كسماد لأراضيهم

---

(١٤١) مؤلف مجهول نبذة العصر فى اخبار ملوك بنى نصر .ص٣٦—٣٧ السلاوى : الاستقصا ج ٤ ص ١٠٣ — ١٠٤ — كذلك انظر : مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس : ص ٤٦٧ — ٤٦٨ — محمد عبدالله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . ص ١٨٢ .

(١٤٢) عريب بن سعد : كتاب الانواء أو تقويم قرطبة ص ٤١ .

لاعتقادهم أنه يقتل الجراد الذى يهاجم محاصيلهم(١٤٣) . وكانت هناك مناطق فى الأندلس أشتهر عنها مهاجمة الجراد لها مثل فحص الفندون بناحية لورقه ، حيث اشار العذرى الى أن الجراد « كثيرا ما يطرق هذا الفحص ويؤثر فيه(١٤٤) .

أما عن هجوم الجراد على الأندلس فيذكر ابن حيان انه فى عام ٢٠٧هـ انتابت بلاد الأندلس مجاعة شديدة زاد من شدتها انتشار الجراد « ولحسه الغلات وتردده بالجهات »(١٤٥) . كذلك كان هجوم الجراد على الأراضى الزراعية بالاندلس فى عام ٢٣٢هـ من عوامل ازدياد شدة القحط الذى حل بالأندلس هذا العام(١٤٦) .

وفى أثناء المجاعة التى انتابت الأندلس عام ٣٨١هـ « أتى جراد كثير فوق النهاية عم جميع بلاد الأندلس فسمح بهـــا ، وكان جله وأكثره بقرطبة حتى كثر به الأذى وعظم به البلاء»(١٤٧) . ولمواجهة هذا الخطر،

---

(١٤٣) Imamuddin: Some aspects, P. 74.

(١٤٤) العذرى : ترصيع الاخبار ص ٢ . ويروى العذرى — فى نفس الصفحة — رواية خيالية عن سبب مهاجمة الجراد لهذه المنطقة فيقول أنه كان بها طلسما من ذهب على هيئة جرادة كان الاهالى يعتقدون انه يحمى مدينتهم من خطر الجراد ، فلما سرق هـــذا الطلسم بدأ الجراد يهاجم هذه المنطقة بصفة مستمرة . وهذه الرواية أن دلت على شىء فانما تدل على تعرض هذه المنطقة لخطر الجراد من قديم حتى صارت اسطورة شعبية .

(١٤٥) ابن حيان : المقتبس (نشر مكى) ص ٩٣ .

(١٤٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ .

(١٤٧) ابن ابى زرع : الانيس المغرب ص ٧٣ .

رصد المنصور بن أبى عامر مبلغا من المال يصرف منه على أعمال مقاومة الجراد ، كما أمر الناس بقرطبة بجمعه وعقره « وجعل جمعه وظيفة كل واحد بقدر طاقته ، وأفرد له سوقا لبيعه بجانب السوق »[148] . وبرغم كل هذه الاجراءات الا أن الجراد ظل يهاجم قرطبة طيلة ثلاثة أعوام متتالية (٣٨١ — ٣٨٣هـ) ، ثم انقطع بعد ذلك بعد أن أجهد القرطبيين كثيرا فى مقاومته .

وفى العصر المرابطى اشتدت وطأة الجراد على بلاد الأندلس ، ويزودنا المؤرخ ابن القطان بأخبار وافيـــه عما أحدثه الجراد فى بلاد الأندلس ، ففى عهد أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين هاجم الجراد بلاد الأندلس لمدة ستة أعوام متصلة (من ٥٢٦هـ حتى ٥٣١هـ/ ١١٣٢ — ١١٣٦م) حتى محت ما على الأرض مـــن زرع وكلا[149] . ولا شك أن هـــذه الأضرار الجسيمة التى سببها هجوم الجراد أثرت تأثيرا سيئا على الأحوال الاقتصادية فى بلاد الأندلس حيث ندر وجود الغذاء ، ولذلك عنى المرابطون عناية كبيرة بمكافحة الجـــراد ، بحيث أصبح هذا الأمر الشغل الشـــاغل لأمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ، ويتضح ذلك من تلك الرسالة التى بعث بها على بن يوسف بن تاشفين الى أهل الأندلس يحثهم فيها على بذل الجهد لمقاومة الجراد

---

(١٤٨) نفس المصدر السابق والصفحة . ومن المعروف ان هناك بلاد كثيرة يتناول سكانها الجراد .

(١٤٩) ابن القطان : نظم الجمان : صفحات ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ .

ويقول فيها « ... فأخرجوا اليه الجم الغفير ولا يتخلف الكبير منهم ولا الصغير ، ولا يأو أحد منكم فراشه حتى تحرقوا فراشه وتبيدوا آثاره[١٥٠] . وقد نفذ والى قرطبة تاشفين بن على التعليمات التى بعث بها والده على بن يوسف بن تاشفين ، فأمر أهل قرطبة بالخروج من ديارهم لمكافحة الجراد « فساقوا منها خمسة آلاف عدل[١٥١] وثلاثمائة وثلاثين عدلا ، وغاب عن العيون أكثر ، تركت فى الموضع الذى قتلت فيه ولم تحمل »[١٥٢] .

وبرغم ذلك ، ظل الجراد من الآفات الخطيرة التى تعرضت لها المناطق المزروعة ببلاد الأندلس ، حيث هاجم الأندلس فى عام ٥٣٠،٥٣٢هـ وأحدث أضرارا كبيرة بالزراعة[١٥٣] .

أما فى عصر الموحدين ، فلم يزودنا المؤرخون بأية أخبــار عن الجراد ، مما يبعث على الظن بأن الموحدين بذلوا جهودا فائقة فى مجال مكافحته ، ويبدو أن هذه الجهود نجحت فى الحد كثيرا من خطره[١٥٤] .

---

(١٥٠) محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين . صحيفة معهد الدراسات الاســلامية . مدريد . العــدد ٧ — ٨ ، ١٩٥٩ ص ١٨٨ .

(١٥١) يقصد بكلمة «عدل» الواردة فى النص ملء جوال ، وسمى كذلك لانه يحمل على جنب البعير ويعدل باخر . انظر مادة «عدل» فى لسان العرب لابن منظور . طبعة دار المعارف .

(١٥٢) ابن القطان : نظم الجمان : ص ٢٢٧ .

(١٥٣) المصدر السابق : ص٢٢٦ — ٢٢٨ .

(١٥٤) كمال ابو مصطفى : مصادر الثروة الاقتصادية : ص٩٦ .

خاتمـــة

استعرضنا فى الصفحات القليلة السابقة النوازل الطبيعية التى حلت ببلاد الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية عصر الموحدين ، ورأينـا كيف أن هـذه الكوارث كثيرا مـا ألحقت الضرر والأذى بالأندلسيين ، كما لاحظنا أن العديد من حكام الأندلس حاولوا التخفيف من وطأة هذه الكوارث على أهل الأندلس ، وبذلوا قصارى جهدهم فى سبيل دفع البلاء عن الرعية . فكانوا يأمرون باقامة صلاة الاستسقاء مرات عديدة حتى يجود الله بغيثه ، وقاموا كذلك باسقاط الضرائب عن رعيتهم فى سنوات المحل والمجاعة ، كما وزعوا الحبوب والمواد الغذائية على فقراء الناس ، وأشرنا فى هذا الصدد الى ما قام به الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضى عند ما تعرضت بلاد الأندلس لمجاعة فى عام ١٩٩هـ ، كذلك ما فعله الأمير عبد الرحمن الأوسط خلال مجاعة ٢٠٧هـ ، ثم ما قام به الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر أثناء مجاعة ٣٠٣هـ . كما ألمحنا الى قيام الخليفة الأموى المستنصر بانفـاق الأموال على الضعفاء والمساكين خلال القحط الذى أصاب الأندلس عام ٣٥٣هـ ، كما قام المنصور بن أبى عامر بتوزيع الصـدقات والأموال والطعام على المحتاجين أثنـاء المحل الذى عم الأندلس عام ٣٧٨هـ . ثم ما قام به الخليفة الموحدى المنتصر عندما تعرضت الأندلس لجفاف شديد حيث أمر بتوزيع الطعام على الفقراء والمساكين دون مقابل .

كما لجأ أمراء وخلفاء الأندلس الى وسيلة أخرى لدفع خطر هذه

النوازل الطبيعية فقد حرص بعض الحكام على تخزين الحبوب والمواد الغذائية لفترات طويلة تحسبا لأيام المجاعة والقحط ، وعلى سبيل المثال نوهنا بما قام به الخليفة الأموى الناصر فى هذا الشأن حيث أخذ فى تخزين الحبوب والمواد الغذائية فى الأهراء السلطانية ، ولما تعرضت الأندلس لمحل شديد فى عام ٣٢٤هـ ، لم ترتفع أسعار السلع أو المواد الغذائية ، لأن الناصر غمر الاسواق بالغذاء فثبت سعره • كذلك سلك الحاجب المنصور بن أبى عامر نفس المسلك عقب المجاعة التى تعرضت لها الأندلس فى عام ٣٨١هـ ، حيث أخرج الأموال الكثيرة لشراء الحبوب وحفظها فى الأهراء ، كما فعل أبو يعقوب يوسف الموحدى نفس الشىء عام ٥٦٣هـ ، حيث يشير ابن صاحب الصلاة الى أن أبا يعقوب يوسف أمر بتخزين كميات كبيرة من الحبوب والميرة بقصبة غرناطة ، فكانت السفن ترحل من السواحل المغربية وتفرغ حمولتها من الغذاء والحبوب بثغر المنكب Almunecarr ، ومن هناك تحمل الى غرناطة[1] •

ولم تقتصر عملية تخزين الحبوب على الحكام ، بل أن الأندلسيين قاموا أيضا بتخزين الطعام اتقاء لخطر المجاعة والقحط ، ولذلك أصبح المخزن أو المطمورة جزءا أساسيا فى المزرعة أو بيت المزارع ، وكان الأندلسيون ينحتون المطامير فى الصخور لتخزين الحبوب فيها[2] •

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٠١ — ٢٠٢ •

(٢) الزهرى : كتاب الجغرافية ص ٨٢ — ٨٣ — المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٦ — انظر كذلك • عز الدين موسى : النشـــاط الاقتصادى • ص ١٩٢ •

ولكن بعض حكام الأندلس لم يعمل على التخفيف من وطأة هذه النوازل الطبيعية على رعيتهم ، وسبق أن أشرنا الى ما فعله الأمير الأموى محمد بن عبد الله حينما رفض اسقاط ضريبة العشور عن أهل الأندلس خلال مجاعة سنة ستين ، ولعل هذا التصرف من قبل الأمير محمد كان من أهم عوامل سخط الأندلسيين عليه وكراهيتهم له ، لذا تميز عصره بكثرة الثورات والفتن . أيضا أشرنا الى الموقف السلبى الذى اتخذه والى قرطبة المرابطى خلال مجاعة ٥٢٦هـ ، ورجحنا أن يكون موقفه هذا من ضمن الاسباب التى أدت الى عزله من منصبه .

ومن ناحية أخرى بذل الأندلسيون قصارى جهدهم لتلافى الآثار الضارة لهذه النوازل فقد ابتكروا طرقا مختلفة لحفظ المياه واستخدامها فى مواسم الجفاف الطويلة ، مثل حفظها فى صهاريج ، ويشير عريب بن سعد الى أن أهل الأندلس كانوا يحرصون على ادخال مياه الأمطار الغزيرة فى أجباب (جمع جب) ابتداء من شهر ديسمبر كل عام[٣] . كما عمد الأندلسيون الى زراعة بعض المحاصيل فى غير أوقاتها وتغطيتها حتى لا يضر بها الجليد مثل الخضروات والياسمين والموز[٤] .

واذا حاولنا أن نجمل الآثار التى ترتبت على هذه الكوارث الطبيعية ، فسبق أن اشرنا الى العديد منها فى ثنايا هذا البحث ، ولكن

---

(٣) عريب بن سعد : كتاب الانواء ص ١٨٥ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٧٣ — عز الدين موسى : النشاط الاقتصادى ص ١٩١ .

يمكن القول أن الجانب الاقتصادى كان من أكثر الجوانب تأثرا بهذه الكوارث • فاسعار السلع والمواد الغذائية والمنتجات الزراعية أرتفعت ارتفاعا شديدا نظرا لقلة المعروض فى أوقات هذه النوازل (نظرية العرض والطلب) ، وبالتالى كانت العملة الأندلسية تفقد الكثير من قيمتها خلال تلك الأزمات • أيضا اضطر الأندلسيون الى استيراد الحبوب والغذاء من خارج شبه الجزيرة الايبيرية وخاصة من بلاد العدوة المغربية ، كل ذلك حدث على الرغم من ثروات الأندلس الهائلة •

هناك أيضا هجرة الأندلسيين الى خارج الأندلس اثناء هذه الأزمات الطاحنة ، هذه الهجرة كان لها انعكاسات سيئة على الناحيتين الأقتصادية والاجتماعية فى الأندلس[٥] • لأن الاندلسيين كانوا من أهل الحرف والصناعات الذين افتقدتهم الاندلس ، أو من المزارعين الذين تركوا أرضهم فأصابها البوار ، فتقلصت المساحات المزروعة وبالتالى قل الانتاج الزراعى[٦] • كما تسببت الأوبئة الفتاكة والطواعين التى اجتاحت الأندلس — مع عامل الهجرة الى خارج الأندلس ، الى قلة عدد سكان الأندلس بالقياس لمساحتها الكبيرة •

---

(٥) لا شك ان هجرة الاندلسيين الجماعية خارج وطنهم لها العديد من الاسباب لعل من اهمها ذلك الضغط المستمر الذى تعرض له الاندلسيون من قبل نصارى شبه الجزيرة الايبيرية فيما عرف باسم حركة الاسترداد La Reconquista

(٦) على الرغم من الاثار السلبية لهجرة الاندلسيين على المجتمع الاندلسى ، الا ان هذه الهجرة كان لها آثار ايجابية بالنسبة للمناطق التى نزل بها هؤلاء الاندلسيون ، لانهم نشروا تقاليدهم الحضارية اينما حلوا ، مما ساعد على تطور الفنون والعلوم والصناعات فى مناطق استقرارهم الجديدة .

ضميمة

كتاب أرسله الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر الى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء . (ابن حيان : المقتبس ـ نشر شالميتا . ص ٢٥١ ــ ٢٥٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فان الله عز وجل ، اذ بسط رزقه ، وأغدق نعمه ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، واذا زواها وقبضها ، أحب أن يسألها ويضرع اليه فيهـا ، و (هو الرزاق ذو القوة المتين)(١) و (التواب الرحيم)(٢) ، (الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون)(٣) ، (وهو الذى ينزل الغيث من بعـد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد)(٤) ، فأوجبت به الرغبة اليه ، عز وجهه ، فيه والخضوع لعزته والاستكانة له والالحاح فى المسألة فيما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التى توجب سخطه ، وتبذل نقمـه ، وتستر وجه رضاه ، تعالى جده .

وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء فى المسجد الجامع يوم

---

(١) سورة الذاريات : آية ٥٨ .
(٢) سورة التوبة : آية ١٠٤ .
(٣) سورة الشورى : آية ٢٥ .
(٤) سورة الشورى : آية ٢٨ .

الجمعة والجمعة الثانية التى تليها ، ان أبطأت السقيا ، والبروز يوم الأثنين بعدهما ، بجاعة المسلمين عندنا الى مصلاهم ، أو يأتى الله قبل ذلك بغيثه المعى عنه ، ورجمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فمر الخطيب بموضعك أن يحتمل على مثـــل ذلك ويأخـــذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم ذلك المحمل ، ولتكن ضراعتهم الى الله تعالى ضراعة من قد اعترف بذنبـــه ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيـــم ، وهو المستعان ، لا شريك له ، ان شاء الله » .

ملحق (١)

بيـــان بالقحط والمجاعات التى تعرضت لها بلاد الاندلس

م	اسم القحط أو المجاعة	العام
١	سنى برباط	من ١٣١هـ/٧٤٨م الى ١٣٦هـ/٧٥٣م
٢	قحط فى عهد الامير عبد الرحمن بن الحكم	٢٠٧هـ/ ٨٢٢م
٣	مجاعة ستين	٢٦٠هـ/ ٨٧٤م
٤	قحط فى عهد الامير المنذر بن محمد	٢٧٤هـ/ ٨٨٧م
٥	« سنة لم أظن »	٢٨٥هـ/ ٨٩٨م
٦	سنة « جوع جيان »	٢٩٧هـ/ ٩٠٩م
٧	محل فى عهد الخليفة الناصر	٣٠٢هـ/ ٩١٤م
٨	محل ثان فى عهد الخليفة الناصر	٣١٤هـ / ٩٢٦م
٩	محل ثالث فى عهد الخليفة الناصر	٣١٧هـ/٩٢٩م
١٠	محل رابع فى عهد الخليفة الناصر	٣٣٣هـ / ٩٤٤م
١١	مجاعة عهد الحكم المستنصر	٣٥٣هـ / ٩٦٤م
١٢	محل فى عهد الخليفة هشام بن الحكم	٣٧٨هـ / ٩٨٨م
١٣	مجاعة قرطبة	٥٢٦هـ/١١٣١م
١٤	مجاعة فى عهد الموحدين	٥٦٥هـ/١١٦٩م
١٥	محل « عام وقيل »	٦١٤هـ/١٢١٧م

ملحق (٢)

بيـان بالسيول والفيضانات التى تعرضت لها بلاد الأندلس

م	اسم السيل أو الفيضان	العام
١	سيل فى عهد الامير عبد الرحمن الداخل	١٦١هـ / ٧٧٧م
٢	سيل ثان فى قرطبة	١٨٢هـ / ٧٩٨م
٣	سيل فى اشبيلية وفيضان نهر تاجه	٢٣٥هـ/٨٤٩م
٤	سيل وفيضان بنهر قرطبة	٢٨٨هـ/٩٠١م
٥	سيل عنيف فى قرطبة	٢٩٦هـ/٩٠٨م
٦	سيل لنهر قرطبة	٣٣١هـ / ٩٤٢م
٧	مد نهر قرطبة	٣٥٣هـ / ٩٦٢م
٨	سيول فى قرطبة	٣٦٣هـ / ٩٧٤م
٩	سيول فى قرطبة وفيضان نهر الوادى الكبير	٣٦٤هـ / ٩٧٥م
١٠	سيول فى قرطبة	٣٨٢هـ / ٩٩٢م
١١	سيول فى قرطبة ومد النهر	٣٣٩هـ/١٠٠٨م
١٢	فيضان لنهر قرطبة	٤٠١هـ/١٠١٠م
١٣	سيل فى قرطبة فى عهد دولة بنى جهور	٤٣٩هـ/١٠٤٧م
١٤	سيل فى مدينة بلنسية	٤٨١هـ/١٠٨٨م
١٥	سيل فى مدينة اشبيلية	٥٦٤هـ/١١٦٨م
١٦	سيل فى اشبيلية وطريانة	٥٧٤هـ/١١٧٨م
١٧	سيل فى قرطبة ومدن الوادى الكبير	٥٩٧هـ/١٢٠٠م
١٨	سيول فى شرق الأندلس فى عصر بنى نصر	

ملحق (٣)

بيــان بالزلازل التى تعرضت لها بلاد الأندلس

م	اسم الزلزال	العام
١	— زلزال شديد لكل بلاد الاندلس	٢٦٧هـ/ ٨٨٠م
٢	— زلزال فى قرطبة	٣٣٢هـ / ٩٤٣م
٣	— هزتان ارضيتان فى قرطبة	٣٣٤هـ / ٩٤٥م
٤	— زلزال عظيم بالاندلس	٤١٥هـ/١٠٢٤م
٥	— زلزال فى مدينتى أوريوله ومرسية	٤٤٠هـ/١٠٤٨م
٦	— زلزال فى اشبيلية	٤٧٢هـ/١٠٧٩م
٧	— زلزال بقرطبة ومدنها	٥٦٥هـ/١١٧٠م

ملحق (٤)

بيان بالرياح والاعاصير التى تعرضت لها بلاد الاندلس

م	الرياح ومكانها	العام
١	ـــ رياح ورعد وصواعق فى قرطبة	٢٦٧هـ / ٨٨٠م
٢	ـــ عواصف ثلجية فى مدينة تطيلة	٣٠٣هـ / ٩١٥م
٣	ـــ عاصفة على قرطبة	٣٣٢هـ / ٩٤٤م
٤	ـــ رياح شديدة فى قرطبة	٣٣٣هـ / ٩٤٥م
٥	ـــ ريح عاصفة وصاعقة على قرطبة	٣٤٠هـ / ٩٥١م
٦	ـــ رياح شديدة وانواء وجليد أسود	٣٦٢هـ / ٩٧٣م
٧	ـــ رياح عاتية على قرطبة	٣٦٣هـ / ٩٧٤م
٨	ـــ رياح فى سمورة عاصمة جليقية	٣٩٥هـ/١٠٠٤م
٩	ـــ رياح فى الشمال ورعد وبرق	٣٩٦هـ/١٠٠٥م
١٠	ـــ رياح فى مدينة وبذة	٥٦٧هـ/١١٧١م
١١	ـــ ثلوج وبرد فى جبل شلير وطرقات البشارات (غرناطة)	اواخر عصر دولة بنى الأحمر

ملحق (٥)

بيـــان بالجراد الذى اصـــاب بلاد الاندلس

م	الجراد ومكانه	العام
١	انتشار الجراد ومجاعة	٢٠٧هـ/ ٨٢٢م
٢	هجوم الجراد على الارض الزراعية	٢٣٢هـ / ٨٤٦م
٣	جراد بقرطبة	٣٨١هـ / ٩٩١م
٤	هجوم للجراد على كل البلاد	٥٢٦هـ/١١٣٢م
٥	هجوم للجراد على الاراضى الزراعية	٥٣٠هـ/١١٣٥م

ملحق (٦)

بيان بالأوبئة التى حلت ببلاد الأندلس

م	الوباء ومكانه	العام
١	أوبئة يعد سنى برباط	١٣١هـ / ٧٤٨م
٢	وباء بعد القحط العام	١٨٥هـ / ٨٩٨م
٣	وباء عظيم بالبلاد	٣٠٣هـ / ٩١٦م
٤	وباء انتشر الى بلاد العدوة المغربية	٣٣٤هـ / ٩٤٥م
٥	وباء بقرطبة	٤٠٠هـ/١٠٠٩م
٦	طاعون فى عصر المرابطين فى قرطبة	٥٣٦هـ/١١٣١هـ
٧	وباء شديد فى عصر الموحدين	٦١٠هـ/١٢١٣هـ
٨	وباء مفرط فى خلافة الرشيد الموحدى	٦٣٥هـ/١٢٣٧هـ
٩	علة البقر	فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى (دون تحديد العام)
١٠	الوباء الأسود (أو المرض الأسود)	٧٤٩هـ / ١٣٤٨م

مصـــادر ومراجع البحث

(أ) المصـــادر العربيــــة :

١ — ابن الأبار : محمد بن عبدالله بن أبى بكر القضاعى البلنسى (ت ٦٥٨/١٢٦٠)

— الحلة السيراء • تحقيق د• حسين مؤنس • الطبعـــة الثانية • القاهرة ١٩٥٨ •

٢ — ابن الأثير : أبو الحسن على بن محمد الجزرى (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

— الكامل فى التاريخ • طبعة دار صادر • بيروت •

٣ — الأدريسى : أبو عبدالله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥٤م)

— نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق • تحقيق مجموعة من العلماء • نشر مكتبة الثقافة الدينية • القاهرة • بدون تاريخ•

٤ — ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م)

— كتـــاب الصلة • الدار المصرية للتأليف والترجمـــة • القاهرة ١٩٦٦ •

٥ — البكرى : أبو عبيـــد عبدالله بن عبـــد العزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)

— المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب — نشر البارون دى سلان الجزائر ١٩١١ •

— جغرافية الأندلس وأوروبا • تحقيق د• عبد الرحمن حجـــى • بيروت ١٩٦٨ •

٦ ــ ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبى (ت ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)
ــ المقتبس فى أخبـار بلاد الأندلس ٠ قطعة تتنـاول الفترة من ٢٣٢هـ/٨٤٦م حتى ٢٦٧هـ/٨٨٠م ٠ نشر وتحقيـق د٠ محمود على مكى ٠ بيروت ١٩٧٣ ــ قطعة ثانية تتناول فترة الأمير عبدالله بن محمـد (٢٧٥ ــ ٣٠٠هـ/٨٨٨ ــ ٩١٢م) نشر وتحقيـق د٠ اسماعيل العربى ٠ الدار البيضاء ١٩٩٠م ــ قطعة ثالثة تتناول الثلاثين عاما الأولى من حكم الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر٠ نشرها بدور شالميتا وفدريكو كورينطى ومحمود صبح ٠ مدريد ١٩٧٩ ــ قطعة رابعة تتناول قسما من عصر الحكم المستنصر ٠ نشرها د٠ عبد الرحمن حجى ٠ بيروت ١٩٦٥ ٠

٧ ــ الحميرى : عبد المنعم السبتى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى ١٥م)
ــ الروض المعطار فى خبر الأقطار ٠ تحقيق د٠ احسان عبـاس ٠ بيروت ١٩٧٥ ٠

٨ ــ الخشنى : أبـو عبدالله محمـد بن حارث بن أسـد القيروانى (ت ٣٦١هـ/٩٧١م)
ــ قضاة قرطبة ٠ القاهرة ١٩٦٦ ٠

٩ ــ ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبدالله محمد (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)
ــ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من قبل الاسلام ٠ القسم الخاص بالأندلس ٠ نشر ليفى بروفنسـال ٠ بيروت ١٩٥٦ ٠
ــ نفاضة الجـراب فى علالة الاغتراب ٠ تحقيق د٠ أحمد مختار العبادى ، مراجعـة د٠ عبد العزيز الأهوانى ٠ القاهرة ١٩٦٧
ــ الاحاطة فى أخبار غرناطة ٠ تحقيق محمد عبدالله عنان ٠ الجزء

٢ القاهرة .
— مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . مجموعة من رسائله .
جمعها وحققها د. أحمد مختار العبادى . الاسكندرية ١٩٨٣ .

١٠— ابن الزبير : أبو جعفر أحمد (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م)
— صلة الصلة . نشر ليفى بروفنسال — الرباط ١٩٣٨ .

١١ — ابن أبى زرع : أبو العباس أحمد (كان حيا ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)
— الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . نشر كارلوس يوحنا تورنبرج . أوبسالا ١٨٤٣م .

١٢— الزهرى : أبو عبدالله محمد بن أبى بكر (ت أواسط القرن السادس الهجرى أواسط القرن ١٢م)
— كتاب الجغرافية . اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ.

١٣ — ابن سعيد : أبو الحسن على بن مرسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
— المغرب فى حلى المغرب . تحقيق د. شوقى ضيف . القاهرة ١٩٦٤ .

١٤— السلاوى : أبو الحسن أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ — ١٨٩٧م)
— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الدار البيضاء ١٩٥٤ .

١٥ — ابن صاحب الصلاة : أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الباجى (ت ٥٩٤هـ — ١١٩٨م) .
— تاريخ المن بالامامة على المستضعفين . نشر وتحقيق عبد الهادى التازى . بيروت ١٩٦٥ .

١٦ — ابن عبد الملك المراكشي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصـــاري الأوسي (ت ٧٠٣هـ — ١٣٠٣م)

— الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة . السفر الخامس . القسم الثاني . تحقيق احسان عباس . بيروت ١٩٦٥ .

١٧— ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢هـ/١٣١٢م)

— البيان المغرب في أخبـــار الأندلس والمغرب . الأجزاء الثـــلاثة الأولى تحقيق : ليفي بروفنسال ، ج.س. كولان . بيروت ١٩٨٠. الجزء الرابع ، تحقيق احسان عباس . بيروت ١٩٨٠ . القسم الخاص بعصر الموحدين وبداية عصر دولة بني مرين ، تحقيق عبد القادر زمامة ومحمد الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنبير. الدار البيضاء ١٩٨٥ .

١٨ — العـــذري : أحمـــد بن عمـــر بن أنس المعروف بابن الدلائي (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)

— نصوص عن الأندلس من كتاب « ترصيع الأخبار » وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك . منشورات معهد الدراسات الاسلامية — مدريد ١٩٦٥ .

١٩ — عريب بن سعد : (ت ٣٧٠م/٩٨٠م)

— كتاب الأنواء أو تقويم قرطبة لعام ٩٦١م/٣٥٠هـ . نشر . العلامة رينهارت دوزي تحت عنوان :

Le Calendrier de Cordoue de L'année 961. Leyde 1873

٢٠ — ابن غالب : محمد بن أيوب الأندلسى

— فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس . قطعة نشرها الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الأول ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٥ .

٢١ — ابن الفرضى : أبو الوليد بن محمد الأزدى (ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م)

— تاريخ علماء الأندلس . نشر كوديرا وريبيرا . مدريد .

٢٢— ابن القطان : أبو الحسن على بن محمد الكتامى (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)

— نظم الجمان فى أخبار الزمان ، نشر وتحقيق د. محمود على مكى ، الرباط ١٩٦٤ .

٢٣— ابن القوطية : ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن مزاحم الأندلسى (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)

— تاريخ افتتاح الأندلس. حققه ابراهيم الأبيارى. القاهرة ١٩٨٢ .

٢٤ — ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك التوزرى (عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى/١٢م

— تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط . تحقيق د. أحمد مختار العبادى . مدريد ١٩٧١ .

٢٥ — المقرى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م)

— نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق د. احسان عباس. بيروت ١٩٦٨ .

٢٦ ــ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
ــ اغاثة الأمة بكشف الغمة • تحقيق دكتور بدر الدين السباعى •
حمص ١٩٥٦ •

٢٧ ــ مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها •
نشر لافوينتى الكنترا ، مدريد ١٨٦٧م •

٢٨ ــ مؤلف مجهول : من رجال القرن الثامن الهجرى/١٤م
ــ الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية • تحقيق د• سهيل زكار
وعبد القادر زمامة • الدار البيضاء ١٩٧٩م •

٢٩ ــ مؤلف مجهول :
ــ نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر • تحقيق الفريد البستانى •
العرائش ١٩٤٠ •

٣٠ ــ النباهى : أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن المالقى (ت أواخر
القرن الثامن الهجرى/١٤م)
ــ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا • نشر ليفى بروفنسال•
دار الآفاق الجديدة • بيروت ١٩٨٣ •

ثانيا : المراجع العربية الحديثة

١ ــ بروفنسال (ليفى)
ــ الاسلام فى المغرب والأندلس • ترجمة د• السيد عبد العزيز سالم
ومحمد صلاح حلمى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر • القاهرة•

٢ — زيان (دكتور حامد)

— الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك . القاهرة ١٩٧٦ .

٣ — سالم (دكتور السيد عبد العزيز)

— تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس (من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة) . الاسكندرية .

— قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس . نشر مؤسسة شباب الجامعة — الاسكندرية .

— تحقيق أسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون . مجلة أوراق ، العدد الثانى ، مدريد ١٩٧٩ .

— أضواء على مشكلة تاريخ بناء سور اشبيلية فى العصر الاسلامى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٧٤ . المجلد ١٨ .

٤ — الطوخى : (دكتور أحمد محمد)

— مصر والأندلس ، دراسة فى العلاقات السياسية والعلمية والاقتصادية والفنية . مركز الدلتا للطباعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ .

٥ — العبادى (دكتور أحمد مختار)

— فى التاريخ العباسى والفاطمى . بيروت ١٩٧١ .

— دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ١٩٦٨ .

ــ فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة كما يصفها شاهد عيان صحيفة معهد الدراسات الاسلامية • مدريد ، المجلد السابع ، ١٩٥٩ •
ــ فى التاريخ العباسى والأندلسى • بيروت ١٩٧١ •
ــ الصقالبة فى أسبانيا ، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية • صحيفة معهد الدراسات الاسلامية • مدريد ١٩٥٣ •

٦ ــ عنـــان (الاستاذ محمـــد عبـــدالله)
ــ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين • القاهرة ١٩٤٩ •

٧ ــ ماجد (دكتور عبد المنعم)
ــ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر • التاريخ السياسى • دار المعارف • القاهرة ١٩٦٨ •

٨ ــ أبو مصطفى (دكتور كمال)
ــ مصادر الثروة الاقتصادية فى الأندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين• رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية • عام ١٩٨٥ •

٩ ــ مكى (دكتور محمـــود على)
ــ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين • صحيفة معهد الدراسات الاسلامية • مدريد العدد ٧ ــ ٨ ، عام ١٩٥٩ •

١٠ــ موسى (دكتور عز الدين حمد)
ــ النشاط الاقتصادى فى المغرب الاسلامى خلال القـــرن السادس الهجرى • القاهرة ١٩٨٣م •

ثالثا : المراجـــع الأجنبية

1. **Balbas: (Leopoldo Torres)**

   — Ciudades Hispano - Musulmanas, Libro publicado Con La colabraciòn de : Henri Terrasse. Madrid. 2 Tomos.

   — Via Agusta y el arrecife musulmon, Revista Al-Andalus Vol. XXIV. 1959;

   — Musalla y Saria en las Ciudades Hispanomusulmanas, Rev. Al-Andalus, XIII, 1948.

2. **Imamuddin (S.M;):**

   — Some aspects of the Socio-economic and Culture history of muslim in Spain, Leiden, 1965.

3. **Levi Provencal (E) :**

   Inscriptions arabes d'Espagne, Leyde — paris, 1931.

المحتويـــات

أسم الكتاب: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس

الناشر: مركز الإسكندرية للكتاب

رقم الإيداع: ١٤٤٣٠

الترقيم الدولي: ٩٨٨-٣٨٨-٠٨٠-X

تاريخ النشر/٢٠٠٧